

**الرؤية السودانية**  
**الكتاب الثاني**  
**نحو اطار عام للرؤية**  
**الى اين نريد الذهاب وكيف؟**

# الرؤية السودانية

## الكتاب الثاني

### نحو اطار عام للرؤية

### الى اين نريد الذهاب وكيف؟

عمرو محمد عباس محجوب



□ ادار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان

**الكتاب: الرؤية السودانية: الكتاب الثاني**

**نحو اطار عام للرؤية**

**المؤلف: عمرو محمد عباس محجوب**

**رقم الايداع : 2013/ 20161**

**ردمك : 999-42-45-0168**

**سنة الإصدار: 2013**

**الطبعة الأولى**

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للمؤلف ولا  
يسمح بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أي قسم من أقسامه،  
بأي شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابي.

**الناشر: دار عزة للنشر والتوزيع**

**الإدارة: شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة**

**ت : 83787200 فاكس : 8379084 (+249-1)**

**التوزيع: دار عزة للنشر والتوزيع ت : 8378201**

**السودان – الخرطوم ص.ب : 12909**

**بريد إلكتروني : azzaph@yahoo.com**



## مدخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

### سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

الناس سواسية في النظام الديمقراطي والنظام الاستبدادي. في الأول لأن الناس هم كل شيء وفي الثاني لأنهم لا شيء.

مونتسكيو 1755-1689

أبدي اهتماماً بالمستقبل؟ ، لأننا ذاهبون إلي هناك.

ألبرت أينشتاين

لا يستطيع أحد أن يقود أفراداً دون أن يقوم بتوضيح المستقبل الخاص بهم، فالقائد هو بائع الأمل.

نابليون

أجمل من فراشة مجنحة على ضفاف المقرن الجميل  
أجمل من نؤارة مفتحة ترقد تحت ذهب الأصيل  
أجمل من رائحة النضال لم أشم رائحة في صبحك الجليل  
يا فخر هذا الجيل.....يا وطني ..

اكتوبريات محمد الفيتوري غناء  
الأستاذ محمد وردي

## المحتويات

7	مقدمة
11	هذا الكتاب
	<b>الجزء الأول: معالجة القضايا المعلقة</b>
15	الفصل الأول: الرؤية الإستراتيجية
50	الفصل الثاني: قضايا الحداثة والمحدثين
77	الفصل الثالث: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا نظام الحكم
130	الفصل الرابع: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا التغيير الإقتصادي والإجتماعي
	<b>الجزء الثاني: مميزات الرؤية</b>
206	الفصل الأول: نقاط القوة والضعف السودانية
214	الفصل الثاني: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: الزراعة
243	الفصل الثالث: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: المياه
250	الفصل الرابع: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: الحيوان
259	الفصل الخامس: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: المعادن والبترو
267	الفصل السادس: الكفاءات الأساسية: القوى البشرية السودانية والتكنولوجيا
294	الفصل السابع: الكفاءات الأساسية: التنوع البيئي
	<b>الجزء الثالث: رؤى الآخرين</b>
320	الفصل الأول: تجارب صناعة الرؤية
335	الفصل الثاني: كيف صنع الآخرون رؤيتهم
	<b>الجزء الرابع: نحو رؤية</b>
347	الفصل الأول: اين نحن الان؟ دراسة الحالة السودانية
352	الفصل الاخير: نحو رؤية للسودان: الاليات المقترحة والوسائل

## مقدمة

### من الضباب إلي ضوء في اخر النفق

أدين بفضل كبير للثورة المصرية - بأطرافها المدنية والإسلامية كافة في كتابة هذا الكتاب. فلقد برزت على السطح ولأول مرة كافة الأفكار والإيديولوجيات بشكلها السافر والواضح. بعكس نظام الإنقاذ في السودان الذي جاء في الظلمة وحكم الوطن ظلاً ليس له وجود واضح، لا احد يعرف من يتخذ القرار، أو كيف، أين وعلى أي أساس. كشفت الثورة المصرية - وهناك تجارب تونس وليبيا الأقل إعلاناً- كل الأفتنة وأنزلت القضايا التي كانت في غياهب المتخصصين وخبايا النخبة من مثل قضايا الدستور، نظام الحكم، العدالة الإجتماعية... وغيرها.

لقد انفتح الحوار والنقاش على مستوى الشارع المصري. ميزة مصر إن كافة التيارات فاعلة من أنواع التيارات الإسلامية التي بدأت نشأتها فيها (الإخوان المسلمون، الجماعة الإسلامية، التيارات السلفية والتكفيرية)، ومنها انتشرت إلي كافة أرجاء العالم العربي والإسلامي. وكذلك التيارات الليبرالية واليسارية أيضاً بدأت جميعها في مصر، وفيها نمت كافة أفكار الاستنارة والتقدم.

كان أمام الإسلام السياسي المصري خيار أن يسير في طريق التوافق الوطني، التحول الديمقراطي وبناء تجربة رائدة كانت يمكن ان تشكل مستقبلاً جديداً لشعوب المنطقة، ولكنهم اختاروا طريق إخوانهم في السودان، فيلماً طويلاً مملاً شاهده السودانيون، وسبب الآلام المريعة لشعبنا طوال ما يقارب ربع القرن. مثل التجربة الإنقاذية فقد سرع تيار الإسلام السياسي المصري واندفعوا للتمكين "الاخونة"، العنصرية، الطائفية، ضاربين عرض الحائط بكل القوانين والأعراف في بلد عريق ضارب في اعماق التاريخ. كان هذا خيارهم الإستراتيجي منذ النشأة، بناء دولة الخلافة الإخوانية.

انتهت تجربة الاسلام السياسي في مصر، وممثليها الإخوان المسلمين والتنظيم الدولي إلى تنظيم يريد إحتلال الوطن لصالح الجماعة، وأحتلت مكانها في التأريخ كدولة فاشية من الطراز الأول. لقد ساهم الإسلام السياسي المصري وبشكل فعال، في دفع الشباب، والتيارات المدنية إلى الخروج من النخبوية والأكاديمية والوصول إلى الشارع في عمق قراه، التفاعل معه، واجبرهم على البحث والتنقيب في كافة التجارب الإقليمية والعالمية، والتي كان يستنكف عن الخوض فيها إما تكبراً عليها او لعدم الحاجة اليها.

لأول مرة اضطرت التيارات المدنية المصرية أن تمعن النظر وبشكل عميق ومتأن لجارها الجنوبي – السودان- في تجربته البائسة مع تيار الإسلام السياسي، ودراسة تكتيكات إخوانهم وتأريخها لفهم طبيعة القوة التي خرجت عليهم، من غياهب السجون، القرى الفقيرة والحارات العشوائية. كما اضطرتهم الحاجة الملحة إلى التبحر والبحث العميق في التجارب الدستورية لجنوب أفريقيا البرازيل، اندونيسيا، فرنسا وغيرها. لقد دفع تيار الإسلام السياسي القوى المدنية إلى التوحد والاتفاق على رؤية واضحة في مجمل قضايا الوطن.

إن نظام الإنقاذ في السودان خلق الظروف الموضوعية لوحدة القوى المدنية منذ يومها الأول للتوحد في التجمع الوطني الديمقراطي، الإجماع الوطني وتوحيد كافة القوى الحاملة السلاح في الجبهة الثورية السودانية. وخلق أيضاً معادله الموضوعي منذ يومه الأول، لكن لم تستطع المعارضة بفقدان الرؤية وفشل التأريخ إن تعادل هذا الميزان المختل لأسباب عديدة لوقت طويل. إن متابعتي الدقيقة للقنوات المصرية كانت درساً طويلاً لفهم كثير من القضايا التي يضمها هذا الكتاب. استنار الكتاب بالمناقشات العميقة والتفصيلية التي انتظمت دروب الثورة المصرية حول قضايا الدستور، المجتمع المدني، العدالة الاجتماعية، العدالة الإنتقالية، الفقر، البطالة والديون والثقافة الديمقراطية.

الخروج الباهر والمذهل للشعب المصري في كافة أنحاء الوادي في 30 يونيو 2013، اعطانا الحل لتفكيك الدولة الفاشية التي تتسيدها جماعات الاسلام السياسي في السودان، ايران، تونس وحتى الباكستان. مجموعة من الشباب من أبناء الشعب المصري، أسسوا حركة تمرد التي استطاعت عن طريق رسالة بسيطة، واضحة



ومباشرة أن تُخرج أكبر تظاهرات في تاريخ البشرية وأسقطت نظام الإخوان.

لم يعطنا الشعب المصري الوسيلة فقط، ولكن أعطانا، ولأول مرة في تاريخ الثورات الحديثة، خارطة للطريق سوف تضع الشعب المصري، ومن بعده كافة الشعوب أن تسترد أوطانها وتضعها على طريق المستقبل. أن الطريق لدولة ديمقراطية مدنية تهتدي بالعدالة الاجتماعية أصبح مشرعاً أمام الشعوب. ليس هذا فحسب، بل لقد دشنت حركة تمرد مصر ما يمكن أن يعرف "بسقوط حائط برلين الإسلامي" والتي سوف نرى تداعياتها في مقل سنواتنا.

في كافة دول الثورات العربية -ومن ضمنها السودان- تواجدت قوتان متجاورتان، النخبة السياسية المعارضة والتي كانت بعد ياسها من الإصلاحات من داخل النظام، اقتنعت بأن حل الأزمة السياسية، الإقتصادية والإجتماعية الشاملة يكمن في تغيير النظام كلياً. القوة الأخرى كانت معارضة، شملت أغلب الشعب، وهي ذات جذر إقتصادي وإجتماعي عبرت عن نفسها في النقد القاسي للنظام والعزوف عن المشاركة في النشاط السياسي والحركات الاحتجاجية.

أدى عدم قدرة النخبة السياسية المعارضة في تنظيم هذه الجماهير، إن فجر الشباب انفجاراً شعبياً مدوياً لإسقاط النظام وغيها الأساسي الذي ظهر جلياً في كافة الثورات، أنها بلا قيادة سياسية. أن الطاقة الشبابية والتي انتظمت في ملايين الافراد استطاعت أن تحول هذه الطاقة إلي فعل إيجابي وتسقط الأنظمة لكنها افتقدت الآليات والوسائل التي تحول بها هذه الطاقة إلي مجارٍ واقفية سياسية سلسة. هذه الحلقة المفرغة كسرتها حركة تمرد المصرية.

يرينا علم الثورة أن "الأزمة الثورية" تحدث عندما يصبح الحاكمين عاجزون عن الحكم، منقسمون في صراعات السلطة، ليس لديها تصور أو رؤية لبناء الوطن. والمحكومون يتصاعد سخطهم على الوضع العام، ليس لديهم قبول بالنظام، ولا يشاركون في أي أنشطة للنظام ولا يصدقونها. تحتاج معادلة تغيير "الأزمة الثورية" إلي "اللحظة الثورية"، إلي طرف ثالث - قيادة ميدانية - تقود الجماهير إليها.

هذه القيادة الميدانية، كما اثبتت الثورات العربية، هي فكرة يؤمن بها مجموعة من الشباب لديها قرار حتمية التغيير، الارادة والحركة الدائبة<sup>1</sup>. إن القضية المركزية في

<sup>1</sup> د. يحي نعيم: خطوات ضرورية على درب الحرية (2)، <http://fekker.net/ar/2011/10/27/9711>

هذا التحرك هو ايمانها بأهدافها، استعدادها التام للتضحية، وحماستها. تواجه القيادة الميدانية عند بدء المسيرة عائقين: أولهما: سلبية الجماهير وعزوفها عن النزول للشارع وثانيهما: فاعلية سلاح القمع في مواجهة المعارضة.

لذا فهي تستهدف مهمتان: المهمة الأولى تثوير الجماهير، ودفعها للمقاومة والرباط في الشارع، لتحقيق الأهداف وإسقاط النظام، والمهمة الثانية إفقاد سلاح القمع قيمته في مواجهة الحراك الشعبي، من خلال الحشد الجماهيري الهائل وابتكار وسائل مقاومة أدوات القمع المختلفة لشل فاعليتها. اثبتت التجارب أن القيادة الميدانية وحدها لا تكفي، لابد أن تترافق مع القيادة، رؤية واضحة وخارطة للمستقبل.

دولة الإنقاذ ضعيفة، مفككة ومنقسمة وغير قادرة على الحكم بالأسلوب الذي تعودت عليه (القمع الحكومي المكثف، تكسير كل أدوات وآليات العمل السياسي المدني المعارض بإستغلال إمكانات الدولة- الأمن، الإقتصاد، الإعلام، اختراق الأحزاب والمجتمع وغيرها). هذا إلي جانب الضائقة الإقتصادية الطاحنة وآثارها الإجتماعية المدمرة. وهناك اتفاق من أغلب قطاعات الشعب السوداني على رفض النظام بشكل كامل، وكنت أرى أن الغائب الاساسي هو القيادة الميدانية التي تحول الأزمة إلي لحظة ثورية ومن ثم تنجز ثورتها.

شهدت الساحة السياسية السودانية تجريباً وتصحيحاً، على مدار أكثر من عقدين، الإفقار التام للشعب، تمزيق نسيجه الإجتماعي، الحروب الأهلية الدورية القائمة على الأقصاء والتهميش، شغل الساحة بحوارات المصالحات واتفاقيات السلام انتهاءً إلي تمزيق الوطن وفرض ديكتاتورية فاسدة. ولكن رغم ذلك فقد رأينا في احداث يونيو- يوليو 2012 مشهداً تكرر في الأحداث الثورية العربية، خروج جزء من النخبة السياسية - من الطلائع الشبابية والطلابية وفئات المجتمع المدني المتعددة- للشوارع السودانية، طوال ثلاثة اسابيع وتفاعلت معها قطاعات هامة من المجتمع. استطاعت الأحزاب السودانية والجماعات المدنية المنظمة التي تعمل في أجواء قاسية وتعرض لهجمات شرسة مستمرة، أن تحافظ على حدودها الإدني والوصول لصيغة إجماع وطني.

في 30 سبتمبر 2013 عقد احد اطول ديكتاتوري العالم حكماً، الرئيس البشير مؤتمراً صحفياً لإعلان ما اسمي رفع الدعم عن البترول. كان مؤتمراً غريباً تراص فيه

الحرس القديم الذي يسيطر على الحكم، معظمهم تجاوزوا السبعين، وحلفائهم الذين لعبوا دور الديكور مراراً وتكراراً. حُشدَ للمؤتمر كافة الصحفيين المعبرين عن النظام منذ يومه الاول، الذين لعبوا الادوار المختلفة من التهييج، العاطفية، التبرير وتزيين القبيح. ترافق معهم صحفيين متلونين على طول العصور. كان المنظر مألوفاً لامثالي الذين حضروا اخر خطاب للنميري قبل انتفاضة 1985، وللمصادفة اعلن الرئيس نيته السفر لامريكا لحضور اجتماع الجمعية العامة، اذا اعطته امريكا تأشيرة دخول.

كان الخطاب احد اغرب ما حدث للسودانيين، فرغم أنهم تعودوا على لغة الالهانة والشتم التي يجيها قادة الانقاذ ويكررونها في كل المناسبات والتي دخلت لغتهم اليومية، من مثل شذاذ الافاق، لحس الكوع واقفل يا عوض.. الخ، إلا أن هذا كان مختلفاً تماماً. فالدولة توشك على اتخاذ اخطر قراراتها بزيادة البترول وغيرها، والسودانيون يعرفون أن أي زيادة في الوقود تجر سبحة الزيادات على كل اوجه الحياة. بدأ الرئيس بتقديم شرح مبسط للأسباب التي دعت الدولة لهذا القرار، ثم بدلاً من أن يواصل في لهجة معذرة، لقرارات مريرة هي اخطاء نظامه، واصل في اكثر خطاب استفزازي سمعه الشعب، من عليهم، ولامهم أنهم سبب المشكلة، أن دولته طاهرة كماء الوضوء وأن الانفاق الامني والحكومة منضبطة وهكذا.

صعق الشعب من هذا وكان الخطاب قد بدأ ليلة الاثنين متأخراً وانتهى في الساعة الاولى من الثلاثاء. كان السودان على موعد مع الشارع، فقد ابتدرت مدينة ودمدني المظاهرات الرافضة. ووجهت هذه التحركات بالعنف المفرط وسقط شهيد. ادخلت مدني في مسيرة التحركات، ظهور الطرف الثالث "المندسين" والذين هاجموا رموز السلطة من دور شرطة، دور المؤتمر الوطني، بعض طلبات البنزين (ذات العلاقة بالامن او اطراف السلطة كما يقال)، تلفزيون الجزيرة، مراكز بسط الامن الشامل سيئة السمعة، واحيانا المحليات. سوف يكون هذا هو اتجاه كافة المظاهرات التي انتشرت في العاصمة، بدأ من مظاهرات طلاب امدرمان.

انتشرت المظاهرات الصغيرة والكبيرة في كافة انحاء العاصمة، تبدأ بمجموعة صغيرة ثم تكبر، تواجهها قوات الشرطة بالبمبان، ثم فوراً تضرب في المليان بالرصاص الحي. استمرت هذه حوالي يومي الثلاثاء وصباح الاربعاء، بعدها تحولت اجهزة الامن (صباح الاربعاء تكونت من الشرطة، الامن المركزي، الامن، الجيش

في بعض المواقع وافراد من حزب المؤتمر الوطني)، إلى العنف المفرط وفي حوالي الواحدة بعد ظهر الاربعاء قطعت خدمات الانترنت. كما حدث في الثورات الاخرى- تونس، مصر وليبيا -فقد قامت مجموعات (غالباً تمويلها الحكومة او هي من شماسة المدينة وهي بالالاف)، باحراق بعض المرافق العامة، ماكينات الدفع الآلي وغيرها، واندفع اركان النظام باتهامات غريبة جداً من مشردين الإلي اراهبيين. اللافت أن هذه التحركات لم تطالب او تتعامل مع القرارات الاخيرة، لكنها رفعت فوراً شعار اسقاط النظام. تعددت سلوكيات المظاهرات من تحرير الشوارع من اجهزة الامن، اعلان مناطق كاملة محررة، تشييع الشهداء فإلي مواكب شعبية..الخ. **المؤكد أن السودان لن يكون كما كان قبل 30 سبتمبر 2013.**

أعلنت قوى سياسية ونقابات ومنظمات حقوقية سودانية السبت 6 أكتوبر 2013 تشكيل "تنسيقية قوى التغيير السودانية"، وقال بيان تأسيسي إن الكيان الجديد يتكون من تحالف شباب الثورة السودانية، تحالف قوى الإجماع الوطني، بالإضافة إلى نقابات الأطباء ولجنة المعلمين، نقابة أساتذة جامعة الخرطوم، التحالف الديمقراطي للمحامين، نقابة أطباء الأسنان وتحالف منظمات المجتمع المدني. وضعت التنسيقية أهدافاً عدة على رأسها: تنحي النظام فوراً، حل كل أجهزته التنفيذية والتشريعية، تكوين حكومة إنتقالية تضم كل أطراف الشعب السوداني تتولى إدارة البلاد لمرحلة إنتقالية مقبلة، تحقيق المحاسبة والقصاص لكل من شارك في جرائم القمع والتعذيب والقتل في حق أبناء الشعب السوداني، إيقاف الحرب الدائرة فوراً، ووضع الأسس للسلام المستدام عبر عملية مصالحة وطنية شاملة تخاطب جذور الأزمة السودانية.

رفع ١٣ قيادياً اسلامياً مذكرة لرئيس الجمهورية تدعوة إلى الاستجابة لمطالب الشارع، معلنة أن حزمة الإجراءات الاقتصادية التي طبقتها الحكومة مؤخراً أحدثت أثراً قاسية على المواطنين دون مبررات مقنعة، أن خطاب الحكومة عند تقديم حزمة الإجراءات كان مستفزاً للمواطن ولم تبتد الحكومة الاكتراث اللائق لمشاعر المواطنين، ولم تسمح الحكومة للمواطنين بالتعبير السلمي عن آرائهم وفق ما يكفله لهم الدستور. طالبت المذكرة بوقف الإجراءات الاقتصادية فوراً، إسناد ملف الإجراءات الاقتصادية لفريق اقتصادي مهني وطني، يمكن تطعيمه بعناصر من القوى السياسية المختلفة، وتكون مهمته الاتفاق على وصفة للمعالجات العاجلة للأزمة

في غضون أسبوعين وغيرها. أطلقت المجموعة على نفسها مجموعة الاصلاح، وهي مواصلة لانشقاقات عديده تكررت من رفقاء طريق طالهم عسف الديكتاتور الجاثم، وهي في النهاية مثل غيرهم تهدف الي ابعاد الطاقم الفاسد المستبد، غسل احوالهم ولو امكن الحفاظ على إستمرار حكم الإخوان.

التجربة المصرية الماثلة ترينا بوضوح كاشف أن الشعب بأكمله هو الحاكم وصاحب السلطة. لقد اسقطت التجربة دعاوي تجربتي الثورات السودانية، حول عدم امكانية تحقيق ثورة مكتملة، بدون توفر المنظمات الجماهيرية، الاتحادات والأبنية النقابية التي تحدث الثورات. حدثت الثورة خارج الاطر والمرجعيات التقليدية، بعد أن قيدت هذه الاطروحات "المعلبة" تحركات الشباب واعتقلتها في غياهب اليأس، الخوف والنمطية حتى ملأت حركة تمرد اشعرتها برياح الشعب المصري.



## هذا الكتاب

إذا كان الكتاب الأول مثيراً للإحباط والأحساس بالفشل فقد جهدت في هذا الكتاب أن أعود للأمل. غاية هذا الكتاب أن يعطي الأمل للشعب السوداني المنقل بالهموم والخائف من حاضر ضائع ومستقبل مجهول، لفقرائه الذين لن يسمعوا عنه شيئاً فهم لا يسمعون إلا عن رمضان والعديد، لعاطليه الذين لن يشتروه، لشبابه الذين يتقاطرون للنفرة ويحلمون بعقود العمل، لأحزابه التي اقضيت من إدارة شئون بلادها لزمان طال، لمحاربي هوامشه الذين شردوا في المعسكرات الدولية والمنافي البعيدة وأخيراً لمغتربيه الذين يحلمون بالعودة لوطن جميل. هذا جهد بسيط أحاول... وأحاول به أن نتلمس فيه طريقاً آخر يمكن... يمكن... يمكن أن يؤدي بنا إلي سودان المستقبل.

في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية، حاولت الإجابة على السؤال الهام: لماذا نحن هنا؟. وكان كتاباً في قراءة أثر التأريخ على الرؤى السودانية وأثر هذه الرؤى في تشكل السودان. وهو كتاب يقدم وجهة نظر من منظور رؤيوى وأرجو أن يكون الله قد وفقني في أن اكون صائباً في بعض ما كتبت.

الجزء الثاني من الكتاب يجاوب على سؤالين جوهريين في حياة الشعوب إذا لم تجب عليهما، لن تضع نفسها في طريق المستقبل. يمكن أن تُنجز ثورة مثل دول الربيع العربي لكنها ستقع في مصيدة المرحلة الإنتقالية التي سبق وأن وقعنا فيها بدل المرة، مرتين. السؤال الأول: هو أين نريد الذهاب؟

هذا السؤال كان محور كافة الوثائق السودانية منذ ميثاق التجمع الوطني الديمقراطي، مؤتمر القضايا المصيرية 1995، إعلان القاهرة في 16 يناير 2005، برنامج البديل الديمقراطي، ميثاق الفجر الجديد وما سيتلوها. السؤال الثاني: هو كيف نصل إلى هناك؟، وهو متعلق أكثر بالتقنيات.

أتاح لي عملي في منظمة الصحة العالمية، قرابة العشر سنوات، اكتساب طريقة عمل المنظمات الدولية بشكل عام والتي تبدأ من تنفيذ مشروع نموذجي تحدد له مدخلاته،

مخرجاته ووسائل متابعتها وتقييمها. ثم تتم الاستفادة من هذه التجربة، ويعاد تطبيق المشروع في بيئات مختلفة وعندما تتبلور المشاريع عن "قصص نجاح" في هذه المجتمعات، وبناء على تحدياتها، مسببات الفشل والنجاح تطور إلي "إطار عام" قابل للتطبيق في مجتمعات متنوعة ضمن السياق المعين. ويمكن تعريف الإطار العام في أكثر أشكالها بساطة بأنها "مجموعة من الافتراضات المفاهيم، القيم، والممارسات التي تشكل في مجموعها وسيلة لعرض الواقع".

هذا الكتاب يطمح أن يقدم الاتجاه "نحو إطار عام للرؤية"، يوضح حاجتنا لها، العناصر التي ربما نود النظر إليها حين نبدأ بذلك ولتوضيح كيف نصل هناك. هو ليس كتالوجاً جاهزاً للتطبيق، لكنه يحاول أن يلم بشكل شمولي وينظر في القضايا العاجلة التي تحتاج لمعالجات في اتجاه الرؤية، كما يورد مجموعة من تجارب الشعوب المعاصرة التي ستفيد من سوف يرسمون هذه الرؤية. كل دولة لها خصوصيات في وضعها الداخلي، بنائها الإقتصادي الإجتماعي، ارتباطاتها الخارجية وتنوع كفاءتها الأساسية، مما سوف ينعكس على كيفية معالجتها للقضايا العاجلة والانتقالية المطروحة في ساحتها.

ينظر الكتاب في كيفية التحضير لرسم الرؤية، مبادئها، آلياتها والتجارب الناجحة في الدول التي سبقتنا مثل الهند، ماليزيا، الصين، كوريا، جنوب إفريقيا، عمان، دبي، البرازيل واندونيسيا. كل دولة تتناولها لديها ميزة نسبية في تجربتها الناجحة يمكن أن تنير لنا الطريق، حسب وضعنا ونتائج تحليل الوضع الراهن للدولة. أي تغيير سياسي في السودان لن تتجاوز سيناريوهات عنوانين رئيسيين.

**السيناريو الأول:** وهو قليل الاحتمال جداً، أن تستفيق القيادة الحالية إلي عمق الازمة والانتقال من إنكار الفشل إلي القبول به، وطرح مشروع اصلاحي حقيقي على جماهير الشعب السوداني لإعادة السلام إلي الوطن، التحول الديمقراطي وتفكيك دولة الاستبداد التمكين والإقصاء. هذا السيناريو تطرحه احزاب في المعارضة، مجموعات داخل الحزب الحاكم من بينها مجموعات في الجيش وتساندها قوى اقليمية وعالمية. مبرراتها الاساسية خوف تفكيك الوطن، الازمة الاقتصادية الضارية والتجارب القاسية لدول الربيع العربي. هذا السيناريو يشمل داخلة التغيير الناعم من القيادة، التغيير العنيف من اطراف من داخل النظام او الاختفاء الطبيعي.

**السيناريو الثاني** وهو الاقرب احتمالاً، الانتقال من الازمة الثورية إلي اللحظة

الثورية، عبر مفجر يثير حفيظة الشعب السوداني وتتوفر له قيادة ميدانية مناسبة تدفع بجموع الشعب إلي الاصطفاف في الشوارع، الدعوة لإسقاط النظام وتُصاعِدُ هذا إلي الوصول للحصار الكامل للسلطة وعجزها عن التصدي لهذه الثورة العارمة. حدث هذا مؤخراً في دول الربيع العربي في السودان من قبل في أكتوبر 1964 وانتفاضة 1985 وجرب الشعب بروفة له في أحداث يونيو- يوليو 2012 وسبتمبر 2013، يشمل هذا السيناريو تنويعات مختلفة. جزء من هذا السيناريو هو التغيير العنيف من قوى الهامش بمشاركة جماهيرية متنوعة، او عن طريق المفاوضات.

لقد كتبت في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية أن دوري مثل جبلي سينحصر في محاولة فهم، تحليل وتبويب السياقات التاريخية التي أثرت للدفع بأحداث التغييرات الضخمة -وفي بعض الآراء المفاجئة- في كافة دول المنطقة. هذا التحليل الذي قد يساعد في الوصول إلي ملامح لصياغة تعبيرات من نحو الرؤية الإستراتيجية، خريطة الطريق، معينات العمل، كتالوج الخطوات المطلوبة ونحوها.

عندما يتحدث السودانيون عن بلادهم تتراوح اوصافهم من "زفت"، "الحفرة" وغيرها، ويتراوح تفاعلهم مع الوطن إما بالهجرة الدائمة والإنصهار في مجتمعات الغربة وعدم العودة، العودة المتقطعة ولكنهم يتفوقون على أن افضل ما يفعل المرء هو الابتعاد بأكثر ما يمكن عن السودان. لقد قصدت أن اعطي وصفاً تفصيلياً - ربما مملاً- عن الإمكانيات التي تذر بها بلادنا، إننا دولة لها مستقبل واعد وإننا ليس أقل من سفينة الصخور العائمة اليابان، الدولة الفقيرة في الامكانيات كوريا الجنوبية، او البرازيل، ماليزيا، عمان، دبي..ألخ. استعادة الامل في مستقبلنا هو هدف اساسي للكتاب .

التغيير السياسي حتمي طال الوقت أو قصر، ككل الثورات العربية والثورات السودانية الماضية، التي دخلت منعطفات قاسية وعانت من أوضاع إنتقالية محبطة لثوارها. آليت على نفسي كغيري من افراد النخبة السودانية النبيلة، النظر بدقة في تجاربنا السابقة وتجارب الشعوب في تحضير ما أظنه تحليلاً وافكاراً لما نأمل أن نحققه عندما يحدث التغيير السياسي. استغرق العملاقين عامين كاملين من عمري وكثيراً من الجهد. رأيت حلمي فكتبته لابنائى لعل ابنائهم يعيشون بعضاً مما عشته وأنا في عمرهم.



# الجزء الأول

## معالجة القضايا المتعلقة

الفصل الأول: الرؤية الاستراتيجية

الفصل الثاني: الرؤية الاستراتيجية

الفصل الثالث: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا نظام الحكم

الفصل الرابع: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا التغيير الإقتصادي والإجتماعي

## الفصل الأول: الرؤية الإستراتيجية

### مدخل أولي

يعود أصل كلمة إستراتيجية إلى اللغة الإغريقية والتي كانت تعني فن القيادة وارتبطت بمهارة القادة العسكريين القدماء. ويشير المعجم الكبير الذي يصدره مجمع اللغة العربية إلى أنها مشتقة من الكلمة اليونانية "ستراتيجيوس" (strategos) بمعنى قائد. منذ القدم والبشر يحاولون وضع مبادئ للإستراتيجيات مثل سن تزو<sup>2</sup> في كتابه فن الحرب والذي وضع فيه حوالي 13 مبدأ، نابوليون وغيرهم. ثم تطورت استعمالاتها لتشمل كل ما هو أساسي وهام مثل الأسلحة الإستراتيجية، والسلع الإستراتيجية ثم دخلت مجالات أخرى مثل التفكير الإستراتيجي والدراسات الإستراتيجية وغيرها.

للإستراتيجية تعريفات كثيرة يرتبط معناها ومبناها بالظروف الزمانية والمكانية التي قيلت فيها، بالأحداث التي انبثقت عنها، بالأشخاص الذين صاغوها وبالمدارس الفكرية التي ولدت منها. ولذلك أصبح من الصعب تقديم تعريف شامل للإستراتيجية لأن الدلالات والمعطيات الظرفية متغيرة حسب المستجدات السياسية، العسكرية والإقتصادية في العالم، ويشير أحد أشهر تعاريف الإستراتيجية أنها علم وفن توظيف القوى السياسية، الإقتصادية، النفسية، كذلك قوات الدولة العسكرية أو مجموع الموارد لتقديم أقصى دعم للسياسات المتبناة أو المتخذة سواء في السلم أم في الحرب.

ويشير تعريف آخر لها أنها فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف سياسية<sup>3</sup>. وقد تتعدد

---

<sup>2</sup> سون تزو (وكلمة تزو في اللغة الصينية مثل كلمة أستاذ في اللغة العربية) (551 - 496 قبل الميلاد)، وذاع صيته بسبب عبقريته العسكرية التي اشتهر بها، وكذلك بكتابة فن الحرب وهي مجموعة من المقالات العسكرية الإستراتيجية. يشتمل كتاب "فن الحرب" 13 باب/مقالة، يجسد خلالها الأفكار العسكرية لسون تزو، واحتوى كذلك من بعده على شرح وتعليق من كبار القادة العسكريين الصينيين الذي تلوا سون تزو. أطلق على "فن الحرب" أول كتاب عسكري قديم في العالم، والكتاب المقدس للدراسات العسكرية.

<sup>3</sup> تعريف الإستراتيجية: <http://ar.wikipedia.org>

الإستراتيجيات في الدولة من الإستراتيجية العسكرية، السياسية والإقتصادية وغيرها. لكن مفهوم الرؤية الإستراتيجية يختلف عنها أنها محصلة توافق الإستراتيجيات، وهي الإستراتيجية التي تعني باستخدام كافة موارد الأمة لتحقيق النجاح.

هناك ثلاث مكونات مميزة يجب أخذها بعين الاعتبار عند الشروع في صياغة الرؤية الإستراتيجية وهي: تحديد مجال النشاط الحالي، وتحديد التوجه الإستراتيجي المستقبلي، وتوصيل الرؤية بشكل واضح وجذاب للأطراف ذات الاهتمام. ما يعيننا هنا ارتباط الرؤية والإستراتيجية في مفهومها الحديث، أن الرؤية الإستراتيجية هي محاولة الإجابة على السؤال: **إلى أين نحن ذاهبون وكيف؟**.

ارتبط التطور في مفاهيم الرؤية (الرؤية، الرسالة، القيم .. الخ مما سنفصله لاحقاً) بتاريخ الجودة الشاملة حيث طور أستاذ الإدارة الأمريكي إدوارد ديمينج نظرية الرقابة الإحصائية على الجودة "بالجودة وحدها وبالتركيز عليها، قبل أي شيء آخر، تتحقق الإنتاجية، وتكون المنافسة، ويوجد الابتكار وبالتالي تتحقق الربحية كهدف أساسي لأية منظمة". وقد وجد الدكتور إدوارد ديمينج وزميله جوزيف جوران في اليابان - بعد الحرب العالمية الثانية - مناخاً خصباً لتطوير أفكارهما واختبارها تطبيقياً وميدانياً، فتطور مفهوم ديمينج للرقابة الإحصائية على الجودة.

وبناءً على نظرية ديمينج وجوران "رقابة الجودة الشاملة" ازدهرت الصناعة اليابانية القائمة عليها في وقت قياسي قصير لم يتجاوز عقدين من الزمان. ولم تلبث الصناعات اليابانية، بجودتها الشاملة، حتى غزت العالم أجمع، الأمر الذي حدا بمفكرين ومنظرين أمريكيين إلى محاولة إستكناه أسرار النجاح الياباني الصارخ في حقل الأعمال والإدارة؛ فظهرت نظريات أخرى في نفس المجال من كاوورو ايشيكاوا والذي يعتبر مروجاً لأفكار إدوارد ديمينج باليابان ثم فيليب كروسبي وهو صاحب عبارة "صفر عيب Zero default" وعبارة "الانجاز بالمواصفات المطلوبة من أول مرة"<sup>4</sup>.

يتداخل مفهوم القدرة مع مفهوم القوة، فالقدرة مفهوم أشمل وأوسع من القوة. القوة لها أساس قانوني والقدرة تعني المقومات الشاملة. ينبغي تحليل مفهوم القدرة الشاملة لدولة

---

<sup>4</sup> قصة نشأة الجودة الشاملة: <http://www.hrm-group.net/vb/showthread.php?t=10997>

ما بتحليل عناصرها الأولية حتى يمكن توضيح طبيعتها والوقوف على أبعادها وإدراك مقوماتها. وتعرف عناصر القدرة الإستراتيجية على أنها مجموع الطاقات والموارد التي تمتلكها الدولة التي تجعلها تتحرك في المسرح السياسي بهدف تحقيق المصالح القومية لها، والقدرة الشاملة عبارة عن محصلة لكل المقومات المادية والمعنوية وما يوفره التطور التقني للدولة والتي يتم توظيفها لتحقيق أهدافها المختلفة. وعموماً فإن قوة الدولة تستند إلى مصادر أساسية وهي جميع موارد الدولة الطبيعية أو تلك التي يمكن توفيرها أو الحصول عليها، وتُعد قدرة الدولة محصلة إنصهار هذه المصادر والعناصر. ويرى الدكتور كاظم هاشم أن مقومات قوة الدولة تشمل نوعين من العوامل: عوامل أساسية تتضمن: الجغرافيا والحدود، الموقع، المساحة، السكان، المواد الأولية والتقدم الصناعي. أما العوامل المساعدة: فتتمثل في التنظيمات السياسية والاجتماعية، والقيادة ونظم الحكم.

### غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني

استعير هذا العنوان من د. أحمد إبراهيم أبوشوك في محاورته لحوارات الأستاذ صلاح شُعيب، والتي نشرها، شُعيب، سلسلة في صحيفة الأحداث مع نخبة من الأكاديميين والناشطين السياسيين في داخل السودان وخارجه، كاجابة على سؤال: ما هي حسنات المثقف السوداني وعيوبه، وهل يتحمل وزر العلاقة التي نشأت بينه وبين السلطة بعد الاستقلال؟ وكانت إجابات المثقورين تتراوح بين الحديث عن غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني، ارتباط المثقف العضوي بتشكيل السلطة السياسية بعد الاستقلال، تصنيف المثقفين حسب مواقفهم من السلطة ومسؤوليتهم تجاه الواقع السلبي الذي يعاني السودان منه حكومةً ومجتمعاً. "يعزي الدكتور أسامة عثمان غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني إلى "المكوّن الصوفي" المتمثل في النزعة للزهد..... لذلك لا يزعجه أو يضيره التخلف، وغياب التنمية، وتموت فيه روح المبادرة"<sup>5</sup>.

ويضيف الدكتور أسامة إلى هذا الإرث الصوفي القائم على الزهد الميل للمشافهه بدلاً

<sup>5</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك : العلاقة الجدلية بين المثقف والسلطة في حوارات الأستاذ صلاح شُعيب [www.sudanile.com](http://www.sudanile.com)

عن الكتابة، عدم المثابرة والملل مما يتصف بها المثقف السوداني. "ولقد ذكرتُ في معرض إجابة سابقة إن " المَحْرَكة " سمة أخرى، وهي التردد، وعدم القدرة على اتخاذ القرار، وإضاعة الوقت فيما لا فائدة منه. مثقف ما بعد الاستقلال كان قانعاً، ولديه إحساس بأن إنجازاً كبيراً قد تحقق، وهو نيل الاستقلال، تتويجاً لسنوات من نضال الحركة الوطنية، ولم يكن على قدر تحدي مرحلة بناء الدولة المستقلة".

في نفس الموضوع عرض د. أحمد إبراهيم أبوشوك<sup>6</sup> ست مقالات نشرها المرحوم جعفر محمد علي بخيت (1930-1979) في مجلة الخرطوم، تحت عنوان "السلطة وتنازع الولاء في السودان"، في الفترة بين ديسمبر 1968م ويونيو 1969م وجاء بها مناقشة الرؤية الإستراتيجية، ربما لأول مرة في الأدبيات السودانية بالمعنى الذي نعالجه في هذا الكتاب.

كانت أزمة الرؤية الإستراتيجية التي يعاني منها السودان ما بعد الاستقلال، واسطة عقدٍ للمقالات التي نشرها الدكتور جعفر محمد علي بخيت، لأن أعراضها الأولى تجلّت في ضعف السلطة السياسية المركزية، ذلك الضعف الذي شخّصه الكاتب بأنه بيت الداء ومفصل الإعياء والفشل. لتفسير هذا الضعف، اسبابه وجذوره، أسس الدكتور بخيت مفردات مقاله الأول على نسق منظومة رياضية، يستند محور ارتكازها على السلطة السياسية وبين القوى القطاعية المختلفة، التي يرتبط مسار حركتها المدارية بطبيعة العلاقة المتبادلة بينهما، التي شبهها بالكواكب الشمسية السيارة ذات المدارات المتوازية والحركة الدائرية المحدودة.

استخدم الدكتور بخيت هذه المنظومة الرياضية/البنائية كإطار منهجيّ لتحليل الواقع السياسي في السودان آنذاك، ومدى فاعلية السلطة السياسية في توظيف القوى القطاعية تجاه المصلحة العامة، والقيم الإنسانية المنشودة. تم تشخيص أسّ "القفلة" السياسية التي صاحبت استقلال السودان، انطلاقاً من فرضية مؤداها أن هذه "القفلة" متجذّرة في ضمور السلطة المركزية، وعجزها عن جذب القوى القطاعية ذات المدارات المحورية إلى مدارها الجامع والمنبسط للجميع، ثم تسخيرها لخدمة الصالح العام. إلا أن تعاظم هذا الضمور والعجز، من وجهة نظره، قد قاد إلى اضمحلال هيبة السلطة المركزية، وأفول شمسها المشعة الجاذبة، ثم تمحورها داخل النفوذ القطاعي

<sup>6</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك : السودان السلطة والتراث، مركز عبد الكريم ميرغني، امدرمان، السودان، 2008

الغالب، الذي أغلق نفسه وإنكفاً عليها داخل إطار مصالحه القطاعية الضيقة، التي لا ترقى إلى تطلعات الشارع العام.

خلص الدكتور بخيت إلى أن السودان الحر المستقل لا يمتلك عادات مرعية في شؤون الحكم والسياسة، وليست له أيديولوجية تتحكم في تسيير دفة أمور الناس الحياتية، ولم يحظ بزعامة قومية يدين لها الناس بالولاء المطلق، كزعامة سوكارنو في إندونيسيا، وغاندي في الهند. لذا فإن هذا الواقع السياسي السوداني المترهل وضع الأهلين بين سندان الديمقراطية الذي يختل فيه النظام الديواني وتفسد الحياة العامة، ومطرقة الدكتاتورية التي تتسلط في السلطة وتذهب بحريات العباد ومقدساتهم.

عرض الدكتور بخيت مرتكزات الطريق الوسط، الذي عدّه الأقدمون فضيلة الفضائل التي كانوا ينشدونها، وفق ثنائية تكاملية، طرفها الثابت يرتكز إلى مركز السلطة، ويمثل مظهرها العام، وطرفها المتغير ويستمد شرعيته من حراك القوى القطاعية، الذي يتجدد حسب تجدد ميزان القوى الاجتماعية، ويبرز ثقله السياسي عن طريق التدافع الديمقراطي، الذي تحدده صناديق الانتخابات المختلفة. وهذه المنظومة تُعرف في قواميس الدراسات السياسية بـ"الرؤية الإستراتيجية".

إن غياب الرؤية الإستراتيجية هو الذي أدى إلى عجز الحكومات السودانية المتتالية - سواء كانت مدنية أو عسكرية- من وضع دستور دائم. وتعني مرجعية الدستور في هذا المضمار الاستقرار السياسي القائم على التسامح الوطني وسماع الرأي والرأي الآخر عبر مؤسسات ديمقراطية راشدة، وتعني تطوير قدرات القوى القطاعية في تحقيق كسبها الجماهيري المشروع وتوجيه ذلك الكسب في خدمة الصالح العام، وتعني تحقيق التنمية المتوازنة بين المركز والتخوم (أو ما يعرف بالهامش).

وكجزء آخر من غياب الرؤية الإستراتيجية جاء تدهور الخدمة المدنية، في أن العقلية الإستراتيجية في السودان لم تدرك قيمة الخط الفاصل بين شاغلي المناصب الوزارية وسدنة الخدمة المدنية العامة، ذلك الخط الذي يضع على عاتق قادة التوجهات القطاعية مسئولية صياغة السياسة العامة وتحديد مسارات الرؤى الإستراتيجية، ويلزم في الوقت نفسه شاغلي الوظائف التنفيذية ذات البعد الإداري والفني أن يقوموا بترجمة هذه السياسة على صعيد الواقع، وفق أجندة تخدم مصلحة الشارع العام والرؤية الإستراتيجية التي توافق عليها الناس.

لقد عالجت في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية، الرؤى التي تتالت على السودان وكان لها مشاريع وطنية قبل أن يطلق عليها الرؤية. رغم أن ثماني رؤى قد طرحت من قوى متعددة في تأريخ السودان (المهدية، ثورة 1924، مؤتمر الخريجين، رؤية الرواد، القومية العربية، الحزب الشيوعي السوداني، تيار الدولة الدينية ورؤية السودان الجديد) فإن أربع منها فقط قد وصلت لسدة الحكم لفترات تطول وتقصّر (المهدية، رؤية الرواد، القومية العربية وتيار الدولة الدينية)، لكنها جميعاً لم تمتلك نظرة إستراتيجية وطنية لبناء الوطن. وسوف أحاول أن أتناول هنا ما اراه فكاً لعقدة غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني، والتي تتداول في كافة المقالات والمنتديات كأساس للأزمة السياسية الطاحنة التي يتقلب فيها السودان منذ الاستقلال.

### **النخب بين المكوّن الصوفي وادمان الفشل**

هذا الموضوع تم تناوله في الأدبيات السودانية مراراً وتكراراً في نقاش سياقات مختلفة، لكنني سوف أحصر نقاشي هنا في العلاقة التي بني عليها الدكتور أسامه عثمان تفسير غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني. لا يختلف مع الدكتور أسامه عثمان إلي دور "المكوّن الصوفي" المتمثل في النزعة للزهد، ما يختلف عليه هو مدى مساهمة هذا المكون الثقافي كأثر ضار في غياب الرؤية الإستراتيجية. فالقضية الأساسية في التعامل مع مكون ما، هو تحليل العناصر السلبية والإيجابية فيه، وقد رصد الدكتور أسامه العناصر السلبية ولكن اظن أننا مطالبون في النظر في عدم الترحل في صحبة العناصر الإيجابية فيه، من نحو القناعة، الروح المتسامحة وقبول الآخر. لقد كان لهذا المكون الأثر الإيجابي الضخم في نضال المهاتما غاندي من أجل استقلال الهند، لكن مع اصطحاب العناصر الإيجابية. إن هذا يقودنا إلي كيفية تبلور الرؤية الإستراتيجية لدولة ما، والتي تتبناها فئات وتيارات سياسية- احيانا تمثلها شخصية كارزمية مثل غاندي، ماوتسي تونغ وعبد الناصر وغيرهم، او تضمنها المصالح، المنافع والمكاسب التي تستجيب لمجموعات واسعة من السكان.

إن نظرية المكون الصوفي لاتصمد عندما نتناول تدافع مجموعات المثقفين

الحربائين، والانتهازيين كما يصفهم الدكتور الطيب زين العابدين والأستاذ صديق محيسي. يمضي محيسي ليقول أنها دعمت كل نظام شمولي من أجل مصالحها الذاتية، ومستعدة لتقديم خدماتها إلي كل من يدفع أكثر، ولقد شهد السودان منذ الاستقلال وحتى الآن سلالات من المثقفين الذين لهم قدرة خارقة على تغيير أفتعتهم، وكانت أكثر العهود ازدهاراً بالنسبة للمثقفين المخصيين أخلاقياً. كما رأي المحيسي- هي العهود الشمولية. هؤلاء لم يكن المكون الصوفي ليحول بينهم وبين تراكم الثروة واكتنازها بديلا عن العمل لتطوير الوطن بينما هم يتطورون<sup>7</sup>. وقد اطلقت عليهم المثقفين الرحل من تعبير استعمله د. منصور خالد لوصف الساسة الجنوبيين.

عرض شوقي إبراهيم عثمان دراسة جيدة للدكتورة سعاد موسى، عميدة كلية علم النفس بجامعة الأحفاد بعنوان: **الشخصية السودانية بين المسؤولية الفردية وضعف المكون النفسي**، إلي أن تكوين الفرد السوداني تؤثر عليه اربعة مكونات - المكون الجسدي، العقلي، الإجتماعي والروحي. في المكون الجسدي، تعتبر الدكتورة سعاد ان المحصلة التاريخية والنمو لبلد متعدد الأعراق اعطانا إنساناً قوياً خال من الأمراض. وعلى الرغم من تدهور الوضع السياسي، الإقتصادي، النواحي الغذائية والأمراض المنتشرة بينهم فإن السلالات السودانية هي سلالات قوية جينياً<sup>8</sup>.

وفي الجانب الإجتماعي عرف السودانيون بالسماحة والطيبة والتعاون والشهامة، وهي صفات في أحيان كثيرة غير منطقية، وقد تكون خصما على الشخص، خصما على وقته وجهده، وهذا الشكل الإجتماعي يجعل من السودانيين يتساهلون في حقوقهم، فتسمع مفردات (ربنا كريم) ومعلش. اما في المكون العقلي، فترى الدكتورة سعاد موسى، أن الشخصية السودانية لا تفكر بصورة تحليلية، حيث تغيب المراجعة ونقد الذات.

مع تدهور الحياة ظهرت بعض الصفات كعدم القدرة على التحمل والصبر الطويل، ولا يطيقون صبراً على المشاريع والخطط التي تستغرق وقتاً طويلاً للإنجاز، يمكن

<sup>7</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك : العلاقة الجدلية بين المثقف والسلطة ، مرجع سابق

<sup>8</sup> شوقي إبراهيم عثمان: الشخصية السودانية بين المسؤولية الفردية وضعف المكون النفسي  
<http://www.hurriyatsudan.com/?p=67508>



للسوداني أن ينشئ مصنعاً للمياه الغازية وينتج الكمية الأولى بالمواصفات، لكن سرعان ما تقل وتتدهور. ولذلك فنادرًا ما تجد سودانياً يعمل عملاً توارثه عن أبيه.

المكون النفسي للشخصية السودانية ضعيف، تأخذ اتجاهات مختلفة في التعامل مع الأمور عندما تزداد عليها الضغوط، ومن أهم السلبيات لدى السوداني أنه لا يتقبل النقد ويحب ويميل إلى الشخصية التي تمدحه حتى وإن عرف أنه ليس كذلك. المسؤولية في المجتمع ليست فردية، لذلك فالسودانيون دائماً ما يرمون الفشل على شناعة ضعف الإمكانيات والظروف الضاغطة. ونتيجة لعدم تربية الشخصية على تحمل المسؤولية، ارتبطت بها صفة الكسل، لذلك لا تحرص الشخصية السودانية على تقسيم العمل باختصاصات واضحة لتجنب المحاسبة.

ترجع الدارسة التواضع على أنه ناجم عن إحساس بالذات منخفض، وهذا ناتج من جراء التنشئة التي يكون فيها مبدأ العقاب عند الخطأ طاعياً، حيث لا يقدم المرء على أمر حتى يقدم عليه الآخرون. لذلك يخاف السوداني من المبادرة والتجربة وأن يوصف بأنه قليل المعرفة على الرغم أن للسودانيين مهارات ومقدرات عالية إن وجدوا ظروفًا أفضل.

اميل أكثر أن استعمل أداة التحليل الماركسية في أن تراكم مراحل إقتصادية إجتماعية متعاشية مع بعضها من النمط العبودي، فترة طويلة من علاقات الإنتاج الإقطاعية، والدفع الخارجي لعلاقات شبه رأسمالية في الحكم التركي، والعلاقات الرأسمالية الحديثة في زمن الاستعمار البريطاني، ادخلت منظومات مختلفة لديها مكونات ثقافية تراكت فوق بعضها وأثرت بشكل سلبي على المجتمع والمثقفين.

إن في ارتباط المكونات الثقافية في الذهنية السودانية، والتواجد الكثيف للموارد الطبيعية (أرض، ماء، حيوان وغيرها) في كافة أرجاء السودان وغياب أي منافسة على هذه الموارد خلق ما يمكن أن نسميه "المرض الهولندي السوداني" في أن العمليات الإنتاجية في السودان اكتفائية وأقرب إلى "مكون القناعة الصوفي"، وبالتالي لم تنتشج الدولة السودانية في كافة عصورها أن تتبنى رؤية إستراتيجية لعدم أهميتها في تركيز سلطتها (كما حدث في مصر).

ادى غياب الرؤية الإستراتيجية في العقود الثلاث بعد الاستقلال إلى النتيجة النهائية

في تضال دخول الدولة، ازدياد منصرفاتها ودخول النهب كوسيلة لبناء الثروة، فبدأت الدولة في التعرض للموارد الطبيعية، مصادرتها، بيعها وتحول غياب المنافسة لتوفر الموارد الطبيعية إلي المنافسة بين المواطن السوداني والدولة.

عندما نتوغل في هذا السياق يرتبط به دائماً "ميل المثقفين للمشافهة بدلاً عن الكتابة" فهل هذا عائق حقيقي في الوصول لرؤية استراتيجية. جاء في في تعليق د. أحمد إبراهيم أبوشوك لحوارات الأستاذ صلاح شُعيب، كسبب في غياب الرؤية الإستراتيجية في فكرة المثقف السوداني، قول الدكتور أحمد عثمان "النخبة السودانية مصابة بغشاوة ضبابية تجعلها من الصعوبة بمكان تحسس مستقبلها، والعمل على تلمس الطريق القويم في مسارها. وللخروج من هذا المأزق، وإنجاز مشروع الدولة السودانية، علينا أولاً أن ننظر إلي مناهج التعليم من دور الحضارة إلي الجامعات"<sup>9</sup>.

عندما اسس د. حيدر ابراهيم مركز الدراسات السودانية رفع شعاره "لنهزم سُلطة البياض وعقل المشافهة" وهي فيما تعني الحث علي الكتابة، التأليف وتحويل المناظرات والحوارات بين النخب الي فعل مكتوب. وقد تناول د. حيدر ابراهيم في جهده الكبير في تطبيق شعاره، الفاعلين الأساسيين في تجهيل وتسطيح المثقف السوداني واسماها "الخفاض الفرعوني لعقل المثقف السوداني".

يرى د.حيدر أن هناك خمس فاعلين في هذا: المؤسسة الدينية المحافظة التي بدأت بهيئة علماء السودان التي رعاها الاستعمار البريطاني، النخبة المثقفة التي قامت الطائفية بتدجينها خلال فترة حاسمة في تكوين عقل كفاء ومجدد، النظام التعليمي بشقيه المدني والديني، بيئة إجتماعية مواتية، تتمثل في مجتمع احتفظ بعلاقات البداوة واخيراً: الاسرة الاستهلاكية بقطيبيها: الحبوبة التي تفرض كل الطقوس والتقاليد البالية في التربية، مع زوجة "متعلمة" ولكنها استهلاكية- تفاخرية تشارك بفعالية في خفاض جديد يطال عقل الزوج الافندي<sup>10</sup>.

منذ الاستقلال وحتى الحكم العسكري الثاني (1969-1985) كان تطور التعليم بطيئاً

---

<sup>9</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك : العلاقة الجدلية بين المثقف والسلطة ، مرجع سابق  
<sup>10</sup> د. حيدر ابراهيم علي: الخفاض الفرعوني لعقل المثقف السوداني ،الثلاثاء، 19 حزيران/يونيو 2012  
<http://www.sudanile.com>

وفي الغالب كميّاً وإن لم يحدث التوسع المطلوب، ولكن الاهتمام ظل على النوعية الجيدة وعلى تطوير كافة مكونات العملية التعليمية من المعلمين، المنهج، الطلاب والبيئة المدرسية. وقد طرحت ثورة أكتوبر ضمن مطالبها استقلال جامعة الخرطوم ولكن لم تتجاوز ذلك السقف كجزء من التنمية المطلوبة لبناء الدولة السودانية الحديثة وإزالة مظاهر التهميش.

يرد كثيراً في تحليل ذلك أن الأحزاب الطائفية الليبرالية كانت تعتمد ذلك خاصة في مناطق نفوذها في المناطق المهمشة، لعلمها بأن التعليم ربما يؤدي إلي انفكاك المرادين من حولها. ولأنني لا أجد أدلة على هذا النقد الدارج، وأرجعه أكثر إلي افتقاد هذه الأحزاب لرؤية شاملة لبناء الوطن وغياب العقد السياسي الاجتماعي لمسار تطور الوطن.

في تجارب العالم المماثلة في ماليزيا والهند ترك المستعمر نظاماً مشابهاً للسودان، ربما اسوأ في ماليزيا بحيث كان الملاي والذين شكلوا أكثر من نصف السكان تقريباً خارج العملية التعليمية، فابتدعوا "نظام تعليم مبدع، روعي فيه التوسع الأفقي لمصلحة السواد الأعظم من المواطنين، والتوسع الرأسي المدروس والمحسوب للقلة المتفوقة، والتوازن الإيجابي بين متطلبات التعليم الأكاديمي والتعليم الفني، ثم إعطاء الأولوية للمناطق المهمشة لتسير بمتوالية هندسية في مجال التعليم العام مقابل متوالية حسابية في المناطق الحضرية التي حظيت بنصيب أوفر في عهد الاستعمار البريطاني والحكومات الوطنية التي أعقبت الاستقلال".

يرى الدكتور مهاتير<sup>11</sup> أن نظام التعليم الأكاديمي، وما صاحبه من تدريب فني ومهني، وتحسين في أجور العاملين كان بمثابة حجر الزاوية وصمام الأمان لنجاح التجربة الماليزية، لأن تنمية القوى البشرية قد أسهمت في خلق قيادات سياسية مؤهلة، ومدركة لطبيعة التحديات التي تواجهها، وكيفية التعامل معها بأسلوب حضاري يتوافق مع متطلبات العصر ومستجداته، وفي رفد الخدمة المدنية العامة ومؤسسات التعليم العام والعالي بكوادر مهنية مؤهلة، وقادرة على حمل الرسالة التنفيذية والمهنية الملقاة على عاتقها. من البديهي أن نخلص أن التعليم وتطوره كان نتيجة لوجود الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف في كل البلاد ولم يكن سبباً لها مبدئياً، ومن ثم أصبح

<sup>11</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك : السلطة وتنازع الولاء في السودان، مرجع سابق

الرافعة الأساسية لنجاح الرؤية الاستراتيجية في تحقيق أهدافها.

في مؤلف مكرس لعلاقة الديمقراطية بالاستنارة والتعليم، ناقش عبد العزيز حسين الصاوي مسيرة الاستنارة في السودان "الأحزاب الكبيرة انتخابياً (الاتحادي الديمقراطي والأمة) لم تكن بيئة ملائمة لإنضاج الرصيد الاستناري النهضوي، بسبب غلبة الثقل الطائفي في تكوينها، بينما الأحزاب الكبيرة نوعياً الأكثر تمثيلاً للقوى الحديثة، الشيوعي والإسلامي، والبعثي في ما بعد، كانت متنافية أيديولوجياً مع الديمقراطية الليبرالية. من هنا، شكّل النمطان العقبة الكبرى في مسار تجذير الديمقراطية كثقافة عامة"<sup>12</sup>.

لجملة أسباب يرى الصاوي أن الأولوية القصوى يجب أن تعطي لهدف التركيز على المنظومة التعليمية، وفي مقاله (لاديموقراطية بدون ديموقراطيين وعقلانيين) يقول: "إن الديمقراطية ليست مجموعة مكونات نظام حكم وإنما أسلوب حياة وطريقة تفكير وسلوك". وينبه الصاوي مراراً إن جوهر الديمقراطية هو استيقاظ وعي المواطن العادي على دوره وحقوقه وواجباته في الحياة العامة السياسية وغير السياسية، باعتباره مصدر التحفيز أو الضغط على القيادات في مختلف مجالات الحياة"<sup>13</sup>.

## التأصيل والتحديث

عندما اتصدي لمناقشة هذا الموضوع الشائك، سيكون مدخلي العلاقة الوثيقة بين التأصيل والتحديث في نظرنا إلي دور الدين في حياتنا، علاقته بالدولة والسياسة وتأثيراتها المتوقعة في صياغة الرؤية السودانية. لم ولن يتمكن مجتمع أن يصوغ رؤية توافقية إذا لم يصل لتوافق أكبر في دور العقيدة في حياتهم، تصوراتها، احكامها وعلاقاتها بنظام حكمهم. هذا الموضوع ليس عابراً في حياتنا او جديداً فقد ثارت حوله الأسئلة منذ الممالك النوبية، المسيحية وعند احتكاك العرب بالسكان، كما إنها كانت

<sup>12</sup> عبد العزيز حسين الصاوي: في السودان كما في غيره: لا ديموقراطية بلا استنارة ، التاريخ : 29-يوليو-2012 العدد: 6832 ، <http://www.alsahafa.sd/details.php?articleid=49188&ispermanent=0>

<sup>13</sup> التقي محمد عثمان: عرض كتاب: ديموقراطيه بلا استناره؟ في الفكر السياسي: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، جريدة الصحافة 13 مارس 2010 ، <http://www.sudanile.com/>

جزءاً من الحراك السياسي منذ سقيفة بني ساعده والصراع حولها منذ الاستقلال.

## احكام ومبادئ الشريعة الإسلامية

تعرف احكام الشريعة الإسلامية "بأنها الأحكام قطعية الثبوت.. قطعية الدلالة من الشريعة"، وبالتالي فهي تفسر بانها ثابتة بتغير الزمان والمكان. هناك خلاف اساسي بين المحثين ودعاة الاسلام السياسي، هذا الخلاف ليس على مبادئ الشريعة، والتي تشترك فيها كثير من القوانين الوضعيّة مع الشريعة الإسلاميّة، لكن الخلاف يأتي في الأحكام.

عرف عبد الرزاق السنهوري مبادئ الشريعة بانها: "كلياتها التي هي ليست محل خلاف بين الفقهاء". اما المبادئ فقد أوردها عبد الرزاق السنهوري من مثل: "لا ضرر ولا ضرار"، "درء المفسد مقدّم على جلب المصالح"، "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، "الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً"، و"الضرورات تبيح المحظورات"<sup>14</sup>.

اما المحكمة الدستورية العليا المصرية فقد فسرت مبادئ الشريعة الإسلامية<sup>15</sup> "بأنها الأحكام قطعية الثبوت.. قطعية الدلالة من الشريعة، وهذه الأحكام قطعية الثبوت والدلالة، في تقديرها، محدودة جداً، لأن بعض آيات القرآن الكريم ولو أنها قطعية الثبوت إلا أنها ليست قطعية الدلالة، بسبب اختلاف المفسرين حول معانيها، كما أن كثيراً من الأحاديث النبوية ليس قطعي الثبوت، حتى لو كان قطعي الدلالة. أما أحكام الشريعة الإسلامية الظنية، أي غير المقطوع بثبوتها أو بداليتها أو بهما معاً، فقد ذهبت المحكمة الدستورية إلي أنه يجوز فيها الاجتهاد تنظيمياً لشؤون العباد، بما يكفل مصالحهم المعتمدة شرعاً، واشترطت هذه الأحكام أن يكون الاجتهاد دوماً واقعاً في إطار الأصول الكلية للشريعة، بما لا يجاوزها كافلاً المقاصد العامة للشريعة بما تقوم عليه من حفاظ على الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وفي هذا السياق

<sup>14</sup> للشيخ أبي عبد القدير القمري: المعنى الحقيقي لقولهم مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع، [http://yaseenrocca.blogspot.com/2012/03/blog-post\\_31.html](http://yaseenrocca.blogspot.com/2012/03/blog-post_31.html)

<sup>15</sup> المحكمة الدستورية العليا المصرية: الدعوى رقم 8 لسنة 17 قضائية المحكمة الدستورية العليا "دستورية"، <http://www1.umn.edu/humanrts/arabic/Egypt-SCC-SC/Egypt-SCC-18-Y17.html>

أجازت أحكام المحكمة الدستورية للمشرع أن يختار من مذهب دون مذهب أو أرجح الأقوال في مذهب من المذاهب، لكي يلزم القضاء بالتقيد به، وفقاً لما يراه ملائماً لظروف المجتمع، ولم تجد مانعاً شرعياً من الأخذ بأقوال الفقهاء من غير المذاهب الأربعة، إذا كان الأخذ بأقوالهم يؤدي إلى جلب صالح عام أو رفع ضرر عام".

### التحديث

انطلق المجددون المعاصرون تأييداً لرأيهم في تغيير الأحكام الثابتة بالنص تبعاً لتغير المصالح بتغير الزمان، محاولين حسب فهمهم الجديد الحذف، الإضافة، التعديل أو التغيير تبعاً لتغير الأحوال. وفي الممارسة العملية فقد استندوا أساساً إلى فهم اجتهادات سيدنا عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، اجتهادات الإمام محمد بن إدريس الشافعي ومقاصد الشريعة للإمام الشاطبي.

### سيدنا عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

يرى المجددون المعاصرون أن سيدنا عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) كان له اجتهادات في قضايا بها نصوص، وهي في "المسائل المبنية على الأدلة الشرعية الصحيحة". أحد أهم مسائل اجتهاد سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قطع العطاء الذي جعله القرآن الكريم للمؤلفة قلوبهم تبعاً لتغير المصلحة بتغير الأزمان على الرغم من أن النص القرآني لا يزال ثابتاً. يقول النويهي عن ذلك " فأى شيء هذا أن لم يكن الغاء تشريع قرآني حين اعتقد ان الظروف المتغيرة لم تعد تجيزه؟ لكن هل يجزئ علماؤنا وكتابنا على مواجهة هذه الحقيقة الصريحة". وفي هذا قال سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : " لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعطيهم، والإسلام يومئذٍ ضعيف، أما اليوم فقد أعز الله دينه، وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولا يتسع هذا الدين إلا من يدخله راغباً مؤمناً"<sup>16</sup>.

ويرد المخالفون أن مصارف الزكاة محددة لأصناف ثمانية معروفة أوصافهم، فإذا لم

<sup>16</sup> فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي: السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن

الخطاب: سعة إدراكه وبعد نظره وصدق فراسته، بتاريخ: 02-1994-

<http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=1318&id=114&sid=658&ssid=674&ssid=78828>

يوجد صنف منهم في أي عصر من العصور، مثل عدم وجود صنف مثل (في الرقاب) في هذا العصر، فكل ما يمكن أن يقال إن مصرفاً من مصارف الزكاة موقوف حتى يوجد من يستحقه، ويرون أن كل ما فعله عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو أنه حكم بعدم وجود صنف المؤلفه قلوبهم في عصره، وليس ذلك الغاء المؤلفه قلوبهم في أي عصر أعطوا وإذا لم يوجدوا لم يعطوا. إلا أن سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في زمن خلافته قدم على هذا الحكم الأصلي حكماً آخر، وهو إسقاط السهم لتحقيق مناط آخر عنده غير المنطوق العام الذي من أجله أعطي السهم للمؤلفه قلوبهم وهو تعزيز الإسلام، فلم تبق هناك حاجة إلي استمالتهم.

كذلك اجتهد سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عام المجاعة (الرمادة) في وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين وهو قطع اليد، وفي هذا تغيير لحكم السرقة الثابت بنص القرآن عملاً بتغير الظروف التي أحاطت بالسرقة. كان سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يقول: "لأن أُعْطِلَ الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أُقِيمَها بالشبهات"، سيدنا عمر لا يرى أن يقام حد قطع اليد في أثناء المعركة، اقتباساً من رسول الله عليه الصلاة والسلام، لو أردت أن تعاقب هذا الجندي في ساحة المعركة، فأهون له أن ينضم إلي الأعداء ويرتد، وينقل أسرار المسلمين إلي الأعداء، لذلك لا يجوز أن يقام الحد، ولا سيما قطع يد السارق في أثناء الحرب.

ويقول ابن القيم عن ذلك "فإن السنة إذا كانت سنة مجاعة وشدة غلب على الناس الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلي ما يسد به رمقه - وهذه شبهة قوية تدرأ القطع عن المحتاج وهي أقوى من كثير من الشبه التي يذكرها كثير من الفقهاء"<sup>17</sup>. ويرى د. القرضاوي موقف سيدنا عمر رضي الله كجزء من اعتبار الصحابة للمصلحة العامة "هي التي وجَّهت عمر إلي وضع الخراج، وتدوين الدواوين، وتمصير الأمصار، وأخذ السجون، والتعزير بعقوبات شتى، مثل إراقة اللبن المغشوش، ومشاطرة الولاة أموالهم إذا تاجروا أثناء ولايتهم"<sup>18</sup>.

<sup>17</sup> الشيخ الدكتور جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين: التجديد مطلب زمني يفرضه الربيع العربي عشرية التجديد توجبها، 2012/08/11، <http://alwatan.kuwait.tt/article/details.aspx?Id=213680>

<sup>18</sup> موقع القرضاوي: المصلحة المرسله وشروط العمل بها، <http://www.qaradawi.net/fatawaahkam/30/1470-2012-01-11-062000.html>

## الإمام الشافعي

يعتبر الإمام الشافعي هو الذي وضع أصول مذهبه بنفسه، وبدأ بناء المذهب على هذه الأصول، وكان كتابي "الرسالة الأولى والثاني" من أول ما كُتب في علم أصول الفقه، فالإمام الشافعي أول من وضع كتاباً مستقلاً في علم الأصول. ولقد ساعد الشافعي في بنائه لعلم الأصول أنه استطاع أن يَسْتَشِفَّ مناهج المدارس الفقهية التي سبقت، فهو تلميذ المدرسة المكية، وتلقى العلم على الإمام مالك بن أنس، وظلَّ الإمام الشافعي معه حتى توفاه الله. ثم لما ورد بغداد، التقى بحامل سيف الأحناف، ولسانهم: محمد بن الحسن الشيباني، تلميذ أبي حنيفة النجيب. لما التقى به الإمام الشافعي، حرص على أخذ علم مدرسة العراق منه، فأكَبَّ عليه مجتهداً في التحصيل، حريصاً على الشاردة قبل الواردة. وشرع الشافعي، سليل المدرسة المكية والمدنية، بمقارنة علم مدرسة أبي حنيفة بالمدرستين الآخرين<sup>19</sup>.

عاصر الإمام الشافعي (150-204هـ) الخليل ابن أحمد الفراهيدي (718-789م)، وتلميذه سيبويه، وكان الخليل مؤسس علم (العروض) وسيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، المعروف بسيبويه (140 هـ/760 م-180 هـ/796 م)، مؤسس قواعد علم النحو وصاحب المؤلف الشهير (الكتاب: أول كتاب منهجي ينسق ويدون قواعد اللغة العربية). لما كان الخليل قد وضع قوانين ضبط الشعر، وسيبويه وضع قوانين لضبط النحو، بدأ الشافعي بوضع قوانين للفقه، بادئاً بتعريف بيان (خطاب) القرآن "هي في آن واحد اصول مضبوطة وطريقة في التعبير عنها مخصوصة".

وحدد الشافعي هذه الاصول إنطلاقاً من ترتيب درجات البيان القرآني ووضع الاساس لقوانين تفسيرها. حصر الشافعي درجات البيان في القرآن في خمسة انواع: الأول: ما أبانه الله لخلقه نصاً بحيث لا يحتاج إلي تأويل أو توضيح لأنه واضح بذاته؛ ثانياً: ما أبانه الله لخلقه نصاً ولكنه احتاج لنوع من التوضيح؛ ثالثاً: ما أحكم الله فرضه في كتابه وبين كيف هو على لسان نبيه؛ رابعاً: ما سكنت عنه القرآن ولكن الرسول

<sup>19</sup> عمر الردادى: المذاهب الفقهية الاربعه:

<http://www.theacademysite.com/vb/showthread.php?t=15170>



صلوات الله عليه أبنائه فصار في قوة الوجوه السابقة. وأخيراً ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه. يقول الشافعي " ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حُلٌّ أو حُرْمٌ إلا من جهة العلم. وجهة العلم: الخبر في الكتاب والسنة، أو الإجماع أو القياس".

هكذا أسس الشافعي أصول الفقه، بل لأصول الفكر العربي كله مقيماً هذا التأسيس على الربط القياسي بين الجزء والكل، بين الفرع والأصل، بقياس الغائب على الشاهد، واعتبار النص السلطة المرجعية الأساسية للعقل العربي وفاعليته، كما سار على نفس الدرب، الأشعري في علم الكلام، فقد أسس نظرية أهل السنة في الخلافة مرتكزاً على نفس المنهج<sup>20</sup>.

هذا هو المحدد الذي سوف يبدأ منه لفيف من قادة التيارات الإسلامية والحداثيين في التعامل مع التأصيل والتحديث. لقد انطلق كافة الذين طرحوا مسائل التجديد، تكييف الوضع المعاصر مع أصول الدين من أطروحات وضعت أسسه الأولى والنهائية والمستمرة خلال "عصر التدوين" منذ أواخر الدولة الأموية "وهو العصر الذي تم فيه جمع الأحاديث النبوية، ووضع تفاسير القرآن، وما تلا ذلك من بدء كتابة التأريخ الإسلامي، وأسس علم النحو، وقواعد الفقه، وعلم الكلام، وتشكيل المذاهب والفرق الإسلامية. لقد كان عصر التدوين نقطة البداية لتكوين النظام المعرفي للثقافة العربية فيه اكتمل التكوين، ولم يتغير منذ ذلك الوقت وما زال سائداً في ثقافتنا حتى اليوم، فهو الإطار المرجعي للعقل العربي، وعلى هذا فإن بنية الثقافة العربية ذات زمن واحد، زمن راكد يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية"<sup>21</sup>.

استند المجددون المعاصرون على القيمة الضخمة لتراث الإمام الشافعي، أن الإمام الشافعي كان يفتي في العراق بفتاوي، ولما ذهب إلي مصر أصبح يفتي بخلاف ذلك لاختلاف البيئة بين مصر والعراق وبالتالي أصبحت له فتاوي تناسب أهل العراق وفتاوي تناسب أهل مصر. عندما سئل الإمام الشافعي عن ذلك أجاب: "لقد تغير الزمان، وتغير المكان، وتغيرت أحوال الناس، كما تغير علم الشافعي، فازداد علماً

<sup>20</sup> محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثامنة،

2007

<sup>21</sup> فتحي سيد فرج: نقد العقل العربي، الحوار المتمدن-العدد: 2163 - 1 / 1 / 2008 - 02:49

**وخبرة**"<sup>22</sup>. ويرى اخرون أسبابُ تغييرِ الإمام لبعضِ اجتهاداته من مراجعتهُ لأصوله في الاستنباط، وإعادتهُ لتصنيفِ كتابه (الرسالة) في أصول الفقه، مما أدى إلي اختلاف اجتهاده في الفروع، مراجعتهُ لاجتهاداته في الفروع والنظر فيها، وإعادتهُ الاجتهادَ بناءً على قياسٍ أرجح، ودليلٍ أقوى، شأنٌ من يتحرى الحقَّ ويرى رأيه صواباً مُحتملاً للخطأ. واعظم حجة هؤلاء النفر إنما يرجع سبب الاختلاف إلي إحكام مذهبه وضبطه بالأدلة الشرعية كما قال تلميذه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لما قيل له: "ما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحب إليك أم التي عند المصريين؟"، قال "عليك بالكتب التي وضعها بمصر، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلي مصر فأحكم ذلك"<sup>23</sup>.

### الإمام الشاطبي

إبراهيم بن موسى بن محمد أبوإسحاق اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، وكنيته التي عرف بها أبو إسحاق، المولود بغرناطة، الأندلس المتوفي يوم الثلاثاء من شهر شعبان سنة 790 هجرية، والذي ضمن افكاره في كتاب "مقاصد الشريعة". وقد اعتبرت "نظرية المقاصد" من أهم نظريات الفقه الإسلامي بعد نظرية الإمام الشافعي في تأسيس أصول الفقه وباعث النهضة في علم الفقه. مقاصد الشريعة للإمام الشاطبي لم تكن لتأخذ شهرتها، ولم تكن لتوجد أصلاً لولا اعتماده على المذهب المالكي الذي يعد مذهب المصلحة والاستحسان، وهو المذهب الحازم في درء المفساد، والبحث عن علة التكاليفات في المعاملات وأسبابها، ليتحقق بالسبب ما لا يتحقق بالنص.

بني الإمام الشاطبي افكاره على تراث زاخرٍ بالعلم والاجتهاد منذ أيام الصحابة، مروورا بالأئمة الأربعة الكبار، الإمام الجويني، الغزالي والعز بن عبد السلام (منهج العز بن عبد السلام في البحث: يدعو إلي إعمال العقل في استنباط الأحكام، وفي التعرف على المصالح. ويرى أن الأحكام إن لم يمكن استنباطها من الكتاب أو السنة

<sup>22</sup> د. عبد الرحمن عباد: الخلافات بين المذاهب الإسلامية،

<http://www.passia.org/meetings/rsunit/Islamic-Schools-Jurisprudence.htm>

<sup>23</sup> الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف: خطأ القول بأن الإمام الشافعي غير مذهبه في مصر مراعاة للعوائد والبيئة المصرية، <http://www.dorar.net/art/409>

أو الإجماع أو القياس، فيجب استنباطها بما يحقق مصلحة ويدراً مفسدة، والعقل هو أداة هذا الاستنباط).

وضع الإمام الشاطبي اسس نظرية المقاصد "اتفقت الأمة، بل سائر الملل، على أن الشريعة الإسلامية وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، هي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري". ويرى أن المولى عز وجل، ولتعظيم مكانة هذه الكليات الخمس في الشريعة فقد ضمنت الشريعة تدليل الصعاب أمام مهمة الحفاظ عليها، فأتيحت الرخص بعد الرخص، لكي يرفع عن الناس الحرج، ويضمن أن تدوم "مقاصد الشريعة" وألا تتبدل مهما تبدلت الأزمان والأحوال.

فقد حفظ الله إقامة الصلاة بإتاحة الرخص في الطهارة والوضوء، وتيسيرها على الناس بالتيمم في حالة عدم وجود ماء طاهر، أباح صلاة القصر، رفع القضاء في حالة الإغماء، أتاح الصلاة قاعداً وعلى جنب، كما أتاح الإفطار في رمضان في السفر والمرض، كما حفظ النفس بتحليل ما تم تحريمه في حالة الاضطرار، كتحليل أكل الميتة ولحم الخنزير وشرب المحرمات في حالة العطش الشديد، كما أحل الزواج بدون تسمية الصداق تيسيراً، لحفظ النسل، كما أباح الطلاق والخلع، وفي المال حل الاقتراض الحسن، والتمتع بالطيبات من الحلال، تبشيع الإسراف والتبذير، وبالنسبة للعقل فقد رفع الحرج عن المكروه والمضطر إذا انتابه مرض أو عطش أو جوع. وقد لخص الإمام الشاطبي مجمل نظرية المقاصد الكلية للشريعة في قولته الماثورة "حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله"<sup>24</sup>.

### وثيقة الأزهر حول مستقبل مصر

بمبادرة كريمة من الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر اجتمعت كوكبة من المثقفين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية مع عدد من كبار العلماء والمفكرين في الأزهر الشريف، وتدارسوا خلال اجتماعات عدة مقتضيات اللحظة التاريخية الفارقة التي تمر بها مصر بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير وأهميتها في توجيه مستقبل مصر نحو غاياته النبيلة وحقوق شعبها في الحرية والكرامة

<sup>24</sup> وائل السمرى: الامام الشاطبي، [www1.youm7.com/News.asp?NewsID=747647](http://www1.youm7.com/News.asp?NewsID=747647)

والمساواة والعدالة الإجتماعية..... من هنا نعلن توافقنا نحن المجتمعين على المبادئ التالية لتحديد طبيعة المرجعية الإسلامية النيرة، التي تتمثل أساساً في عدد من القضايا الكلية، المستخلصة من النصوص الشرعية القطعية الثبوت والدلالة، بوصفها المعبرة عن الفهم الصحيح للدين، ونجملها في المحاور التالية:

**أولاً:** دعم تأسيس الدولة الوطنية الدستورية الديمقراطية الحديثة، التي تعتمد على دستور ترتضيه الأمة، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسساتها القانونية الحاكمة. ويحدد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكل أفرادها على قدم المساواة، بحيث تكون سلطة التشريع فيها لنواب الشعب؛ بما يتوافق مع المفهوم الإسلامي الصحيح، حيث لم يعرف الإسلام لا في تشريعاته، ولا حضارته، ولا تأريخه ما يعرف في الثقافات الأخرى بالدولة الدينية الكهنوتية التي تسلطت على الناس، وعانت منه البشرية في بعض مراحل التأريخ، بل ترك للناس إدارة مجتمعاتهم واختيار الآليات والمؤسسات المحققة لمصالحهم، شريطة أن تكون المبادئ الكلية للشرعية الإسلامية هي المصدر الأساس للتشريع، وبما يضمن لأتباع الديانات السماوية الأخرى الاحتكام إلي شرائعهم الدينية في قضايا الأحوال الشخصية.

**ثانياً:** اعتماد النظام الديمقراطي، القائم على الانتخاب الحر المباشر، الذي هو الصيغة العصرية لتحقيق مبادئ الشوري الإسلامية، بما يضمنه من تعددية ومن تداول سلمي للسلطة، ومن تحديد للاختصاصات، مراقبة للأداء، محاسبة للمسؤولين أمام ممثلي الشعب، توخي منافع الناس ومصالحهم العامة في جميع التشريعات والقرارات، وإدارة شئون الدولة بالقانون والقانون وحده-، ملاحقة الفساد وتحقيق الشفافية التامة وحرية الحصول على المعلومات وتداولها.

**ثالثاً:** الالتزام بمنظومة الحريات الأساسية في الفكر والرأي، مع الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والمرأة والطفل، والتأكيد على مبدأ التعددية واحترام الأديان السماوية، واعتبار المواطنة مناهج المسؤولية في المجتمع.

**رابعاً:** الاحترام التام لأداب الاختلاف وأخلاقيات الحوار، وضرورة اجتناب التكفير والتخوين واستغلال الدين واستخدامه لبعث الفرقة والتناكب والعداء بين المواطنين، مع اعتبار الحث على الفتنة الطائفية والدعوات العنصرية جريمة في حق الوطن، ووجوب اعتماد الحوار المتكافئ والاحترام المتبادل والتعويل عليهما في التعامل بين

فئات الشعب المختلفة، دون أية تفرقة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين.

**خامساً:** تأكيد الالتزام بالمواثيق والقرارات الدولية، والتمسك بالمنجزات الحضارية في العلاقات الإنسانية، المتوافقة مع التقاليد السمحة للثقافة الإسلامية والعربية، والمتسقة مع الخبرة الحضارية الطويلة للشعب المصري في عصوره المختلفة، وما قدمه من نماذج فائقة في التعايش السلمي ونشدان الخير للإنسانية كلها.

**سادساً:** الحرص التام على صيانة كرامة الأمة المصرية والحفاظ على عزتها الوطنية، وتأكيد الحماية التامة والاحترام الكامل لدور العبادة لأتباع الديانات السماوية الثلاث، وضمان الممارسة الحرة لجميع الشعائر الدينية دون أية معوقات، واحترام جميع مظاهر العبادة بمختلف أشكالها، دون تسفيهٍ لثقافة الشعب أو تشويهٍ لتقاليده الأصيلة، وكذلك الحرص التام على صيانة حرية التعبير والإبداع الفني والأدبي في إطار منظومة قيمنا الحضارية الثابتة.

**سابعاً:** اعتبار التعليم والبحث العلمي ودخول عصر المعرفة قاطرة التقدم الحضاري في مصر، وتكريس كل الجهود لتدارك ما فاتنا في هذه المجالات، وحشد طاقة المجتمع كله لمحو الأمية، وإستثمار الثروة البشرية وتحقيق المشروعات المستقبلية الكبرى.

**ثامناً:** إعمال فقه الأولويات في تحقيق التنمية والعدالة الإجتماعية، ومواجهة الاستبداد ومكافحة الفساد والقضاء على البطالة، وبما يفجر طاقات المجتمع وإبداعاته في الجوانب الإقتصادية والبرامج الإجتماعية والثقافية والإعلامية على أن يأتي ذلك على رأس الأولويات التي يتبناها شعبنا في نهضته الراهنة، مع اعتبار الرعاية الصحية الحقيقية والجادة واجب الدولة تجاه كل المواطنين جميعاً.

**تاسعاً:** بناء علاقات مصر بأشقائها العرب ومحيطها الإسلامي ودائرتها الأفريقية والعالمية، ومناصرة الحق الفلسطيني، والحفاظ على استقلال الإرادة المصرية، واسترجاع الدور القيادي التاريخي على أساس التعاون على الخير المشترك وتحقيق مصلحة الشعوب في إطار من الندية والاستقلال التام، ومتابعة المشاركة في الجهد الإنساني النبيل لتقدم البشرية، والحفاظ على البيئة وتحقيق السلام العادل بين الأمم.

**عاشراً:** تأييد مشروع استقلال مؤسسة الأزهر، وعودة "هيئة كبار العلماء"

اختصاصها بترشيح واختيار شيخ الأزهر، والعمل على تجديد مناهج التعليم الأزهرى؛ ليسترد دوره الفكري الأصيل، وتأثيره العالمي في مختلف الأنحاء.

**حادي عشر:** اعتبار الأزهر الشريف هو الجهة المختصة التي يُرجع إليها في شؤون الإسلام وعلومه وتراثه واجتهاداته الفقهية والفكرية الحديثة، مع عدم مصادرة حق الجميع في إبداء الرأي متى تحققت فيه الشروط العلمية اللازمة، وبشرط الالتزام بأداب الحوار، واحترام ما توافق عليه علماء الأمة.

## الحدث

عندما نعالج مسألة الحدث هنا، نعالجها من منطلق علاقتها بالرؤية وتأثيرها في السابق واللاحق على غياب الرؤية الإستراتيجية في مفكرة المثقف السوداني. تناول د. صدقي كبلو مسألة المثقفين وتابعها منذ دخول الاستعمار، يهمن من الجيل الذي أنشأ مؤتمر الخريجين والذي يرى أن جزءاً منه رهن الحركة الوطنية لصالح الطائفية، عندما ووجه بصعاب تنظيم الجماهير بعد رفض الإدارة الإستعمارية لمذكرتهم عام 1942، أما الجيل الذي أتى بعدهم فقد تفتح وعيه بعد الحرب العالمية الثانية وساهم في بناء الحركات الجماهيرية والديمقراطية. إذن تبلورت بعد الحرب الاتجاهات الأساسية في السياسة السودانية: الاتحادية، الأمة، الشيوعي والإخوان المسلمين وتيارات صغيرة أخرى، وقد قاد هذا إلى تبلور "مشاريع وطنية" لاحقاً<sup>25</sup>.

عند الاستقلال 1956 برز مشروعان واضحان: الأول مشروع التيار الرئيسي وتسانده مجموعة صغيرة آنذاك من تيار الدولة الدينية، وهو الذي يستند إلى الليبرالية السياسية والحرية الاقتصادية وفي ملامح كثيرة استمراراً لطريق التنمية الإستعمارية، والثاني: المشروع الاشتراكي الذي استند إلى اليسار بكافة أطرافه بما فيها القومي العربي أيام الناصرية وأطراف من الليبراليين.

عندما وفد الشيوعيون السودانيون، الذين عملوا في الأحزاب الشيوعية المصرية وخاصة "حدثو" وتولى الشهيد عبد الخالق محجوب القيادة، كان الحزب الوليد يبدأ من

<sup>25</sup> د. صدقي كبلو: حول النخبة والجهوية والاثنية، سلسلة قضايا سودانية -4- دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، 2008

حيث انتهت إليه التجربة الشيوعية المصرية وخزانة ضخمة للتجارب والخيبات والدروس المستفادة. كان أبرز هذه الدروس الذهنية التحالفية، الجبهات الموسعة، غلبة العمل الميداني والتنظيمي، قلة الاشتغال بالعمل الفكري والمحاولات الحثيثة لتوطين الماركسية. على الصعيد الموضوعي فقد اتجه الحزب في عمله الاساسي لمناطق تركيز اكبر تجمعات الطبقة العاملة المستهدفة في سكك حديد السودان في عطبرة وتواصلها على طول الخطوط، تجمع الصناعات في العاصمة المثالثة، تركيز المزارعين في منطقة الجزيرة واستطاع بناء ركائز متينة منذ البداية. توجه الحزب أيضاً لقطاعات كانت على مشارف التحديث مثل الطلاب، الشباب والنساء كممثل لتطلعاتهم. كان هذا الاساس الذي انبني عليه أكبر حزب من نوعه في المنطقة والذي مثل مشروعه نقطة جذب فعالة في المجتمع السوداني طوال الخمسينات والستينات.

ارتبط نشوء الإخوان المسلمين في السودان بتأثير مباشر من حركة الإخوان المسلمين المصرية " أوكل إلي الشيخ الأستاذ علي طالب الله قيادة هذه المجموعة والعمل عبر مكونات الشعب السوداني الدينية والاجتماعية لبناء جماعة الإخوان المسلمين، وبالفعل تم في عام 1945 م العمل باسم جماعة الإخوان المسلمين بقيادة الشيخ علي طالب الله ومركزها في أم درمان، وركزت على التجمعات الدينية الصوفية التي تشكل خارطة العمل الإسلامي بالسودان في تلك الحقبة"<sup>26</sup>.

لم تشكل حركة الإخوان المسلمين إلا تأثيراً متواضعاً لأنها لم تكن قد صاغت أي برنامج، كان تركيزها على التكوين بعد إن عانت من انشقاقات ابرزها حزب التحرير الإسلامي، حتى أن هناك خلاف حول تأريخ نشأتها كحزب. لكن كافة التيارات التي سوف تتبنى الدولة الدينية ركزت على الدستور الإسلامي. ولكن النفوذ الواسع لاحزاب الليبرالية والطائفية المرتبطة بالسوق العالمي، وضعف التأثير المتواضع لتيار الدولة الدينية، جعلها لا تستجيب للاصوات التي نادى بالشرعية الإسلامية.

انطلق د. عبد الله علي ابراهيم في مناقشة الشريعة الإسلامية والحداثة، وأخذ مثلاً الصراع بين القضاء المدني والشرعي كجزء من مقاومة الاستعمار. وقد قدم للكتاب، " الشريعة الإسلامية والحداثة: جدل العصر والاصل"، الاستاذان حلمي شعراوي

---

<sup>26</sup> عبده مصطفى دسوقي: نشأة دعوة الإخوان المسلمين في السودان، <http://www.ikhwanwiki.com>

والمستشار طارق البشري. وجد الكتاب شيوعاً كبيراً ونقداً مركزاً من جهات عديدة وأثار نقاشات موسعة. ربما ما يثير الانتباه أن الذين اختارهم الكاتب لتقديم الكتاب: الأستاذ حلمي شعراوي وهو يساري علماني والمستشار طارق البشري والذي كانت مسيرته أقرب للدكتور عبد الله نفسه<sup>27</sup>. ويورد عبد الله علي إبراهيم في كتابه الإهداء التالي "إلي أستاذنا المرحوم عبد الخالق محجوب كنا قد إنتمرنا أو "تأمرنا" على شيء من هذا الكتاب في فترة من الزمان عند منتصف ستينات القرن الماضي. واستعجلت أنت تخطو ونيدا شجاعا في السكة الخطرة. أو أبطأت أنا. وهذا بعض كسبي من المحضر السابق" صدقة جارية لروحك السمع العذب، يا أيها الرجل الوسيم"<sup>28</sup>.

وقد لاحظ الخاتم عدلان إستخدام، عبد الله علي إبراهيم، في إهداء يوجهه إلي عبد الخالق محجوب، لمصطلحين أساسيين في فكر حسن عبد الله الترابي، هما مصطلح الإلتزام...ومصطلح "الكسب"، الذي يصور العمل السياسي والفكري، ليس كعطاء وجود به المرء طوعاً على الآخرين، بل ككسب يأخذه الفرد عنوه من الجماعة، ويأخذه الحزب غصباً من المجتمع"<sup>29</sup>.

إن الاستعانة في المقدمة بكاتب يساري وكاتب علماني تبني الهوية الإسلامية، وإشارة إلي زعيم الحزب الشيوعي واستعمال مفردات زعيم تيار الدولة الدينية في السودان، ملاحظات ليست عابرة. أن تأريخ السودان ومحاولات نخبه ومجتمعه للخروج من "الثنائية المتباغضة للحدث والتقليد" كانت الملمح الأكثر تأثيراً على غياب الرؤية الإستراتيجية.

إذا ربطنا هذا بتاريخ إصدار الكتاب مع إعتلاء الإنفاذ لسدة الحكم نرى أن هذا كان إدراكاً مبكراً من كاتب ذكي، أن القضايا المعلقة التي لم تحسم بشكل واضح وبتوافق مجتمعي ستظل تطاردنا في كافة المنعرجات، وما محاولة د.عبد الله علي إبراهيم

<sup>27</sup> طارق البشري يروي قصة تحوله من العلمانية إلى الإسلام، الإثنين 02 أبريل 2007 ، <http://www.islammemo.cc/Tahkikat/hewarat/2007/04/02/39062.html>

<sup>28</sup> د.عبد الله علي إبراهيم في مناقشة الشريعة الإسلامية والحدث: جدل العصر والاصل، [www.kotobarabia.com](http://www.kotobarabia.com)

<sup>29</sup> الخاتم عدلان: بين الدكتور عبد الله علي إبراهيم، والأستاذ الشهيد عبد الخالق محجوب: التأمر والإعدام المعنوي والمزاوجة المستحيلة، سودانيزاولاينز



لإعادة الاعتبار لقضية جدل العصر والأصل وإشاراتهِ لأبرز ممثلي التيارين إلا تعبيراً عن أن هذا الجدل انفتح على مصراعيه، خاصة بعد وصول تيارات الدولة الدينية للحكم في عدد من البلدان بعد ثورات وانتخابات.

فلماذا وصلنا لهذا الطريق المغلق الذي يحتاج فيه مفكرون - من المفترض أنهم- خارج التيارات المتصارعة بمحاولات التوفيق بينهما، أو التبرير لها في رأي آخرين "أريد في المقالات التي أنشرها متابعة أن أرد الشريعة إلي مطلبها الحق أن تكون مصدراً للقوانين في بلد للمسلمين. ولست أرى في مطلبها هذا بأساً أو ظلماً لغير المسلمين. فهي عندي مما يسع التشريع الوطني العام ويهش له متى خلا دعائها من نازعة "الوطنية الإسلامية" وبذلوا سماحتها للوطن لا يفرقون بين أهله متوسلين إلي ذلك بحرفة القانون عارضين اجتهادهم من خلال مؤسسات التشريع بالدولة. ولست ادعي علماً فيما يجد غير أنني اتفاعل بما سلف من خصوبة الشريعة وحسن تدريب وذوق المشرعين بها من قضاة المحاكم الشرعية على عهد الاستعمار وماتلاه في ترتيب قوانين التزم خير الأسرة المسلمة وانتصفت للمرأة ما وسعها. وهي ما اسميه "التقليد الشرعي السوداني"<sup>30</sup>.

لقد تناول الكتاب مدخلاً كيف أن مشكلة قطاعية بين القضاء المدني والشرعي (شهد السودان صراعات عديدة مثلها من قبيل الصراع بين خريجي الثانوي والجامعيين في الخدمة المدنية، الفنيين والمهندسين، الجهاز الإداري والإدارة الأهلية وهكذا، والتي كانت تحتاج إدارياً إلي تخطيط حاذق يقوم على الخبرة والكفاية المهنية) تحولت إلي أحلاف مع القوى السياسية المؤيدة للرؤية الإسلامية وفجرت الصراع بإقصاء الحزب الشيوعي السوداني وطرده من البرلمان بعد ثورة أكتوبر 1964م، وتأثيره على قادة الليبرالية وتخطيهم في المساومة والمزايدة على الدستور الإسلامي.

وربما يمكن أن نصل لنفس الاستنتاجات التي توصلت إليها قراءة د. أحمد إبراهيم أبوشوك على مقالات الدكتور عبد الله علي إبراهيم عن مذكرة الشفيع أحمد الشيخ عن الإدارة الأهلية "إن عرضنا لمذكرة الشفيع أحمد الشيخ، وقراءة الدكتور عبد الله علي إبراهيم لمفرداتها، وطبيعة النتائج التي ترتبت على قرار حل الإدارة الأهلية اللاحق، تقودنا إلي القول إن العقل الاستراتيجي في السودان يعاني من مشكلات

<sup>30</sup> د. عبد الله علي إبراهيم في مناقشة الشريعة الإسلامية والحداثة: جدل العصر والأصل، مرجع سابق

مزمنة، لأنه يميل إلى تفكير النسق (القوة القطاعية) الذي يفتقر إلى الدراسات الموضوعية في اتخاذ أي قرار يهم مصلحة البلاد والعباد، لأنه يرجح مصالحه القطاعية على حساب المصلحة العامة"<sup>31</sup>.

وقد كان الشهيد محمود محمد طه قد طرح منذ البداية بالغاء ثنائية القضاء المدني والشرعي والتعليم الديني والمدني. وقف الأستاذ محمود محمد طه، ضد التخصص في الدين. وقال إن ظاهرة رجال الدين، التي نراها الآن، واحدة من علامات انحطاط المسلمين. وهي ظاهرة وافدة على الإسلام، من التقاليد الدينية الكهنوتية، اليهودية، والمسيحية. وقال إن صدر الإسلام لم يعرف ظاهرة (رجال الدين)، وعلى كل مسلم، ومسلمة أن يكونا (رجل وإمرأة دين)<sup>32</sup>.

لكن سؤال الاصاله والحدثة لم يكن بعيداً عن القضايا المطروحة في الساحة. وتطور السؤال عبر العصور من الملك الآله في الممالك النوبية القديمة، إلى الملوك القساوسة في النوبة المسيحية، إلى حدوث انفصال قاطع بين مكوك وسلطين السودان والسلطة الدينية إلى رجال الدين أو الشيوخ. عرض الاستاذ عبد الرحيم ابو الغيث في أول دراسة من نوعها منشورة عن تطور الفقه الإسلامي في السودان، كيفية تداخل الفقهاء والمتصوفة في حكم السكان، وتكوّن أنظمة الحكم من تداخل شديد بين الشرع، العادات والاعراف المحلية، مثل إعتقاد سلطنة الفور على الشرع الإسلامي وقانون دالي وهي قوانين عرفية منذ القرن الخامس عشر<sup>33</sup>.

كانت السلطنات السودانية أول تدشين للدولة المدنية التي كانت الشريعة الإسلامية فيها جزءاً من قوانينها، لكن لم تكن وحدها فقد طوع السودانيون شريعتهم لما توارثوه من تقاليد وأعراف وخبرات. وغير الاحوال الشخصية التي كانت تراعي بدقة، فقد تكيفت الساحة مع ثوابت الشريعة ومتغير العصور، كما اوضح مولانا حسين سيد أحمد المفتي في كتابه إن الشريعة البيضاء وهي نوع من النزاعات يتم الحكم فيها بالغرامة

<sup>31</sup> د. أحمد إبراهيم أبوشوك: الدكتور عبد الله علي إبراهيم ومذكرة الشفيع أحمد الشيخ عن الإدارة الأهلية الإثنيين، سودانايل

<sup>32</sup> النور حمد: نظرة نقدية لطرح الدكتور، عبد الله علي إبراهيم: التقليد الشرعي والحدثة ، <http://www.madarat.org>

<sup>33</sup> الاستاذ عبد الرحيم ابراهيم ابو الغيث: تاريخ الفقه الاسلامي في السودان، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم ، السودان، 2011

في حالات الزنى وغيرها<sup>34</sup>.

جاء الحكم التركي ليكون أول من نظم القضاء الشرعي ورأسه قاضي عموم السودان. لكن أيضاً بدأ التعليم المدني وشجع التعليم الديني وأنشأ رواق السنارية في الازهر. سارت المهدية في نفس طريق التعليم الديني فقد جاء الإمام من المنبع الصوفي ولكن أوقف العمل بكل المذاهب الفقهية واعتمد القرآن والسنة أساساً بجانب تفسيراته.

وخلافاً لما اوردناه من المراجع التي اوردت أن السودانيين قد وضعوا قوانينهم من الشرع، العادات، التقاليد والاعراف بما يتناسب مع واقعهم، فقد تناول د. عبد الله علي ابراهيم القوانين الإستعمارية وفند مرجعياتها باعتبارها قد فارقت الدرب الذي كانت عليه القوانين منذ أكثر من خمس قرون. كان هذا المدخل الذي تناول به جمع من الكتاب المميزين أطروحة د. عبد الله علي ابراهيم، اعتراضاً وقبولاً. لا يختلف أي من المنتقدين على أن دستور وقوانين دولة ما بعد الاستقلال كانت في حاجة موضوعية إلي التصدي لقضايا العلاقات المعقدة بين الموروث الوطني ومفاهيم دولة المستعمر.

السلوك السائد في تعامل سلطات ما بعد الاستقلال انها اختارت المضي في نفس سياقات ما قبل الاستعمار ولم تطرح أي رؤية إستراتيجية بديلة. وسوف تسوقها الاحداث وتوازنات القوى والفاعلية السياسية لتتار العدالة الإجتماعية في النصف الثاني من الستينات، إلي التنبه، ومن ثم الرد بعنف ضد قواعد الديمقراطية الثابتة. وتنبه عبد الخالق محجوب مبكراً إلي ضرورة التعامل مع هذه الإشكالية الكامنة، لكن ظل هذا التنبه اقلية نظرياً وسوف يشحذ سيوفه عند الاضطراب بعد حل الحزب الشيوعي.

وجاء كذلك تنبه مبكر من الإمام الصديق المهدي في خطابه البرنامجي في الاحتفال بعيد الهجرة 1961 بعد تكوين الجبهة الوطنية ضد الحكم العسكري الأول<sup>35</sup> "قيام حكم ديمقراطي منبثق من مبادئ الاسلام والواقع السوداني مستمد من تجارب الماضي ما يضمن للمواطنين حقوقهم في ظل قضاء نظيف مستقل يسيره تشريع عادل؛ للأفراد حقوقهم في التعبير، النشر والتنظيم". هذا التعايش بين القوانين الوضعية المدنية وقوانين الأحوال الشخصية استمر لقراءة نصف القرن وكانت نهايته منتظرة في

<sup>34</sup> حسين سيد احمد المفتي: تطور السلطة القضائية في السودان ، الخرطوم 1959

<sup>35</sup> الوثيقة رقم 12: جهاد في سبيل الديمقراطية: مطلب الامة: اشرف على اعداده الصادق المهدي، موقع حزب الامة القومي

منعرج اللوى.

عند التعامل مع التفجر الكبير للفاعلية السياسية وال جماهيرية لتيار العدالة الإجتماعية (استعمل هذا التعبير بدلاً عن المشروع الاشتراكي لأن إدخال الشريعة الإسلامية في معادلة السلطة دفعها العوامل السياسية، توازنات القوى والصراع بين المشاريع الاقتصادية الإجتماعية بعد ثورة أكتوبر والظروف العالمية السائدة آنذاك)، تبلورت ثلاثة تيارات عريضة من التفسير من القوى الداعية لتأصيل الحداثة.

أولاً: التيار الرئيسي من احزاب الليبرالية الطائفية: أوضحنا في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية، عند معالجة الرؤية المهدية عن المعالجة المفاهيمية للفكر الصوفي للشريعة الإسلامية عن طريق الحقيقة الظاهرة ومعرفة الصوفي "الباطن"، أي ثنائية الحقيقة. ضمن هذا الإطار النظري كان تيار الليبرالية الطائفية (الختمية والانصار) قادرين على التعايش وعندما عبر عن تأصيل التحديث، كان حديث الإمام الصديق المهدي في خطابه البرنامجي في الاحتفال بعيد الهجرة 1961 متسقاً عن "قيام حكم ديمقراطي منبثق من مبادئ الاسلام".

ثانياً: الفكر الجمهوري: بدأ الشهيد محمود محمد طه تطوير فكره الاساسي من نقطة جوهرية عند محاولة تطبيق الشريعة الإسلامية، أن أحكام الشريعة قائمة على مبادئ اساسيين قطعية الثبوت والدلالة. تم تحديد هذا التفسير في القرون الاربعة الاوائل للهجرة وتثبيتهما بواسطة الفقهاء، بالتالي قيد الاجتهاد في إطار الشريعة.

بدأ الشهيد محمود من حقيقة أولية، وهي أن كثيراً من تفسيرات فقهاء القرون الماضية لم تعد صالحة. ولتجاوز تفسيرات القرون الماضية، اتخذ نفس الإطار النظري المعرفي للصوفية "التأويل" كشكل من المعرفة، ولكن الشهيد محمود صاغها في اطار عقلاني " المخرج الذكي، والأكثر عملية، وفعالية، من هذا المأزق التاريخي، هو ما جاء به الأستاذ محمود، حين دعا إلى الانتقال من نصوص القرآن المدني، إلى نصوص القرآن المكي. فالحقوق الأساسية لا وجود لها في أحكام الشريعة، وإنما هي موجودة فقط، في أصول القرآن"<sup>36</sup>.

وسوف تواجه كافة تيارات الدولة الدينية هذا المأزق التاريخي، من تركيا إلى مصر،

<sup>36</sup> النور حمد: نظرة نقدية لطرح الدكتور، عبد الله علي إبراهيم: التقليد الشرعي والحداثة، <http://www.madarat.org/modules.php?name=News&file=article&sid=66>

في محاولة التجاور الاصولي التحديثي اما باعتماد مبادئ الاسلام او الاصرار على الشريعة الإسلامية والتي ترجعنا إلي الاحكام والقوانين.

تيار الإسلام السياسي: إحداهما برزت في المحيط الطلابي تحت اسم (حركة التحرير الإسلامي) والآخرى برزت في المحيط المجتمعي تحت اسم "الإخوان المسلمين" نتيجة لظروف نشأتها كامتداد لحركة الإخوان المسلمين في مصر، والذي وجد طريقه للسودان في منتصف الأربعينيات على أيادي معاوني حسن البنا الذين أرسلهم للسودان، وعرفت الحركة بعد ذلك بـ "الإخوان المسلمين" ثم "جبهة الميثاق الإسلامي" في الفترة (1965/ 1969م)، كما عرفت في الجامعات باسم "الاتجاه الإسلامي" ثم في الفترة (1985/ 1989م) اختارت اسم "الجبهة الإسلامية القومية"، وفي جميع الحالات كان الإخوان المسلمون هم النواة الأساسية لهذه التجمعات. وتشكل خطابها السياسي والاجتماعي متعلقاً بفكرة الإصلاح من خلال القانون أي الشريعة والدستور الإسلامي.

في مؤتمر العيد في أغسطس عام 1955م تم بيان اسم الحركة وأهدافها وكتابة دستورها، تم اختيار اسم "الإخوان المسلمون" وتم تعريف الإخوان بأنهم حركة إسلامية مقرها السودان وأكدت كلمة مقرها السودان، أنها مستقلة نوعاً ما عن حركة الإخوان في مصر. وأدت الاستجابة لتحدي اختيار اسم الإخوان المسلمون لردود أفعال مختلفة، كما مهدت لأول انقسام في تأريخ الحركة الإسلامية، حيث تبرأ الأستاذ المرحوم علي طالب الله – أول أمين عام لحركة الإخوان المسلمين على المستوى الشعبي- من تيار مؤتمر 55 ووصفهم بأنهم لا أخوان ولا مسلمين، لأنهم أولاً خرجوا عليه وعلى إمامته، كما خرجوا على المنظمة الأم في مصر، وكذلك أنسلخ الأستاذ المرحوم بابكر كرار ومجموعة من مؤيديه، نسبة لإسقاط الاسم التاريخي "التحرير الإسلامي"<sup>37</sup>.

مع إعادة تكوين الإخوان المسلمين بزعامة الدكتور الترابي بعد ثورة أكتوبر، في وسط تصاعد فيه تيار العدالة الاجتماعية، وكما كتب الدكتور الترابي فقد خالف التراث المصري وأتجه إلي العمل على نفس الفئات التي استهدفها الشيوعيون وتبني وسائلهم التنظيمية واعتمد على أبنية مشابهة في العمل النقابي والقطاعي. كما أخذ من

---

<sup>37</sup> البروفيسور حسن مكي محمد أحمد: تجربة الحركة الإسلامية في السودان بمناسبة مرور ستين عاماً على تأسيسها، [www.iua.edu.sd/](http://www.iua.edu.sd/)

حزب الامة نهج التنظيم للقطاع الإجتماعي التقليدي وأهمية بناء مؤسسة مالية للكيان السياسي<sup>38</sup>.

حدث تحول أيضاً في المشروع الإقتصادي الإجتماعي الذي تحول من العدالة الرومانسية التي ميزت نشأتها الأولى (حتى إن أحد اجنحتها، تجاوبت انطلاقاً من خلفياتها الإسلامية مع الاشتراكية التي كانت طاغية في العالم، وتسمت باسم الحزب الاشتراكي الإسلامي)، تبنت المشروع الرأسمالي الذي سيتطور لاحقاً إلى الرأسمالية "الطفيلية"، لتنفيذ مشروعها: الدولة الدينية<sup>39</sup>.

إتجه الإخوان المسلمين فوراً لتبني الشريعة الإسلامية وسوف نرى أن المشروع قام وترعرع بكاملة على الاحكام والقوانين، ولم يشغل بأي تأصيل أو تلاقيح مع معطيات العصر (الإتجاه الذي سوف يبدأ في طرقة الدكتور التراي بدأ من نهاية السبعينات لبناء مؤسسات مهياة لاستلام الحكم وتسارع بعد المفاصلة بعد ان تهاوى البناء الشاهق الذي أفنى عمره في تشييده لأن الطبع الذي طبع عليه تلاميذه من التمكين، فقه الضرورة وغيرها انتصر ووجد نفسه في خلاء التاريخ). وقد بني تنظيم تيار الدولة الدينية تحركه السياسي على ثلاث استراتيجيات:

أولاً: التعامل مع كافة التيارات التي تعمل في مجال العقيدة ولها أي نظرة مغايرة عن خطها السياسي والفكري من سلفيين وبعض الصوفية، إما باستيعابها في التنظيم الجبهوي "جبهة الميثاق الاسلامي (1964-1969)". أما التي طرحت فكراً مغايراً قام على محاولة الوصول – حسب القدرة والاستعداد على الاجتهاد - لتوائم حسن بين ما وصلت إليه الحياة المعاصرة من مفاهيم راسخة حول الحقوق، الحريات والتعامل مع الآخر، فقد ووجهت بعداء وإستعداد بالغ منذ الستينات بتهم الردة والزندقة وأخراج الإخوان الجمهوريين من الملة وحظرها ومطاردتها. صراع أداره الإخوان الجمهوريين على مستوى الفكر والحوار وأداره الإخوان المسلمين في خطب الجوامع والمحاكم، ولم تتوقف الحملة الهجومية حتى تم إعدام زعيمها الشهيد محمود محمد طه بتهمة الردة عام 1985.

ثانياً: هزيمة المشروع الاشتراكي، الذي يمثل خطراً إقتصادياً وإجتماعياً، باخراجه

<sup>38</sup> الامام الصادق المهدي: ميزان المصير الوطني في السودان، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010.

<sup>39</sup> [http://alakhbar.sd/sd/index.php?option=com\\_content&task...w&id=1916&Itemid=315](http://alakhbar.sd/sd/index.php?option=com_content&task...w&id=1916&Itemid=315)

من الملة وحظره ومطاردته. وهو ماحدث من حل الحزب الشيوعي وطرد نوابه من البرلمان في نوفمبر 1965، وقد استعان بحلفاء كانوا يستشعرون نفس الخطر في حزب الامة "تحالف طبيعي يمكنه أن يقوم بدور دفاعي في حماية المجتمع من الهجمة الشيوعية وبدور ايجابي يقدم الاسلام نظاماً حديثاً وبديلاً حضارياً بأسلوب شعبي ديمقراطي"<sup>40</sup>. " كان الرئيس اسماعيل الأزهرى قد استشعر خطر الحزب الشيوعي..عندما فاز السيد عبد الخالق على السيد أحمد زين العابدين في دائرة الأزهرى بأمدرمان شمال... استقبل الرئيس الأزهرى المظاهرات وأيد مطالبها "<sup>41</sup>.

ثالثاً: تطوير العلاقة مع الاحزاب الوطنية، خاصة الحزب الوطني الاتحادي موئل القوى الحديثة التي تستهدفها جبهة الميثاق الاسلامي، والتي تريد أن تعود بها من غياهب الضلال عن طريق حملات اغتيال الشخصية، التشكيك والتكفير لقياداتها العلمانية والديمقراطية، أو نصب الفخاخ لتجرجرها بحملة الدستور الاسلامي 1967 التي تبنتها الاحزاب، وعلى أثر ذلك كونت لجنة قومية للدستور والتي اقترحت على أن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي لقوانين الدولة. "تتَّكَّب القادة الوطنيون لشعائر الدين وشرائعه، وتورطوا في الفشل والفساد. وأخفقت أكثر النظم في توطيد الطمأنينة والاستقرار للمجتمع أو في تأمين حرمة الوطن والدفاع عن ديار الإسلام. هكذا أزدحم العالم الإسلامي بصور الفساد والفجور في الأخلاق، والاستبداد والاضطراب في السياسة والخيبة والتخلف في الاقتصاد."<sup>42</sup>.

مع حزب الامة كان نفس التوجه وهو محاولة اختراق قواعدها وقد نجحت الجبهة في أن تعمل تحت ظل الإمام الصادق المهدي الذي وفر الغطاء الطائفي الاساسي لانتشارها، لأنه كان في أشد الحاجة لميزتهم الحركية في صراعه على الإمامة والرئاسة مع عمه الشهيد الإمام الهادي المهدي.

### الحدّاثَة بين العلمانية والشريعة الإسلامية

عندما يطرح التجديد الديني يطرح بموازاة الشيوعية أولاً والعلمانية ثانياً، كمضاد لهما

<sup>40</sup> الصادق المهدي: الوفاق والفراق بين الأمة والجبهة في السودان: 58-1995م: سلسلة آفاق

جديدة (6): الناشر دائرة الإعلام الخارجي حزب الأمة 1999م.

<sup>41</sup> في احتفالية بلوغ السيد الصادق المهدي 71 عاماً، [http://www.sudaneseonline.com/cgi-](http://www.sudaneseonline.com/cgi-bin/sdb/2bb.cgi?seq=msg&board=3&msg=1166887339)

<sup>42</sup> الدكتور/ حسن الترابي: الحركة الإسلامية في السودان، مرجع سابق

وهذا شائع في الفكر الإسلامي، ولا أتجنى إذا قلت أن التجديد الديني بني أطروحاته كلها على أساس أنه المعادل الموضوعي لهما. ويمكن أن نرصد الصراع بين العلمانية والتيارات الإسلامية عبر عدة محطات تاريخية. كان الاحتكاك الأعنف والأكثر تأثيراً الاستعمار المباشر في القرن الثامن عشر وتبلور مفاهيم العالم الغربي وطرحها بقوة السلاح، الاعلام والتنفيذ المباشر باعتبارها الأكثر فاعلية في التعامل مع قضايا البشرية والعصر. تواجدت "الثنائية المتباغضة للحدث والتقليد"، في كل مناحي الحياة السودانية من القضاء، التعليم والاحزاب السياسية التي يقودها مثقفون ولكن يمسك بمفاصلها سادة الطائفية<sup>43</sup>. أفرز هذا الواقع الملتبس ثلاثة تيارات في العالم الإسلامي بأسره:

**التيار الأول:** النخب اليسارية والقومية كانت هي الأعلى صوتاً والأكثر تأثيراً طوال الخمسينات والستينات، وعندما اقتربت من التأصيل والحدث طرحت العدالة الاجتماعية والتحديث والعصرنة كبديل عن البحث عن التوازن المطلوب بين نخبة منفتحة على العالم وجمهور لا زال يتخبط بين الاساطير والشعوذة. المشكلة أن هذه المبادئ البديلة تم مهاجمة أسسها الفكرية والفلسفية بضراوة أكثر من تيار الدولة الدينية. فقد تم تمزيق صورة الليبرالية السياسية والديمقراطية واعتبرت الدول التي تتبناها والاحزاب التي تؤمن بها عدوها التاريخي. أي إنها كانت في الحقيقة تحطم القوى الأساسية والاسس المتينة التي كانت تحمي مدنية الدولة.

ثم أن النخب اليسارية والقومية، التي وصلت السلطة، انشغلت بها وبدلاً من ان توجه جهدها لرفع القدرات المعرفية للمجتمعات، وجدت في المجتمعات ذات الثقافة الريفية والقبلية، المتعطشة لمستقبل أفضل، قبولاً واتجهت نحوها مباشرة بشعارات بسيطة وجذابة (الإصلاح الزراعي، التأمين، القطاع العام... الخ). تمت عسكرة الحياة المدنية، السياسية والاجتماعية وتولى أعضاء التنظيمات العسكرية قيادة مؤسسات الدولة واتبع فيها الضبط والربط المعهود في الجيوش، وتمثلت هذه المظاهر بجعل الحزب الحاكم الحزب الأوحد، والنقابات تابعة لها، منظمات المجتمع المدني منبثقة عنها، الاعلام معبراً عن فكرها وخزينة الدولة جيبها الخاص. وعندما نرى رصيدها المعرفي والحدائي فقد تركت الجهل يعم واعتمدت نفس الآليات السلطانية للملك العضوض التي

<sup>43</sup> د. عبد الله علي ابراهيم في مناقشة الشريعة الإسلامية والحدث: مرجع سابق



ادعت أنها جاءت لتغييرها.

**التيار الثاني:** عندما بدأ المفكرون المسلمون النظر في هذه الإشكالية بدأت حركة الإصلاح الديني (جمال الدين الافغاني، محمد عبده وغيرهم) في البحث عن نموذج ثقافي سياسي مستقل يستطيع أن يجمع بين أصول وأساسيات الإسلام، وفي الوقت نفسه يكون مواكباً لتطور الحضارة الغربية<sup>44</sup>، أي من دون تناقض بين التراث والمعاصرة، الأصالة والحداثة، الأصل والعصر، حسب المصطلحات المتداولة الآن. إن الفكرة الأساسية هي اقتباس ونقل النتاجات المادية للحضارة مع استبعاد الأفكار، القيم والفلسفات التي ارتكز عليها هذا التطور المادي.

عندما تصدي الشيخ محمد عبده لهذه القضية الحيوية من ربط الإسلام والعقل. كان ذلك السؤال المدخلي، الذي أثاره المعتزلة للعثور على مفتاح المعرفة في بداية مشوارهم الكلامي، كبدية لتحقيق الربط بين العقل والإسلام، وعلاقة كل منهما بالآخر، ومدى صلاحية كل منهما. يعتبر القول بالقدر، المسألة الكلامية الخلافية الأولى التي أسست لإنشقاق الفرق الكلامية، وكان القول بالقدر مندغماً في القول بالاعتزال، وهذان القولان يعدان في تأريخ الإسلام المبكر مذهباً واحداً، وانشق لاحقاً إلي مذهبين (القدرية) و(المعتزلة)، لكن بقي القول بالقدر أساساً محكماً لدى المعتزلة وخصوصاً المتأخرين منهم.

ظهر في غضون هذه الفترة أبو الحسن الأشعري (توفي 324 - 936م)، وكان مداوماً على الاعتزال مدة أربعين سنة، ثم كتب النقوض عليه، وأسس مذهباً معتدلاً ليس معتزلاً عقلياً ولا حنبلياً نقلياً، وإنما طريقة تقترب من أهل الحديث مع افراد مساحة للعقل. وقد سار ابن سينا وابن رشد في نفس المنحى، وكلاهما ممن منح العقل سلطة إشرافية على الشريعة، وجعلاً من الأخيرة تابعاً للعقل، تدور في مداره. يقول ابن رشد (520 - 595هـ): "وعلى العلماء أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة وأن يعملوا من الشريعة ما يوافق الحكمة وأن يتأولوا من الشريعة ما لا يوافق الحكمة حتى يكون عملهم في كل شيء موافقاً للحكمة... فإن أدى النظر البرهاني إلي نحو ما من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكنت عنه في الشرع أو عرف به. فإن كان مما قد سكنت عنه فلا تعارض هنالك.. وإن كانت الشريعة نطقت

<sup>44</sup> حيدر ابراهيم على: التيارات السياسية وقضية الديمقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1996

به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفاً. فإن كان موافقاً، فلا قول هنالك. وإن كان مخالفاً، طلب هنالك تأويله".

يحظى العقل بأهمية مركزية في مشروع الشيخ محمد عبده الاصلاحي، فقد عدّ النظر العقلي، الأصل الأول للإسلام " فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي"، وذهب في الأصل الثاني "تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض....إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلي الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل"<sup>45</sup>.

ودخل السودان في هذا الجدل من منطق مختلف عندما وجب على المهدي مواجهة التصدي للغازي التركي صاحب الخلافة الإسلامية. لكن لم يطل الوقت بالسودانيين فقد واجهوا المستعمر في بداية القرن العشرين. لكن الغزو الإستعماري جاء أيضاً في صورة مصر ممتطية المراكب الحديدية الإنجليزية. تيار المهديين استمر في التيار الاساسي وممثليه في السودان واستطاعت التعايش مع الأخذ بما يناسبها من القوانين ونظم الحكم والديمقراطية وغيرها. وكان الاهتمام أكثر بالمقاصد العليا مثل العدل والحرية والمساواة وبالتالي لم تر تناقضاً في تبنيها المدنية في أنظمة الدولة.

**التيار الثالث:** تيارات الدولة الدينية من السلفيين والإخوان المسلمين، والتي قامت دعوتها على رفض كل ما هو من خارج الموروث الإسلامي وتبنت قطيعة كاملة معها. ولأن الدعوة نفسها كانت متصادمة مع الروح المتسامحة والليبرالية السياسية وفهم الدخول للإسلام من باب ما أسماه فهمي هويدي "الإسلام البنائي" وليس "الإسلام العقابي"<sup>46</sup>، فقد كانت هناك حاجة إلي عدو موضوعي ومثلت الشيوعية المدخل المناسب. لذلك توجهت بكل مدفعيتها إلي التجيش ضدها وكان البديل هو أحكام الشريعة الإسلامية.

بعد سقوط التجربة الشيوعية وأقول نجم دولها وتراجع أطروحات العدالة الاجتماعية، وجهت مدفعيتها تجاه العلمانية. العدو الجديد تمثل في تيار الدولة المسؤولة والرأسمالية

<sup>45</sup> فؤاد إبراهيم : قراءة اخرى في حركة الاحياء الديني، <http://www.kalema.net/v1/?rpt=302&art>  
<sup>46</sup> الإسلاميون وحكم السودان، حسن الترابي/ أمين عام حزب المؤتمر الشعبي المعارض تاريخ الحلقة: <http://aljazeera.net> ، 2012/9/17

المنتجة والغرب بشكل عام (أستعمل الكلمة بتحفظ وأقصد بها الرأسمالية التي تعمل في الإستثمار طويل الأجل) واحزابها. أدى عدم توصل التيار الرئيسي في معظم الدول العربية إلي رؤية إستراتيجية (بعكس أغلب الدول الاسيوية المسلمة) جعلها العدو الاساسي لتيار الدولة الدينية ودخلت العلمانية سوق الشعارات لتعني الكفر الصريح، الإباحية... الخ من مفردات اللغة التي سادت لردح من الزمان.

فرق المغفور له عبد الوهاب المسيري - مفكر وكاتب إسلامي- بين تعريف ما أسماه العلمانية الشاملة بمعنى فصل مجمل حياة الإنسان عن جميع القيم الإنسانية، الأخلاقية والدينية، والعلمانية الجزئية بانها فصل الدين عن الدولة، والتي تمت في منتصف القرن التاسع عشر حينما كانت الدولة كياناً صغيراً لا يتحكم في أشياء كثيرة ولا يتحكم في الحياة الخاصة<sup>47</sup>. ناقش المفكر الدكتور سيد القمني أطروحات عبد الوهاب المسيري وطرح أن العلمانية لا تعني تحرير المجتمع من الدين كما يفهم البعض وإنما تعني تحرير المجتمع من سلطة بعينها خاصة سلطة رجال الدين<sup>48</sup>.

يطرح د. محمد جلال أحمد هاشم إستقراءً جديداً لمصطلح العلمانية، وذلك تحريراً له من ربكة العوامل الخاصة بأوروبا والتي لعبت دوراً كبيراً في تشكيله، ويدعو إلي إجراء مصالحة بين الدين مطلقاً والإسلام تخصيصاً من ناحية، وبين العلمانية من الناحية الأخرى؟ وذلك انتقالاً من ديمقراطية العلمانية إلي شيء أقرب إلي أسلمة العلمانية (أو قل: أسلمة الديمقراطية). في المقابل فما انتجته التجربة السودانية مع دعاة الدولة الدينية أن تحولت إلي دولة فاشية، وتشدد دعاة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية إلي تكفير كل من يدعو إلي أي تجديد أو معاصرة حماية لدولتهم رغم إزدياد فقرائها وعاهراتها وتراكم قضايا فسادها وأكل المال بالباطل<sup>49</sup>.

## الحداثة والسياسة

عندما نال السودان استقلاله عام 1956 لم يكن في مفكرة النخبة التي خلفت المستعمر

<sup>47</sup> عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2002

<sup>48</sup> الاتجاه المعاكس: العلمانية حل للقضاء على الطائفية والعرقية ، <http://www.aljazeera.net>

<sup>49</sup> محمد جلال أحمد هاشم: حول العلمانية، الديمقراطية والإسلام، اعداد د. حيدر ابراهيم علي، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 2009

أي رؤية إستراتيجية بديلة، بل واصلت في طريق رأسمالية ما بعد المستعمر سواء في الديمقراطية الأولى، الحكم العسكري الأول والديمقراطية الثانية. ولأن الأمور كلها كانت تحت السيطرة فلم تكن بحاجة لاستدعاء أي متغيرات أخرى، لكن التغيرات الكبرى بعد أكتوبر هي التي فعلت. فقد برز إلي السطح برنامج العدالة الإجتماعية بقوة وفعالية واصبح برنامجاً وبدلاً حقيقياً له أنصار ومنظمات وتنظيمات. لم تكن تأثيرات ثورة أكتوبر وحدها، لكن المناخ العام والذي بلغت فيه الاتجاهات الاشتراكية عالمياً أوجها. وقد أدى هذا إلي تبني مختلف القوى الدستور الإسلامي لأسباب مختلفة.

**أولاً:** برزت بعد أكتوبر قوى جهوية عديدة تتبني مطالب على علاقة بالعدالة الإجتماعية وإن لم تكن يسارية من جبهة نهضة دارفور، إعادة تنشيط مؤتمر البجة، جبال النوبة، الفونج وغيرها، والتي كانت تهز مواقع الاحزاب الطائفية وتطرح أجندة جديدة.

**ثانياً:** اكتساب الحركة النقابية لنفوذ واسع إثر دورها الحاسم في إنجاح ثورة أكتوبر وكان قادة اكبر منظمات السودان النقابية من اتحاد العمال واتحاد المزارعين من الحزب الشيوعي، وبقية المهنيين من اليسار. ووضح من انتخابات الخريجين أن اليسار كاتجاه غالب على الشريحة المتعلمة في السودان.

**ثالثاً:** أثر هذا الاتجاه العام على مجمل الحركة السياسية والذي ظهر في تبني حزب الشعب (حزب الطائفة الختمية) للاشتراكية العربية، بروز تيار يسار الوسط في الحزب الاتحادي، طرح الإمام الصادق لشعار السندكالية الوثيق الصلة بالحركة الفابية.. وغيرها

القوى التي كانت تريد السير في نفس رأسمالية ما بعد المستعمر، مع مؤثرات لكل طرف ذكرناها لاحقاً، أدت لبروز فكرة الدستور الإسلامي والتي عنت ببساطة إخراج برنامج العدالة الإجتماعية من الساحة السياسية. وهكذا فقد بدأت بحل الحزب الشيوعي ومحاولة نفيه من الوجود. وهكذا تم التحالف بين الإمام الصادق المهدي والدكتور الترابي لتبني شعار الدستور الاسلامي في الديمقراطية الثانية، فاتحة الطريق لهذا الدرب المؤلم الذي سار فيه السودان.

بعد فشل الهجوم من الخارج 1976 وطرح المصالحة الوطنية نظر قادة الإخوان إليها

باعتبارها خطوة في اتجاه تحقيق هدفهم الاستراتيجي، المتمثل في إحتلال موقع أساسي في الحياة السياسية السودانية، إن لم يكن أهم مواقعها. وصاغت إستراتيجية الاختراق الداخلي "إن جوهر إستراتيجية الإخوان خلال أعوام النميري يمكن وصفه بأنه سباق مع الزمن لتحويل الحركة إلى قوة سياسية رئيسية قبل انهيار نظام النميري. وقد حاول الإخوان الإبقاء على النميري حتى يكونوا قادرين على وراثته، أو يكونوا - على الأقل- قوة رئيسية مشاركة في النظام الذي سيرته".

وكانت إستراتيجيتهم تشمل أموراً منها: تقوية نفوذهم في الحركة الطلابية، إختراق الجيش، النقابات، القضاء، بناء مؤسسات مالية وإقتصادية إسلامية. "كانت إستراتيجية النميري مبنية على إعطاء الحركة الإسلامية مبرراً لتثبيت الوضع القائم وزيادة فرص بقائه في السلطة، من خلال احتواء قوة سياسية فنية ضمن صفه، كانت إستراتيجية الحركة مبنية على استغلال فرصة لتغيير الوضع القائم، وتحضير البديل الإسلامي للنظام، من خلال "وراثته الأرض من بعده أو حتى برغمه"<sup>50</sup>.

لكن الحركة الجماهيرية الواسعة التي انتظمت البلاد كانت أكبر من قدرة هذا التحالف النفعي الانتهازي والذي سخر منه منصور خالد " التركيب الإسلامي الغريب الذي كان فيه النميري إماماً والتراشي مؤذناً" حسب تعبيره. فدار النظام المايوي دورته الثالثة وتربع على الوطن لباساً لبوس الإسلام بقوانين سبتمبر. حدث تحول ضخم في تنظيم الإخوان في سنوات المصالحة فقد نجحت في الاستفادة من هذه الفترة إلى الحد الأقصى وجنت مكاسب إستراتيجية:

أولاً: النمو والامتداد السريع بفضل حرية العمل التي كسبتها من المصالحة. وتعددت واجهات العمل الإسلامي، مثل: "منظمة الدعوة الإسلامية" "جماعة الفكر والثقافة الإسلامية" "جمعية الإصلاح والمواساة" "الوكالة الإسلامية الإفريقية للإغاثة" "جمعية رائدات النهضة" ... إلخ .

ثانياً: اتسعت دائرة العلاقات العامة الداخلية والخارجية التي كانت الحركة في حاجة

---

<sup>50</sup> علي الزبيق: تجربة الحركة الإسلامية السودانية ، 29 نوفمبر 2007، <http://alialzebk2.maktoobblog.com/660109>

إليها؛

ثالثاً: اكتسبت بعض الخبرة بأمور الدولة؛

رابعاً: إختراق أجهزة الجيش والأمن، التعرف على بنية الجيش الداخلية، توزيع بعض العناصر في مواقع مختلفة واستمالة بعض القيادات باستخدام أساليب متنوعة.

خامساً: اما أخطرها فقد كان بناء قاعدة مالية قوية عبر المؤسسات المالية والإقتصادية التي سمح النميري بإقامتها ضمن برنامج تطبيق الشريعة. ومن أهم هذه المؤسسات البنوك الإسلامية التي ظهرت في السودان في تلك الفترة. لقد تحول التنظيم إلى الممثل الأكبر للرأسمالية "الطفيلية". تتحفظ د. فاطمة بابكر محمود في كتابها: "الرأسمالية السودانية...أطليعة للتنمية؟"، على الصاق وصف الطفيلية باعتبار أن هناك تناقضاً بينها وبين الرأسمالية الصناعية، وتتحفظ أيضاً على إستعمالها لوصف التداول وهذا باعتبار أن الرأسمالية التجارية والائتمانية هما جزء من دوران رأس المال. وتوضح أن هناك خصائص لرأسمالية الإنقاذ: إنها من فئة الشباب الذين لم يرثوا أو يعملوا لبناء هذه الاموال ولكن استفادوا من تسهيلات الدولة او باعطائهم توكيلات نزعت من رأسماليين غير منتمين للتنظيم، إنهم اتجهوا للإستثمار في العقارات، أنهم لا يعيدون الإستثمار في السودان ولكن تصدر كودائع او إستثمارات واخيرا إنها تتجه نحو التجارة والائتمان او الصناعات الخفيفة والتركيبية.

يصف د. التيجاني عبد القادر حامد هذا التحول "فكرة المصارف الإسلامية لم تنشئها الحركة الإسلامية ... وأنا لا أعتقد أن الحركة الإسلامية خططت لإدارة هذه المصارف بصورة كاملة لكن كانت تظن أنها يمكن أن تستفيد بصورة غير مباشرة من حركة البنوك الإسلامية وتستفيد بصورة مباشرة بأيضاح النموذج الإسلامي الإقتصادي نفسه أكثر من فوائد مادية أو فوائد وظيفية. والدور الذي كان منوطاً بعناصر الحركة الإسلامية في المصارف الإسلامية هو تمكين واستكشاف النموذج الإقتصادي وتجربته لمرحلة الدولة لكن بكل أسف اتجهت الأنظار إلى مسألة التمويل والأموال والتخديم ونسي النموذج المصرفي"<sup>51</sup>.

<sup>51</sup> أ.د التيجاني عبد القادر حامد: تجربة الحركة الإسلامية السودانية ، الاثنين، 18 يونيو 2012 ، [http://www.ashoroq.net/index.php?option=com\\_content&view=article&id=24480](http://www.ashoroq.net/index.php?option=com_content&view=article&id=24480)

بعد إنتفاضة 1985 أنشأ حزب الجبهة الإسلامية القومية، بالتحالف مع بيرقراطية الدولة المايوية الطفيلية، كان الاساس الذي قام عليه الإنقاذ لتنفيذ السيناريو الفعلي الذي تم بناؤه على مدى السنوات. ربما من الافضل القول أن الإنقاذ نفسه كان للحفاظ على هذا الاقتصاد الموازي الذي تم تهديده بقرب إحلال السلام في السودان والتغييرات المتوقعة في بنية السلطة.

اما بعد الإنقاذ فقد وصفها د. طارق أحمد عثمان ببراعة فائقة "كما أن الحركة لم تقدم المثال الحي في توظيف المال بشكل صحيح بما يضمن حقوق المحرومين..... وحتى عندما أصبحت الحركة دولة قدمت مثالها أقرب إلي النموذج الرأسمالي الغربي بمصطلحات فقهية إسلامية، الأمر الذي أنتج طبقة دينية سياسية جديدة ساهمت في قيامها البيوتات المالية الإسلامية والعالمية، تعمل هذه الطبقة علي إعادة دمج الاقتصاد بشروط محسنة للنخبة الحاكمة وبئيسة لمجمل الاقتصاد الوطني. وكان أكبر النقد الذي يوجه للحركة أنها لاتمثل الجائعين والمعدمين والمحرومين، بل تمثل أصحاب المصالح الإقتصادية وجماعات المنتفعين والتجار ولكن مع تطور الحركة وتحولها إلي دولة لم تعد تمثل هؤلاء وتركز المال والسلطان في أيدي الحركة بل وفي أيدي بعض المجموعات بها، بما هدد مستقبلها الإجتماعي، وقادها إلي خصومة دائمة من المجتمع الذي تعيش فيه"<sup>52</sup>.



---

<sup>52</sup> د. طارق أحمد عثمان: الحركة الإسلامية الحديثة في السودان ومساءلة التغيير الاجتماعي، <http://tanweer.sd>

## الفصل الثاني: الحداثة والمحدثين

وضع د. النور حمد إشكالية التقليد والحداثة في إطارها الذي نراه أصبح جزءاً من النقاش العام في تطور الثورات العربية لدولة الديمقراطية والحداثة "محمد عبده شأنه شأن غيره، من رواد النهضة الدينية الحديثة، مثل جمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، وسيد أحمد خان، وغيرهم... والسمة الأساسية التي تجمع بين كل هؤلاء، هي الالتفاف حول سلطة النصوص الصريحة"<sup>53</sup>.

عند مناقشة د. النور حمد<sup>54</sup> لكتاب عبد الله علي إبراهيم (التقليد الشرعي والحداثة)، مس العوامل الموضوعية لإشكالية الاجتهاد والتجديد "عُرف عن الدكتور حسن الترابي أنه يجتهد، لكي يجعل الشريعة قادرة على استيعاب طاقات الحياة الحديثة، ومستجيبة لحاجاتها... غير أن الدكتور الترابي، يفعل ذلك بتغافل تام، لنصوص الشريعة. وهو يفعل ذلك، مثله مثل كثيرين غيره، ممن ينتهجون منهج التجديد، المتجاهل لسلطة النص. وهذا المنهج، يُظهر الدكتور الترابي، أراد أم أبي، كمن يقول للناس: أنا مرجعية دينية، ومن حقي أن آتي من الأحكام، بما يخالف نصوص الشريعة، وأن على الناس أن يأخذوا ما أقول به، حتى وإن خالف ظاهر النص، ما دام ما أقول به، يحل إشكالية تناقض نصوص الشريعة مع بنية الواقع المعاصر. ولذلك فقد كتب الترابي في تشجيع ممارسة الفنون، من رسم، وتلوين، وتصوير، ونحت، ورقص، وغيرها، مما لم تشجع عليه الشريعة، أصلاً. وتجاهل في ذلك، سلطة النصوص. ولكن أنظر إلي أين انتهى الأمر بالترابي. فهذا هو قد أُخرج من الساحة كلياً! أعني، ساحة التجديد الديني، وساحة الفعل السياسي الذي يستمد شرعيته من مرتكزات دينية.... ورجعت كل اجتهادات الترابي، إلي نقطة الصفر، مرة

<sup>53</sup> النور حمد: نظرة نقدية لطرح الدكتور، عبد الله علي إبراهيم: التقليد الشرعي والحداثة، <http://www.madarat.org>

<sup>54</sup> النور حمد: التقليد الشرعي والحداثة ، مرجع سابق



أخرى. والسبب هو تجاهل سلطة النص....الشاهد هنا، أن أي اجتهاد يتغافل مواجهة النصوص، ويتجاهل ضرورة تأسيس قيم الحداثة، على سلطة النص المقدس، اجتهاد مقضي عليه بالردة، وبالسقوط كرة أخرى، في بئر السلف العميقة".

الجزء الأول من تشخيص د. النور حمد موضوعي وقد حدث ما كتب تماماً، لكن ليس لأنه تعرض لسلطة النص المقدس، والتي أوردها د. النور حمد للانتصار لرأيه في صوابية مفهوم الفكر الجمهوري، لكن لأنه تعرض لسلطة تفسير النص المقدس الذي كان الدكتور الترابي أحد الذين دعوا زمناً طويلاً لتقديسه (في خطابه التحشيدي العاطفي لانصاره) والذي يحرسه كهنة لايقبلون له تبديلاً.

عندما أتناول التأصيل والتحديث فإنني سأقصر حديثي على الذين حاولوا هذا في السودان حصراً، وهذا لأن السودان الواقع على تخوم العالم العربي والإسلامي بعيد نوعاً ما عن التأثير في المجري الثقافي العام على هذه المنطقة وذلك لأسباب عديدة منها أن السودانيين ظلوا لفترات طويلة شفاهيين لا يقربون الكتابة إلا أمانى<sup>55</sup>، سوي الكتابة في الصحف، المؤلفات الدارجة التي تميل إلى المحلية والقصر ومدولة القضايا الحركية اليومية، وإنهم لم ينطلقوا من تأسيس نظري، والأخيرة كانت ثالثة الأثافي في إضعاف الأثر على الغير لأنها بدلاً من أن تستن الحوار مدخلاً، جعلت من العنف والإقصاء مصيراً مع وصول فصيل تيار الدولة الدينية للحكم في السودان. ورغم أنها أصبحت قبله أنظار التيارات الإسلامية من العالم العربي والإسلامي، لم تترك التجربة سوي المردود السلبي، سواء لدى التيارات الدينية المحافظة والتتصل من تيارات الدولة الدينية من ركود التجربة وخوائها، خاصة بعد مفصلة زعيمها ورائد التجديد فيها، حتى إنها أصبحت في نظر أصحابها "حكومة الإنقاذ مثل "دواء جيد" فقد صلاحيته بعد أكثر من 23 سنة"<sup>56</sup>.

سوف أتناول هنا أربعة ممن كان لهم اسهامات في قضايا التأصيل والتحديث: الاستاذ طه ابراهيم، الإمام الصادق المهدي، الدكتور حسن الترابي والمغفور له محمود

<sup>55</sup> التلاوة بلا فهم ، فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعون يلقى عليهم ولا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته إلا أمانى ؛ إلا ما يحدثهم به علماءهم

<sup>56</sup> رئيس جهاز المخابرات السوداني السابق لـ«الشرق الأوسط»: حكومة الإنقاذ دواء فقد صلاحيته: الشرق الأوسط ، الاربعاء 19 شوال 1433 هـ 5 سبتمبر 2012 العدد 12335

**محمد طه**. رغم إنطلاق الإمام الصادق المهدي والدكتور الترابي للتجديد من داخل المنظومة السنية المعتمدة، إلا أن الفرق أن الإمام يسعى للتوفيق بين الدين والعصر وديمقراطيته وحقوقه، اما الدكتور الترابي فسعى للتوفيق بين الدين والعصر من أجل توسيع مجال عمل حركته منذ السبعينات، ومن بعدها لمحاولة فك الخناق عن المأزق السياسي والأخلاقي الذي يجد أن حركته الإسلامية ادخلته فيه. الاثنان لم يجدا صعوبة في الإنطلاق من داخل الفقه والدخول مباشرة إلى أعمال الإنتقال من الاجتهاد المقيد بظاهر النص إلى الاجتهاد الأوسع بالرأي لإنهما جاءا من محيط صوفي.

أما محمود محمد طه فيقدم نظرية خارج الإطار الفقهي المعتمد، بينما الاستاذ طه ابراهيم يقدم معانٍ جديدة للقراءة القديمة. ونلاحظ أن الإمام الصادق المهدي، المغفور له محمود محمد طه والاستاذ طه ابراهيم استعملوا مسألة النسخ. الإمام الصادق المهدي انطلاقاً من أن المحكم ما هو محقق لمصالح العباد في الزمن الحالي، محمود محمد طه استعمل النسخ لإبطال العمل بما سماها الفروع، والتي اعتبرها المرتبطة بالسور المدنية، والإنتقال إلى ما اعتبره الأصول أو المبادئ الكلية في السور المكية. الاستاذ طه ابراهيم ربط بين نظرية التكاليف والوسع واعتماد النسخ لوضع تكاليف جديدة على ضوء الوسع الموجود في الزمن المعين.

### **الاستاذ طه ابراهيم: معان جديدة للقراءة القديمة**

في مناسبة تأبين الراحل محمد ابراهيم نقد، وفي معرض حديث عن الدستور المقترح، أشار الاستاذ طه ابراهيم إلى التكليف بقدر الوسع والتي ذكرها في كتابه. لحسن الحظ إنني استوقفته وسألته عن الكتاب فدلني عليه. رأيت في هذا الموضوع قلة تأثير كتابنا وكتابتنا في المحيط الإفريقي أو العربي: احداها قلة احتفال الكتاب بما يكتبون وعدم احتفال القراء بما يقرأون. لقد كان وقوعي على كتاب "مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم"<sup>57</sup> فرحة كبيرة، فقد دلفت إلى كتاب يستند إلى معرفة وافرة بالتراث الإسلامي وخبائاه ووصلها في نفس الوقت بمعطيات العصر واستطاع تقديم مساهمة جديدة من مواقع الاستنارة.

---

<sup>57</sup> طه ابراهيم: مساهمة في حل أزمة العقل العربي المسلم: اصول بديلة للفقه والفكر، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، 2002

بدأ الكتاب بمعالجة اللغة العربية وتطورها، والعلاقة بين منطق اللغة ومنطق الفكر واستغرق هذا حوالي ثلث الكتاب. فما الذي يحدد قوانين اللغة: إنها تتم بالنقل، وإنها نقل متواتر وعليه إجماع، وعند تحقق هذه الشروط تصبح اللغة صالحة لكل زمان ومكان. يقوم الكاتب بسياحة طويلة في تأريخ تطور اللغة ويرى أن أصول وقواعد علم أصول الفقه، وهو علم يقوم أساساً على أن مصدر المعرفة هو النقل وفي إطار النقل فإن معيار صلاحية النص للتطبيق هو وروده بسند قطعي ودلالة قطعية وليس تصديق الواقع له أو قدرته على حل إشكالات الواقع وتوتراته أو تفسير ظواهره أو قدرته على التحطم وتطوير الواقع بغرض استخدامة لمصلحة الإنسان وتقدمه".

ثم درس الكاتب مجال الفكر وتطور المنطق من الاستنباط لارسطو، الاستقراء المبني على الملاحظة التجريبية ثم التعميم وأخيراً الوصول لافتراض لتعليل هذا التعميم، وولادة المنهج الفرضي الاستنباطي مع تطور العلم وظهور النظرية النسبية لاينشتين.

تقارب وتجاور علماء اللغة وعلماء الفقه العرب، بل واشترك معظمهم في الأخذ بالعلمين، أفرز أن تنتقل قوانين اللغة لتصبح هي الحاكمة في علم الفقه، وعليه فقد أصبح ورود نص بسند قطعي ودلالة قطعية أو المعلوم من الدين بالضرورة هو الحاكم، وليس السببية أو الصلاحية وتماشيتها مع الواقع. لقد وصل الكاتب إلي نفس النتيجة التي واجهت كافة المجددين، من محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، رشيد رضا وغيرهم، الذين للتجديد التفوا حول سلطة النصوص الصريحة. فكيف خاض الكاتب في حل هذه الإشكالية. يقدم الكاتب مدخلين لقراءة قواعد المنطق القرآني يراها متنسقة مع الفكر والمعرفة<sup>58</sup>.

### التكليف بقدر الوسع

يعني المؤلف بالتكليف أنه "يشمل كل الأوامر والنواهي الصادرة من الخالق إلي عباده، فهو يتعلق بأفعل أولاً تفعل بكل الصور والأساليب التي يستخلص منها الأمر أو النهي ، ومن ثم فإن كل النصوص التي يستخلص منها الأمر أو النهي أو التي تدل صراحة على ذلك هي تكاليف يجب القيام بها وفق درجة وإلزامية الأمر، وعما

<sup>58</sup> النور حمد: نظرة نقدية لطرح الدكتور، عبد الله علي إبراهيم: التقليد الشرعي والحدأة، <http://www.madarat.org/modules.php?name=News&file=article&sid=66>

إذا كان على سبيل الحتم في التحريم أم هو مباح أم هو بين هذا وذاك، وبغض النظر عن إختلافات الفقهاء وفلسفاتهم وتأويلاتهم وتخريجاتهم في تقييم الأوامر والنواهي فإن ما هو مؤكد أن كل ما أمرنا به الشرع من حدود وقصاص ونظم إجتماعية وأسرية وأخلاقية وسلوكية ونظم سياسية وإقتصادية هي تكاليف". اما الوسع فهو " طاقة الإنسان أو الجماعة التي تمكنها بأن تفعل أو لا تفعل، ومن ثم فإن القرآن يربط بين التكليف والسوسع باعتبار أن السوسع هو الطاقة التي يستطيع بها الإنسان أو الجماعة أن تنفذ التكليف ، ولهذا فإن التكليف يدور وجوداً وعدمًا مع السوسع".

تقوم الفرضية الأساسية للمؤلف على أن كل الأوامر والنواهي الصادرة من الخالق لعباده محدودة بالسوسع، أو الطاقة التي يستطيع بها الانسان أو الجماعة أن تنفذ التكاليف. كما جاء في سورة الأنعام وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا<sup>59</sup>، وفي سورة الأعراف "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"<sup>60</sup>، وفي سورة المؤمنون "وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"<sup>61</sup> وفي سورة الطلاق "لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا"<sup>62</sup>.

أما أوضح آية بينت أن التكليف أصلاً لا يصدر إلا وفق وسع الإنسان، وإن هذا القيد يشكل أرضية كل التكاليف جاءت في خواتم سورة البقرة، ذلك أنه عندما نزلت الآية قبل الأخيرة من سورة البقرة (الآية 286) حدث حسب حديث جابر: إن جبريل قال لرسول الله إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه، فسأل رسول الله أن يعطي: "لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُزْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"<sup>63</sup>.

تناول الكاتب بالشرح أنواع السوسع من السوسع الجسماني (طاقة الجسم على تنفيذ

<sup>59</sup> سورة الأنعام الآية 152

<sup>60</sup> سورة الأعراف الآية 42

<sup>61</sup> سورة المؤمنون الآية 63

<sup>62</sup> سورة الطلاق الآية 7

<sup>63</sup> ابن كثير ج (1) ص (608) ، <http://quran.al-islam.com/Page.aspx?pageid=221&BookID=11&Page=1>

التكليف)، الوسع العقلي، الحضاري والانساني (وسائل وادوات الإنتاج، وسائل الاتصال والتنقل..الخ)، الوسع الإجتماعي (صلاة الجمعة، الزواج...الخ) والوسع السياسي الإقتصادي. اعتبر الكاتب أن إسقاط الرؤية اللغوية على معنى الوسع قاد علماء الفقه إلي اعتبار تكاليف الله في وسع الإنسان في كل زمان ومكان، لكن عندما ووجهوا بعوامل تجعل التكليف غير ممكناً لجئوا إلي قواعد فقهية مثل: الضرورات تبيح المحظورات، لا ضرر ولا ضرار، درء المفسد مقدم على جلب المصالح... وغيرها لتوسيع نطاق الوسع.

بينما ينطلق الفقه الأصولي من أن الأصل هو التكليف، تنطلق رؤية الكاتب من أن وجود الوسع هو أصل التكليف، وأن القرآن يقر بأن الوسع يتغير وأنه يجب تغيير التكليف أو إسقاطه وفق قامة الوسع الجديد (مثل أن الأنسان غير مكلف بأداء الزكاة إذا لم يملك نصابها). يقودنا الكاتب إلي النتيجة المنطقية وهي أن التكاليف التي وضعت في القرن السابع الميلادي، جاءت وفق وسع الانسان في ذلك القرن وعليه يمكن أن تتغير التكاليف في القرون اللاحقة بتغير الوسع. ويصدق هذا حتى على العبادات والمعاملات (مثل فتوى تحديد ساعات الصيام في بعض البلاد والذي يستمر لأكثر من 20 ساعة بفتاوي الافطار مع اقرب دولة مسلمة).

### النسخ احد آليات المنطق القرآني

الإشكالية الأساسية التي يناقشها الكاتب في النسخ هو أنه مستمر بعد انقطاع الوحي، ويراه من اعظم الادوات التي وفرها القرآن لمعالجة أي نقص في فهمنا او تطبيقنا لمعاملاتنا "اورد نسخ الرق بالمساواة القرآنية والجهاد بالدعوة الحسنة والعقوبات الحدية بمعالجة الاسباب وتطبيق النظريات الحديثة في العلاج والعقاب..الخ".

أورد الكاتب عدة أمثلة لتطبيق النسخ والوسع مثل: تعطيل الخليفة عمر حد السرقة في عام الرمادة، وكانت العبرة في تحقيق النص مصالح الناس والعدالة في الزمن المعين أو المجتمع المعين، وعند تقسيم أرض العراق لم يطبق الخليفة عمر النص القرآني ولكن اختار ابقاء المزارعين في إرضهم وفرض الخراج – ضريبة الارض- والجزية على الفلاحين، وكذلك إلغاء نصيب المؤلفة قلوبهم. أيضاً ناقش الكاتب كيفية التعرف على وقوع النسخ ويرى أنه توجد قضايا دلت الواقع بدحضها، عدم جدواها أو قضايا

تحتاج لإعادة الاختبار على الواقع وتغير الواسع. أما المنوط به وضع التكاليف البديلة فيرى أن الديمقراطية الحديثة توفر لنا القنوات الملائمة للتشريع.

## الإمام الصادق المهدي

اشتغال الإمام الصادق المهدي بالتأصيل والتحديث قديم وطويل، ورغم ذلك فقد غلب عليه إشتغال السياسي أكثر منه المفكر في بادئ الأمر. ليس في السنوات الأولى من حياته حتى منتصف الثمانينات نظرية ذات بال، فقد نشأ في محيط ديني تقليدي لها تأريخ دعوي وطني، ومعادلة معقولة ومقبولة، في أوساط الشعب بين الإسلام وقضايا العصر في شؤون الديمقراطية، المساواة، العدالة والدولة المدنية.

عندما تبني الدعوة للشريعة الإسلامية والدستور الإسلامي بعد أكتوبر، في خضم صراع سياسي في الستينات دخله وهو يافع بعد، كان اقرب إلي أطروحات فكر الإسلام السياسي في بلد متعدد الأديان والثقافات مثل السودان، وكان قد خطا بعيداً عن التراث الفذ لوالده "قيام حكم ديمقراطي منبثق من مبادئ الإسلام والواقع السوداني مستمد من تجارب الماضي ما يضمن للمواطنين حقوقهم في ظل قضاء نظيف مستقل يسيره تشريع عادل؛ للافراد حقوقهم في التعبير، النشر والتنظيم"<sup>64</sup>.

دخل اشتغال الإمام بالتجديد مرحلته الجدية منذ رمى النميري بقوانين سبتمبر في الساحة السياسية. تناول الإمام الصادق المهدي تطور التأصيل وأوضح موقفه من التأصيل الإسلامي والتحديث "القرون الإسلامية الأولى أثمرت مدارس فلسفية، ومناهج كلامية، ومذاهب فقهية تدل على درجة كبيرة من العطاء الفكري والثقافي والفقهي. ولكن عاملين تعرضا لهذه الاستنارة ووضعاً عليها قيوداً. هما: الأول: تيار فكري قاده الإمام الغزالي قيد التناول الفلسفي. وتيار فقهي قاده الإمام أحمد بن حنبل نقل الفقه من الاجتهاد الأوسع بالرأي إلي الاجتهاد المقيد بظاهر النص. الثاني: الاستبداد السياسي الذي صادر كافة الحريات. الاحتلال الأجنبي أقحم على بلاد المسلمين حضارته الحديثة وأفكارها ونظمها السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

---

<sup>64</sup> الوثيقة رقم 12: جهاد في سبيل الديمقراطية: مطلب الأمة: اشرف على اعداده الصادق المهدي، موقع حزب الأمة القومي

إزاء هذه الحالة اتخذ المسلمون موقفين: رفض الفكر الوافد ونظمه. وقال آخرون: هو التخلي عن موروثاتهم واستصحاب الحضارة الوافدة لاحقاً بالعصر. الحقيقة هي أن التخلي عن الإسلام مستحيل لأنه مكون لضمائر المسلمين وأخلاقهم ومعنى الحياة. والتخلي عن الحضارة الحديثة مستحيل لأنها تمثل تطوراً لمعان كلية كالحرية، والعدالة، وتمثل إمكانات ضرورية كالمعارف العلمية والتكنولوجية. والفهم الصحيح غير المنكفى للإسلام يوفق تماماً بين التأصيل الإسلامي والتحديث"<sup>65</sup>.

عندما أثبتت أطروحات الإسلام السياسي خطئها البين تجاه مسلميها إذ قذفتهم في أتون الحاكمية، الشمولية السوداء مفارقة القول والفعل والفساد، تجاه شركاء الوطن ببيتها الكامل وفصل الجنوب ودفع الآخرين للانفصال. حاول الإمام أن يقدم مراجعات في سبيل تكوين منظومة متكاملة منطلقاً من النصوص القطعية لبناء حضارة جديدة بمرجعية إسلامية، ونظماً سياسية، إقتصادية وإجتماعية جديدة ذات مرجعية إسلامية ومقاربات عصرية.

في كل عصر توجد الحاجة لاجتهاد إسلامي يراعي المستجدات على أساس "لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال.... أما الفهم الصحيح لمسألة النسخ هو أن للإسلام مقاصد وأن في القرآن ما هو محكم وما هو متشابه ولذلك فما يطابق المقاصد هو المحكم مكيماً كان أو مدنياً وما يناقض المقاصد هو المتشابه.... هذا يعني في السودان تجنب الحديث عن دولة دينية ولا عن دولة علمانية طاردة للدين، بل الصحيح الدعوة لدولة مدنية بمعنى تساوى المواطنين في الحقوق والواجبات الدستورية

- دولة حظها من الإسلام هو: تماهي مبادئ الإسلام السياسية ومبادئ حقوق الإنسان العالمية باعتبار أنها جميعاً تعود لخمس أسس هي: الكرامة الإنسانية - الحرية - العدالة - المساواة - السلام.
- دولة تقدر حرية العقيدة الدينية وتكفل للكافة الالتزام بواجبات دينهم.
- بالنسبة للمسلمين نحن نولد بالشرعية ونتزوج بالشرعية وبها نصلى ونصوم ونزكي ونحج فهذا كله تطبيق للشرعية وما يلزم من سعة تطبيق أحكامها

<sup>65</sup> الامام الصادق المهدي: ميزان المصير الوطنى فى السودان، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010.

ينبغي أن يستثنى منه غير المسلمين بحيث تكون التشريعات ذات التطبيق لكافة المواطنين خالية من المحتوى الديني.

• وفي هذا الصدد لا يجوز إلزام غير المسلمين أو غير المسيحيين بأية واجبات تفرضها عقائدهم عليهم. كما لا يجوز إصدار أية تشريعات تحد من حرية العقيدة. وينبغي النص بوضوح أن الحرية لا تعني حرية الإساءة للمقدسات.

ولكن الأخطر من هذا هو أن المشهد الإسلامي العربي يشهد تيارات أهمها اثنان: تيار يتطلع للإسلام بنظرة مستقبلية ويعمل على التوفيق بين الأصل والعصر وتيار آخر يتطلع للإسلام بنظرة ماضوية لا تقيم للعصر وزناً".

رغم هذا التنظير الراقي في مجال الفكر، لكن الفكر يرتبط مع مقاصده، رمزه الاخلاقي وأستعمالاته. لم يستطع الامام (شخصياً وإن تنوع موقف حزبه) أن يتخلص من ثقل ارتباطه بفكر الاسلام السياسي ولا اظنه قادراً. لم يحظ قائد سياسي في تاريخ السودان، بفرص وإمكانيات كانت خليفة بأن تضع السودان في طريق المستقبل، وأهدرها مثل الإمام. أن مسيرة الامام منذ الستينات فرص ضائعة، امكانات مهكرة ومكابدات.

### الدكتور حسن الترابي

عندما نتناول الشيخ الترابي نفرق جداً بين الزعيم السياسي، والمنشئ الحقيقي لتيار الدولة الدينية والمهندس لأنقلاب الإنقاذ، مع كل اختلافات أوجه النظر إليه، وبين المفكر الديني. كلا الوجهان تعرضا لإعجاب عارم بلغ حد القبول الكلي، وكذلك لنقد كاسح ومريّر من جهات متعددة بلغت حد اتهامه بالكفر. الدكتور حسن الترابي "السياسي" مهندس عدم تطابق الفعل مع القول، تبرير الكذب والخداع، الإقصاء الكلي، استعمال الإعلام في الشتم والبذاءة، الفبركة في تجريخ الخصوم، ابتزازهم والنيل منهم وكل ذلك باسم الدين. لقد تم تسخير الفكر الإسلامي الذي تميز بالسماحة والوسع إلي أقصى درجات التشدد.

إن منهج الدكتور حسن الترابي مبني على فكرة خاطئة: إن كل شيء قبلي غير موجود والفكر يبدأ من هنا. وإذا كان الفكر يرتبط مع مقاصده، رمزه الاخلاقي



واستعمالاته وفي هذا فقد مثل الفكر الترابي التجديد والتنصل، التبرير والميكافيلية في أبشع صورها الباقية من التمكين، بيوت الاشباح والآلام.

تناول د. عبد الوهاب الافندي الأرضية التي بدأ منها الترابي، بمقارنة عما حدث من تراجع سلطة الدين في الغرب وهيمنة العلمانية علي الحياة بفعل الصراع بين الدين المسيحي كما كانت تعبر عنه المؤسسات الكنسية والعلم الحديث. "ان الحركة الإسلامية الحديثة سعت إلي تجنب مصير مماثل للإسلام بمحاولة إحياء الإجهاد والتخلص من المقولات التي تتعارض مع العلم الحديث أو المفاهيم السياسية والإجتماعية الحديثة (الحريات، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، إلخ...)، إما بالتشكيك في صحة نسبة هذه المقولات إلي مصادر إسلامية موثوقة، أو بإعادة تفسيرها وتأويلها"<sup>66</sup>.

ويرى الافندي أن الدافع الأساسي للإصلاحيين الإسلاميين المحدثين كان محاولة التعامل مع مطالب الحداثة، ومواجهة الانتقادات الصادرة إلي الغرب من أبناء الإسلام " لكن الإشكال يأتي حين يواجهون نصوصاً صريحة تتعارض مع ما يقبلون به من أفكار حديثة، مثل الحرية الدينية مقابل حد الردة، أو مساواة المرأة مع الرجل مقابل النصوص حول وضعها وشهادتها وحقوقها في الميراث، إلخ. الحلول التي لجأ إليها معظم الإصلاحيين تمثلت في محاولة التركيز علي نصوص معينة دون أخرى، وادعاء أولويته"

هذا على المستوى التجريدي العام، اما عندما يتناول الشيخ الترابي " استصحب دعوي الحداثة الأكبر (ودعوي قدامي فلاسفة المسلمين حتي ابن رشد) من أن العقل الإنساني هو في حد ذاته مصدر سلطة قد تعلو أحياناً علي أي سلطة أخرى دون سلطة الوحي، ويمكنها كذلك أن تعيد تفسير الوحي بما ينسجم مع متطلبات الحياة البشرية. الإشكال في منهج الترابي هو أنه واجه رفضاً من التقليديين دون أن يجد القبول عند الحداثيين والعلمانيين، وبالمقابل فإن التقليديين يرفضون اجتهادات الترابي جملة وتفصيلاً كما يرفضون منهجه. وقد كان الترابي يميل حتي وقت قريب

<sup>66</sup> د. عبد الوهاب الافندي: عن الشيخ الترابي وأزمة الحركة الإسلامية المعاصرة، 2006/04/25، <http://www.alquds.co.uk/data/2006/04/04-25/qpt4.htm> ، 2006/04/25

إلى مداراة التقليديين، ولا يحفل كثيراً بنقد الحداثيين".

ويقراً سليمان بن صالح الخراشي كيف نظر الدكتور الترابي عند تصديه لمسائل التأصيل والتحديث " لكن جنوح الحياة الدينية عامة نحو الانحطاط وفتور الدوافع التي تولد الفقه والعمل في واقع المسلمين أديا إلى أن يؤول علم أصول الفقه- الذي شأنه أن يكون هادياً للتفكير – إلى معلومات لا تهدي إلى فقه ولا تولد فكراً.... حتى غلب عليه طابع التجريد والجدل النظري العقيم، وتأثر بكل مسائل المنطق الهيليني وبعيوبه كذلك" 67.

وينظر كيف يرى د. الترابي بعد الفقهاء عن قضايا العصر " فالفتاوي المتاحة تهدي عادة الفرد كيف يبيع ويشترى، أما قضايا السياسة الشرعية الكلية وكيف تدار حياة المجتمع بأسره إنتاجاً وتوزيعاً، استيراداً وتصديراً، علاجاً لغلاء المعيشة أو خفضاً لتكاليفها، هذه مسائل لم يعن بها أولياء الأمور، ولم يسانلوا عنها الفقهاء ليبسطوا فيها الفقه اللازم".

قدم د. عبد الله علي إبراهيم، أفكار الترابي الدينية بوصفها لاهوتاً للحدثة. وقد دقق في الأساس النظري الذي على أساسه وضعه رائداً للاهوت الحدثة<sup>68</sup> "كثيراً ما يستعيز الترابي عن مفردة "الدين" "بالدين الحق"، وعلى النقيض من ذلك فهو يطلق على ما تراكم من تقاليد الأجيال المتتابعة من المسلمين مصطلح "الدين الكسب". فمدارس الفقه المتعددة، والخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة، كما يرى الترابي، "دين مكتسب"، وبناء عليه فهو ليس معصوماً من المراجعة والجرح والتعديل تضيماً وإسقاطاً. وتُفقد بهذا الجرح والتعديل تقاليد السلف أسرها، إن لم نقل قداستها، التي يخلعها عليها المسلمون في العادة".

تناول د. عبد الله علي إبراهيم، د. الترابي من ناحية أكاديمية، أي تناول إنتاجه المجرد، وكأنه ظاهرة تاريخية لاتعيش بيننا ولها الإثر الضار في فضاءنا السياسي والإجتماعي. عزا المؤلف أن لاهوت الحدثة هذا كان سبباً لتحول الحركة من خمول

67 سليمان بن صالح الخراشي: نظرات شرعية في فكر الدكتور حسن الترابي، [www.saaaid.net/Warathah/Alkharashy/38.htm](http://www.saaaid.net/Warathah/Alkharashy/38.htm)

68 عبد الله علي إبراهيم: لاهوت الحدثة: حسن الترابي والتجديد الإسلامي في السودان، 13 ديسمبر، 2009، سودانيزاونلاينز

الضعف إلي صيت النفوذ، دون النظر إلي عدم اتساق القول والفعل، وما أنتجه هذا اللاهوت. ما سيبقى من د. الترايبي أن محصوله "لاهوت الحداثة" الذرائعية كان سبباً في جلب الآلام إلي شعبه، والتنظير لكافة الالتواءات التي طبعت تيارات الدولة الدينية. إن لاهوت الحداثة بدلاً من أن يتأسى بالتراث العميق لمجدي العصر الحديث، البحث عن التواصل والاتساق مع معطيات العصر، حشرنا في دائرة الجاهلية والحاكمية. إن ماعده د. عبد الله لاهوتاً للحداثة، هو فكر مراجعات بعد أن أودت بنا افكاره إلي تأسيس الدولة الدينية الاستبدادية، ورأي الشيخ بناءه الشاهق وقد انهار شذر مذر.

رغم أن د. عبد الله علي إبراهيم تعرض لأهم عناصر ما يراها تجديداً إلا أن د. صبري محمد خليل، أستاذ فلسفه القيم الإسلامية بجامعة الخرطوم، قدم دراسة أكثر تفصيلاً حول خطاب د. الترايبي وعرض عديداً من القضايا التي تناولها الشيخ. ويرى د. صبري للترايبي إشكالية أساسية في عدم تجاوزه موقفي التقليد والتغريب، والتي يراها اتخذت موقفاً قاربت الموقف التغريبي من بعض القضايا، رغم أنها تتصل بأصول الدين.

رصد د. صبري موضوعات عديدة أورد فيها أراء الشيخ وساتناول أهمها: العلاقة بين الاديان، حكم الجهاد: أن بعض نصوص هذا الخطاب ، ذات دلالة عامه يمكن فهمها على عده أوجه: منها فهم أن موقف هذا الخطاب من الجهاد هو القول بانتقاء وجوب الجهاد، من هذه النصوص قول د. الترايبي في ندوة تلفزيونية حول الشريعة، ونشرتها جريدة الأيام السودانية " القتال حكم ماض، هذا قول تجاوزه الفكر الإسلامي الحديث، في الواقع الحديث، ولا أقول إن الحكم قد تغير، ولكن أقول: إن الواقع قد تغير، هذا الحكم عندما ساد كان في واقع معين، وكان العالم كله قائماً على علاقة العدوان، لا يعرف المسالمة، ولا المودعة، كانت امبراطوريات، إما أن تعدو عليها أو تعدو عليك، ولذلك كان الأمر كله قتالاً في قتال، أو دفاعاً في دفاع إن شئت".

تجديد الدين: القول بان الأشكال التي أخذها الدين ليست هي أشكاله النهائية. تجديد أصول الفقه: إن بعض نصوص الخطاب التجديدي عند د. الترايبي، ذات دلالة عامه، يمكن أن يفهم منها أن تجديد أصول الفقه يقتضى إلغاء كل الاجتهادات السابقة في مجال علم أصول الفقه كقوله: "لكن تتعقد علينا المسألة بكون علم أصول الفقه

التقليدي الذي نلتبس فيه الهداية لم يعد مناسباً للوفاء بحاجتنا المعاصرة حق الوفاء، لأنه مطبوع بأثر الظروف التاريخية التي نشأ فيها، بل بطبيعة القضايا الفقهية التي كان يتوجه إليها البحث الفقهي".

**منهج التفسير:** أن بعض نصوص هذا الخطاب، ذات دلالة عامه، يمكن أن يفهم منها أن منهجه في التفسير - ينطلق من إلغاء كل التفسير وكل الاجتهادات في مجال علم أصول التفسير، فعلى سبيل المثال يقول في كتابه المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع "في رأيي أنَّ النظرة السليمة لأصول الفقه الإسلامي تبدأ بالقرآن الذي يبدوا أننا محتاجون فيه إلى تفسير جديد، وإذا قرأتم التفسير المتداولة بيننا تجدونها مرتبطة بالواقع الذي صيغت فيه، كل تفسير يُعبّر عن عقلية عصره إلا هذا الزمان لا نكاد نجد فيه تفسيراً عصرياً شافياً". **السلف:** اعتبر الخطاب التجديدي عند د. الترابي أن أقوال السلف غير ملزمة، وإنه يمكن الاستئناس بها فقط، دون تمييز بين موضوع هذه الأقوال هل يتصل بأصول الدين أم فروعه.

**قضية تزوج المسلمة بالكتابي:** إباحه زواج المسلمة من الكتابي. **قضية شهادة المرأة:** القول بأن شهادة المرأة تساوي شهادة الرجل، حيث يقول: "إن شهادة المرأة تساوي شهادة الرجل تماماً وتوازيه بل وأحياناً تكون أفضل منه وأعلم، وشهادتها أقوى منه". **الردة:** إنكاره تقرير عقوبة للردة، كما في قوله في جريدة المحرر عدد 263 في 1415/2/24 هـ حيث يقول: " في إطار دولتنا الواحدة فإنه يجوز للمسلم كما يجوز للمسيحي أن يُبدّل دينه".

**نظريه التطور العضوي:** القول بأن نظريه التطور العضوي لا تتناقض مع الإسلام. **أصل الخلق:** والقول بأن حواء أصل الخلق وليس آدم استناداً إلى أن لفظ (نفس) مؤنث في الآية: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً). **إمامه المرأة:** ويقول بجواز أن تؤم المرأة الرجال في الصلاة، وأن يُصلّي النساء بجانب الرجال. **الأخذ بقول الكافر في الأمور العلمية:** القول بأخذ قول الكافر وترك قول الرسول (صلعم) حيث يقول عن حديث الذباب في محاضرة له بجامعة الخرطوم<sup>69</sup> " في الأمور العلمية يُمكن أن آخذ برأي الكافر، وأترك رأي النبي صلى

<sup>69</sup> د. صبري محمد خليل: قراءه منهجيه للخطاب التجديدي عند د. الترابي، <http://drsabrihalil.wordpress.com/>

الله عليه وسلم ، ولا أجد في ذلك حرجاً البتة".

### محمود محمد طه والرسالة الثانية

رغم ان محمود محمد طه أصدر من الكتب ما يفوق الثلاثين كتاباً وما زاد على المتني كتيب ومنشور، إلا أن الرسالة الثانية من الاسلام الصادر في يناير 1967م يعد الكتاب الأم للفكرة الجمهورية، لكن بدأ التمهيد لهذا الكتاب في مؤلف الرسالة الأولى.

يبدأ التمهيد أن الاسلام رسالتان او جزءان من رسالة "الرسالة الأولى هي التي وقع في حقها التبيين بالتشريع وهي رسالة المؤمنين ... ولقد جاء القرآن مقسماً بين الإيمان، والإسلام، في معنى ما جاء إنزاله مقسماً بين مدني، ومكي. ولكل من المدني والمكي مميزات يرجع السبب فيها إلي كون المدني مرحلة إيمان، والمكي مرحلة إسلام...<sup>70</sup>.

واصل الراحل في الرسالة الثانية توضيح فكرته الاساسية وذلك "أن الإسلام رسالتان: رسالة أولى قامت على فروع القرآن، ورسالة ثانية تقوم على أصوله... وما الرسالة الثانية إلا بعث هذه السنة لتكون شريعة عامة الناس، وإنما كان ذلك ممكناً، بفضل الله، ثم بفضل تطور المجتمع البشري خلال ما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان .. وحين بشر المعصوم ببعث الإسلام إنما بشر به في معنى بعث السنة، وليس في معنى بعث الشريعة .. قال : بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ .. فطوبى للغرباء !! قالوا: من الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يحيون سنتي بعد اندثارها... "طريق المسلمين على الأرض - ترسم خط سيره آيات الأصول - الآيات المكية - تلك التي كانت في العهد الأول منسوخة بآيات الفروع - الآيات المدنية - وإنما نسخت آيات الأصول يومئذ لحكم الوقت .. فقد كان الوقت وقت أمة المؤمنين .. وآيات الأصول تخاطب أمة المسلمين، وهي أمة لم تكن يومئذ .. وإنما نسخت آيات الأصول في معنى أنها أرجئت، وعلق العمل بها فيما يخص التشريع، إلي أن يحين حينها، ويجئ وقتها، وهو الوقت الذي نعيش نحن اليوم في تباليج فجره الصادق .. وإنما من ههنا وظفنا أنفسنا للتبشير بالرسالة الثانية".

<sup>70</sup> محمود محمد طه: الرسالة الاولى، الحوار المتمدن-العدد: 11:50 - 26 / 7 / 2007 - 1988

ويوضح الكاتب الحكمة من وراء ذلك "للقرون السابغ آيات الفروع، وللقرون العشرين آيات الأصول.. وهذه هي الحكمة وراء النسخ .. فليس النسخ، إذن، إلغاء تاماً، وإنما هو إرجاء يتحين الحين، ويتوقت الوقت.. ونحن في تطويرنا هذا إنما ننظر إلي الحكمة من وراء النص.. فإذا خدمت آية الفرع التي كانت ناسخة في القرن السابغ لآية الأصل غرضها حتى استنفدته، وأصبحت غير كافية للوقت الجديد - القرن العشرين - فقد حان الحين لنسخها هي، وبعث آية الأصل، التي كانت منسوخة في القرن السابغ لتكون هي صاحبة الحكم في القرن العشرين، وعليها يقوم التشريع الجديد .. هذا هو معنى تطوير التشريع .. فإنما هو انتقال من نص خدم غرضه .. خدمه حتى استنفده إلي نص كان مدخراً يومئذ إلي أن يحين حينه .. فالتطوير، إذن، ليس قفزاً عبر الفضاء، ولا هو قول بالرأي الفج، وإنما هو انتقال من نص إلي نص"71.

فكرياً ما طرحه الشهيد محمود محمد طه هو المنهج الذي تبناه كافة من ارادوا التجديد والاجتهاد أي مراجعة سلطة تفسير النص المقدس، الذي يرجع إلي القرون الهجرية الأولى، وقد كان استعماله لمفهوم النسخ للانتقال إلي ما اعتبره الأصول أو المبادئ الكلية في السور المكية. إذن طرح محمود اجتهداً مثل غيره من العلماء قابلاً للاخذ والرد داخل الملة.

محمود كانت له أيضاً مواقف سياسية ضد اطراف عديدة في الفضاء السياسي السوداني. المشكلة أن مواقف محمود تقاطعت مع جميع القوى المنظمة في الحياة السياسية. تنوعت مواقفه من الكتاب المخصص لتناول آراء د. حسن الترابي حول الأزمة الدستورية في السودان عقب حل الحزب الشيوعي عام 1965، "زعيم جبهة الميثاق الإسلامي في ميزان الثقافة الغربية والإسلام"، واصر بعد ما عُرف بأحداث يوليو 1976م اصدارة خصصت للهجوم على زعيم حزب الأمة والأنصار الصادق المهدي، وشملت النشرات الهجوم على شخصيات دينية بارزة ومؤثرة مثل الشيخ محمد متولي الشعراوي: "هذا هو الشيخ محمد متولي الشعراوي".

واصدر أيضاً منشوراً في نفس الاتجاه ضد القضاة الشرعيين، وهو نفس إتجاه

---

71 محمود محمد طه: الرسالة الثانية من الإسلام، الحوار المتمدن-العدد: 1968 - 6 / 7 / 2007

الحملات العنيفة التي شنها الجمهوريون ضد "الجامعة الإسلامية" ومن أسموهم بالدعاة السلفيين. وفي هذا السياق صدرت عدة كتيبات ضد محكمة الردة (محكمة الخرطوم الشرعية العليا التي أصدرت 1968 حكماً بالردة على محمود محمد طه ينددون فيها بمن قام بالادعاء (الأمين داؤود وحسين محمد زكي).

عندما وقع الانقلاب في 1969 أيده محمود للموقف السياسي المشترك بينه وبين النظام المايوي ضد القوى المناوئة لحركته، غير أنه حدثت بعض الاحتكاكات في ديسمبر 1976م، حيث اعتقل النظام الحاكم محموداً لمدة شهر حتى يناير 1977م بسبب هجومه على النظام السعودي حليف النظام المايوي. عندما قويت نزعة النظام المايوي، وتصادعت، لاستعمال الدين حتى بلغت أوجها بعد إعلان النظام المايوي لقوانين سبتمبر 1983م، أنهت المواجهات بمحاكمة محمود وبعض معاونيه المقربين، وصدر ضده حكم الإعدام الذي نفذ في 18 يناير 1985م – قبل أقل من ثلاثة شهور من سقوط النظام المايوي<sup>72</sup>.

تناول عدد من المفكرين والسياسيين السودانيين مواقف الاستاذ محمود محمد طه، كما تناول افكاره مجموعات من خارج السودان. المجموعة الأكبر كانوا من المختلفين فكراً مع الاستاذ محمود ولكن يتعاطفون مع حرية التعبير. من هؤلاء عبد الله الطيب، وقد عبر عن موقفه شعراً بقصيدة في رثاء محمود ضمنها كثير من الإشارات التي تضع آراء محمود محمد طه ضمن دائرة الخلاف في الرأي المشروع بين المسلمين، وتضع خصومه، ممن ساهموا في إصدار حكم وتنفيذ الإعدام فيه في عداد الأشرار "شجاني مصابه محمود مارق قيل وهو عندي شهيد"، د. حيدر إبراهيم علي في كتاب "الأستاذ محمود محمد طه: رائد التجديد الديني في السودان"، دراسة عبد الله بولا عن "التجديد في فكر الأستاذ محمود محمد طه<sup>73</sup>، د. منصور خالد في عدد من كتبه، مساهمة د. فاروق محمد إبراهيم في مناقشة كتاب الدكتور محمد أحمد محمود<sup>74</sup> وغيرهم.

لقد أشرع الموت البطولي والشجاعة المستقيمة للاستاذ محمود، الابواب في تمزيق

<sup>72</sup> د. قيصر موسى الزين: حركة الإخوان الجمهوريين بالسودان: الاتجاهات والمآلات، <http://tanweer.sd/arabic/modules/smartsection/item.php?itemid=29>

<sup>73</sup> عبد الله بولا: التجديد في فكر الأستاذ محمود محمد طه، مكتبة د. النور حمد، سودانيزاونلاينز  
<sup>74</sup> ندوة :- مناقشة كتاب السعي وراء الألوهة : نظرة نقدية لفكر محمود محمد طه، مكتبة مركز الخاتم عدلان للأستنارة والتنمية البشرية ، سودانيزاونلاينز

أوصال ماعده السودانيين دائماً إحدى صفاتهم الحميدة "التسامح الفكري"، وأعاد للعالم الإسلامي ممارسة - احكام الردة- كانت قد غابت عنه منذ الملك العضوض وحكم الطوائف. لم ينتبه بنات وابناء الشعب السوداني، إن تجريم أي فكر هو المقدمة لتحريم كل فكر. ولعل من سخریات القدر أن اغلب من تورطوا في تكفيره ذاقوا نفس التهمة من جماعات أكثر تشدداً.

### الشريعة الإسلامية بين فكرين

تميزت الدعوة إلى الشريعة الإسلامية أو الدستور الإسلامي في السودان، كما لاحظ الأستاذ محمد بن المختار الشنقيطي الباحث في القضايا الإسلامية، ارتباطها بالقوانين " أنه برغم أن الشريعة الإسلامية 90% منها اخلاق وليست قوانين، يعني ليست مجالا يفترض أن تتدخل فيه الدولة بقوة القانون، ولكن الحركات الإسلامية تريد ان تحول كل الاخلاق إلى تشريعات"<sup>75</sup>. كذلك يتوقف يوسف القرضاوي<sup>76</sup> - أحد قادة الإخوان المسلمين في مصر في الخمسينات - عند الحدود "هذه الحدود هي عشر آيات فلماذا نركز على الآيات العشر ونترك ستة الاف وكذا آية؟". ويرى أن هناك مبررات حتى للتراجع عن الحدود.

ويركز الدكتور أسامة السيد الأزهرى العالم بالأزهر الشريف "إن الهدي النبوي المنقول عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يزيد على 60 ألف عبارة من الجمل النبوية رويت بإسناد أو إسنادين، سلسلة الرجال الذين رووه. ومكونة من 5 ملايين إسناد، منها 5 الاف جملة أو عبارة متعلقة بالفقه والاحكام (الحلال والحرام، عقود، بيع، حضانة، معاملات، زواج وطلاق وغيرها) و55 ألف جملة أو عبارة متعلقة بمكارم الاخلاق"<sup>77</sup>.

من بين 52 دولة اسلامية في العالم بعدد سكان يصل لقرابة البليون ونصف و23 دولة

<sup>75</sup> برنامج قناة الجزيرة في العمق، الاسلام السياسي في العالم العربي- الحركة الاسلامية السياسية في السودان بتاريخ 2010/4/26

<sup>76</sup> يوسف القرضاوي في قناة الجزيرة: الشريعة والحياة: الحدود في الخطاب الفقهي المعاصر، تاريخ الحلقة: 2011/1/2

<sup>77</sup> خيرى رمضان: الدكتور أسامة السيد الأزهرى العالم بالأزهر الشريف في حوار، برنامج ممكن، قناة سى بى سى، 28 ديسمبر 2012



عربية، تتفرد السعودية بإعلان التطبيق الحرفي للحدود الإسلامية. استندت السعودية على فكر وهابي منذ نهاية القرن التاسع عشر ومرت في طريق طويل من الاستجابة لروح العصر، برغم ذلك فقطر التي تستند لنفس الفكر لا تطبق الحدود.

الاديان السماوية في مجملها تدعو إلي مبادئ عامة وفضائل ومكارم الاخلاق. حتى هذه تطورت في منظورها كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال عليه الصلاة والسلام: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". لكن الأديان كلها لم يكن لها أنظمة محددة في الحكم. وقد قامت أنظمة الحكم في اليهودية من حكم الانبياء، حكم القضاة وحكم الملوك، أما المسيحية فقد تبنت سائر أنظمة الحكم من الأباطرة، الملوك إلي الديمقراطيات.

عندما نشأت جماعة الإخوان المسلمين طرحت الشريعة الإسلامية، خاصة الحدود، واستعادة الخلافة كاهم إستراتيجية في صراعها مع كافة الاتجاهات التحديثية. في وجه محاولات الملكية المصرية لوراثة الخلافة العثمانية – التي سيؤديها الإخوان المسلمون لاحقاً- وتنصيب ملك مصر خليفة. دفع الجدل في هذا المجال، إلي تصدي الشيخ علي عبد الرازق (1888-1966) - الحاصل على درجة العالمية والدارس بعدها في جامعة أوكسفورد البريطانية والذي عُين عقب عودته قاضياً شرعياً بالمنصوره، وأصدر كتاب "الإسلام وأصول الحكم: بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام" عام 1925<sup>78</sup>.

أثار الكتاب ضجة غير مسبقة، بسبب آرائه في موقف الإسلام من "الخلافة" حيث نُشر الكتاب في نفس فترة سقوط الخلافة العثمانية. سحب منه الأزهر شهادة العالمية، وهو ما اعتبره الكثير من المفكرين رداً سياسياً من الملك فؤاد الأول -ملك مصر وقتئذٍ. ويُعد كثيرون، كتاب الإسلام وأصول الحكم، استكمالاً لمسيرة تحرير فكري بدأها الإمام محمد عبده في كتابه "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" والشيخ عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد".

دعا علي عبد الرازق، المسلمين، من خلال الاسطر الاخيرة لكتابه: "أن يسابقوا الأمم الأخرى، في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق

<sup>78</sup> سيرة الشيخ علي عبد الرازق: <http://kenanaonline.com/users/bios/posts/152648>

الذي ذلوا له واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم، ونظام حكومتهم، على احدث ما انتجت العقول البشرية، وامتن ما دلت تجارب الامم على أنه خير أصول الحكم".

إن عبارات وكلمات هذا الكتاب المختصر المفيد أثرت بشكل كبير على كل محاولات الخلافة، وأصبحت طلاقات وسهام أصابت وأسقطت الحجب على مدى العصور الحديثة عن وجوه كل الجماعات الأصولية، المستترة وراء الدين. "لم نجد في ما مر بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أن اقامة الإمام فرض من حاول اقامة الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله الكريم. ولعمري لو كان في الكتاب الكريم دليل واحد لما تردد العلماء في التنويه والاشادة به ولكن المنصفين من العلماء والمتكلفين منهم قد أعجزهم أن يجدوا في كتاب الله حجة لرايهم فانصرفوا عنه إلي ما رأيت بدعوى الاجماع تارة ومن الإلتجاء إلي أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى".

ورد على القائلين بالدعوة للخلافة الإسلامية "أن يذهب باحث إلي أن النبي (ص) كان رسولاً وملكاً، وليس بدعاً ولا شذوذاً أن يخالف في ذلك مخالف، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التي تعارف العلماء ببحثها، واستقر لهم فيها مذهب. .. بل أن أكثر من عرفنا من الرسل إنما كانوا رسلاً فحسب. ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية، وزعيم المسيحيين، وكان مع هذا يدعو إلي الإذعان لقيصر، ويؤمن بسلطانه. وهو الذي أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". وكان يوسف بن يعقوب عليه السلام، عاملاً من العمال، في دولة فرعون مصر. ولا نعرف في تأريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك، إلا قليلاً.. لاشك في أن الحكومة النبوية كان فيها بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك. إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أسس دولة سياسية، أو شرع في تأسيسها، فلماذا خلت دولته إذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم؟ ولماذا لم يعرف نظامه في تعيين القضاة والولاة؟ ولماذا لم يتحدث إلي رعيته في نظام الملك وفي قواعد الشوري؟ ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومي في زمنه"<sup>79</sup>.

<sup>79</sup> الشيخ علي عبد الرازق: كتاب الإسلام وأصول الحكم: بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، مكتبة مجلة أفق الثقافية، www.ofouq.com

### خريطة طريق 3 يوليو 2013

كان الموجودون في وقت اذاعة بيان القوات المسلحة المصرية وممثلوا التيارات السياسية والدينية، إيماناً بسقوط مرحلة وبدء أخرى. شبه المعلقون ما تلى ذلك من تداعيات السقوط والتغير التاريخي بتغريدة البجعة (عندما تشعر البجعة بدنو اجلها تذهب إلى الشاطئ لتطلق تغريدتها الاخيرة).

عكس من تواجد في القاعة ليلة الثالث من يوليو 2013 (قائد الجيش المصري، الامام الاكبر للازهر، بابا الاقباط، ممثلي حركة تمرد، ممثل تنسيقية 30 يونيو (تمثل جبهة الإنقاذ والقوى الثورية)، ممثل للمرأة وممثل حزب سلفي)، بداية طريق الاصلاح السياسي عن طريق خريطة طريق واضحة. القوات المسلحة سوف تظل بعيدة عن العمل السياسي، لجنة تضم كافة الأطياف والخبرات لوضع الدستور، انتخابات برلمانية ورئاسية، ميثاق شرف إعلامي يكفل حرية الإعلام ويحقق القواعد المهنية والمصادقية والحيدة وإعلاء المصلحة العليا للوطن وتمكين ودمج الشباب في مؤسسات الدولة.

لقد حسمت ملايين الشعب المصري قضايا الاصلاح السياسي والاصلاح الديني، قضايا طال امد حسمها منذ القرن الهجري الأول، وربما منذ سقيفة بني ساعدة عن العلاقة بين الاسلام والحاكم. اسقطت الجماهير الحاشدة، تيار الدولة الدينية، لإسترداد الوطن، واغلقت الدائرة الشيطانية من الثورة والأنقلاب العسكري وتوصلت للمعادلة الحاسمة في التوافق الوطني، الاستقلال الوطني ودولة المؤسسات.

### الاصلاح السياسي والاصلاح الديني

ربما، وبدون أن يكون هذا قصدهم، حملت رياح توقيعات تمرد كافة القضايا التي مزقت كيان الشعوب في المنطقة إلى الميادين وفي قبضة الجماهير العريضة: من اطروحات الاسلام السياسي اليمينية الفاشية، المعادية للشعوب، الاقصاء الشامل والممنهج لكافة القوى والتيارات الإجتماعية وخطل إدعاءاتها في فرض دين الجماعة وفشل رؤيتها المدوي.

طرحنا الأحداث في الميادين قضية الإصلاح الديني إلى الصدارة، وذلك بانتزاع الإسلام من أيدي الجماعات التي جبرت الإسلام لصالحها، والتي حاولت فرض تصورهما الخاص على كافة المسلمين والمواطنين. من بين ضباب سنوات الصراع الدامي لفرض هذا التصور الذي كاد أن يودي بقيم، أخلاق ومبادئ المجتمعات الإسلامية، ظهر جلياً الفهم العصري والمتطور لمفاهيم المواطنة، الدين والأخلاق.

لم تخضع مفاهيم الإسلام السياسي – بكافة تكويناته- للمراجعة والإصلاح في قاعات الحوار والتلفزيونات، ولكن دارت المعركة في ميادين مصر، والتي خرجت من عباءة تنظيمها كافة المتطرفين والتكفيريين. حسمتها الشعوب في الميادين من واقع الممارسة العملية وتجاربها المريرة مع هذه التيارات. وسوف تُترجم هذه المفاهيم إلى واقع القوانين، مدونات السلوك المجتمعي، المناهج الدراسية و كتابات المفكرين والمثقفين. إن العالم الإسلامي يضع أقدامه على عتبة الإصلاح الديني المطلوب، واستكمال مسيرة الرواد كجزء أساسي من الإصلاح السياسي، الإقتصادي والإجتماعي.

ناقش د. سيد القمني<sup>80</sup> هذه القضية كجزء من اسباب تخلف المسلمين. ويرى أن أول وآخر مؤتمر سياسي عقده المسلمون حول الخلافة، كان اجتماع سقيفة بن ساعدة. ورغم أن الاراء التي طرحت كانت مبشرة لكن تم حسم الامر "ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا، ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت؛ فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس"<sup>81</sup> تطورت الخلافة إلى تعيين باشكال مختلفة، للخلفاء الاربعة ثم انتهت بتنازل سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) عن الحكم لمعاوية، لتبدأ دولة الملك العضوض منذ الدولة الاموية.

يبدأ القمني من حقيقة اساسية إن المشكلة ليست في الإسلام ولا في أي دين. لكنها في

---

<sup>80</sup> د. سيد القمني: هل الإسلام هو سر تخلف المسلمين؟،

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=223936>

<sup>81</sup> شبكة رُحماء الإسلامية:

<https://www.facebook.com/rohamaa.org/posts/536473226404105>

كيفية استثمار هذا الدين، فهناك من استثمره في التقدم، ومن يستثمره في التخلف. التحالف الطويل بين السلطة والفقهاء في مشهد ما بعد سقيفة بن ساعدة قاد إلي افكار التكفير والتأثير لكل المعارضين السياسيين "وهو الوعي الذي يتم وفق رؤية بعينها واحدة لا صح سواها، يزعمون أنها هي صحيح الإسلام وغيرها كافر آثم، مما لم يعط فرصة للرأي الآخر يوماً بالظهور، لذلك لم تظهر معارضة في تأريخ المسلمين، وإن ظهرت فكانت وسيلتها الأيديولوجية قراءة أخرى لنفس الإسلام، لكن هؤلاء غالباً ما انتهى أمرهم في التأريخ الإسلامي في مجتمع لا يعرف سوى فرقة واحدة هي الناجية". ويطرح القمني مخرجين للخروج من دائرة التخلف:

الأول: الاعتراف للناس بصدق الإيمان، وسحب كل التكفيرات والتأثيرات للمسلمين، والذي حافظوا علي دينهم ويحبون دينهم ويرفضون التخلي عنه، سواء من فقهاء السلطة او الاسلام السياسي بكافة اطرافه. اننا نعيد، تأريخياً، مواصلة مشهد سقيفة بني ساعدة وإعادة الاعتبار أن السلطة جزء من الساحة السياسية وليست الساحة الدينية.

إن لهذا الموقف سنداً من سيدنا علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، أنه لم يهاجم أحداً ممن خرجوا عليه، او يوصمه بالكفر والاثم، بل اعتبرهم معارضة سياسية او في الحد الأقصى "بغاة" لها رأي آخر. وعندما خاطب الخوارج سار في نفس الطريق "كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً! فإن فعلتم نفذت إليكم بالحرب!" وهكذا فالبقاء على رأي مخالف لرأي الحاكم، أمر لا جناح عليه، ما دام قد التزم حدود التعبير السلمي<sup>82</sup>.

ثانياً: الاعتراف أن تخلفنا هو في الجانب العلمي المعرفي الحضاري، وهو مجال الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتأريخ والرياضيات والفيزياء والكيمياء، وهذه علوم خارج نطاق الدين ولا يفهمها رجاله. ويضيف القمني "أن الإسلام كدين في حد ذاته لم يكن عنصراً في إنجازات الرازي والفارابي وابن الهيثم، وليس عنصراً في اختفاء العلماء من بلادنا منذ هذه الكوكبة اليتيمة التي نستدعيها نندب عليها حضارتنا المؤودة دفاعاً عن الإسلام والإسلام منها برئ. فبالإسلام نفسه تقدمت دول أخرى في شرقي آسيا".

<sup>82</sup> السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالي: <http://forum.amrkhaled.net>

## الدولة المدنية الديمقراطية

نعالج هنا مسألة الدولة لارتباطها الوثيق بالرؤية، فأول شروط الرؤية هو الاستقرار السياسي والاجتماعي. لقد افتقدنا النخبة ذات الرؤية التي تستطيع أن تقود شعبها وتخرجه من وهدة الفقر، الجهل، المرض وترسخ لقيم الديمقراطية والتحاور كما فعل غيرنا. وفي نفس الوقت توازن بين ركام الماضي وتفسيرات القرون السابقة وتعطي لأفراد الشعب امتلاءً روحياً يربطها بعقائدها وفي نفس الوقت يدفعها إلى المستقبل. كما عبر عنها الامام الصادق المهدي "الفكر الإسلامي اليوم مواجه بتحديات جمة. أخطرها الرؤى التي تضحى بالمستقبل من أجل الماضي، والرؤى التي تضحى بالماضي من أجل المستقبل. كان موقفنا الاجتهادي ولا زال هو التطلع لمستقبل له وفاء أو وفاء له مستقبل"<sup>83</sup>.

ان افضل تناول لتعريف الدولة المدنية جاء من المناضل علي محمود حسنين "نحن نتحدث عن الدولة المدنية في مواجهة الدولة الدينية، والحديث عن الدولة المدنية يعني ان الدولة غير دينية لان الدولة الدينية غير موجودة حتى في الاسلام والذين يتاجرون بالدين والذين يستخدمون الاسلام السياسي ليست هناك دولة دينية،... دولة مدنية ديمقراطية تقوم الحقوق والواجبات فيها على اساس المواطنة ... وعليه لا يستطيع اي انسان ان يستغل الدين للعمل السياسي كما يجري الان، لذلك نشدد على ضرورة عدم استغلال الدين في العمل السياسي"<sup>84</sup>.

هذا النقاش الذي يجتاح المنطقة، من الحوار حول الدولة المدنية الديمقراطية، طال فيه النقاش في السودان منذ أن قذف النميري القوانين السيئة السمعة "قوانين سبتمبر" وسار في ركابها الإخوان المسلمون وجماعات إسلامية أخرى من العالم العربي والإسلامي. بدلاً عن الوصول إلى تفاهم تاريخي حول الدولة المدنية الديمقراطية، اختار تيار الدولة الدينية الانقلاب على كل الاطراف واستطاعوا فيما يقارب من الربع قرن أن يقدموا اسوأ نموذج للفساد والاستبداد، اضيفت لدول الملك العضوض، الطالبنية ودولة الولي الفقيه الايرانية.

---

<sup>83</sup> الامام الصادق المهدي: نحو مرجعية إسلامية متجددة متحررة من التعامل الانكفائي مع الماضي والتعامل الاستلابي مع الوجد، 2005

<sup>84</sup> علي محمود حسنين في حوار عاصف الجزء الثالث : جريدة الاحداث: 2010/(12/04)

جاءت وثيقة البديل الديمقراطي الموقعة من الاحزاب السودانية (عدا المؤتمر الوطني) في يونيو 2012، ووضعت القيم والمبادئ التي تحكم الدولة. ففي باب البرنامج وتحت باب الالتزام بالمبادئ والقيم التالية في كتابة دستور البلاد الدائم: "الدولة السودانية دولة مدنية ديمقراطية تتأسس علي المساواة بين المواطنين وتؤكد إن الشعب هو مصدر السلطات وتعتبر ان المواطنة هي اساس الحقوق والواجبات".

اكادت وثيقة الفجر الجديد أساس الدولة المدنية وازافت بوضوح شديد العلاقة بين الدين والدولة "والتي تقود إلي دولة ديمقراطية فدرالية تعددية تتأسس على المساواة بين المواطنين وتؤكد ان الشعب هو مصدر السلطات ان المواطنة المتساوية هي اساس لنيل الحقوق واداء الواجبات وتضمن حرية الفرد والجماعة، وتفصل فيها مؤسسات الدولة من المؤسسات الدينية لضمان عدم إستغلال الدين في السياسة"<sup>85</sup>.

#### نماذج الدولة الحديثة<sup>86</sup>

إن تعريفات ماكس فيبر او غرامشي لاتغطي مهام الدولة إلا إذا نظرنا إليها ضمن واقع عام، إذ أن ادبيات العلوم السياسية قد اتفقت على مهمتين اساسيتين للدولة، تنبثق تنبثق منهما المهام الأخرى: المهمة الأولى تتعلق بالتوزيع "قدرة الدولة على تلبية الاحتياجات الأساسية للسكان من الوظائف السياسية والامن، والوظائف الاقتصادية والاجتماعية: الصحة، التعليم والخدمات الاجتماعية"، والمهمة الثانية هي السيادة الوطنية والتي يصفها فيبر "بحق الاستخدام الشرعي لوسائل العنف ضمن إقليم معين". يرى د. جمال محمد سليم – مدرس العلوم السياسية بجامعة بورسعيد- ان الدولة الحديثة مرت باربعة نماذج حتى الان.

**الدولة الحارسة:** امتدت منذ منتصف القرن الثامن عشر مع تحول الاقطاع إلي البرجوازية وأنطلاق الثورة الصناعية، حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى وقد ميزها سيطرة فكر الرأسمالية غير المقيدة واستندت على نظرية الاقتصاد الحر ورائدها ادم سميث ولخصها شعار "دعه يعمل دعه يمر". يقوم هذا النموذج على دور الدولة في السيادة الوطنية (الحراسة) وتقليص دورها في الانتاج والتوزيع.

<sup>85</sup> وثيقة الفجر الجديد: <http://www.vb.alrakoba.net/t128059.html>

<sup>86</sup> د. جمال محمد سليم: معضلة الاختيار: النماذج الاربعة للدولة الحديثة، اتجاهات نظرية، ملحق مجلة السياسة الدولية ، عدد يوليو 2012

**الدولة الكينزية:** بدأت بعد الكساد العظيم في 1929 والتي ادت لظهور الحاجة إلى تدخل الدولة في توجيه النشاط الإقتصادي وسميت الرأسمالية الموجهة، واستندت على مفاهيم الإقتصادي الإنجليزي جون مينارد كينز (1883 - 1946). وقد كانت هذه النظرية الأساس لما عرف بدولة الرفاه، والتي تقوم فيها الدولة بجانب وظائفها إلى التدخل في توجيه النشاط الإقتصادي، الارتفاع بمستوى معيشة الافراد وتقديم الضمانات الإجتماعية. ترافق هذا مع صعود النموذج الاشتراكي والتي وسعت مهام الدولة لتشمل السيطرة على وسائل الانتاج بجانب التوزيع وتقديم الضمانات الإجتماعية لتحقيق العدالة الإجتماعية.

**الليبرالية الجديدة (Neo-liberalism):** نشأت مع العولمة، منذ ثمانينات القرن الماضي، وتنامي ظاهرة الشركات العابرة للدول وما تركته من أثر على مفاهيم السيادة الوطنية وحدودها. المحصلة النهائية كانت في سياسات إنسحاب الدولة من تملك ادوات الانتاج "الخصخصة"، الغاء الدعم الحكومي، تقليص الانفاق العام، تحرير العملة الوطنية والفتح الكامل لاسواق السلع ورأس المال. وقد تم تبني هذا النموذج في الولايات المتحدة والغرب وتم فرضه على كثير من الدول عن طريق برامج التكييف الهيكلية وحزمة السياسات التي رعت تنفيذها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي .

**الرجوع إلى النموذج الكينزي:** أدت سياسات الليبرالية الجديدة إلى الازمة المالية العالمية 2008 وما تبعها من تداعيات من الاحتجاجات الإجتماعية المتزايدة، وقد أعاد هذا الاعتبار لدور الدولة في تنظيم السوق وتوفير الخدمات الإجتماعية. تثبت التجربة الاقليمية إن نموذج الليبرالية الجديدة الذي طبق في العقود الاخيرة أدى إلى الافقار العام لشعوب منطقتنا ولنتائج كارثية في الولايات المتحدة واوروبا.

## **الدولة الريعية**

أطلق عالم الاقتصاد الإيراني حسين مهداوي مفهوم الدولة الريعية عام 1970 وعرفها "بأنها نمط من انماط الدولة التقليدية التي تعيش على ريع مواردها الطبيعية فحسب، والتي تبدو غير راغبة او قادرة على الاصلاح او الديمقراطية او التغيير نحو الافضل". وقد تم استعمال الدولة شبه الريعية إذا تجاوز مساهمة العائد الريعي في ناتجها المحلي الاجمالي نسبة تتراوح 29% من ناتجها الأجمالي، وتتمثل تلك



المجموعة في الغالبية من البلدان النامية والقسم الأكبر من أقطار الوطن العربي<sup>87</sup>.  
نناقش الدولة الريعية هنا ليس باعتبارها نموذجاً بعينه، لكن لان بلادنا تحولت لدولة "شبه ريعية"، في اقتصادها مع تطورها من دولة منتجة لبعض الخام والمصنع جزئياً، إلي الاعتماد كلياً على منتجات طبيعية وإستراتيجية بعد توقف النشاط الزراعي والصناعي وتقلصه لحد كبير، ولكنها لاتحقق الشرط الآخر للدول الريعية، دولة الرفاه، تقدم الخدمات للمواطنين بلا مقابل وإن المواطنين يعتمدون على هذه الخدمات بشكل أساسي. إن الدولة تحولت من دولة رفاه (خاصة الصحة والتعليم والمياه)، إلي خدمات مدفوعة الاجر وتدفع بمواطنيها إلي الافقار الكارثي.

وقد اقترحت دراسة للمنظمة العربية لمكافحة الفساد سبعة عوامل قبل الانتقال من دولة الربيع إلي دولة الانتاج والعدالة. الدراسة تحت عنوان: "من دولة الربيع إلي دولة الانتاج والعدالة: نحو عقد إجتماعي عربي جديد". تفصّل شروط الانتقال إلي مصاف دول الاكتفاء الذاتي من خلال تفعيل شرائح المجتمع غير الفاعلة لا سيما عنصر الشباب- رهان المستقبل. التحول الديمقراطي وفصل السلطات، إعادة الاعتبار لمفهوم الثروة الوطنية، الانتقال من حاكمية الموازنة إلي المال العام، الانتقال من الاقتصاد الخاص الريعي إلي التشغيلي الانتاجي، الانتقال من عنصر بشري مذعن إلي خلاق، الانتقال من محاصصة الربيع إلي إعادة توزيع الدخل والحماية المجتمعية والانتقال من تشرذم سياسي عربي إلي تكتل سيادي مؤثر قادر على الدفاع عالمياً عن مصالح الكتلة الإقتصادية والسياسية عبر موازنة المصالح الاقليمية ضمن مؤسسات ديمقراطية على المستوى الوطني<sup>88</sup>.

### الدولة الفاشلة والدولة المنهارة

يصنف روبرت روتبيرج الدولة المنهارة، باعتبارها إحدى مراحل الدولة الفاشلة والتي تعني الدولة العاجزة عن أداء وظائفها لفترة طويلة من الزمن. وقد طور ويليام

<sup>87</sup> رياض الخوري: إعادة النظر في نظرية الدولة الريعية، 9 سبتمبر/أيلول، 2008، <http://carnegieendowment.org>

<sup>88</sup> رنا الصباغ: السلطات العربية أمام خيارى الاقتصاد الريعي التنفيعي والاصلاح المستدام، جريدة "العرب اليوم" اليومية - الأردن، <http://www.arab-reform.net>

زارتمان (مدير الدراسات الإفريقية بجامعة "جون هوبكينز" بواشنطن) هذا التعريف، وأضاف إليه عناصر شملت عدم فاعلية الحكومة المركزية، تآكل شرعيتها، تراجع سيطرتها الأمنية علي إقليمها، إنتشار حالة من عدم احترام القانون ومن غياب النظام<sup>89</sup>.

حددت كاتي كليمون في دراستها لأسباب انهيار الدول، إلي تحديد أربعة متغيرات رئيسية، توافرها مجتمعة تؤدي لانهيار الدولة. العلاقة بين الأسباب والمخرجات هي علاقة طردية، أي كلما توفرت جميع أسباب الانهيار وتفاعلت فيما بينها، يكون مخرج الانهيار حتمياً.

**المتغير الأول** هي البيئة الخارجية "المتناقضة"، أي الداعمة لاستمرار الدولة، بصرف النظر عن درجة تماسكها الداخلي، مع تردد القوي الدولية في التدخل لتغيير الأوضاع في تلك الدول، نتيجة التحولات في هيكل الفرص السياسية والإقتصادية.

**المتغير الثاني** وجود أزمة إقتصادية حادة، أو نمو إقتصادي سريع يؤدي إلي تحول ما في النظام الإقتصادي للدولة.

**المتغير الثالث** تعبئة المجموعات "التقدمية": عادة ما تعاني هذه الجماعات من الحرمان النسبي، ويهدف تحركها للتأثير بشكل مباشر في رفاه وأمن أصحاب السلطة والنفوذ، بينما يعمل هؤلاء علي الحفاظ علي الوضع القائم، ويرفضون تماماً التغيير أو الثورة التي تنادي بها تلك المجموعات.

**المتغير الرابع** غياب تدوير النخبة، واستيعاب النخب الجديدة، وما ينتج عنه من عدم استقرار حاد يؤدي لانهيار الدولة، وقدرة النظام علي استيعاب النخب الجديدة، مرتبطا بوجود آليات لإدارة النزاعات السياسية، تعمل علي تحجيم العنف السياسي.<sup>90</sup> عند توفر المتغيرات الأربعة السابقة وبدرجات متنوعة تمر الدول بثلاث مراحل في الانهيار:

**المرحلة الأولى:** تتمثل في انتقال الدولة من حالة الدولة القوية القادرة علي القيام

---

<sup>89</sup> بروفيسور روبرت روتبيرج هو رئيس برنامج الصراع الداخلي وتسوية الصراعات بكلية كندي للحكم بجامعة هارفارد، كما أنه أيضا رئيس مؤسسة السلام

<sup>90</sup> عبدالوهاب عمروش: الدولة المنهارة: قراءة أولية في أسباب ومظاهر ومراحل انهيار الدول، [digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=988412](http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=988412)

بوظائفها بصفة دائمة، مثل إدارة النزاعات الداخلية، تحقيق الأمن والتي تحتفظ بالسيطرة الكاملة علي جزء كبير من أراضيها مع غياب أي من المتغيرات الأربعة السابقة إلي الدولة غير القوية.

**المرحلة الثانية:** انتقال الدولة إلي حالة الأزمة، ويتطلب حدوث ذلك تفاعل متغيرين أو ثلاث علي الأقل. ويعد العامل الإقتصادي هو المتغير المركزي في هذه المرحلة. ورغم أهمية المتغير الإقتصادي، فإنه غير كاف لتهديد بقاء الدولة القوية أو لتعميق الأزمة، فهو يؤثر في الدولة فقط عندما يتفاعل مع متغيرات أخرى، مثل تعبئة الجماعات ذات الهويات المتميزة، أو عدم تدوير النخبة الحاكمة.

**المرحلة الثالثة:** في مرحلة انهيار الدولة، وتبدأ في حال توافر المتغيرات الأربعة مجتمعة، وهذا يؤدي إلي سقوط الدولة وانهيارها. فكل هذه المتغيرات هي شروط ضرورية و كافية لتحقيق الانهيار.

### الدولة الفاشلة

وضعت منظمة السلام والتعاون الدولية، مجلة فورن بولسي ومنظمة الشفافية الدولية، وهي جهات دولية تهتم بتصنيف وترتيب الدول، استندت على معايير وضعتها لتحديد الدول الفاشلة. يستند هذا التصنيف على مؤشرات إجتماعية، سياسية وإقتصادية. وتشمل معايير مثل شرعية الدولة، احترام حقوق الإنسان، سيادة القانون، مظالم المجموعات والأقليات والتنمية غير المتوازنة .

ويذكر أن الدرجات محسوبة على 12 مؤشراً، يتم الاستناد عليها في تقييم مدى فشل أو نجاح أي دولة: كانهيار الحكومة، صراع السلطة، فقدان الشرعية، فساد الحكم، التمرد الإجتماعي، حالة الخدمات، انتهاك حقوق الإنسان وسيادة القانون، التدخلات الخارجية، التدهور الإقتصادي، النزاعات العرقية، فرار المواطنين أو نزيف العقول، النزوح، نقص الغذاء والوضع الصحي والمستوى التعليمي وانتشار السلاح.

كل معيار يعطي درجات تتراوح من (1) إلي (10)، بناء على تحليل المعلومات الرسمية المنشورة عن البلد المعني، وتشير زيادة درجات المعيار إلي زيادة الضغوط على الدولة وبالتالي وجود مخاطر اكبر بعدم الاستقرار. كل مؤشر من هذه المؤشرات

الفرعية الثلاثة بدوره يقيس مجموعة أخرى من المتغيرات التابعة، فالمؤشر الاجتماعي يقيس (1) حجم ضغط السكان على موارد الدولة، (2) حركات النزوح السكاني (المؤقت) الخارجي والداخلي، (3) الميول العدوانية والانتقامية للجماعات السكانية المتظلمة أو المتمردة (4) هجرة السكان خارج البلاد.

بينما يقيس المؤشر الاقتصادي (1) مدى تقدم أو تراجع الأداء الاقتصادي للدولة (2) حجم تفاوت مستويات المعيشة بين طبقات المجتمع وحدة الفقر. يقيس المؤشر السياسي (1) مدى تمتع الدولة بالشرعية وحدود التزامها بالقانون، (2) تقدم أو تدهور مستوى الخدمات العامة من تعليم، صحة وغذاء، (3) حالة الأوضاع الأمنية داخل البلاد، (4) نوعية الأجهزة الأمنية وأدائها، (5) نوعية النخب السياسية الموجودة (6) حجم التدخلات الخارجية في شئون الدولة. إن هذه المراتب ليست اخلاقية فقط لكنها تحدد لدرجة كبيرة وضع الدولة في العلاقات المالية، الدبلوماسية، القروض وغيرها<sup>91</sup>.

من المهم أن نبتعد عن خلط المصطلحات لأنها تفقد لنتائج مختلفة، كما تقول د. رباب المهدي " الدولة الفاشلة - التي أزعج أننا أقرب إليها - ظاهرة تتطلب بالإضافة إلى ذلك وضع أسس جديدة، وعملية بناء ليس فقط لأجهزة الدولة، ولكن لفلسفة الدولة ككل، وعلاقتها بالمجتمع، نحتاج ليس فقط لتنحية قيادات وإحلال قيادات جديدة بمعايير شفافة وواضحة مبنية على الكفاءة، ولكن أيضاً لإعادة بناء السياسات والمؤسسات العامة بدءاً من أولويات الإنفاق وسياسات توزيع الثروة، وليس انتهاء بإعادة هيكلة منظومة الأمن لتحمي المواطنين والمواطنات دون تمييز أو إهدار لكرامة ومرافق عامة تقوم على خدمتهم كأولوية"<sup>92</sup>.

في تقرير مؤشر الدول الفاشلة لعام 2012 الذي صدر مؤخراً، من إجمالي 177 دولة شملها التقرير، نالت الصومال مرتبة أسوأ دولة والأكثر فشلاً في العالم، تلاها السودان الذي بقي في مكانه الثالث عالمياً للسنة الثالثة على التوالي. وحاز السودان على درجة فشل تساوي 109.4 وذلك بدرجة فشل أكبر من درجة العام الماضي 2011 والتي بلغت 108.7.

<sup>91</sup> محمد وداعة: المعايير الدولية .. الدولة الفاشلة، 12.09.2012

<http://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-23727.htm>.

<sup>92</sup> رباب المهدي: ليست دولة عميقة بل دولة

فاشلة، [http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?id=c682d02f-](http://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?id=c682d02f-5353-4f63-a7e9-ac91420f88d1)

5353-4f63-a7e9-ac91420f88d1

## الفصل الثالث: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا نظام الحكم

يرى لوسيان باي<sup>93</sup> أن التنمية السياسية هي "جانب من عملية التغيير الإجتماعي المتعددة الجوانب". وتقوم على ثلاثة مقومات رئيسية<sup>94</sup>.

**أولاً: المساواة أمام القوانين (الفرص وإمكانات المشاركة في صنع القرار):** إن أهم عناصر هذه المقومات هي في إستعادة التيار الرئيسي. كما تناولنا في الفصل الأول فأن البلاد الديمقراطية التي استقر بها الحال وتطلعت إلي المستقبل و"دفرت" فيه ملياً استطاعت أن تحافظ على غلبه التيار الرئيسي في الحكم والمعارضة. ويتنوع التيار الرئيسي في الدول حسب تجاربها التاريخية من التيارات المحافظة، الليبرالية، الاشتراكية وغيرها ومن التيارات المسيحية إلي الإسلامية والهندوسية. لكن سمتها العامة هي محافظتها على قواعد اللعبة الديمقراطية والهياكل المؤسسية وشروط العقد الإجتماعي.

السودان مقبل على فرصة استعادة التيار الرئيسي، بعد انكشاف حال تيار الدولة الدينية واقتناع أحزاب الطائفية الليبرالية والإمام الصادق المهدي في رفع غطاء الثقل الجماهيري عن حزب الإخوان المسلمين والذي كان سبب تسيدها، لتعود هذه الأحزاب لحجمها الطبيعي لوبيات على اليمين واليسار. إن التيار الرئيسي لا يعني بالضرورة حزبي الأمة والاتحادي ولا يستبعدهما ولكن هناك احتمالات أن تشكل تحالفات أحزاب جهوية، تيارات ليبرالية، اشتراكية أو إسلامية وأحزاباً تمثل الكتل الجديدة دوراً مهماً في مستقبل العمل السياسي في الوطن.

<sup>93</sup> لوسيان جورج باي 1921 - 2008، عالم السياسات والصينيات والسياسة المقارنة في الولايات المتحدة. أصبح باي واحداً من الرواد في الخمسينات والستينات في تطوير نظريات التنمية السياسية والتحديث في دول العالم الثالث

<sup>94</sup> التنمية السياسية: النظريات والمفهوم، صوت الكويت، العدد 640،

<http://q8s.kuwaiti.ws/t155711.html>

يترافق مع هذا التملل الضخم، الحركية المفرطة التي تمر بها الأحزاب الطائفية الليبرالية نفسها من شبابها وقياداتها الجديدة، التي أفرزها الصراع الدامي الطويل مع الإنقاذ. لقد أخذت هذه التحركات عديد الأشكال من الانشقاقات المتوالية، سواء من العناصر الانتهازية التي التحقت بالنظام أو جماعات خارج الحزب ومعارضة له أو تكوين الحركات المسلحة في دارفور، النيل الأزرق، جنوب كردفان أو الالتحاق بها وهجر الأحزاب. لكن أغلب هذه المجموعات ظلت داخل أحزابها تقارع بالحجة، التكتل، المذكرات، البيانات وغيرها. لن تتوقف هذه التحركات إلا بالوصول إلى ما صار توجهاً عاماً في الحياة السياسية العربية وهو بناء دولة مدنية ديمقراطية حديثة.

**ثانياً: القدرة:** ونعني قدرة النظام وأبنيته المختلفة بالقيام بمهامها، وقدرتها على تحويل المدخلات إلى مخرجات تلبي حاجات المجتمع. نبدأ من أن السودان يمتلك البنية الأساسية اللازمة لتقليل أثر الفساد المالي والإداري إلى الحدود الدنيا. لقد واصل ديوان المراجع العام (القومي) عمله عبر السنوات واستطاع، رغم الحكم المستبد، أن يواصل تقاريره السنوية التي ترصد الكثير من التجاوزات. هذا تقليد عريق ومستمر في السودان منذ عقود طويلة. الرؤية تعالج الفساد بأنواعه الفساد السياسي، الإداري، الوظيفي، المالي والأخلاقي. في هذا لا نعيد إنتاج العجلة فهناك تراث ضخم في هذا المجال. لقد أكملت الأمم المتحدة اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد والتي تشمل على الصياغات العامة التي تساعد الدول في وضع برامجها المبنية على الخبرة العالمية المتوفرة، وتتوفر مكثبات كاملة في هذا الشأن.

عندما تستولي القوات المسلحة على السلطة تعتمد دستوراً دائماً وتفرض النظام الرئاسي أو الجمهوري، كما تقوم المراحل الديمقراطية بإعادة الدستور المؤقت 1956 وكذلك بإعادة النظام البرلماني ومجلس السيادة. لم يتوقف العائدون بالديمقراطية لمراجعة نظام حكمهم، وأظنهم لا يحملونه أي جريرة، فهذا موروث وستمنستر الذي اغرموا به. مرة واحدة جرت محاولة لإعادة النظر في الستينات ولكنها بدلاً من أن تخضع لنقاش جاد وواسع، كانت جزءاً من مناورات الاستئصال الحزبية. يدور نقاش كبير في دول الثورات العربية حول هذه القضية، خاصة مصر.

لقد تواضعت البشرية على ثلاثة أنظمة أساسية للحكم الديمقراطي التعددي: النظام البرلماني بتنويعاته، النظام الرئاسي بتنويعاته والنظام المختلط. إن لكل نظام محاسنه

وعيوبه وتوجد عشرات التطبيقات لكل نظام، لا نعيد اختراع العجلة، لكن إعادة فتح هذا الملف ضروري لتوصل إلى النظام الأفضل لظرف بلادنا. كما أوضح المسلماني "أن النظام البرلماني طرح إيطاليا وإسبانيا واليونان أرضاً، مضيفاً أن النظام البرلماني دمر النظام السياسي العراقي والفلسطيني، وبالتالي النظام البرلماني بمصر قد يؤدي إلى كارثة. كما أن معظم الدول التي تبنت مشاريع نهضة أوطانها درجت على اختيار النظام الجمهوري"<sup>95</sup>. إنني مع النظام الجمهوري، إن الفكرة الأساسية في تأييدي للنظام الجمهوري هي التجربة التاريخية، فمعظم الدول التي تتبنى النظام البرلماني تعاني من مشكلات عويصة من عدم الاستقرار.

صممت أنظمة اللامركزية، في السودان إبان الأنظمة الديكتاتورية، لتثبيت أنظمة الحكم بتصدير المشاكل والمسئوليات، مركزة المال والصلاحيات، ضخ الأموال للمركز وترضية المؤيدين بوظائف غير منتجة. كاهه أقاليم السودان الخمس (الشمالي، الشرقي، الجزيرة، دارفور وكردفان) لديها اقتصادات حقيقية وثروات متنوعة، المشكلة أنها تخرج من الأقاليم في شكل مواد خام (بترو، ماشية، حبوب... الخ) ولا يعاد استثمارها في الأقاليم المعنية بل تظهر في جسر العاصمة والمباني الزجاجية المرتفعة. يحتاج السودان لنظام لا مركزي حقيقي والتجارب الناجحة من فيدرالية أو حتى كونفدرالية (سويسرا) متوفرة للدراسة والوصول لأفضلها، نظام إداري رشيق، كفاء وفعال.

**ثالثاً: التميز والتخصص:** لقد عمت الفوضى في حياتنا السياسية والإجتماعية من اختلاط الأدوار والتداخل بين المؤسسات في قيامها بوظائفها. لقد أصبح من الطبيعي أن يلتحق الطالب بالكلية الحربية، وأحلامه ليس أن يصير وزيراً للدفاع ولكن أن يصبح رئيساً للجمهورية وهذا نمط من السلوك سائد في مجتمعاتنا حيث الطريق المختصر هو اقصر طرق الوصول (تتداخل فيها الوساطة القبلية، الجهوية، الحزبية وأشياء كثر). لا تعني الشهادات، الكفاءة، الخبرات والمهارات أي شيء في أن يشغل أي شخص أي موقع حتى عندما يعين شخص ما في عقد الوظائف ليس هناك أي تأهيل مؤسسي.

---

<sup>95</sup> احمد المسلماني (صحفي ومقدم برنامج مصري) ، لقاء مع برنامج آخر النهار على قناة النهار الفضائية المصرية 24 ابريل

## عمليات التحول الديمقراطي

تحدث "الازمة الثورية" عندما يصبح الحاكم عاجزاً عن الحكم، والمحكومون عاجزين عن تحمّل الأزمة، الطرف الثالث في تغيير الازمة الثورية إلى "اللحظة الثورية" بين الحاكم والمحكوم هو قيادة الحزب الثوري، حسب نظرية الثورة للينين. وقد اثبتت الثورات صدق تحليل لينين في جزئه الأول، ولكن الطرف الثالث يمكن أن يكون توفر قيادة ميدانية تقود الجماهير، وليس بالضرورة الحزب. واثبتت الثورات العالمية والعربية أن اهم عناصر القيادة هي القوى الثورية الشبابية والكتل الحرجة من الشعب الذي ينحاز اليهم<sup>96</sup>.

يتراوح الوضع في السودان منذ فترة طويلة بين الازمة الثورية إلى اللحظة الثورية. الازمة السودانية ازمة شاملة، الحراك الشعبي المستمر والرغبة في التغيير تراكم طويل الأمد يشمل ما هو سياسي، إجتماعي، إقتصادي، نقابي ومهني، حيث يتمظهر ثم يخبو، حتى يكاد يقترب من الانطفاء، بسبب عوامل موضوعية وأخرى ذاتية، لكنه لا ينقطع، وظلّ مستمراً ومتواصلاً على الرغم من الصعود والنزول، إلي أن يحين موعد اللحظة الثورية المثيرة للدهشة حد المفاجأة، فتنتقل الشرارة وتسري مثل النار في الهشيم، كما يقول ماوتسي تونغ: "يكفي شرارة واحدة لكي يشتعل السهل كله".

ستحدث اللحظة الثورية حين تنضج وتتفاعل وتتحد العوامل الموضوعية، والعوامل الذاتية، لاسيما عندما ينتقل الخوف من المحكومين، إلي الحكّام، فلا يعد هناك ما يخيف الشعب بعد أن عملت آلة الإذلال والكبت والقتل ما عملته، بالشعب الأعزل، وعندها لن يعد الموت مرعباً، في حين أصبح، هذا الموت، يخيف الحاكم الذي سيأخذ بالتراجع خطوة بعد أخرى، وتصريحاً بعد تلميح، وإجراء بعد آخر. دور الشباب وحيويته، حيث يمثل العقل المدبّر والساعد المنفّذ، سيكون حاسماً في هذا التغيير<sup>97</sup>.

وفقاً للأدبيات السياسية والسوابق التاريخية في عملية التحول الديمقراطي، فإن ثمة

<sup>96</sup> سعد الله مزرعاني: أين نحن من "اللحظة الثورية"؟، 2009/10/23 ،

<http://www.safsaf.org/10-2009/art/arabs/mazraani-saadalah/1.htm>

<sup>97</sup> عبد الحسين شعبان: اللحظة الثورية وربيع التغيير، الحوار المتمدن-العدد: 3597 - 2012 /



نمطين يسمان - من الناحية النظرية- حقبة الفترات الإنتقالية التي تلي إزاحة الديكتاتوريات الحاكمة من سدة الحكم، ويتعلق هذان النمطان بطبيعة العلاقة بين النخب القديمة المرتبطة بالنظم البائدة والنخب الجديدة التي تسعى للتغيير والتي قد يفرزها الواقع الجديد بعد الإطاحة بنظم الحكم القائمة.

**النمط الأول هو نمط التحول الإحلالي (Trans-placement):** وفيه تقوم النخب القديمة بمحاولة التكيف والتماهي مع النخب الجديدة الصاعدة لتيقنها من عدم قدرتها على إزاحتها أو مجابقتها، ومن ثم تتركب الموجة لتبدو متوائمة مع الواقع الجديد، وتسعى لجعله تغييراً شكلياً على مستوى الأشخاص والأفراد مع بقاء الأبنية والأطر المؤسسية على حالها دونما تغيير، لتحافظ بذلك على وضعها القديم ومصالحها الخاصة في ظل نظام الحكم الجديد.

**النمط الثاني هو نمط الإحلال (Replacement):** وفيه تدرك النخب الجديدة مدى خطورة النخب القديمة على مستقبل الدولة ومدى نفوذها وتغلغلها في أبنية ومؤسسات الدولة والمجتمع، ومن ثم تضطلع النخب الصاعدة بتجفيف منابع تلك النخب القديمة أو الذبول السابقة للنظم البائدة، فتصادر أسباب قوتها ونفوذها، وتحد من نشاطها السياسي، الإقتصادي وحضورها المجتمعي، فتقلص أو تعلق المنافذ السياسية والإعلامية والإقتصادية التي طالما كانت تؤدي بها تلك النخب القديمة أدوارها المشبوهة ووظائفها الهدامة في الدولة والمجتمع.

في تجارب الفترات الإنتقالية والتحول الديمقراطي التي عرفتھا الدول، كانت هناك محددات عامة للتوجه لحل قضاياها تراوحت في عدة تجارب: بولندا وصراع النخب وسياسة النفس الطويل، كوريا الجنوبية الاستعانة بخبرات النخبة القديمة -ممن لم يتورطوا في ممارسات القمع والفساد- في المجال الإقتصادي للحفاظ على مسار التنمية وتحقيق مزيد من التقدم الإقتصادي للبلاد. وصول نخب المعارضة اليسارية إلى السلطة في غالبية بلدان أمريكا اللاتينية عن طريق آلية التناوب الديمقراطي السلمي (هوجو شافيز، لولا دا سيلفا في البرازيل، نستور كرشينر في الأرجنتين، تابري فاسكيز في أوروغواي وبايفو موراليس في بوليفيا).

افضل نموذج كان من شيلي، العفو متسربلاً بـ"العار" وتدشين "لجان الحقيقة"، التي

لا تنتهج العفو العام كما لا تنتهج الانتقام الدموي، ولكنها تعوض المتضررين من الانتهاكات عبر عملية تفاوضية يقر المتهم من خلالها بجريمتها، ومن ثم يقدر التعويض المادي المناسب للضحية مع وجود تعويض معنوي لا يقل أهمية، ويتمثل في "الحاق العار" بالشخص المتورط في تلك الجرائم مدى الحياة. لقد فتحت العدالة الإنتقالية الطريق للشعوب للتعافي وبدء مسار جديد<sup>98</sup>.

### مصيصة المرحلة الإنتقالية

بحث ملف مجلة السياسة الدولية، العدد 188، إبريل 2012، قضايا المصيصة الإنتقالية. تواجه المراحل الإنتقالية قضايا متراكمة، شهدناها في اعقاب ثوراتنا السودانية ونلاحظها بدرجات متفاوتة، في دول الثورات العربية. فمرحل ما بعد الثورات تأتي بمطالب شعبية ملحة تستدعي إجراء تغييرات جذرية في توزيع القوة والثروة داخل المجتمع. ولكن تحقيق مثل هذا التغيير الشامل يواجه بعقبات متعددة، فالمؤسسات بطبيعتها مقاومة للتغيير، والطبيعة المعقدة للمشاكل التي تواجهها النظم في مراحل التحول، تفتح الباب دائماً أمام الدعوات للتمهل والتدرج في تنفيذ التغييرات المطلوبة.

تتدرج القضايا التي تواجه كافة المراحل الإنتقالية من احتياجات ومطالب فئوية وعامة لا نهائية نتاج لما نتج عن الثورات ثورة هائلة من التطلعات، التعارضات الخاصة ببناء النظام الجديد، بكل مؤسساته التشريعية، التنفيذية، القضائية والأمنية. بالإضافة إلي أن التدخلات الدولية والإقليمية داخل دول الثورات تتصاعد إلي مستويات شرسة في فترات ما بعد الثورات، بحيث قد تربك المعادلات الداخلية<sup>99</sup>.

وتلعب طريقة إدارة المرحلة الإنتقالية والقوى المتحركة فيها دوراً محورياً في تحديد نجاح أو فشل الثورات في تحقيق أهدافها. فقد يؤدي غياب الرؤية الواضحة والمتفق عليها إلي التخبط والفشل، كما قد تنجح قوة سياسية أو مجتمعية، أو تحالف بين عدد

<sup>98</sup> الفترات الإنتقالية وإعادة إنتاج "الفلول".. تجارب وخبرات، الأحد 30 ديسمبر 2012 ، <http://www.almasryalyoum.com/node/788076>

<sup>99</sup> أبو بكر الدسوقي (رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام): المصيصة الإنتقالية: لماذا تتعثر الدول في فترات ما بعد الثورات العربية ؟ ملف العدد ، مجلة السياسة الدولية، العدد

188 ، إبريل 2012، <http://www.siyassa.org.eg>

منها، في تحويل مسار المرحلة الإنتقالية إلي ما يخدم مصالحها، معيقة بذلك حدوث تغييرات جذرية أو ثورية. ويقود كل ما سبق لما يعرف "بمصيصة المرحلة الإنتقالية"، والتي تتسبب في امتداد مرحلة التحول بشكل يقوض فعلياً من فرص تحقيق التغيير الثوري المنشود، بل من الزخم الثوري نفسه، و لو إلي حين. فالمجتمعات تفقد الثقة في فعالية الثورة كأداة للتغيير، كلما طالت المدة بين الفعل الثوري، وتحقيق مكاسب ملموسة على الأرض.

ان الجماهير حين تطالب بتغيير او اسقاط النظام يتولى التعبير عنها ممثليها الذين ينحدرون من الطبقة الوسطي. هذه الطبقة، برغم أنها في السودان تقع فوق خط الفقر مباشرة، تضم شباب الشريحة العليا والمتوسطة من الطبقة الوسطي بشعاراته التي تتعلق بالحريات (حرية سلام)، وشباب الطبقة الوسطي الدنيا بمطالبهم الإجتماعية (عدالة) وهكذا يكون مشهد التغيير عنوانه: الحرية والعدالة الإجتماعية.

أن قضايا هذه الطبقة رغم أنها تكون في صدارة الحدث وتؤثر في مجريات الامور وتتولى زمامها، إلا أنها ليست مطابقة لقضايا قطاع واسع يشاركون في الحدث ويمثلون في السودان أكثر من 40% تحت خط الفقر المدقع ومثلهم في حرف ووظائف هامشية تجعلهم فوق خط الفقر بقليل. لذلك فان موائيق الثورات والانتفاضات والتغيير الإجتماعي لاتعبر بدقة عن هذه الجماهير ولا تظهر بشكل واضح في المناقشات. إننا جميعا نميل إلي تغليب قضايا الدستور، الخدمات ..الخ في نظرة كلية مجردة.

يمكن أن نبدأ بصنع الوهم اذا تخيلنا للحظة أننا يمكن ان نصنع رؤية سودانية قبل أن ننجز كافة القضايا التي سوف نستعرضها لاحقاً: قضايا نظام الحكم والمسائل المتصلة بها والتي كانت محور الصراع وسبب فشل المشاريع الوطنية وتشمل: قضايا الدستور، العدالة الإنتقالية، العدالة الإجتماعية، العلاقات الخارجية والمجتمع المدني؛ والقضايا المتصلة بالتغيير الإقتصادي والإجتماعي الذي سيشكل البنية التحتية لأي نهوض وطني والوصول لرؤية البناء والتنمية وتشمل: الثقافة الديمقراطية، تمكين المرأة، إجتثاث العنف من الحياة السياسية، محو الامية، الفقر، العطالة والديون.

لم تسر كافة الفترات الإنتقالية في ثورات ما بعد تسعينات القرن العشرين من البرازيل، اندونيسيا، دول شرق اوربا والبلقان، جنوب افريقيا، التي حدثت عقب

حروب مثل أفغانستان والعراق وحتى دول ثورات الربيع العربي، كما أمل شعوبها. دول قليلة استطاعت الخروج من مصيدة الفترة الإنتقالية، عندما ألتزمت بتحقيق الكاتلوج الذي نعرضه لاحقاً.

لدي السودان فرصة سانحة أن يستفيد من كل التجارب والخبرات العالمية التي تراكمت عالمياً، والمسار العاجز الذي وجدت فيه دول الربيع العربي نفسها. لقد جربنا كافة الفترات الإنتقالية بعد 1953، 1965، 1985 و 2005، وللسودانيين خبرات وتجارب مفيدة فيها.

### أولاً: قضايا نظام الحكم: الدستور

اناقش قضايا الدستور من موقع التحليل السياسي وليس القانوني، فمجمال ناتج العملية القانونية في النهاية تشكل الفضاء السياسي والحياتي للمواطن. كونت أول لجنة سودانية لمشروع الدستور لسنة 1951، شكلها الحاكم العام، ورفعت توصيتها بتأسيس دستور للحكم الذاتي من نوع الديمقراطية البرلمانية، مضمناً فيه بالإضافة إلي الحاكم العام مجلس سوداني خالص للوزراء وبرلمان ذي مجلسين، وأن يعمل بهذا الدستور المعدل خلال المدة التي تسبق تقرير المصير، وإلي أن يتحقق هذا الهدف تكون جمعية تأسيسية قبل نهاية عام 1953م.

ظل العمل بدستور السودان المؤقت لسنة 1951 مستمراً حتى مطلع عام 1956، و "بتأريخ 1956/2/28 أوصت اللجنة الوزارية بتشكيل لجنة قومية لوضع "مسودة الدستور الدائم". تكونت اللجنة القومية من (46) عضواً واستمر عملها لمدة طويلة وبلغت توصياتها خمس مجلدات كاملة، واستقر الرأي فيها على إقرار مشروع دستور السودان الدائم ورفعت توصياتها في ابريل 1958. وقد كانت هذه خطوة صحيحة في الإتجاه السليم لو قدر لها الاكتمال<sup>100</sup>.

تابعت في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية فشل رحلة الحركة السياسية في وضع دستور دائم للبلاد وتأرجحها بين الإنتقالي والدائم. ترحلت الإنقاذ في ظرف الربع قرن بين الأوامر العسكرية التي حكموا بها البلاد حتى عام 1998، دستور

---

<sup>100</sup> إبراهيم علي إبراهيم/المحامي: الأزمة الدستورية: قصة الحلقة الشريرة، سودانيل 14 مايو 2005م

1998 (ما اطلق عليه دستور الترابي) ثم جاءت اتفاقية نيفاشا في 2005 واسس عليه دستور السودان الإنتقالي لسنة 2005 وهو عبارة عن تقنين اتفاقية نيفاشا بين الحركة الشعبية والمؤتمر الوطني والذي انتهى عام 2011 بعد انفصال جنوب السودان. يعيش السودان الآن فراغاً دستورياً، لكن أهل السودان لايهمهم من الدستور شيء ولايعنيهم في كثير او قليل لأنة دستور اخر لنفس النظام.

### مقارنات بين دساتير السودان

من مراجعة الكتاب القيم والثري للدكتور عبد اللطيف البوني في متابعته لعلمانية او اسلامية الدستور، يبدو جلياً أن المناقشات التي دارت حول دستور 1973 كانت الأكثر حيوية وعمقاً. أول هذه القضايا كانت النص أن الإسلام دين الدولة الرسمي، وكانت ابرز الاراء ضدها ما عبر عنه جعفر بخيت "إن الدولة كائن معنوي لا دين لها وإن الدولة هي اساس المواطنة وليس الدين، وإن الدولة لاتتجمع على اساس العقائد انما على مستوى الاتصالات الثقافية، الإقتصادية والإجتماعية"<sup>101</sup>.

مسألة الشريعة الإسلامية: كان الاقتراح الأول أن مبادئ الشريعة الإسلامية (الحرية، العدالة والمساواة) والعرف مصدران رئيسيان للتشريع والأحوال الشخصية لغير المسلمين يحكمها القانون الخاص بهم. ورأي مقامي الاقتراح أن مبادئ تعني إعطاء الفرصة للسلطة التشريعية لكي تشرع، اما اذا اورد إن الشريعة الإسلامية والعرف مصدران رئيسيان للتشريع، فهذا يعني أن يذهب التشريع لرجال الدين. أي النظر إلي الشريعة الإسلامية كإطار قانوني حضاري وليس ديني. وقد اعيد هذا النقاش في مصر بعد ثورة يناير على نطاق واسع.

### السيادة بين الحاكمية والجاهلية

استندت كل دعوات الدستور الإسلامي على آيات سورة المائدة: آيه 44 (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) آيه 45، (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وآيه 47 (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ). اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة: هل هي في المسلمين، أو في الكفار ؟ في قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)، فروي عن الشعبي أنها

<sup>101</sup> د.عبد اللطيف البوني: دستور السودانى: علمانى ام اسلامى، مكتبة ابن رشد، الخرطوم، السودان، الطبعة الاولى، دمشق، 1998

في المسلمين، وروي عنه أنها في اليهود، وروي عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: "ليس الكفر الذي تذهبون إليه"، رواه عنه ابن أبي حاتم، والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، قاله ابن كثير. وممن قال بأن الآية في أهل الكتاب، كما دل عليه ما ذكر البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردي، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري وغيرهم، وزاد الحسن، وهي علينا واجبة، نقله عنهم ابن كثير، ونقل نحو قول الحسن عن إبراهيم النخعي<sup>102</sup>.

تم طرح مسألة الحاكمية في تراث الفقه الدستوري السوداني منذ الخمسينات، حين استعانت الجبهة الإسلامية للدستور بأحد تلامذة أبو الأعلى المودودي وسكرتيه الخاص، ظفر الله الانصاري في اعداد مشروع الدستور الإسلامي. وفي الستينات عند مناقشة الدستور الجديد اقترح د. الترابي نص إن السيادة لله يمارسها الشعب وفقاً لأحكام الدستور. كان افضل الردود إن الله سيد الكون بلا منازع، ولا يحتاج الشعب السوداني ان يضمن له ذلك في الدستور حتى يؤمن اخيراً. عبر المغفور له محمد أحمد المحجوب عن رأي كان مثل النبوة " ان المعركة كانت عقيمة، كان يجب ان لايقوم جدل حول علمانية او اسلامية الدستور، كان بوسع السودانيين ان يحصلوا على دستور دونما حاجة إلي دعوته دستوراً اسلامياً ويتابعوا ممارستهم للإيمان الإسلامي، ويستفيدوا من التسامح المعجود في تعاليمه"<sup>103</sup>.

## دستور 1985

بعد سقوط نظام المشير نميري أعيد الاعتبار إلي دستور 1956 ولكن تم الاحتفاظ بجزء من الدستور الموروث من الحكم العسكري تحت بند مصادر التشريع "الشريعة الإسلامية والعرف مصدران أساسيان للتشريع والأحوال الشخصية لغير المسلمين يحكمها القانون الخاص بهم". ورغم أن الديكتاتورية العسكرية الثالثة لم تنته تماماً ولكن هزمت نصف هزيمة، فاصدرت دستور 2005 الإنتقالي من خلال آلية شبه ديموقراطية وتقاسم السلطة بين شريكين، وبذلك غيرت البرنامج الحزبي

<sup>102</sup> [Http://www.islamweb.net/newlibrary/display\\_book.php?flag=1&bk\\_no=64&ID=319](http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=64&ID=319)

<sup>103</sup> د. عبد اللطيف البوني: دستور السودان: علماني ام اسلامي، مرجع سابق

للجبهة الإسلامية القومية المسمى الدستور الدائم 1998. احتفظت في مصادر التشريع " تكون الشريعة الإسلامية والإجماع مصدراً للتشريعات التي تُسن على المستوى القومي وتُطبق على ولايات شمال السودان".

### تطور دساتير السودان

عند التعرض لأي دستور هناك الجيل الأول وتتضمن الحقوق والحريات ذات المضمون السياسي والمدني، وتمثل الحقوق والحريات ذات المضمون الاقتصادي والاجتماعي، والجيل الثاني من قائمة الحقوق والحريات التي نصت عليها المواثيق والإعلانات والعهد الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان. مثال ذلك الدستور الألماني 1919، الدستور الأسباني 1931، الدستور السوفيتي 1936، الدستور الإيطالي 1947، الدستور البولندي 1952، الدستور الصيني 1954 والتي أمنت جميعها حقوقاً اقتصادية واجتماعية مثل حق العمل، حق الملكية، حق التعليم، الحق في الرعاية الصحية، وغيرها من الحقوق بما يحقق للإنسان حياة كريمة ولائقة<sup>104</sup>.

أن الالتزامات الواقعة على الدول فيما يتعلق بالحقوق والحريات الاقتصادية والاجتماعية هي التزامات إيجابية، بما يعنيه ذلك من ضرورة بذل الدول لجهود معينة حتى تكفل للمواطنين فرص عمل مناسبة، فضلاً عن توفير المسكن، الغذاء، الكساء، التعليم والرعاية الصحية المناسبة إلي غير ذلك من المتطلبات اللازمة للحياة الكريمة واللائقة لمواطنيها. وهو ما يفيد بأن للأفراد الحق في مطالبة السلطات الحاكمة بأن تقدم لهم يد العون والمساعدة، وأن توفر لهم كل ما هم بحاجة إليه لكي يعيشوا حياة لائقة وكريمة.

أما الالتزامات الواقعة على الدول فيما يتعلق بالحقوق، الحريات السياسية والمدنية فهي لا تعدو أن تكون التزامات سلبية تفرض عليها ألا تضع العراقيل أمام المواطنين وتحول بينهم وبين تحقيقها. وهو ما يفيد بأنه ليس للأفراد الحق في مطالبة السلطات الحاكمة سوي بأن تخلي بينهم وبين ممارسة حقوقهم وحرياتهم السياسية والمدنية. سوف نعالج هنا بعض القضايا والتطور أو التراجع فيها. من عام 1956 حتى 2005

<sup>104</sup> أ.د. جابر سعيد عوض: الحقوق الاقتصادية والاجتماعية في الدساتير العربية: رؤية مقارنة، [www.nhrc-qa.org/.../NADWA-11052008-Jaber\\_Awad](http://www.nhrc-qa.org/.../NADWA-11052008-Jaber_Awad)

تراجعت الحقوق الاساسية بحذف الحرية واعتبار المساواة امام القانون هي الحرية، لكن الاصل في الحقوق هي الحرية. برغم احتفاظ المواطنين بالحقوق بدون تمييز، إلا أن الدولة لم تضع مسؤوليتها عن توفير ضمانات لتحقيق هذه الحقوق ولا واجبها في توفير فرص العمل والكسب.

## **حرية الدين**

إن اهم قضايا حرية الدين وأكثرها إثارة للجدل حرية الاعتقاد والتي هي اشمل من حرية العقيدة الدينية، وسوف تجد تطبيقاً عملياً في السودان من وجود إعتقادات ارواحية ليست جزءاً من العقيدة الدينية. وقد كان دستوري 1956 و 1985 أكثر حرية من 2005 وجاء دستور 2005 أكثر تفصيلاً و اضاف عليها حظر الاكراه.

## **حرية الرأي، حق تأليف الجمعيات وتعدد الأحزاب**

تحافظ كافه الدساتير على نص موروث من الاستعمار يذيل كافة الحقوق "وفقاً للقيود التي ينص عليها القانون، في حدود القانون، وفقاً لما يتطلبه المجتمع الديمقراطي وغيرها". إن ايراد هذا النص يضعف من نصوص الدستور، لأن هذه العبارة تجعل القانون فوق الدستور، بالرغم من أن العكس هو الصحيح، لأن الدستور هو أبو القوانين. إن من الطبيعي أن المشرع سيلجأ للدستور لسن القوانين وأن من واجبه أن يدرك احتياجه للتشريع.

من حقوق مجردة لحرية التعبير وتأليف الجمعيات والاتحادات، تطور دستور السودان الإنتقالي لسنة 1985 إلي حرية التعبير والنشر والصحافة وحرية تكوين الأحزاب السياسية، وحافظ دستور جمهورية السودان لسنة 2005م على نفس الحقوق. حدث تطور حاسم في مسألة تكوين الأحزاب السياسية، الجمعيات، النقابات، الاتحادات المهنية وإصدار الصحف والقنوات الفضائية.. الخ بمجرد إخطار السلطة التنفيذية.

إن نص دستور 1985 يمكن ان يشكل ضمانة جيدة للحقوق، مع بعض التعديلات الفنية "يكفل للمواطنين الحق في تكوين الجمعيات والاتحادات والنقابات والهيئات. لجميع الأشخاص الحق في حرية التعبير والنشر والصحافة. يقوم النظام السياسي على حرية تكوين الأحزاب السياسية ويحمي القانون الأحزاب الملتزمة بالمثل



والوسائل الديمقراطية الواردة في هذا الدستور"

## مصادر التشريع

لم يرد نص دستوري حول مصدر التشريع في دساتير 1956 و 1964 الإنتقاليان. ادرج نص حول التشريع في دستور 1973، ثم هبطت قوانين الشريعة الإسلامية بشكل مفاجيء في عام 1983 (قوانين سبتمبر)، عند وضع دستور السودان الإنتقالي لسنة 1985 تم فيه ادراج النص معدلاً. حافظ دستور 2005م على النص ولكن كان جزءاً من الصفقة بين الشريكين. هناك خطاب مستمر في كافة اطروحات دول الربيع العربي والمحيط العربي ولكن هناك مسارات اخرى في ماليزيا واندونيسيا. خلاصة التجربة أن الإندونيسيين جعلوا الشريعة الإسلامية روحاً تسري في مواد الدستور، ولم يعتقلوها في نصوص جامدة ومغلقة، حيث تمثلوا المقاصد والغايات العظيمة للدين الإسلامي في دستورهم، ولم يهدروا وقتهم وطاقتهم في لغط (مبادئ أم أحكام) والنتيجة كما نرى: دولة تعرف سبيلها إلي عالم الكبار بخطوات واثقة دون أن تفقد هويتها.

## الهيئة القضائية

حافظت الدساتير جميعها على استقلال القضاء، لكن دستور جمهورية السودان لسنة 2005م حذف عدم احقية السلطة التنفيذية أو التشريعية في التدخل في أعمالها أو الرقابة عليها من النص، والتي سمحت للانقاذ التأثير على القضاء كما حدث في هدر هذا الاستقلال خلال السنوات اللاحقة واخراج بعض السلطات (مثل اجهزة الامن) من أن تخضع لاحكام القضاء. إن السودان في حاجة إلي مراجعة للسلطة القضائية: من مراجعة قانونها لاستعادة استقلالها، وجود نظام داخلي للمحاسبة والتطهير الذاتي، مراجعة تكوينها الهيكلي من مثل إنشاء سلطة مستقلة (المحكمة الدستورية) بدلاً من الدائرة الدستورية التابعة للمحكمة الأولى والتي تختص بالفصل في طلبات تفسير الدستور، النصوص القانونية، الطعون في المسائل الدستورية، دستورية القوانين وحماية الحقوق والحريات الأساسية التي كفلها الدستور.

دستور 1956م	دستور 1985	دستور 2005م
الهيئة القضائية مستقلة وليس لأية سلطة حكومية تنفيذية كانت أو تشريعية حق التدخل في أعمالها أو الرقابة عليها	الهيئة القضائية مستقلة وليس لأية سلطة حكومية تنفيذية كانت أو تشريعية حق التدخل في أعمالها أو الرقابة عليها	تكون السلطة القضائية مستقلة عن الهيئة التشريعية والسلطة التنفيذية ولها الاستقلال المالي والإداري اللازم.

### استقلال مؤسسات التعليم العالي

لم تشر دساتير 1956، 1985، 1965 و 1998 لاستقلال مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي أو تتعرض لها. احتوى دستور 1973 على الاستقلال الأكاديمي و 2005 على الحرية الأكاديمية. وفي ظل النظامين حدثت أكبر الانتهاكات لحرية واستقلال الجامعات.

### قضايا دستورية جديدة

هناك قضايا دستورية جديدة طرحت لتعزيز الديمقراطية، طرحتها تجارب الشعوب المختلفة والحاجة إليها.

### الإعلام

الديمقراطية لا تحتاج لوزارة إعلام تطبل وتزمر، إعلامها الأصوات المتعددة لأعراقه ولأحزابه، منظماته المدنية وتنظيماته ويوفر لها الدعم والمساندة من الدولة. أجهزة الإعلام من تلفزيون وإذاعة التابعة للدولة لا بد أن تكون مستقلة بالكامل تتبع البرلمان الذي هو صوت الشعب، وتجيز لها الميزانية، وتضع لها السياسة العامة لخدمة ما ينص عليه الدستور. السياسة التحريرية يضعها العاملون الذين يختارون بعناية، بشفافية وعدالة كغيرهم من العاملين بالدولة. الصحف الحزبية والخاصة هي أدوات تساهم في الوعي وبناء الأمة وليست أبواباً لمالكها وتحتاج لفصل التمويل عن التحرير.

يجري على نحو متزايد، إبدال مفهوم سيادة الدولة من أشكالها التقليدية من السلطات الثلاث التشريعية، التنفيذية والقضاء إلى ادراج الاعلام بانواعه كسلطة محمية بالدستور. هذا قديم في الديمقراطيات المستقرة مثل التعديل الأول الشهير للدستور الأميركي "إن الكونغرس لا يصدر أي قانون يحد من حرية التعبير أو حرية الصحافة"، وبعبارة أخرى أن القانون الأعلى هو فوق السلطة التشريعية .

تمثل المادة 16 الخاصة بحرية التعبير في دستور جنوب أفريقيا ، (1996) أكثر أساليب التفكير التقدمية الدستورية الحديثة الخاصة بحرية وسائل الإعلام: لكل شخص الحق في حرية التعبير، ويتضمن هذا الحق حرية الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى، حرية الحصول على المعلومات أو الأفكار وحرية نقلها، حرية الإبداع الفني، الحرية الأكاديمية وحرية البحث العلمي. ولاتشمل الدعاية للحرب، التحريض على العنف المباشر، أو الدعوة إلى الكراهية التي تقوم على أساس العرق أو الأصل العرقي أو النوع الاجتماعي أو الدين<sup>105</sup>.

## البيئة

نصت ناميبيا في دستورها بعد استقلالها عن جنوب إفريقيا في عام 1990 على حماية البيئة؟ حيث أدرك الناميبيون أهمية الموارد البيئية في النهوض بوطنهم المستقل حديثاً بعد 22 سنة من الحروب الأهلية الطاحنة، وما توفره الموارد البيئية والإيكولوجية من فرص عظيمة لدفع عجلة التنمية وخصوصاً إدراكهم أهمية حماية الأرض التي دافعوا عنها لاستردادها.

نص دستور الإكوادور على مواد توفر الحماية القانونية للطبيعة والنظام الإيكولوجي في 2008. إن الاهتمام بمادة دستورية تهتم بالبيئة وحمايتها قد تشكل نقطة فاصلة في تحقيق الرؤية المبتغاة من خلق جزء كبير من التطور المنشود. اما في المغرب فقد قام واضعو الدستور بإعطاء البيئة الاهتمام اللازم للرقى بالبيئة، وقد نص الدستور المغربي في الفصل 31 على استفادة المواطنين المتساوية في الحصول على الماء والعيش في بيئة سليمة وحققهم في التنمية المستدامة. ونص في الفصل 35 على أن

---

<sup>105</sup> الحماية الدستورية لحرية الإعلام، <http://aceproject.org/ace-ar/topics/me/meb/meb05/meb05a>

تعمل الدولة على "تحقيق تنمية بشرية مستدامة من شأنها تعزيز العدالة الاجتماعية، والحفاظ على الثروات الطبيعية الوطنية، وعلى حقوق الأجيال القادمة"، كما نص الدستور المغربي على إنشاء مجلس بيئي إلى جانب المجلس الإقتصادي والإجتماعي، الذين يُستشارا في جميع التوجهات العامة للاقتصاد الوطني والتنمية المستدامة للمملكة المغربية.

قامت بعض منظمات المجتمع المدني في مصر، بالعديد من المبادرات لمناقشة ودعم وجود مادة دستورية أو أكثر في الدستور المصري، فعلى سبيل المثال هناك مبادرة مركز حابي للحقوق البيئية وبمساهمة حوالي تسع منظمات غير حكومية لوضع اقتراح لتعديل المادة 59 من الدستور لتنص المادة المقترحة على "البيئة الملانة حق للمواطنين، وواجب على شركاء التنمية الثلاثة (الأهلي - الحكومي - الخاص) حمايتها، وعلى الدولة أن تكفل الوصول للموارد البيئية والمشاركة في إدارتها والإمداد بالمعلومات اللازمة لذلك"<sup>106</sup>.

### المجتمع المدني

رغم تعدد واختلاف تعاريف المجتمع المدني، فإن معظمها يركز على مقومات أساسية يستند عليها في وجوده من الطوعية، التنظيم، الاستقلال عن الدولة، خدمة الصالح العام، عدم السعي للوصول إلى السلطة وعدم اللجوء إلى العنف. تتأسس منظمات المجتمع المدني بناء على الإرادة الطوعية المشتركة لمجموعة من الأفراد الذين يرغبون في القيام بأعمال أو تقديم خدمات لفائدة المجتمع، إن هذه الإرادة إذا لم يتوفر لها الهامش الكافي من الحرية، لا يمكنها أن تحقق الغاية المطلوبة من طرف أصحابها، ولذلك يمكن القول بأن المجتمع المدني يرى النور بتوفر الحرية.

لكن المجتمع المدني هو أيضاً احد وسائل المجتمعات في التعامل مع تراجع دور الدولة في الميادين الإقتصادية، الاجتماعية والثقافية، وأصبحت تقوم بأنشطة تكمل دور الدولة. إن الدساتير الجديدة بحاجة لاعادة الاعتبار للمجتمع المدني كسلطة شعبية

---

<sup>106</sup> عبدالله ديوان: الدستور المنتظر.. رؤية تنموية،  
<http://www.midanmasr.com/article.aspx?ArticleID=150>

هامة في اغناء المجتمعات<sup>107</sup>.

## تجارب العالم في صياغة الدستور

صياغة الدستور هي المرحلة الثالثة من عدة مراحل.

**المرحلة الأولى:** تبدأ بالإحساس بالحاجة الملحة لدستور جديد أو لتعديل الدستور القائم.

**المرحلة الثانية:** تحديد الإجراءات القانونية التي سيتم بها تحديد الأشخاص الذين سيقومون بصياغة الدستور.

**المرحلة الثالثة:** هي عملية الصياغة نفسها.

**المرحلة الرابعة:** الموافقة عليه إما عبر استفتاء أو من خلال موافقة الجمعية التأسيسية له.

ثم أخيراً: تصميم المؤسسات التي تضمن عمل هذا الدستور بفاعلية وكفاءة. كل ما سبق لا معني له إلا إذا كانت العملية برمتها تحظى بثلاثة أنواع من الشرعية:

**الشرعية الأخلاقية:** والتي تجعل الدستور يعبر عن الضمير الوطني ويشارك المجتمع قيمه الأساسية ويعبر عنها بصراحة ووضوح.

**الشرعية السياسية:** التي تعكس إحساس قطاعات واسعة ومتنوعة من المجتمع بملكيتها للدستور

وأخيراً **الشرعية القانونية:** بأن يتم كتابة الدستور وفقاً للقواعد والقوانين والإجراءات التي سيتفق عليها العدد الأكبر من الشعب صاحب السيادة سواء مباشرة عبر الاستفتاء أو على نحو غير مباشر عبر ممثليهم<sup>108</sup>.

حفل العالم بتجارب عديدة من وضع الدستور خلال العقود الثلاثة الأخيرة بعد النهوض الديمقراطي وحقوق الإنسان في دول شرق أوربا، أمريكا اللاتينية، جنوب إفريقيا

<sup>107</sup> منير عبد القادر العلمي: المجتمع المدني،

[http://www.elalami.net/index.php?option=com\\_content&view=article&id=53&Itemid=2](http://www.elalami.net/index.php?option=com_content&view=article&id=53&Itemid=2)

<sup>108</sup> معتز بالله عبد الفتاح: إعداد الدستور ليس فقط صياغته، <http://shorouknews.com>

واندونيسيا وغيرها. الآليات التي تمت كانت متنوعة ومتعددة وتمت تحت ظروف مختلفة. كلها كانت تهدف إلى وضع دستور يحقق التحول الديمقراطي الحقيقي، التوافق المجتمعي والعض بالنواجز على حقوق الإنسان كما توصلت لها كافة دول العالم واصبح دستورا للانسانية وضمنت كثيراً منها وثيقة للحقوق. سوف نتناول تجربتي جنوب افريقيا واندونيسيا في صياغة الدستور.

### تجربة جنوب افريقيا في صياغة الدستور

بعد الغاء الابارتهايد وبين سنة 1990 و1994، أجريت المفاوضات حول الاتفاقات المتعلقة بالعملية الدستورية، خلال دورات خاصة وعامة بين الخصوم السابقين. وشملت في خاتمة المطاف، اتفاقاً حول دستور إنتقالي يتضمن مبادئ وإجراءات مُلزِمة بالنسبة لعملية وضع الدستور النهائية. في نيسان/إبريل 1994 أجريت أول انتخابات برلمانية غير عنصرية شارك فيها حوالي 86% من الناخبين، وفي أيار/مايو من تلك السنة، اجتمع البرلمان الجديد لأول مرة بصفته جمعية تأسيسية.

مثلت العملية الدستورية في جنوب إفريقيا المثال الكامل لعمليات وضع الدساتير القائمة على مشاركة المواطنين فيها. حتى ذلك التاريخ، لم يكن لعامة الناس دور مباشر في وضع الدساتير، أما في هذه الحالة فقد بادر ممثلو الشعب المنتخبون الممثلون في الجمعية التأسيسية الاتصال بالناس، تثقيفهم ودعوتهم لإبداء وجهات نظرهم. تَصُمِّنت الجهود التثقيفية حملة في وسائل الإعلام، حملة إعلانية في الصحف، محطات الإذاعة والتلفزيون لوحات الإعلان على الحافلات، وكذلك في صحيفة تنشرها الجمعية التأسيسية وكانت توزع 160,000 عددًا، رسوم كرتونية، موقع على الانترنت وإجتماعات عامة؛ وطالت تلك الجهود مجتمعة حوالي 73% من السكان. تلقت الجمعية التأسيسية، بين سنة 1994 وسنة 1996، مليوني اقتراح أو طلب من جانب الأفراد، مجموعات المناصرة والدفاع، الجمعيات المهنية وأصحاب المصالح الأخرى<sup>109</sup>.

تم تشييد قاعة زجاجية في جوهانسبرغ وزودت بخمسين باباً للخمسين عضواً لكي يدخلوا في نفس الوقت نشداناً للشفافية والمساواة. وقد استغرق التوافق حول هذا الدستور سبع سنوات. نشرت أول مُسوِّدة عمل في نوفمبر 1995، تاركة جانباً 68

<sup>109</sup> فيفيان هارت: تجربة جنوب أفريقيا في تدوين الدستور،

[http://www.siironline.org/alabwab/derasat\(01\)/009.htm](http://www.siironline.org/alabwab/derasat(01)/009.htm)

موضوعاً يتم بحثها لاحقاً لأن الاتفاق كان أن تؤجل أي قضايا خلافية ويعاد طرحها للنقاش العام والمجتمعي، وتم وضع النص النهائي في مايو 1996. راجعت المحكمة الدستورية النص النهائي بين يوليو وسبتمبر 1996، ثم أعادته إلي الجمعية التأسيسية لإدخال بعض التعديلات عليه، التي تمت في أكتوبر من نفس العام. في نوفمبر، أعطت المحكمة مصادقتها النهائية، وفي كانون الأول/ديسمبر، وقّع الرئيس مانديلا على الدستور ليصبح قانوناً.

### التجربة الإندونيسية في صياغة الدستور

يبلغ عدد سكان إندونيسيا حوالي 238 مليون شخص، وهي رابع دولة من حيث عدد السكان، وأكبر دولة بها عدد سكان مسلمين. عدد السكان المسلمين، 86.1٪، وفقاً لتعداد عام 2000، 9٪ من السكان مسيحيون و3٪ هندوس، و2٪ بوذيون وأقليات أخرى. يوجد نحو 300 إثنية و742 لغة ولهجة مختلفة. أكبر مجموعة عرقية هي الجاوية الذين يشكلون 42٪ من السكان، ويهيمنون على البلاد سياسياً وثقافياً.

اللغة الوطنية الرسمية هي اللغة الإندونيسية، وهي إحدى لغات الملايو، وتدرس بشكل واسع في المدارس، وبالتالي يتحدث بها ما يقرب من كل الإندونيسيين فهي لغة الأعمال، السياسة، وسائل الإعلام الوطنية، التعليم والأوساط الأكاديمية. الجاوية هي الأكثر انتشاراً كلغة أكبر جماعة عرقية. ومن ناحية أخرى، يوجد أكثر من 270 لغة للسكان الأصليين. ومن اللغات المتداولة الأخرى اللغة العربية والإنجليزية. شعار إندونيسيا الوطني هو "الوحدة في التنوع".

### 110 الإصلاح الدستوري الإندونيسي

ركزت اندونيسيا منذ اليوم الأول لثورة الإصلاح علي السعي لتعديل الدستور، وبدأت عملية التحضير لهذا التعديل من خلال مناقشات واسعة ضمت كافة اطياف المجتمع، من اجل فهم وتحليل المشكلات التي كانت سائدة تحت ظل النظام السابق، والاطلاع

<sup>110</sup> سهير هدايت: التجربة الإندونيسية، الأهرام اليومى،

<http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=545247&eid=430>

علي اراء المعارضين للحكومة في قضايا مثل حقوق الانسان، الفساد والديمقراطية. وكانت الفكرة الاساسية هي وضع جدول اعمال للاصلاح الديمقراطي، حيث ادركت قوي الثورة الاندونيسية أن الديمقراطية لا تتحقق بين يوم وليلة، ولا توجد عصا سحرية تجعل البلاد تتحول من نظام دكتاتوري الي نظام ديمقراطي بين عشية وضحاها.

فالخلاف الذي كان دائراً في بداية عملية الاصلاح باندونيسيا، كان يتمحور حول طبيعه الدولة هل تكون اسلامية ام مدنية. وتوصلت الاطراف الاندونيسية الي صيغة تضع مبادئ و اخلاقيات الدين في مكانة عالية بينما تبني المؤسسات السياسية، الإقتصادية والإجتماعية علي اساس مدني، وتخضع للقواعد والاحتياجات المادية اليومية التي يواجهها المجتمع.

حتى هنا فهذا امر عادي يحدث في كل الثورات، لكن الذي حدث بعد ذلك كان غير العادي. عندما اراد الاندونيسيون وضع الدستور، اختاروا بالتوافق السيد يعقوب توبنج أستاذ القانون المنتمي إلي أقلية دينية (المسيحية) والقادم من أقلية سكانية (جزيرة سومطرة)، ليرأس اللجنة المشكلة لوضع دستور جديد للبلاد بعد الثورة الشعبية التي أسقطت الجنرال سوهارتو عام 1998، ذلك أن الجميع كانوا يضعون نصب أعينهم هدفاً واحداً يتمثل في إقامة دولة عصريةً بهويةً واضحةً ومحددة.

إستطاعت هذه اللجنة التوصل إلي دستور يحترم الحريات وقيم التقدم والتطور، على أربع مراحل دون أن تتعرض هوية البلاد الراسخة والمستقرة للخدش أو الاهتزاز. وليس هذا فقط ما جرى، بل أنه من بين مائتين وخمسين لغة محلية يتحدثها الشعب الإندونيسي، وقع الاختيار على لغة أقلية عرقية لتكون اللغة القومية للبلاد<sup>111</sup>.

### افكار حول الوصول لدستور السودان

تعد عملية وضع الدساتير من أهم العمليات التي تمهد الطريق نحو الانتقال إلي نظام ديمقراطي. فالدستور هو الذي يضع الأسس التي يقوم عليها كيان الدولة، يحدد حقوق

<sup>111</sup> وائل قنديل: مسيحي يرأس لجنة دستور أكبر دولة إسلامية، نشر في: الأربعاء 7 نوفمبر 2012، <http://shorouknews.com/columns>



المواطنين وواجباتهم، ويضع ضمانات حماية هذه الحقوق وكفالتها. كما أنه يحدد طريقة توزيع السلطات في المجتمع ومستويات الحكم عبر نظام اللامركزية، أو بين نظام الحكم من ناحية، والمجتمع المدني بمنظوماته المتنوعة من ناحية أخرى.

أختلفت منهجية صنع الدساتير في الـ25 سنة الأخيرة اختلافاً جذرياً عن السنوات التي قبلها. حيث كانت عملية صنع الدستور على مدار القرنين الماضيين عملية قانونية بحتة، لا تخص سوي النخبة وفقهاء القانون الدستوري، ويتم إجراؤها بمعزل عن المواطنين في كافة مراحلها، وتقتصر مشاركة المواطنين فيها على المرحلة الأخيرة وهي الاستفتاء على الدستور. الوضع في السنوات الأخيرة كان مختلفاً تماماً، فقد ظهر مصطلح صناعة الدستور بالمشاركة والتي عمت العالم منذ منتصف السبعينيات<sup>112</sup>.

من استعراض تجارب وضع الدساتير في اندونيسيا وجنوب أفريقيا وغيرها من بلدان، تبرز ضرورة الاهتمام بقضيتين أساسيتين عند وضع الدساتير:

**القضية الأولى** منهجية وضع الدستور، بمعنى كيف يتم البدء في عملية صنع الدستور؟ وما هي خطوات العملية؟ وإلى أي نتائج يؤدي الالتزام بعملية ديمقراطية تشاركية في عملية صنع الدستور؟.

**القضية الثانية** تتعلق بمحتوي الدستور، وإلى أي مدى يحقق الأهداف العليا للمجتمع؟ ويضع المصلحة الوطنية لجموع المواطنين في المقدمة، وأيضاً إلى أي مدى يضع الأساس لعملية تحول ديمقراطي مستقرة ومستدامة وسلسة؟ لا تقل أهمية عملية صنع الدستور عن محتوى الدستور، بل على العكس فإنجاز عملية ديمقراطية تشاركية في صنع الدستور يضيف شرعية كبيرة على محتوى الدستور<sup>113</sup>.

لدينا في السودان تجارب عديدة في وضع الدساتير بلغت الثماني محاولات (الدستور الإنتقالي 1956، الدستور الإنتقالي 1964، محاولات دستور 1965-1969، دستور 1973، الدستور الإنتقالي 1985، محاولات دستور 1986-1989، دستور 1998، الدستور الإنتقالي 2005) وقد فشلت جميعها في ان نتوصل لدستور دائم حقيقي. سنواجه في الفترة الإنتقالية وبعدها بمسئولية الوصول لدستور دائم. اوضحت التجارب العالمية في وضع الدستور على عدد من المباديء يجب توفرها في عملية صناعة الدستور، صاغت مخرجات ورشة عمل المبادرة السودانية لصناعة دستور

<sup>112</sup> كيف تصنع الدساتير؟ هويدا عدلى، 25 يناير 2012 ، <http://shorouknews.com>

<sup>113</sup> الدكتور/ عادل عامر: كيفية صناعة وصياغة الدستور، 23/03/2012 ، <http://www.misrelgdida.com/reporters1/86746.html>

**أولاً:** إن الدستور عقد إجتماعي يفوض فيه المواطنين جزءاً من سلطاتهم إلي حكومة وبرلمان منتخبين ديمقراطياً، خدمة مدنية يتم تعيينها، قضاء مستقل، ذلك لخدمة المواطنين، حماية حياتهم وتحقيق الرفاه الإجتماعي. وبالتالي فهو يمتلكه المواطنون ويحترمونه، يبني على الديمقراطية، المساواة، المواطنة، العدالة الإقتصادية والإجتماعية وتحترم حقوق الانسان وحرياته الاساسية. إنه دستور يجب أن يعبر عن الطموحات واسعة النطاق لدي المواطنين. إن الغد يجب أن يبقى أفضل ويجب أن يكون لهم دور في صياغته.

**ثانياً:** إن هذا العقد الإجتماعي يمثل مجمل اراء كافة المواطنين، وهو عنوان توافقهم ولن تتوصل إليه إلا بالحوار والتفاوض والمصالحة بين أطراف الشعب السوداني. إن العملية الشاملة في صناعة الدستور هي تلك التي تعكس تنوع السودان، والتي يعطي فيها لممثلي كافة مكونات الشعب مقعداً على الطاولة، بحيث يكون لدي كل واحد منهم يد في عملية التفاوض وصياغة الوثيقة، وكل منهم يشعر بالامان كعنصر ذو قيمة في الدولة الجديدة. إن عملية صناعة الدستور التي تستند على التوافق في الرأي هي تلك التي يتم فيها التوصل إلي القرارات من خلال الصياغة والتصديق على الهيئات العامة إستناداً على المناقشة، التفاوض والاقناع، وليس من خلال تطبيق حكم الأغلبية الميكانيكية. ولكفالة هذا التوافق ينبغي أن تجرى عملية تعليم وتوعية مجتمعية واسعة لكافة افراد المجتمع.

**ثالثاً: المشاركة العامة:** إن العملية التشاركية في صناعة الدستور، هي تلك التي يكون فيها الشعب واعياً عن العملية والخيارات التي قررت. ويتم من خلالها اعطاء فرصة حرة، نزيهة وحقيقية مباشرة للتعبير عن ارادة الشعب في منتدى آمن يتم تسهيله من قبل أولئك المكلفين بالتحليل وادماج وجهات نظر الشعب في مسودة وثيقة الدستور.

**رابعاً: الشفافية:** إن العملية الشفافة في صناعة الدستور هي تلك التي تجري بطريقة مفتوحة، بحيث يكون الناس على علم وادراك بما يحدث في كل مرحلة من مراحل العملية، ويكونوا واثقين من أن أصواتهم سوف تسمع. تتطلب الشفافية، الوصول وبقدر مناسب، إلي وثائق واجراءات عملية صناعة الدستور من قبل وسائل الإعلام وعامة الشعب .

114 The Sudanese imitative for constitution-making: Workshop Report, Visions for Constitutions – Making December 19th.-21st. 2011, Omdurman – Sudan, <http://sudan-forall.org/> In Sudan

## مكونات الهيئة التأسيسية

غير الدستور الإنتقالي 1956، 1965 و 1985، تدل تجاربنا السابقة في محاولات الوصول لدستور، أنها كانت تفشل لهيمنة مكون واحد عليها. الاحزاب الطائفية الليبرالية في محاولات دستور 1965-1969 و 1986-1989، الديكتاتورية العسكرية في دستور 1973، الديكتاتورية العسكرية الإسلامية في دستور 1998، وشريكي الحكم في دستور الإنتقالي 2005، والتي انتهت بفشل كامل ووضع البلاد في أزمت فشل الرؤى. وأضافت تجارب دول الربيع العربي -خاصة مصر- تجربة حية حول خطورة إستئثار فصيل واحد على عملية وضع الدستور. من تراكم هذه التجارب وغيرها فقد وضحت معايير يمكن الاسترشاد بها في تكوين الهيئة التأسيسية المناط بها وضع الدستور:

**أولاً:** إن ضمان توافق الاراء يبدأ من التمثيل الذي رأت مخرجات ورشة عمل المبادرة السودانية لصناعة دستور للسودان أن يشمل المجموعات الآتية: الأحزاب السياسية، منظمات المجتمع المدني، المجموعات المهنية والمتخصصة، النقابات، مع مراعاة التنوع العمري، الإثني، اللغوي، الثقافي، الديني، مجموعات النساء، ومجموعات السودانيين في المهجر والذي يجب أن تكون مشاركتهم مشاركة مبنية على المعلومات وتسهم في إثراء عملية صناعة الدستور. ان الاحزاب السياسية مع اهميتها الكبرى لها اجندتها الخاصة وهذا يستوجب عدم مشاركة المتنفذين في العمل التنفيذي ولكن المفكرين منها.

**ثانياً:** إن الدستور كغيره من العقود يحتاج إلي وجود المختصين من فقهاء القانون الدستوري الذين لديهم الخبرة والمعرفة بالتجارب السابقة والمحلية. إن غياب فقهاء القانون الدستوري يؤدي إلي غياب التعريفات الأساسية وعدم وضوحها، وتناقض فقرات الدستور كنتيجة حتمية لعدم تحديد هذه المعاني الأساسية، مما يؤثر على اشتقاق القوانين التي تعبر عن هذه المعاني الأساسية ولا تتناقض فيما بينها لغياب الفقهاء الدستوريين بتنوعهم.

**ثالثاً:** الهيئة التأسيسية المناط بها وضع الدستور هي المطبخ، لكن تنظم مناقشات مجتمعية واسعة: نوعية مثل النساء والمجموعات المهنية؛ المتخصصة، النقابات،

الاتحادات، الصحافة، الاعلام، الهيئة القضائية. توفر أيضاً شبكة اتصالات وتواصل مع المواطنين عن طريق الندوات المتخصصة، الاعلام، الوسائط الإجتماعية وغيرها. رابعاً: تراوح زمن الوصول إلي دستور توافقي من شهور إلي سنوات حسب ظروف كل دولة. الهيئة التأسيسية المناط بها وضع الدستور عليها أن تطرح خريطة طريق واضحة ومحددة بالأنشطة والمواقف يتم الاتفاق عليها.

خامساً: نوعية الاستفتاء: هناك قرارات وقوانين يكفي فيها أغلبية النصف زائد واحد، وهناك ما يلزمها أغلبية الثلثين، وهناك أشياء لا تستقيم إلا بالإجماع. وهناك مستوى أعلى وهو المستوى الإنساني لا تطرح أصلاً للاستفتاء مثل الحرية، ولا على قهر أو سلب حقوق الأقلية أو فرض معتقدات الأغلبية عليها وغيرها.

## ثانياً: قضايا الحكم: العدالة الإنتقالية

تعرف الشبكة العربية العالمية: العدالة الإنتقالية "مفهوم العدالة الإنتقالية يعني الاستجابة للانتهاكات المنهجية أو الواسعة النطاق لحقوق الإنسان، بهدف تحقيق الاعتراف الواجب بما كابده الضحايا من انتهاكات، وتعزيز إمكانيات تحقيق السلام والمصالحة والديمقراطية. أي أنها تكييف للعدالة على النحو الذي يلائم مجتمعات تخوض مرحلة من التحولات في أعقاب حقبة من تفشي انتهاكات حقوق الإنسان؛ سواء حدثت هذه التحولات فجأة أو على مدى عقود طويلة. بعبارة أخرى، يربط مفهوم العدالة الإنتقالية بين مفهومين هما العدالة والانتقال، بحيث يعني: تحقيق العدالة أثناء المرحلة الإنتقالية التي تمر بها دولة من الدول"<sup>115</sup>.

عند سقوط الأنظمة الديكتاتورية وخروج الثوار إلي الميادين وانتهاء الاحتفالات، تبدأ الصعوبات التي تراكمت طوال سنوات الاستبداد في التفاعل. في ثورات السودان أكتوبر 1964 و1985 عندما اسقط الشعب الأنظمة الديكتاتورية، ترك الامر في ايدي ممثليه لينجزوا مهام الفترة الإنتقالية. الأنظمة التي قادت هذه الفترة لم تستطع انجاز اهم مهام الانتقال: وهي محاسبة الذين افسدوا الحياة السياسية والإقتصادية والتعامل مع الماضي الذي يشكل حجر الزاوية لمستقبل الدولة -ما دخل في قاموس الثورات

<sup>115</sup> <http://www.globalarabnetwork.com/studies/10753-2013-07-09-00-27-07>

باسم العدالة الإنتقالية. تعالج هذه الآلية التعامل مع انتهاكات الماضي، مساعدة المجتمعات التي تمر بهذه المرحلة لتساعد على الانتقال السلمي لمرحلة ديمقراطية تعددية، يسودها الاستقرار السياسي وتبتعد بها عن الانزلاق في أتون حرب أهلية تأتي بويلات أعظم من تلك التي جلبتها الدكتاتوريات السابقة<sup>116</sup>.

### مفهوم العدالة الإنتقالية

نشأ المفهوم إبان الحرب العالمية الثانية اثناء محاكمة النازيين عن الجرائم غير الانسانية التي ارتكبوها (محاكمة نورمبرغ). تمحورت العدالة الإنتقالية خلال هذه المرحلة حول فكرة التجريم والمحاكمات الدولية المترتبة عليها. وتمثلت أهم ميكانيزمات عملها في اتفاقية الإبادة الجماعية التي تم إقرارها، وإرساء سوابق لم يعد من الممكن بعدها تبرير انتهاك حقوق الإنسان باسم الاستجابة للأوامر. في هذه المرحلة، شكل مرتكبوا انتهاكات حقوق الإنسان مركز الاهتمام في مساع تحقيق العدالة.

**المرحلة الثانية** حدثت بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي والتغيرات السياسية المختلفة في دول أوروبا الشرقية وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، وفي هذه المرحلة تم تطبيق مفهوم مُسيس وذا طابع محلي أو وطني من العدالة ارتبط بالهيكل الرسمية للدولة، وهنا تجاوزت فكرة المحاكمات وتضمنت آليات أخرى مثل لجان الحقيقة، التعويضات، أي إنه خلال هذه المرحلة صارت العدالة الإنتقالية بمثابة حوار وطني بين الجناة والضحايا، وخلال هذه المرحلة برزت تجربة لجان الحقيقة في الأرجنتين وعدد من دول أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا.

لقد تطور المفهوم خلال الفترات الإنتقالية التالية لحكم الدكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية، جنوب أفريقيا بعد نظام الأبارتهايد وبعض الدول الأفريقية ودول شرق ووسط أوروبا في أعقاب الحرب الباردة. كان هناك توافق دولي على الحاجة لإجراءات العدالة الإنتقالية للتعامل مع انتهاكات حقوق الإنسان الماضية، وهذا ما تزامن مع أهداف الدول والهيئات المانحة التي تطلبت تطبيق حكم القانون بما يسمح

---

<sup>116</sup> إبراهيم شرقية فريحات: العدالة الإنتقالية في دول الربيع العربي، موقع الجزيرة نت

بالتنمية الاقتصادية.

أعطت الموجة الثالثة للديمقراطية في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينيات زخماً وحافزاً جديداً للعدالة الانتقالية، إنتقل بها من كونها مفهوماً رابطاً بين المرحلة الانتقالية للتحوّل الديمقراطي والعدالة (كما نشأ في أواخر الأربعينات)، إلى فضاء أوسع يتضمن منظوراً أوسع يقوم على إعادة تقييم شامل للوصول بمجتمع ما في المرحلة الانتقالية إلى موقع آخر تعد الديمقراطية أحد أهدافه الأساسية<sup>117</sup>.

لعبت تجربة جنوب أفريقيا في مواجهة إرث من التمييز العنصري دوراً هاماً في تطوير مجال العدالة الانتقالية. أدّى إطلاق سراح نلسون مانديلا في العام 1990 - بعدما قضى 27 سنة في السجن- إلى مفاوضات بين حكومة جنوب أفريقيا العنصرية والمؤتمر الوطني الأفريقي وإلى إنتخابات في العام 1994. بدأ مانديلا في تطبيق هذا المفهوم منذ أن كان قابلاً في السجن، إذ رأى أن من واجبه أن يضطلع بنفسه بقرار التفاوض حول مبدأ إجراء العفو العام عن بعض رموز النظام العنصري، يقابله عودة منفيّ المؤتمر الوطني الإفريقي إلى بلادهم، بغرض التأسيس لمصالحة وطنية، من دونها سيكون البلد عرضةً لمزيد من الاحتراب وإراقة الدماء التي سيحكمها الانتقام تحت اسم المحاكم الثورية التي تبدأ ضد أركان النظام السابق وتنتهي بمواجهة الثوار المختلفين مع السلطة الجديدة في الرأي أو التوجه<sup>118</sup>.

في العام 1995، اعطي برلمان جنوب أفريقيا تخويلاً بتأسيس لجنة الحقيقة والمصالحة. أصدرت اللجنة في العام 1998 تقريراً تضمّن شهادات أكثر من 22,000 ضحية وشاهد، حيث جرى الإدلاء بألفي شهادة في جلسات إستماع علنية. وكان للجنة الحقيقة والمصالحة التي انشأتها جنوب أفريقيا عام 1995م دور كبير ومهم في دفع مجتمعات أخرى لتبني فكرة العدالة الانتقالية.

دفع هذا، مع تجارب أخرى، إلى إنشاء المحكمة الجنائية الدولية الخاصة ببوجوسلافيا

<sup>117</sup> مروة نظير: العدالة الانتقالية: قراءة مفاهيمية ومعرفية، الشبكة العربية العالمية، 10 مايو 2011، <http://www.globalarabnetwork.com/studies/3979-2011-05-10-18-40-44>

<sup>118</sup> ريماء عبدالله صالح : مشروع قانون العدالة الانتقالية انتهاك ام عدالة (ورقة قدمت في مائدة مستديرة بمحافظة عدن )، الأحد 18 نوفمبر 2012، <http://alomanaa.net/news/2126>

السابقة في 1993 بداية لمشهد سياسي جديد شمل المرحلة الثالثة للعدالة الإنتقالية، إذ أدي تكرر النزاعات إلي تكرر حالات تطبيق العدالة الإنتقالية، كما ارتفعت الأصوات المنادية بالحد من الأخذ بمبدأ الحصانة ليصبح الاستثناء وليس القاعدة.

في هذا السياق تم إنشاء المحكمة الجنائية الدولية الخاصة برواندا في 1994، ثم في 1998 تم إقرار النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، ودخول ميثاق روما الخاص بالمحكمة الجنائية الدولية لحيز التنفيذ في 2004 وإقرار وجود المحكمة كآلية دائمة لمحاسبة مرتكبي الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان<sup>119</sup>. تدل المسميات المختلفة لهذه "الهيئات" على المنحى الخاص لـ "العدالة الإنتقالية" في خبرة كل بلد، حيث شهدت الفترة من 1974 إلى 2004م نشوء 25 هيئة تتميز كل منها بفرادتها وخصوصيتها<sup>120</sup>.

عرفت العقود الأخيرة تطبيقاً ناجحاً على الأغلب لمفهوم العدالة الإنتقالية، في دول أمريكا الجنوبية وأوروبا الشرقية والوسطى. ففي أوروبا الشرقية، جاءت العدالة الإنتقالية كمرحلة أساسية في مسار طبي صفحة السلطات السياسية المنتهكة لأبسط حقوق شعوبها السياسية والاقتصادية والثقافية. وعلى الرغم من أن الانتهاكات في مثل هذه الدول لم تكن ذات أبعاد دموية إلا لماماً، إلا أن التشبث بالعدالة الإنتقالية وحسن تطبيقها، ساعد في سرعة عملية التحول على أسس سليمة. وفي أوروبا الوسطى حيث عرف التغيير عنفاً تجلّى على شكل حروب أهلية كما في البلقان، فإنه كان من الضروري أن تساهم العدالة الإنتقالية في رأب الصدعات وفي تأمين المصالحات على أسس صحيحة<sup>121</sup>.

في أمريكا الجنوبية، عولجت آثار الديكتاتوريات العسكرية وانتهاكاتها بطرق مختلفة مرّت كلها بامتحان حسن تطبيق العدالة الإنتقالية تعتبر جنوب إفريقيا نموذجاً مختلفاً أيضاً من حيث خصوصية النظام السابق وانتهاكاته، والتي وإن تشابهت مع مجمل الانتهاكات الممارسة بحق الناس المحكومين من الطغاة، إلا أن جوانبها العنصرية أضفت عليها خصوصية معينة.

<sup>119</sup> مروة نظير: العدالة الانتقالية: قراءة مفاهيمية ومعرفية، الشبكة العربية العالمية، مرجع سابق  
<sup>120</sup> كمال الجزولي: العدالة الانتقالية: مدخل المستقبل السالك، الحوار المتمدن-العدد: 3891 - 25 / 10 / 2012

<sup>121</sup> أسلام الكواكبي: أشكال العدالة الانتقالية وإشكالياتها: الاثنين، 11 يونيو 2012 ،  
<http://www.djazairnews.info/trace/37-trace/40040-2012-06-11-17-22-05.html>

لكن العدالة الإنتقالية نوع "خاص" من العدالة: إنها مقارنة لتحقيق العدالة في فترات الإنتقال من النزاع و/أو قمع الدولة. ومن خلال محاولة تحقيق المحاسبة والتعويض عن الضحايا، تقدّم العدالة الإنتقالية اعترافاً بحقوق الضحايا وتشجّع الثقة المدنية، وتقوّي سيادة القانون والديمقراطية.

العدالة الإنتقالية تختلف عن العدالة التقليدية في كونها تعني بالفترات الإنتقالية مثل: الانتقال من حالة نزاع داخلي مسلح إلى حالة السلم، الانتقال من حكم سياسي تسلطي إلى حالة الحكم الديمقراطي أو التحرر من احتلال أجنبي باستعادة أو تأسيس حكم محلي. كل هذه المراحل تواكبها في العادة بعض الإجراءات الإصلاحية الضرورية وسعي لجبر الأضرار لضحايا الانتهاكات الخطيرة. هذه القضايا جميعها ستواجه السودان عند أي تغيير.

عرف المركز الدولي للعدالة الإنتقالية (منظمة دولية غير حكومية متخصصة في مجال العدالة الإنتقالية) "انها تشير إلى مجموعة التدابير القضائية وغير القضائية التي قامت بتطبيقها دول مختلفة من أجل معالجة ما ورثته من إنتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان. وتتضمن هذه التدابير الملاحقات القضائية، ولجان الحقيقة، وبرامج جبر الضرر وأشكال متنوعة من إصلاح المؤسسات". ويعدد إبراهيم شرقية فريحات العناصر الأساسية التي يمكن أن تقود لبناء إستراتيجية شاملة للعدالة الإنتقالية في هذه البلدان وتشمل لجان الحقيقة، المحاكمات، التعويض والإصلاح المؤسسي<sup>122</sup>.

## لجان الحقيقة

تأسيس لجان مستقلة لتحديد حجم ومستوى الانتهاكات التي ارتكبت أبان الحكم السابق وقد بلغ عدد لجان الحقيقة التي تم تشكيلها في العالم 40 لجنة حتى الآن. وفي هذا السياق؛ برزت تجارب متباينة في أهميتها على امتداد مناطق مختلفة من العالم؛ من بينها: في أمريكا اللاتينية: "الهيئة الوطنية حول اختفاءات الأشخاص" بالأرجنتين (سنة 1983)؛ و"الهيئة الوطنية حول الحقيقة والمصالحة" بالشيلي (سنة 1990). في إفريقيا: "مفوضية جنوب إفريقيا للحقيقة والمصالحة" بجنوب إفريقيا (سنة

---

<sup>122</sup> ماهي العدالة الإنتقالية: <http://ictj.org/ar/about/transitional-justice>



1994)؛ و"هيئة الحقيقة والمصالحة" بسيراليون (سنة 2000) و"هيئة الإنصاف والمصالحة" بالمغرب (سنة 2004). في آسيا: "هيئة التلقي والحقيقة والمصالحة" ببنمور الشرقية (سنة 2002)<sup>123</sup>.

على نفس المنوال نشأت "المنظمة السودانية لمناهضة التعذيب" كمؤسسة طوعية تم تأسيسها في المملكة المتحدة العام 1993؛ لعبت دوراً مقدراً في مجال مساعدة والدفاع عن الجماعات والأفراد، الذين تعرضوا للتعذيب على أيدي الأجهزة الأمنية والعسكرية الرسمية وغير الرسمية. والعمل على فضح ممارسات التعذيب والعنف المنظم وانتهاكات حقوق الإنسان الأخرى والمساهمة في الحد منها وإيقافها. كما تعمل المنظمة على المساعدة المباشرة وإعادة التأهيل للناجين من التعذيب، وتوثيق وتنظيم حملات للتضامن على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية<sup>124</sup>.

### المحاكمات والتعويض

صحيح أن مبادئ العفو والتسامح ضرورية في أي مجتمع عانى ويلات الحروب والقمع والاضطهاد، ولكن ذلك بالتأكيد لا يفي ضرورة إجراء محاكمات عادلة ضمن إطار القانون. هذه المحاكمات ضرورية ليس فقط عندما يتعلق الأمر بانتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان ولكن أيضاً من أجل تعزيز مبادئ المراقبة والمحاسبة والمساءلة في مرحلة يستعد المجتمع فيها لطي صفحة مؤلمة في تاريخه والبدء بمرحلة بناء بأسس جديدة.

عند الحديث عن التعويض يجب على الجميع بمن فيهم ضحايا الانتهاكات ورموز السلطة الجديدة، الأخذ بالحسبان، أن الكثير من الانتهاكات التي حصلت في الماضي لا يمكن بالضرورة استرجاعها، وهذا يعني أن على الجميع إبداء الجاهزية للحديث عن طرق أخرى يمكن لها التعويض قدر الإمكان عن مظالم الماضي. وهذا يستلزم التعويض بشقيه المادي والمعنوي. على السلطة الجديدة توفير الفرص اللازمة

<sup>123</sup> معهد العربية للدراسات والتدريب: العدالة الانتقالية والثورات العربية، الخميس 14 رمضان

1433هـ - 02 أغسطس 2012م

<sup>124</sup> بيان صحفي من مجلس الأمناء للمنظمة السودانية لمناهضة التعذيب،

[http://www.sudaneseonline.com/ar/article\\_23247.shtml](http://www.sudaneseonline.com/ar/article_23247.shtml)

لتعويض الضحايا وعائلاتهم مثل برامج إعادة التأهيل لمن قضوا فترات طويلة في السجون، المنح الدراسية والرواتب الشهرية لمن فقد معيل أسرته على أيدي النظام البائد، توفير السكن لمن شرد بغير وجه حق، وغيرها من التعويضات المادية كل حسب حالته.

لا يقل التعويض المعنوي أهمية عن المادي حيث يأتي بأشكال عدة من ضمنها إعادة التأهيل النفسي، الاعتذار الشفوي والمكتوب، الاعتراف بما جرى في الماضي وتوثيقه، إيجاد رموز تعبر عن معاناة ضحايا النظام وعائلاتهم: مثل بناء نصب تذكاري لضحايا النظام، تسمية شوارع أو أماكن عامة بأسمائهم، إقامة متحف تجمع فيه صور وأسماء الضحايا وغير ذلك مما يمت لتلك الحقبة بصلة. كذلك بالإمكان توظيف الفن والرياضة للتعويض المعنوي مثل إخراج أفلام تصف الحقبة الماضية وتظهر اضطهاد النظام ومعاناة الضحايا، تنظيم دورات رياضية بأسماء رموز معينة، وغيرها.

### الإصلاح المؤسسي

عندما يمارس نظام حكم، القمع باتجاه معارضيته ويرتكب انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان فعادة ما تكون مؤسسات الدولة متورطة بشكل أو بآخر، إذ لا يمكن لأفراد النظام القيام بمثل هذه الممارسات بمعزل عن هذه المؤسسات. عالمياً، احتلت الأجهزة الأمنية والشرطة والقضاء نصيب الأسد في هذه الانتهاكات. المطلوب هنا هو تغيير بنيوي في جهاز الدولة وذلك حتى تمنع تكرار مثل هذه الممارسات في المستقبل<sup>125</sup>.

### موقع العدالة الإنتقالية على الخريطة المعرفية

تنتمي دراسات العدالة الإنتقالية بشكل تقليدي إلى حقل القانون الدولي لحقوق الإنسان، ومع التطور في تطبيقات المفهوم، تم توسيع مجالات دراسة المفهوم لتشمل العديد من الآليات والأهداف تنتمي للعديد من المجالات العلمية والبحثية. وبصفة عامة، ينقسم المفكرون والفلاسفة المعنيون بالعدالة الإنتقالية حول اثنين من الروافد الثقافية؛ الأول

<sup>125</sup> إبراهيم شرقية فريحات: العدالة الإنتقالية في دول الربيع العربي، مرجع سابق

الفكر الليبرالي لحقوق الإنسان، أما الثاني فهو الرافد الديني. ورغم تباينهما، يشترك الرافدان في العديد من الفرضيات والاستنتاجات، وإن كان لكل منهما نقاط تميزه بل وتوجد خلافات بينية في كل رافد.

يقوم النهج الليبرالي للعدالة الإنتقالية على الميراث الفكري لكل من جون لوك، إيمانويل كانط وجون ستيوارت ميل الداعي إلي المساواة والحرية، فضلاً عن فكر جون رولس الداعي لعدالة توزيع الموارد الإقتصادية. وفيما يخص جرائم الماضي، يميز رواد الرافد الليبرالي ما بين نظريتين، أولاهما تركز على معاقبة مرتكبي الجرائم، في حين تركز الثانية على إعادة تأهيل الضحايا، الردع وتحسين النظام الإجتماعي بصفة عامة.

أما الروافد الدينية للعدالة الإنتقالية، فتعد "حقوق الإنسان" هدفاً لها، ولكنه ليس المفهوم الأساسي المحرك، ولكن تعد "المصالحة" هي الفكرة التي تتلاقى حولها كل الروافد الدينية، وهو ما يعد أحد التطورات غير المتوقعة في الخطاب المتعلق بالعدالة الإنتقالية. وإن كانت لتلك الروافد اختلافاتها البينية أيضاً، فمثلاً تعد حقوق الإنسان فكرة محورية بالنسبة للفكر الكاثوليكي وبعض الطوائف البروتستانتية واليهودية، إلا إن الاهتمام بها يقل في الإسلام والبوذية والهندوسية<sup>126</sup>.

### العدالة الإنتقالية في السودان

برز مفهوم العدالة الإنتقالية في السودان اثناء مفاوضات نيفاشا والذي انتهى إلي اعتماد صيغة مخففة في نص المادة/21 من الدستور الإنتقالي "تبتدر الدولة عملية شاملة للمصالحة الوطنية وتضميد الجراح من أجل تحقيق التوافق الوطني والتعايش السلمي بين جميع السودانيين". لكن هذا النص لم يفعل بأي مستوى ومضت الفترة الإنتقالية حتى الانفصال لتنتقلها إلي اجندة الفترة الإنتقالية التي ستلي تغيير النظام.

بعكس الثورات السودانية السابقة فان أي تغيير في السلطة في السودان سوف يستدعي العدالة الإنتقالية باعتبارها جزءاً من ترتيبات الوضع. دخل المفهوم في الحياة السياسية

<sup>126</sup> هناء وحيد الغايش: العدالة الإنتقالية : قراءة مفاهيمية و معرفية، الشبكة العربية العالمية، الأربعاء، 01 أغسطس 2012 ، <http://www.globalarabnetwork.com/studies?start=80>

بقوة واصبح جزءاً من برامج الاحزاب "أما العامل الثالث، ولعله الأكثر أهمية، فهو الإفصاحات المتعددة عن اعتماد "العدالة الإنتقالية" كسياسة مبدئية لقوى حزبية رئيسية بدأت تولي، خلال السنوات الماضية، انتباهة مرموقة لأهمية المفهوم. وإلى ذلك، أيضاً، كتابات وتصريحات الصّادق المهدي، رئيس حزب الأمة القومي، وتعبيرات بعض قادة الحزب الاتحادي الديمقراطي، كعلي محمود حسنين"<sup>127</sup>.

كرس الحزب الشيوعي فصلاً كاملاً في برنامجه الجديد المجاز في المؤتمر الخامس عن العدالة الإنتقالية "رابعاً: العدالة الإنتقالية والمصالحة الوطنية: لجنة المكافحة والحقيقة. مارس نظام الإنفاذ على مدى العقدين الماضيين، انتهاكاً لا مثيل له للحريات والحقوق... إن المصالحة الوطنية تقع في قلب التحولات الديمقراطية المطلوبة، لكنها لن تأتي الا نتيجة لسلسلة من العمليات والإجراءات الكفيلة بإبراء جراحات الماضي، في إطار العدالة الإنتقالية. واتساقاً مع هذا المفهوم الحديث يرى حزبنا، إضافة إلى معالجة الآثار الجسدية والنفسية للانتهاكات، ضرورة تكوين لجنة وطنية للمكافحة والحقيقة، بمعايير التجربة العالمية، بحيث يتوفر لها الاستقلال الإداري والمالي، بما يمهد لمصالحة وطنية حقيقية، مع الذاكرة الوطنية في المقام الأول"<sup>128</sup>.

جاء اوضح تعبير عن العدالة الإنتقالية في ميثاق الفجر الجديد تحت مسمى "المحاسبة والعدالة الإنتقالية": وتشمل المحاكمة العادلة، تحقيق العدالة بمحاسبة المتهمين بإرتكاب جرائم خطيرة، التصدي للسياسات والمؤسسات التي قادت إلى الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان، مواجهة ثقافة الإستعلاء والعنصرية باصدار قوانين، تأسيس نظم للعدالة الإنتقالية، بما يضمن إنصاف الناجين وتوفير التعويض والمساعدة على التعافي وتضميد الجراح وترسيم جريمة الإبادة الجماعية كواقعة مركزية إرتكبتها وأسس لها نظام المؤتمر الوطني، والعمل على تضمين المخازي الكبرى لتلك الجريمة في المناهج والمقررات الدراسية، وتبث عبر وسائل الاعلام، وتشكل الخطاب العام المعبر عن هوية السودان بتعدد أديانه وثقافته وإثنياته، وليوثق للجرائم الكبرى

<sup>127</sup> كمال الجزولي: العدالة الإنتقالية: مدخل المستقبل السالك، مرجع سابق

<sup>128</sup> برنامج ودستور الحزب الشيوعي السوداني المجازين في المؤتمر الخامس، يناير 2009م، <http://www.ahewar.org/>

بمختلف الوسائل مثل المتاحف القومية.

### ثالثاً: قضايا الحكم: العدالة الاجتماعية

عندما يخرج الشعب في أي ثورة لمنازلة نظام استبدادي فاسد، تطرح مسألة العدالة الاجتماعية إما بشكل غير واضح مثل ثورة أكتوبر 1964، أو بشكل شعار محدد كما فعل المصريون في 25 يناير 2011 يطالبون بالعدالة الاجتماعية. لكن رغم ذلك فإن مفهوم العدالة الاجتماعية لم يكن واضحاً في أذهان المطالبين بها، وربما لم يكن حاضراً، حتى، في أذهان من قادوا الحركة أنفسهم.

ارتبط مفهوم العدالة الاجتماعية في أذهان الكثيرين بمفهوم إيجاد حلول للمشاكل الاقتصادية، أو ربما بمفهوم المساواة على المستوى الاجتماعي، أو بمفهوم رفع الدخل الشهري لكل أسرة وغيرها. ليس للعدالة الاجتماعية في تأريخها مفهوماً ثابتاً لدى القوى المختلفة، طرحت القضية لنقاش واسع في مصر كجزء من الحوار الوطني وامكانية الوصول لمفهوم متقارب. في هذا الحوار برزت ثلاثة اتجاهات واضحة، تلخص الوضع في المنطقة وفي السودان<sup>129</sup>.

أولاً التيار الليبرالي: أن الفكر الليبرالي يعتمد بالأساس على الحقوق المتساوية لكل المواطنين بما في ذلك الالتزام التام بالمواثيق الدولية، التي وقعت عليها الدولة الخاصة بحقوق الإنسان. ففي الشق السياسي ترى الليبرالية ضرورة الحريات الأساسية والانفتاح على ثقافة الحوار، وهو ما سيعكس تداول السلطة والتعددية الحزبية. اجتماعياً وإقتصادياً، فالرؤية الليبرالية تعتمد على ثلاثة مبادئ رئيسية هي الحرية، تكافؤ الفرص وسيادة القانون في ظل مجتمع ديمقراطي تعددي.

في ظل حرية النشاط الإقتصادي ستكون هناك العدالة الاجتماعية على عدة مستويات: تنحصر في دور الدولة كمنظم لإقتصاد السوق في إطار الحريات الاقتصادية ومن خلال فرض تشريعات وقوانين تحمي السوق من الإختلالات كالهيمنة والإحتكار، كذلك انضباط الدولة في إدارة المنشآت الحيوية. كما أن العدالة الاجتماعية هي ضمانات العدالة التوزيعية بعد فرض الضرائب، كالتصاعدية والعقارية، التي يتم

<sup>129</sup> طه أمين: العدالة الاجتماعية...الشعار والتطبيق، الخميس، 8 نوفمبر 2012 - <http://www1.youm7.com/>

استغلالها طبقاً لأدوات عدالة التوزيع للدولة المتمثلة في تقديم شبكات خدمية كالتأمينات، الرعاية الصحية والتعليم.

لذا يجد الليبراليون بأن تكافؤ الفرص هو أحد أهم السبل التي لابد أن تنتهجها الدولة في ضبطها للسوق، أو في دخولها كمشارك مع بقية المستثمرين لتنظيم مبدأ التكافؤ. سيادة القانون هو المبدأ الثالث في الرؤية الاجتماعية والإقتصادية لليبرالية، فضمان النزاهة في كل من الحرية الإقتصادية وتكافؤ الفرص لابد أن يشرع له قوانين سيتم اعتبارها نقطة انطلاق متساوية لكل المشاركين بالسوق دون تقديم تسهيلات لأحد دون الآخر<sup>130</sup>.

ثانياً: ينطلق المفهوم اليساري من أن التناقض الرئيسي هو بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والتملك الخاص لوسائل الإنتاج. ففي كل المجتمعات تتكون مجموعات متضاربة المصالح داخل المجتمع الواحد. مع صعود الرأسمالية وتبني نظام إقتصاد السوق المفتوح، وتشجيع الإستثمارات والبدء في خصخصة القطاعات المملوكة للدولة. أدى هذا إلى تقسيم المجتمع إلى طبقة مالكة لكل وسائل الإنتاج وطبقات ماجورة. لذلك فإن الحديث عن "مصلحة" الدولة محض وهم، لأن الدولة مكونات وأطراف مختلفة. بعض مداخل تحقيق العدالة الاجتماعية يمكن أن تتم عن طريق استعادة ما تم خصخصته عن طريق الفساد وفي فرض حد أدنى للأجور، إنتزاع قوانين أفضل لعلاقات العمل وشروطه، تشكيل النقابات القوية المستقلة وغيرها<sup>131</sup>.

ثالثاً: تيار الدولة الدينية لديه تصور مخالف ومن أوائل الذين تناولوا مسألة العدالة الاجتماعية، سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام. انطلق سيد قطب من أن هناك ثلاث ركائز تقوم عليها العدالة الاجتماعية في الإسلام. هذه الركائز هي التحرر الوجداني المطلق، المساواة الإنسانية الكاملة والتكافل الاجتماعي الوثيق من أجل أن يحقق الإسلام هذا التحرر الوجداني بصورة فاعلة، فلقد وضع الله من القوانين والتشريعات ما يضمن للإنسان احتياجاته الأساسية وبالتالي يساعده على تحقيق

<sup>130</sup> دينا عمر: مفهوم العدالة الاجتماعية وتصورات القوى السياسية، جريدة الاشتراكي 24 يونيو 2011

<sup>131</sup> محمد حمامة: بعد قانون تجريم احتجاجات العمال: الثورة والعمال والعدالة الاجتماعية .. هل من خارطة طريق؟ 19 يونيو 2011، مركز الدراسات الاشتراكية

التحرر الوجداني الكامل<sup>132</sup>.

المبادئ الأساسية للإسلام في العدالة الاجتماعية هما: مبدأ المساواة، ومبدأ التكافل الاجتماعي. وليس المقصود بالتكافل الاجتماعي في الإسلام مجرد التعاطف المعنوي من شعور الحب والمودة، بل يتضمن العمل الفعلي الإيجابي الذي يصل إلى حد المساعدة المادية للمحتاج و تأمين حاجته بما يحقق له حد الكفاية، مع وضع الآليات عن طريق دفع الزكاة، فإن لم تكف فيؤخذ من الأغنياء ما يكفي للفقراء الزكاة، الصدقات والضرائب المدنية الأخرى. في السودان رغم أن تيار الدولة الدينية كان أميل في الخمسينات لمفهوم العدالة الاجتماعية الاشتراكي، إلا أن التطورات الفكرية اللاحقة حملته بعيداً عن أي مفهوم للعدالة الاجتماعية وجاء التطبيق العملي في ممارسة السلطة معادياً للفقراء وانحيازاً واضحاً للأغنياء.

بعد الثورة المصرية في يناير 2011 طرحت ضمن شعاراتها، العدالة الاجتماعية، العيش، الحرية، والكرامة الإنسانية، وتبنته جميع الأحزاب المصرية وأدرجته في برامجها. حدث هذا لأن الأحزاب كافة، لم يكن في وسعها تجاهل هذا المطلب. لكن عندما تتبنى مطلب العدالة الاجتماعية أحزاب متباينة في توجهاتها الاقتصادية وانحيازاتها الاجتماعية، فلا بد وأن لكل منها مفهوماً مختلفاً عن العدالة الاجتماعية، وإن كان نادراً ما يقدم بشكل صريح وغالباً ما يبقى مضمراً.

قدم د. إبراهيم العيسوي، الخبير الإقتصادي والاستشاري بمعهد التخطيط القومي (مصر)، في دراسة نشرت في جريدة الشروق على ثلاث حلقات في أكتوبر 2012 إلى ضرورة بلورة مفهوم العدالة الاجتماعية الذي يعتبر شعاراً مركزياً من شعارات ثورة 25 يناير، ولكي ينتقل من الشعار إلى البرنامج "العدالة الاجتماعية هي تلك الحالة التي ينتفي فيها الظلم والاستغلال والقهر والحرمان من الثروة أو السلطة أو من كليهما، والتي يغيب فيها الفقر والتهميش والإقصاء الاجتماعي وتنعدم فيها الفروق غير المقبولة اجتماعياً بين الأفراد والجماعات والأقاليم داخل الدولة، والتي يتمتع فيها الجميع بحقوق إقتصادية وإجتماعية وسياسية وبيئية متساوية وحرية متكافئة ولا تجور فيها الأجيال الحاضرة على حقوق الأجيال المقبلة، والتي يعم فيها

<sup>132</sup> سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، القاهرة، 1995

الشعور بالإنصاف والتكافل والتضامن والمشاركة الاجتماعية، والتي يتاح فيها لأفراد المجتمع فرص متكافئة لتنمية قدراتهم وملكاتهم ولإطلاق طاقاتهم من مكانها ولحسن توظيف هذه القدرات والطاقات بما يوفر لهؤلاء الأفراد فرص الحراك الاجتماعي الصاعد، وبما يساعد المجتمع على النماء والتقدم المستدام، وهي أيضاً الحالة التي لا يتعرض فيها المجتمع للاستغلال الإقتصادي وغيره من آثار التبعية لمجتمع أو مجتمعات أخرى، ويتمتع بالاستقلال والسيطرة الوطنية على القرارات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية<sup>133</sup>.

إن المساواة في الحقوق تشير إلى أن فكرة العدالة الاجتماعية لا تنفصل عن فكرة حقوق الإنسان. أن هذا الربط بين العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وإشباع حاجاته يفرض على الدولة واجبات إقتصادية وإجتماعية مهمة، حيث لا تقدر قوى السوق وحدها على الوفاء بمتطلبات المجتمع العادل. وعندما نربط بين العدالة والمساواة في فرص الحصول على التعليم، الرعاية الصحية، العمل اللائق والحراك الاجتماعي الصاعد والمشاركة السياسية وما إلى ذلك، فمن الضروري أن تقترن المساواة في الفرص بثلاثة شروط.

**أولها:** غياب التمييز بين المواطنين وإزالة كل ما يؤدي إليه من عوامل، وغياب ما يترتب على التمييز من نتائج سلبية كالتهميش، الإقصاء الاجتماعي والحرمان من بعض الحقوق.

**ثانيها:** توفير الفرص، حيث لا معنى للحديث مثلاً عن التكافؤ في فرص العمل إذا كانت البطالة شائعة ومواطن الشغل غائبة. وهو ما يترتب التزاماً على الدولة بوضع السياسات واتخاذ الإجراءات الكفيلة بتوفير فرص العمل.

**ثالثها:** تمكين الأفراد من الاستفادة من الفرص ومن التنافس على قدم المساواة من أجل نيلها.

وهناك ثلاثة أسباب لاعتبار الحرية من المكونات الرئيسية للعدالة الاجتماعية.

**أولها:** أن الحق في الحرية هو حق من الحقوق الأساسية للإنسان التي لا تتم العدالة

---

<sup>133</sup> د. إبراهيم العيسوي: العدالة الاجتماعية: من شعار مبهم إلى مفهوم مدقق، الإثنين 1 أكتوبر

2012، <http://www.shorouknews.com>



الإجتماعية في غيابه. فلا عدالة إجتماعية بالمعنى الشامل إذا حرم الناس من الحرية، وذلك حتى إذا توافر لهم الخبز وبعض المزايا الإجتماعية.

**ثانيها:** أن ثمة علاقة تبادلية بين العدالة الإجتماعية والحرية. فمن العدل أن يكون الناس أحراراً. وعندما يتمتع الناس بالحرية ويشاركون في وضع القرارات التي تمس حياتهم يتحقق العدل. أما عندما يحرم الناس من حرية التعبير، التنظيم، التظاهر السلمي من أجل الارتقاء بأوضاعهم وتضييق الفوارق بين الطبقات، فإن هذه الفروق تميل للاتساع. وحينئذ تنتهي الظروف لتزواج السلطة والثروة، وهو ما يمكن الأغنياء من تسخير الديمقراطية الليبرالية لخدمة مصالحهم، وينذر بأخطار جسيمة على الحرية والديمقراطية.

**أما السبب الثالث** لا اعتبار الحرية من مكونات العدالة الإجتماعية فهو فهم التنمية الإنسانية على أنها حرية، كما يقول أمارتيا سن "التنمية الإنسانية معنية بزيادة وتحسين القدرات البشرية". وتوسيع الحريات هو في الحقيقة توسيع للقدرات. وهذا ما تتطلب العدالة الإجتماعية تحقيقه، وذلك بحسبان امتلاك القدرات شرط للاستفادة من الفرص المتاحة وللتكافؤ في التنافس على الفرص.

في الربط بين حقوق الإنسان والمساواة هنالك عدد من الحركات التي تعمل على نشر وتطبيق العدالة الإجتماعية، حقوق الإنسان الأساسية والمساواة. من أشهر تلك الحركات الدولية، "حركة العدل الدولية"، كما اعتمدت منظمة العمل الدولية بالإجماع إعلان منظمة العمل الدولية بشأن العدالة الإجتماعية من أجل عولمة عادلة في 10 يونيو 2008، وتقرر إعلان الاحتفال سنوياً بيوم 20 فبراير بوصفه اليوم العالمي للعدالة الإجتماعية، اعتباراً من الدورة الثالثة والستين للجمعية العام<sup>134</sup> "العدالة الإجتماعية مبدأ أساسي من مبادئ التعايش السلمي داخل الأمم وفيما بينها الذي يتحقق في ظلّه الازدهار. بالنسبة للأمم المتحدة، يشكل السعي إلى كفالة العدالة الإجتماعية للجميع جوهر رسالتنا العالمية ألا وهي تحقيق التنمية وصون كرامة الإنسان. وما اعتمدت منظمة العمل الدولية في العام الماضي للإعلان الخاص بالوصول إلى العولمة المنصفة من خلال العدالة الإجتماعية إلا مثال واحد على

---

<http://www.un.org/ar/events/socialjusticeday><sup>134</sup>

التزام منظومة الأمم المتحدة بالعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية. فالإعلان يركز على ضمان حصول الجميع على حصة عادلة من ثمار العولمة مما يتأتى بتوفير فرص العمل والحماية الاجتماعية ومن خلال الحوار الاجتماعي وإعمال المبادئ والحقوق الأساسية".

تناول محمود عبد الفضيل الوضع بعد الثورة المصرية فيما يتناول تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية في ظل الظروف المصرية الراهنة وحصرها في حدها الأدنى في ستة مجالات:

أولاً: إعادة النظر في الهيكل النسبي للأجور، تحقيق العدالة الأفقية بين القطاعات والعدالة الرأسية في هيكل الأجور والدخول داخل القطاع الواحد الذي لحق به العديد من التشوهات والمفارقات.

ثانياً: العلاقات الإيجارية سواء بالنسبة لإيجارات الأراضي الزراعية أو إيجارات العقارات في المدن.

ثالثاً: السياسة المالية بإعادة هيكلة النفقات العامة لتحسين العدالة التوزيعية في جانب الموارد السيادية، وعلى رأسها الإيرادات الضريبية وتطبيق نظام الضرائب التصاعدية بطريقة متدرجة.

رابعاً: سياسة توفير السلع العامة Puplic Goods بأسعار تناسب دخول المواطنين محدودي الدخل. يأتي على رأس قائمة السلع العامة المشمولة بالرعاية: خدمة التعليم، الرعاية الصحية، المواصلات العامة، المسكن الملائم، الحد الأدنى من الأنشطة الترويحية، باعتبارها جزءاً من إشباع الحاجات الأساسية للإنسان.

خامساً: مكافحة البطالة ونشر مظلة التأمينات الاجتماعية.

سادساً: ثلاثية الدخل والأسعار والتوظيف<sup>135</sup>.

#### **رابعاً: قضايا الحكم: العلاقات الخارجية**

لا يرد السودان في الوثائق السرية أو مذكرات الرؤساء المختلفين أو وثائق أجهزة

<sup>135</sup> محمود عبد الفضيل: حول محاور العدالة الاجتماعية، 10 نوفمبر 2012، <http://shorouknews.com>

المخابرات- إلا فيما ندر. ورغم أن بعض السودانيين مغرمين بالتفاخر بالاهمية الإستراتيجية وربط أنفسهم بالعالم العربي، إلا أن من الواضح أن السودان لم يعتبر حقاً من المنظومة العربية سواء من الناحية الإستراتيجية، الإقتصادية او حتى الثقافية وظل في المخيال العربي قضية إستراتيجية لمصر، وتابعاً لها تقررهي بشانه في الغالب الاعم وذلك لاعتبارات مياه النيل وقضايا إقتصادية مستقبلية او مخزناً محتملاً كسلة غذاء.

يبدو هذا جلياً في ورود السودان في الصحافة والاعلام العربيين، فمواضيع السودان يتم تناولها من زاوية الازمات: ازمة سياسية، مجاعات، عمليات عسكرية، تمرد... الخ ليس هناك أي اشارة لاهمية السودان- إلا بعض الكتابات المصرية في مراكز الدراسات الإستراتيجية والتي تتعامل مع السودان دوماً باستعلاء.

وحتى لدي الاستاذ محمد حسنين هيكل، اضخم عقول الاعلام العربي في العقود الست الماضية- فلم يتناول السودان سوي في شذرات قليلة، في اكتوبر 1964، في بداية الإنقاذ مايو 1969، وتعليق قصير حول احداث استشهاد الإمام الهادي المهدي، واخيرا في استشراف المستقبل العربي في قناة الجزيرة ديسمبر 2010 حول المستقبل المظلم للسودان. هذا هو ما جاء عن السودان في مجموعة اصداراته والتي تعتبر الاكبر عربياً، تعليقات فرعية ولا يعتبرها ضمن الفضاء العربي او مؤثراً استراتيجياً.

لعبت دول متعددة ادواراً مختلفة في شأن السودان وكانت ذات اثر مباشر على ساسة السودان، الذين لعبوا الادوار الرئيسية في تلك الازمنة من مصر، السعودية، الغرب وامريكا، دول الخليج، دول الجوار، ماليزيا والصين. للاسف لا توجد ويكيليكس عربية ولا تقاليد نشر للوثائق – خاصة الاستخباراتية- في هذا الجزء من الكون. هناك حديث متكرر في الادب السياسي السوداني حول دور الامريكان والاسرائيليين في السياسة الداخلية السودانية، ولكن ليس هناك كثير من التحليل المنظم والموضوعي والمركز على الحقائق لطبيعة هذا الدور، حيثياته وعلاقته بالاستراتيجيات الاقليمية او الكونية. هذا الوضع يفرض قيوداً على أي محاولة للتحليل لغياب المعلومات، لكن سوف نحاول تناول دور الخارج بحذر شديد وايراد القدر الاكبر من المعلومات الموثقة قدر الامكان.

## تعريفات السياسة الخارجية

تعد السياسة الخارجية للدول، امتداداً طبيعياً لأوضاعها ونظمها الداخلية ولذا فإن أي تغير أو تطور يطرأ على النظام السياسي أو البيئة الإجتماعية لدولة ما، يحدث تغييراً في مضمون وأسلوب سياستها الخارجية، ومواقفها من القضايا الدولية، كما أن قيم القيادة السياسية المسيطرة داخل ذلك النظام وإدارتها ومعتقداتها، تشكل الاتجاهات التي يجري فيها ذلك التحرك الخارجي<sup>136</sup>.

اشار الدكتور منصور خالد، خلال المحاضرة التي القاها في المركز القومي للدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية التي حملت عنوان (تجربة حياة)، إلي الدبلوماسية والسياسة الخارجية وشكل العلاقة التي تربط بينهما، وقال "من الصعب الفصل بين السياسة الداخلية والخارجية باعتبارهما وجهين لعملة واحدة، مشيراً إلي ان ممارسة السياسة في الداخل تعني اعمال السلطة على الرقعة الوطنية، وتأكيد الاستقلال للخارج، بالاضافة إلي العناية والارتقاء بأهل البلد، فضلاً عن كفالة حرياتهم وحقوقهم، وقال ان السيادة الوطنية لا تعني الانعزال في السياسة الخارجية"<sup>137</sup>.

## العالم من حولنا

اتناول دور الخارج وخاصة الاستراتيجيات الكونية، لأهميته قبل، اثناء وبعد عملية أي تغيير سيحدث في السودان. رغم عدم الاهمية الإستراتيجية للسودان في الوقت الحالي، فإن قطراً بموارد هائلة وقوى بشرية لها إمكانات فاعلة، حيوية ومتنوعة، يمثل في مستقبله مكاناً شديداً الاهمية والتاثير إذا استطاع الخروج من وهدة حكمة الحالي واستطاع ابناءؤه وضعه على الطريق الصحيح. إن السودان ليس بلداً خامل الذكر ولكن خامل القيادة، فاقداً للاتجاه، واسير الأولوية المتدنية في وضعه في الاستراتيجيات الكونية.

<sup>136</sup> مصطفى علوي: السياسة الخارجية السودانية بعد انقلاب يوليو، السياسة الدولية، <http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=214129&eid=1498>

<sup>137</sup> د. منصور خالد يقول: الفريق عبود (فقط) هو رجل السياسة الخارجية، الخرطوم 7 مارس 2012 <http://www.sudaneseonline.com>

عند بدء انحسار الاستعمار البريطاني، تركت في كل البلدان نظاماً ديمقراطياً على نمط وستمنستر وراهننت على القوى الليبرالية لقيادة هذه العملية. حدث تحول حاسم في هذه الإستراتيجية، عند تسلم الولايات المتحدة الأمريكية قيادة العالم الغربي في ظل الانقسام الحاد للعالم بعد الحرب العالمية الثانية وسيادة القطبية الثنائية وقواعد الحرب الباردة من توازن القوى والردع المتبادل (1945-1989). بنت الامبراطورية الأمريكية إستراتيجيتها على محاصرة المعسكر الشيوعي على نطاق العالم. حدث تغير نوعي مع تصاعد الصراع في انحاء العالم والعالم الثالث، خاصه مع اكتساب المعسكر الشيوعي اراض جديدة.

توصل الامريكان، منذ عقود، عبر دراسات مراكزها البحثية، مؤسسات التجسس، الاعلام، الاحتكاك الشخصي وغيرها إلى أن الموروث الوحيد والفاعل الاساسي في العالم العربي هو الدين وليس الديمقراطية وأن هذا الموروث هو القادر على جلب الاستقرار والمصد الحقيقي لانتشار الشيوعية.

تصاعد هذا إلى مفهوم إستراتيجي نحو العالم العربي والإسلامي بعد تدخل السوفييت في افغانستان. قاد هذا إلى محاولة خلق حلف اسلامي يضم مصر، تركيا، باكستان في فترة من الماضي. ينعكس هذا حالياً في الجدل الدائر حول دور الامريكان وعملهم في وصول التيارات الدينية إلى السلطة في دول الربيع العربي وكذلك في الموقف الملتبس للسياسة الخارجية الامريكية حول محاولات تغيير السطة في السودان<sup>138</sup>.

في قمة حلف شمالي الاطلسي (الناتو) في مدينة ستراسبورج الفرنسية 2009، طالبت الولايات المتحدة بثمان قيامها بدور شرطي العالم لتكون قائداً لشركاء يدفعون حيث خاطب الرئيس اوباما القمة قائلاً "على اوروبا الا تتوقع من الولايات المتحدة تحمل عبء خوض الحملة ضد الارهاب وحدها". لتحقيق هذا المطلب برزت الحاجة لمفهوم إستراتيجي جديد. كونت القمة لجنة الحكماء من 12 عضوا برئاسة وزيرة الخارجية الامريكية السابقة مادلين اولبرايت، وتبنت مفهوماً إستراتيجياً جديداً للعقد القادم<sup>139</sup>.

<sup>138</sup> لقاء لميس الحديدي مع محمد حسنين هيكل: مصر اين وإلى اين؟، قناة سي بي سي، 4 يناير 2013

<sup>139</sup> كان الحلف قد انشئ بموجب معاهدة ابرمت في ابريل/نيسان 1949 في العاصمة الامريكية واشنطن. وكان هدف المنظمة انذاك التصدي للتهديد السوفيتي وقد تأسست على مبدأ التضامن المشترك بين جميع اعضائها.

بناء على تجربة العراق من امكانية استغلال الاختلافات المذهبية وتعميقها، فقد بنيت إستراتيجية الغرب على تصعيد قوى الاسلام السياسي إلى دول الثورات العربية، واعتمد المفهوم الإستراتيجي الباب المفتوح. بناء على هذا المفهوم تم الاتفاق أن تتحرك اقرب دولة للحدث وتتدخل لاحتوائه حتى تتحضر بقية دول الحلف، وتم تقسيم المنطقة بحيث تتولي الولايات المتحدة: مصر، السعودية واسرائيل، دول شمال افريقيا: فرنسا وايطاليا ومنطقة الشام: فرنسا وتركيا.

### الاتجاهات الغربية والامريكية تجاه افريقيا

السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه أي منطقة في العالم تتبع أولاً من مصالحها وأهدافها الكونية من جهة، وأهمية المنطقة المعنية بتلك السياسة من جهة ثانية. ونظراً لأن إفريقيا تحتل موقعاً مهماً، إن لم يكن خاصاً، في الإستراتيجية التي رسمتها الإدارة الأمريكية للتحكم في عالم المستقبل، لما تملكه القارة من ثروات طبيعية ومواد أولية، لاسيما البترول، الذي أصبح العنصر الحيوي المحرك للاقتصاد الأمريكي وبالتالي تحولت إفريقيا إلى قاعدة إستراتيجية خلفية مهمتها تأمين الإمدادات البترولية للولايات المتحدة، لتقليص الاعتماد على الشرق الأوسط الذي أصبح معرضاً لتطورات لا يستطيع صناع القرار التنبؤ بمداها أو بنتائجها<sup>140</sup>.

واورد تقرير مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي: "أن إفريقيا ستواصل في كونها مورداً رئيسياً للنفط والغاز والمعادن للأسواق العالمية وستجذب وبشكل متزايد اهتمام الدول التي تسعى إلى الوصول إلى السلع الأساسية. ولكن على الرغم من زيادة الطلب العالمي على السلع الأساسية، فإن زيادة موارد الدخل قد لا تستفيد منها غالبية السكان. السياسات الإقتصادية الفقيرة المرتكزة على المصالح وعلى الإصلاحات الإقتصادية غير الكاملة من المرجح أن تؤدي إلى تفاقم الانقسامات العرقية والدينية فضلاً عن الجريمة والفساد في كثير من البلدان. بالإضافة إلى انه من المرجح أن تستمر النخب الحاكمة في تحقيق زيادة في الدخل والثروة، في حين

<sup>140</sup> د. نجلاء مرعي: النفط والدماغ.. الاستراتيجية الأمريكية تجاه إفريقيا، الطبعة: الأولى 2012م  
[http://www.arabcenter.org/index.php?option=com\\_content&view=article&id=187:book11&catid=37:books&Itemid=75](http://www.arabcenter.org/index.php?option=com_content&view=article&id=187:book11&catid=37:books&Itemid=75)

أن الفقر سيستمر أو سيزداد سوءاً في المناطق الريفية وفي المراكز الحضرية المتنامية الأطراف، وإن الفجوة بين النخبة والسكان من المرجح أن تتسع وقد تساهم الظروف في توليد الانقسام والتطرف السياسي والديني<sup>141</sup>.

### الاتجاهات الغربية والأمريكية تجاه السودان

مرت إستراتيجيات الغرب في السودان بمراحل تاريخية عديدة. وعكست الوثائق الرسمية الأمريكية المنشورة بعد مرور ثلاثين عاماً، إنه في فترة الخمسينات كان السودان يعامل باعتباره ملحقاً لمصر جرياً على التقليد البريطاني الموروث من الحقبة الإستعمارية. وقد ساد الاضطراب في تصنيف السودان فهو يعامل أحياناً باعتباره جزءاً من شرق إفريقيا، جزءاً من دول إفريقيا تحت الصحراء أو بلداً عربياً منتماً إلى الشمال الإفريقي.

خلال الحرب الباردة دخل السودان ضمن قائمة المصالح والأهداف القومية التي كانت تشكل محددات للسياسة الأمريكية تجاه إفريقيا في فترة الحرب الباردة، والتي اشتملت على أربع قضايا أساسية من احتواء الشيوعية، حماية خطوط التجارة البحرية، الوصول إلى مناطق التعدين والمواد الخام ودعم ونشر القيم الليبرالية (اقتصاد السوق). في هذه المرحلة كان وجود أحد أكبر الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط مدعاة لاهتمام فائق، ثم التقارب السوداني السوفيتي أبان عهد عبود وبلغ الاهتمام اقصاه بوصول اليسار للحكم في الإنقاذ مايو. شهدت بداية السبعينات العمل الحثيث للأجهزة الأمريكية وتدخلها، حتى استمالت النظام وتواصل الاهتمام (ترحيل الفلاشا، الموقف من ليبيا، تأييد كامب ديفيد وغيرها).

نحو نهاية السبعينات وبداية الثمانينات بدأت الولايات المتحدة تولي السودان اهتماماً متزايداً؛ ليس فقط من منظور الصراع مع الكتلة السوفيتية، ولكن أيضاً من منظور المصالح الاقتصادية؛ خاصة وأنه قد ظهرت بالسودان مؤشرات ثروة بترولية. كانت مشكلة الطاقة العالمية قد برزت إلى الوجود بعد الحرب العربية الإسرائيلية في عام

<sup>141</sup> النص الحرفي لتقرير مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي،

<http://www.arabinfocenter.net/pkg09/index.php?page=show&ex=2&dir=news&First=0&Last=12&Current>

Page=0&nid=75293&nt=16&lang=1

1973م، والأزمة التي حدثت جرّاء إيقاف تصدير النفط من الدول العربية. مع انطلاق الحركة الشعبية لتحرير السودان في 1983، بتوجهاتها اليسارية ومن ثم تحولها إلى التحالف مع الغرب بعد انهيار المنظومة السوفيتية. بلغ الاهتمام بالسودان الدرجة التي استلزمت دعم الولايات المتحدة لانتفاضة 1985 وزيارة بوش الاب مدير المخابرات المركزية الأمريكية للسودان وحجب الدعم عن النميري<sup>142</sup>.

## الإنقاذ والخارج

يتم التطرق للدور الأمريكي او الخارج بشكل عام وعلاقتها بالتيار الديني في بعض الكتابات السودانية (اشهرها واحد أكثرها غزارة بالمعلومات، مقالات الاستاذ عبد الرحمن الامين)، ورغم ذلك لازال الموضوع في حاجة إلى تفرس شديد وبحث عن المعلومات. سنهتم هنا بتناول موضوع دور الخارج - خاصة الغرب- لأثرها في أي تطور مستقبلي للسودان والوصول إلى الدولة الديمقراطية المستقلة. سوف اعتمد في أكثر هذا الفصل، على كتابات قليلة وتحليل كثير لغياب المعلومات وعدم وجود قانون ينظم تداول المعلومات بعد مرور زمن ما- ككل الدول التي تتيح هذا بعد سنوات محددة بالقانون.

منذ استقلاله قبل أكثر من خمسة ، تميزت السياسة الخارجية في السودان بالاعتدال والمحافظة في فترات طويلة من تاريخها وإن أخذ عليها تركيزها على البعد العربي على حساب البعد الافريقي. ومع ذلك فقد شهدت فترات اتخذت فيها بعض الحكومات مواقفاً مبنية على الايدلوجيا. تميزت سياسات الحكومة الديمقراطية الأولى، حكومة نوفمبر والديمقراطية الثانية بنهج الاعتدال والتوازن أما النظام المايوي فقد عاد إلى سياسة الاستقطاب والمحورية فاتجه شرقاً دولياً وفي اتجاه عروبي واضح إقليمياً، ثم تحول غرباً فيما بعد.

بعد الانتفاضة رجعت السياسة الخارجية سيرتها الأولى إلى نهج الاعتدال إلى مجيء الإنقاذ. جاءت الإنقاذ في اوضاع بروز تحولات دولية عميقة، فقد تم تدشين النظام

---

<sup>142</sup> د. غازي صلاح الدين العتباتي: السودان في الأجندة الأمريكية، <http://www.alarabnews.com/alshaab/2006/26-05-2006/su1.htm>



العالمي الجديد الذي بشر به الرئيس بوش الأب وحدد ملامحه بمعالم بينها بروز القطبية الأحادية؛ التغير في مفهوم السيادة؛ التغير في مفهوم السلم والأمن الدوليين والتغير في مفهوم حق الدفاع عن النفس. اتبع النظام سياسة الخداع والتمويه لدواعي تأمين بقائه في مرحلته الأولى.

قوبل أنقلاب الإنقاذ بترقب من الأسرة الدولية وبترحيب من بعض الأطراف الإقليمية والدولية. فقد رحبت مصر بالأنقلاب في بدايته وساعدت على تسويقه إقليمياً. بشكل عام أحدث أنقلاب الإنقاذ ارتيحاً لدى الولايات المتحدة الأمريكية<sup>143</sup> "بعد نجاح الإنقاذ ورغم التحفظ المعلن إلا أن الموقف الحقيقي برز يوم 8\7\89 اجتمع هيرمان كوهين مساعد وزير الخارجية الأمريكية بالرئيس عمر البشير الذي شرح أسباب قيام الإنقاذ وأشار إلى غياب الدولة في العهد الحزبي عن معالجة القضايا الأساسية كالحرب في الجنوب والاقتصاد. وقال إن هناك تعاطفاً من واشنطن مع حكومة السودان وترغب في مساعدتها لكن قرار الكونغرس 513 يحول دون ذلك وقال يمكن تجاوز القانون إذا أحرزت الحكومة تقدماً في مجال السلام وتسهيل الإغاثة"<sup>144</sup>.

### قضايا العلاقات الخارجية

جاءت الإنقاذ واستمرت والأولوية والإستراتيجية الثابتة اللامتغيرة لها، هي التمكين والامساك بالسلطة مهما كان الثمن. في هذا المجال انجزت في أول عهدها مجزرة الدبلوماسيين الذين وصفهم د.منصور خالد: "منذ أن عرفت الدبلوماسية السودانية عرفتها بالتميز..تتمثل في جدارة وكفاءة رجالها في الصف الأول والثاني، بالإضافة إلى كفاءة الناشئة والقدرة على اجادة أكثر من لغة، فضلاً عن المنافسة الحرة في الاختيار الذي يذهب حتى إلى التحليل النفسي لطالب الالتحاق بالخارجية لامتحان قدراتهم على التكيف على بيئة خارجية غريبة عنهم".

<sup>143</sup> عبد الرحمن الغالي: انعكاس السياسة الداخلية للدول على سياستها الخارجية: الإنقاذ كمثال، ورشة العلاقات الخارجية مارس 2003، المؤتمر العام السادس، حزب الأمة، [www.umma.org/umma/ar/file/gali.do](http://www.umma.org/umma/ar/file/gali.do)

<sup>144</sup> محمد ابراهيم العسقلاني: حباب الانقلاب: موقف امريكا من انقلاب خاتم يونيو 89م ، 20 فبراير 2008 <http://alrakoba.net/articles-action-show-id-7220.htm>

في خلال أكثر من عقدين فقد الوطن من خلال سياسات التمكين، كافة الدبلوماسيين الذين تم بنائهم في عقود طويلة، فقد أمتلات الخارجية بمن ولجوا إليها من باب المنشية سابقا والقصر منذ المفاصلة، الذي اوصلنا إلي ما وصفه احد اكبر دهاقنة السياسة السودانية د.منصور خالد: "أن الوضع الحالي للخارجية مختلف عما كانت عليه في الماضي، مضيفا بانها افتقدت اهم ما يجب توفره للسياسة الخارجية، افتقارها للتماسك المنطقي، وزاد أنها اذا كانت نتاجاً لرؤية مرتبكة فإن مصيرها الفشل، ويرى أن المشكلة في السودان ليست لضعف فكر لصناع السياسة ولا لعجزهم عن ادراك المصالح الخارجية، بقدر ما هي منطلقاتهم لتفسير المصالح الوطنية"<sup>145</sup>.

اما السياسة الخارجية للإنقاذ فقد اتجهت إلي ما حلله د. حيدر ابراهيم من سلوك ذرائعي لا يعبأ كثيرا بالوسائل النبيلة: "من أول نتائج هذه الآلية في التمكين السقوط في دورة التدويل الشيطانية والتي لا قرار لها أي بلا نهاية أوقاع، حين يسقط فيها الانسان. وولج نظام الإنقاذ بوابة التدويل من خلال سياسة عزل المعارضة وعدم الاعتراف المباشر بها. ولذلك ركن النظام في حل ازماته الي الوساطات والمبادرات الخارجية. وكل ذلك لكي يبعد المعارضة من مناقشة القضايا الوطنية والجلوس معها. لذلك اصبحت ابوجا ونيفاشا والنرويج وبروكسل وحتى جيبوتي أقرب اليه من إي مكان داخل السودان يجمعه مع معارضيه".

ادى هذا في تراكمه من التدخلات الخارجية "وهكذا تبعثر دم السيادة الوطنية السودانية في انحاء المعمورة... لم تعد للسودان سياسية خارجية. بل اصبحت السياسة الداخلية هي السياسة الخارجية للسودان وللمجتمع الدولي. وهكذا افلت زمام الامور من الحكام وانتقل الي الخارج"<sup>146</sup>.

### سياسة خارجية متوازنة

اشار المستشار طارق البشري في كتابة (نحو تيار أساسي للأمة) "إن المشروع الوطني الذي من شأنه صياغة التيار الأساسي السائد يتلخص في ثلاثة عناوين

<sup>145</sup> د. منصور خالد في تجربة حياة، مرجع سابق)  
<sup>146</sup> د. حيدر ابراهيم علي: الإدارة الأمريكية والإرادة السودانية، 26 أكتوبر 2009، <http://www.sudaneseonline.com>

كبري الاستقلال السياسي، تحرر الإرادة السياسية من الضغوط الخارجية والاستقلال الإقتصادي والمأسسة<sup>147</sup>. إن احد المهمات العاجلة في الوضع الإنتقالي تصحيح الوضع الحالي من الاتفاق والتوافق الوطني على اهداف السياسة الخارجية، بحيث تعكس السياسات الداخلية من الديمقراطية، سيادة القانون وحرية التعبير. وبناء محددات السياسة الخارجية، بحيث يركز على عوامل موضوعية من طبيعة الجوار الجغرافي، الموارد والتحالفات الإقتصادية والتوازن والمساواة في تقرير السياسة الخارجية للدولة: "رهن نجاح الدبلوماسية برأس المال البشري والعمل الدائم لاكتساب قدرات جديدة في اللغات والتبحر في مجالات لم تكن تستوعبها الخارجية، وقال إن تنوع المناشط الدبلوماسية قاد الي فرع معرفي بحيث لم يعد من الممكن ارتياد هذا المجال الا بالتزود من هذه العلوم والمعارف بالتبحر في العلوم والمعارف واعرب عن امله في ان يتم الاتجاه لاتقان السواحلية والهوسا بجانب الانجليزية والفرنسية والاسبانية والصينية<sup>148</sup>".

القضية الأخرى تعديل صورة السودان المشوهة والمدموغة بكل صفات الارهاب، انتهاكات حقوق الانسان، الحروب الأهلية المدمرة، صنوف الكذب والاستهبال والنصب الذي اصبح صورة السودانيين في الخارج.

### سودان المستقبل والخارج

للسودان قضايا معلقة وملفات شائكة مع كافة الجيران، خاصة دولة جنوب السودان، بحاجة إلي القضاء علي كل الاسباب التي تقود لافتيال الفجوة والسعي لتأطير العلاقات علي اسس موضوعية على قاعدة المنافع والمصالح. إن تأكيد الاستقلال السياسي لا يعني فرض السلطة في الداخل فقط بقدر ما يعني الارتقاء بأهل البلد، احترام حريتهم، التفاهم، النظر للمصالح الوطنية العليا التي تشمل أمن الوطن واستقراره، تحقيق الاحتياجات الضرورية لمواطنيه، الحفاظ علي تنوعه وخصائصه الثقافية وإحلال البلد موقعا متميزاً في الهبة الكونية.

<sup>147</sup> طارق البشرى: نحو تيار أساسي للأمة: إصدارات مركز الجزيرة للدراسات، 2008م  
<http://studies.aljazeera.net/production/papers/2011/07/2011723114727195353.htm>

<sup>148</sup> د. منصور خالد في (تجربة حياة، مرجع سابق)

سودان المستقبل سيجد حوله دولاً ديمقراطية عديدة (مصر، ليبيا، تونس، اثيوبيا وكينيا وربما سوريا)، رغم تعثر بعضها والمشاكل التي تحيط بها الا أنها حقائق الجغرافيا الجديدة، كما سيرث تدويلاً واستراتيجيات دولية معقدة في قضايا معلقة في العلاقات السودانية الخارجية لها جذور داخلية من مشكلة دارفور، النيل الازرق وجنوب كردفان والعلاقة مع جنوب السودان. معظم هذه القضايا تحل بين شركاء في الوطن وستذوب كافة عوامل التدويل عند جلوسهم في طاولة واحدة للنظر في حكم السودان.

اشرنا في الجزء الأول إلي أن السودان كان له اربعة مشاريع توسعية شمالاً: أولها اسست الاسرة الخامسة والعشرين المصرية ثم انحسرت جنوباً، **المشروع الثاني** كان مع الثورة المهدية وكان هذا النزوع مبنياً على ايديولوجية صلبة أن المهدي لآخر الزمان وكل مكان، **المشروع الثالث** كان اممياً استند على ايديولوجية صلبة أن الشيوعية هي نهاية التاريخ، **والمشروع الرابع** هو مشروع اعادة الخلافة الإسلامية وقيام الامبراطورية الإسلامية واستندت هذه الدعوة من منطلقات ايديولوجية وفكرية بسيطة، ان الاسلام خاتم الاديان وصالح لكل زمان ومكان وهذا صحيح، لكن بدلاً من المهدي فالتنظيم هو المفسر والممثل للإسلام لآخر الزمان والمكان، والزعيم هو رأس التنظيم وبالتالي رأس الامبراطورية.

لم تفلح سوي قاعدة المنافع والمصالح في خلق التكتلات الإقتصادية ومن ثم السياسية مثل دول الاتحاد الاوربي، امريكا اللاتينية والآسيان. إن هذه القاعدة تستدعي وجود دول ذات نمو متقارب ومنافع مشتركة، وقد فشلت كافة الاطروحات العربية والافريقية في خلق أي وحدة مفيدة إقتصادية او إجتماعية. الرؤية ستجعلنا في طريق نمو وتؤثر في دولنا المجاورة لرفع قدراتها.

#### **خامساً: قضايا الحكم: المجتمع المدني**

مفهوم المجتمع المدني قديم منذ أرسطو باعتباره "مجموعة سياسية تخضع للقوانين" أي أنه لم يكن يميز بين الدولة والمجتمع المدني. تطور المفهوم بعد ذلك في القرن الثامن عشر مع تبلور علاقات الإنتاج الرأسمالية حيث بدأ التمييز بين الدولة والمجتمع المدني. جعل فلاسفة التنوير المجتمع المدني في مرحله مقاومة أنظمة الحكم المطلق، مقابلاً للدولة الإستبدادية، وانتشر تداول هذا المصطلح في أوروبا في القرن السابع

عشر مع نشوء الديمقراطية التي أقيمت على أنقاض الأنظمة السياسية التي كان يسودها الحكم المطلق، ونفوذ الكنيسة، وهيمنة الإقطاع<sup>149</sup>.

تطور مفهوم المجتمع المدني في الفكر الليبرالي بالموازاة مع التطورات السياسية والإقتصادية التي عرفها العالم الغربي وبروز نزعة الدفاع عن المصالح المشتركة للطبقة البرجوازية؛ وبدأ يتبلور المفهوم الحديث للمجتمع المدني من خلال ما كتبه (هيجل) في مؤلفه (مبادئ فلسفة الحق) الصادر سنة 1812، حيث أشار فيه إلى أن "المجتمع المدني يقع بين الأسرة والدولة، وأنه يتكون من الأفراد والطبقات والجماعات والمؤسسات، وتنظم كلها داخل القانون المدني"؛ أما الفكر الماركسي فإنة يعتبر أن مفهوم المجتمع المدني ظل يستعمل كسلاح في مواجهة السلطة الشمولية، واعتبر ماركس أن المجتمع المدني هو احد ساحات الصراع الطبقي.

عالج المفكر الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي (1891-1937) موضوع المجتمع المدني من منظور جديد، فاعتبره ليس ساحة للتنافس الإقتصادي، وإنما ساحة للتنافس الإيديولوجي، منطلقاً من التمييز بين السيطرة السياسية وهيمنة الإيديولوجية. فمع نضج العلاقات الرأسمالية في أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، انقسام المجتمع إلى طبقات ذات مصالح متفاوتة أو متناقضة، احتدام الصراع الطبقي كان لابد للطبقة الرأسمالية السائدة من بلورة آليات فعالة لإدارة هذا الصراع واحتوائه بما يضمن حماية مصالحها، وتحقيق الاستقرار في المجتمع، ويقول غرامشي: "أن المجتمع المدني هو مجموعة من البنى الفوقية، مثل النقابات، الأحزاب، الصحافة، المدارس والكنيسة، ويعتبر أن الفاتيكان أكبر منظمة خاصة في العالم، ويفصل بين أدوار ومهام المجتمع المدني ووظائف الدولة". ويفسر ذلك المفكر الألماني المعاصر (يورغن هابرماس) بقوله إن وظائف المجتمع المدني في مفهوم (غرامشي) تعني الرأي العام غير الرسمي، أي الذي لا يخضع لسلطة الدولة.

يرى محمد عابد الجابري أن عبارة "المجتمع المدني"، بالنسبة للغة العربية، تكتسب معناها من مقابلها الذي هو "المجتمع البدوي"، تماماً كما فعل ابن خلدون حينما استعمل "الاجتماع الحضري" ومقابلته "الاجتماع البدوي" كمفهومين إجرائيين في

<sup>149</sup> مفهوم المجتمع المدني: نشأة وتطور المجتمع المدني: مكوناته وإطاره التنظيمي  
<http://www.mojtama.com>

تحليل المجتمع العربي في عهده والعهود السابقة له. وبما أن القبيلة هي المكون الاساسي في البادية العربية فإن "المجتمع المدني" سيصبح المقابل المختلف، إلى حد التضاد لـ "المجتمع القبلي"<sup>150</sup>.

هذا في حين أن اللفظ الأجنبي "civil" الذي نترجمه بـ "مدني"، في قولنا "مجتمع مدني"، يستبعد في الفكر الأوروبي ثلاثة معان رئيسية هي بمثابة أضداد له: معنى "الإجرام" (قارن: "مدني" في مقابل "جنائي" في المحاكم)، معنى الانتماء إلى الجيش (قارن "مدني": في مقابل "عسكري")، ومعنى الانتماء إلى الدين (قارن: "التعاليم الدينية" في مقابل "القوانين المدنية"). وهكذا فعبارة "المجتمع المدني" في الفكر الأوروبي هو، بناء على ذلك، مجتمع متحضر، لا سلطة فيه للعسكر ولا للكنيسة. وإذن فالفارق كبير بين مدلول عبارة "المجتمع المدني" داخل اللغة العربية، وبين مفهومها في الفكر الأوروبي.

ويرى عز الدين اللواج إن الفكر العربي لم يعرف مفهوم المجتمع المدني بحد ذاته بل جاء هذا التعرف عبر الاهتمام المتزايد الذي لاقتته مؤلفات "انطونيو غرامشي" في العالم العربي بعد السبعينات، وبدرجة أقل مفردات الفلسفة والفكر الليبرالي (العقد الإجتماعي لروسو، في الحكم المدني لجون لوك). وبالتوازي مع ذلك، بدأ مفهوم المجتمع المدني يتسرب إلى الفكر العربي المعاصر من ثمانينات القرن العشرين وخصوصاً في دول المغرب العربي، حيث ارتبط المفهوم بالتفكير في ظروف التحول من الحزب الواحد إلى التعددية (تونس، الجزائر)<sup>151</sup>.

## مكونات المجتمع المدني

يدخل في دائرة مؤسسات المجتمع المدني أي كيان مجتمعي منظم يقوم على العضوية المنتظمة تبعاً للغرض العام أو المهنة أو العمل الطوعي، ولا تستند فيه العضوية على عوامل الوراثة وروابط الدم والولاءات الأولية مثل الأسرة، العشيرة، الطائفة والقبيلة.

<sup>150</sup> د. محمد عابد الجابري: المجتمع المدني: المعنى والمفهوم، تاريخ النشر: الثلاثاء 1 مارس 2005، <http://www.alittihad.ae/wajhatprint.php?id=10184>

<sup>151</sup> عز الدين اللواج: الانتلجنسيا العربية والمجتمع المدني "تعاريج على مظهرات الخط المفاهيمي والاصطلاحي"، <http://www.libya-watanona.com/letters/v2005b/v09dec5e.htm>

أهم مكونات المجتمع المدني: النقابات المهنية والعمالية، الحركات الاجتماعية، الجمعيات التعاونية والأهلية، النوادي باختلاف أنواعها والاتحادات الطلابية، الغرف التجارية والصناعية وجماعات رجال الأعمال، المنظمات غير الحكومية المسجلة كشركات مدنية، كمراكز حقوق الإنسان، منظمات الدفاع، مراكز البحوث والدراسات والجمعيات الثقافية، الصحافة الحرة وأجهزة الإعلام والنشر.

ويوضح عبد الملك منصور المصعبي، أن هناك من يضيف إلى هذه المنظمات هيئات تقليدية كالطرق الصوفية والأوقاف التي كانت بمثابة أساس المجتمع المدني في المجتمعات العربية منذ مئات السنين وقبل ظهور هذه المنظمات الحديثة، الجمعيات التعاونية الزراعية والحرفية والاستهلاكية والإسكانية والمنظمات الدفاعية الأخرى للمرأة والبيئة الخ<sup>152</sup>.

### تعريف المجتمع المدني

مع اتساع دور المجتمع المدني وتزايد أهميته في المجتمعات الديمقراطية، فقد أصبح يحظى باهتمام الكثير من المفكرين والباحثين المعاصرين في الغرب وفي العالم العربي، ولذلك نجد أن هناك عدة تعاريف للمجتمع المدني، ليس هناك تعريف جامع مانع للمجتمع المدني ولكن توجد تعريفات لها قبول واسع.

تبني البنك الدولي تعريفاً للمجتمع المدني أعده عدد من المراكز البحثية الرائدة "يشير مصطلح المجتمع المدني إلى المجموعة واسعة النطاق من المنظمات غير الحكومية والمنظمات غير الربحية التي لها وجود في الحياة العامة وتنهض بعبء التعبير عن اهتمامات وقيم أعضائها أو الآخرين، استناداً إلى اعتبارات أخلاقية أو ثقافية أو سياسية أو علمية أو دينية أو خيرية"<sup>153</sup>.

ومن ثم يشير مصطلح منظمات المجتمع المدني إلى مجموعة عريضة من المنظمات، تضم: الجماعات المجتمعية المحلية، المنظمات غير الحكومية، النقابات العمالية، جماعات السكان الأصليين، المنظمات الخيرية، المنظمات الدينية، النقابات المهنية ومؤسسات العمل الخيري. وقد استقر الرأي من خلال الدراسات الأكاديمية والميدانية

<sup>152</sup> أ.د/ عبد الملك منصور المصعبي: الحريات والحقوق المدنية والممارسات، [mansourdialogue.org/](http://mansourdialogue.org/)

<sup>153</sup> تعريف المجتمع المدني: <http://web.worldbank.org>

والمتابعة التاريخية لنشأته وتطوره أن المجتمع المدني هو: "مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة، أي بين مؤسسات القرابة ومؤسسات الدولة التي لا مجال للاختيار في عضويتها"<sup>154</sup>.

شهدت سنوات العقد المنصرم توسعاً مدهلاً في حجم ونطاق وقدرات المجتمع المدني في جميع أنحاء العالم، مدعوماً بعملية العولمة واتساع نطاق نظم الحكم الديمقراطية، الاتصالات السلكية واللاسلكية والتكامل الإقتصادي. وفقاً لحولية المنظمات الدولية، فقد زاد عدد المنظمات غير الحكومية الدولية من 6000 عام 1990 إلى ما يزيد على 50 ألفاً عام 2006. وأصبح لمنظمات المجتمع المدني دور بارز في تقديم المساعدات الإنمائية علي مستوى العالم؛ حيث يشير تقرير منظمة التعاون والتنمية في الميدان الإقتصادي إلى أن هذه المنظمات قدمت مساعدات تقدر بحوالي 15 مليار دولار أمريكي من المساعدات الدولية حتى عام 2006.

وفي السودان فإن الرأي الغالب هو أن منظمات المجتمع المدني تشمل تنظيمات المجتمع غير الحكومية من أحزاب ونقابات وإتحادات وأندية وروابط وخلافه، وفي الحالة السودانية يمكن اعتبار الجماعات الصوفية والمنظمات الدينية بشكل عام كجزء من المجتمع المدني وذلك للدور البارز الذي تلعبه في تشكيل سلوك المنتمين إليها وتوجيههم في اتجاه معين. وفي حالة السعي نحو الديمقراطية "فإن الأحزاب هي الطليعة الأكثر أهمية في عملية "الدمقرطة" وحيث أن السودان هو جزء من منظومة العالم الثالث التي تسعى بخطى مثقلة نحو الديمقراطية تصبح الأحزاب جزءاً أصيلاً من المجتمع المدني السوداني"<sup>155</sup>.

كانت أولى منظمات المجتمع المدني التي ظهرت في السودان، هي جمعيات محو الأمية، والتي بدأت في التكون في أخريات عشرينات وبداية ثلاثينات القرن الماضي في كثير من مدن السودان الكبيرة. كما قامت في تلك الفترة الجمعيات الأدبية وأشهرهما جمعيتي "أبروف" و"الفجر" في أمدرمان<sup>156</sup>. مثلت الجمعيات الأدبية

<sup>154</sup> حسين علي الحمداني : مجتمع مدني: الدور السياسي لمؤسسات المجتمع المدني في العراق، <http://www.alitthad.com/paper.php?name=News&file=article&sid=36391>

<sup>155</sup> د. بهاء الدين مكاوي: منظمات المجتمع المدني في السودان: خلفية تاريخية، <http://sudanorphans.org/vb/showthread.php?t=1340>

<sup>156</sup> د. صفوت صبحي فانوس (ترجمة : بدر الدين حامد الهاشمي) : دور بريطانيا في قيام وتطور المجتمع المدني في السودان، <http://www.sudanile.com>



النواة التي انبثق منها "مؤتمر الخريجين" والتنظيمات السياسية التي بدأت في التكوين، عقب تخفيف الحظر على ممارسة العمل السياسي في عام 1936م حين وقعت الاتفاقية بين مصر وبريطانيا. شهدت بدايات أربعينات القرن العشرين نمواً سريعاً في مجال المنظمات المدنية إذ تكونت نقابات للعمال والمزارعين والطلاب وكذلك تكون إتحاد للمرأة.

## دور ووظائف المجتمع المدني

قام التعريف الكلاسيكي للسلطات الذي قدمه مونتسكيو في القرن الثامن عشر علي التفرقة ما بين السلطات التنفيذية، التشريعية والقضائية، الآن يتشكل المجتمع الحديث من سلطات أخرى، ومنها مثلاً المجتمع المدني، الذي تنامي كماً وكيفاً، وأصبح طرفاً رئيسياً في صنع السياسات العامة محلياً وإقليمياً ودولياً. فالأمم المتحدة لم تعد تستطيع أن تعقد قمة دولية لممثلي الدول دون عقد قمة موازية لمنظمات المجتمع المدني. وهناك منظمات غير حكومية دولية- مثل المنظمات البيئية العالمية ومنظمات حقوق الإنسان والشفافية الدولية- أصبحت لها قوة تأثير عبر الحدود وعلى الحكومات، وتتخطى مفهوم السيادة بمعناه التقليدي من حيث السيطرة على بقعة جغرافية وسكانها من خلال تداخلها مع المنظمات غير الحكومية المحلية.

وإذا كنا من ناحية أخرى نرجو تعزيز الديمقراطية في المجتمع ، فلا مفر من تدعيم منظمات المجتمع المدني، خاصة في ضوء الدراسات الكثيرة المتعاقبة التي أثبتت كيف أن انتشار الديمقراطية يرتبط بتمدد هذه المنظمات كماً وكيفاً. فلا يجوز أن يركز الدستور على السلطات الثلاث وتوصيفها وتحديد العلاقات بينها، بينما يترك المجتمع المدني لينظمه قانون تحت سيطرة وزارة واحدة من السلطة التنفيذية<sup>157</sup>.

لقد اثبت المجتمع المدني السوداني قدرة فائقة على التفاعل الحي مع قضايا الشعب السوداني، مما عجزت عنه وحدات الاتحاد الاشتراكي او لجان الإنقاذ الشعبية. تحتاج منظمات المجتمع المدني لمراجعة شاملة، فقد سيطرت عليها، كغيرها من مفاصل المجتمع، منظمات التيار الديني وتكاثرت واصبحت واجهات للثراء.

<sup>157</sup> د. إسماعيل سراج الدين: فكر مغاير حول الدستور الجديد، <http://today.almasryalyoum.com>

## التجربة الاندونيسية

هناك على الأقل أربعة أسباب لاعتبار إندونيسيا نموذجاً جيداً. أولاً: إندونيسيا هي أكبر دولة مسلمة من ناحية تعداد السكان، ومرت بتحول سياسي من نظام استبدادي إلى نظام ديمقراطي، ثانياً: استطاعت البلاد تحقيق استقرار سياسي رغم النزاعات العرقية والصراعات الطائفية التي ظهرت في سنوات التحول السياسي الأولى، ثالثاً: أظهرت أداءاً إقتصادياً مستقراً. فقد وصل معدل النمو الإقتصادي خلال الخمس سنوات الماضية إلى 6%. وفي عام 2009 استطاعت إندونيسيا، بجانب الصين والهند، أن تكون من الدول الوحيدة في العالم التي استطاعت الحفاظ على معدل نمو يناهز 4% رغم الأزمة الإقتصادية في ذلك العام ورابعاً: إندونيسيا هي الدولة الوحيدة ذات الأغلبية المسلمة التي فشلت فيها الأحزاب الإسلامية في الفوز بالانتخابات العامة.

كغيرها من البلدان الأخرى، لم يكن التحول السياسي في إندونيسيا سهلاً أبداً، لاسيما في بلد حكمه نظام استبدادي عسكري لفترة طويلة. وأصبح التوتر، الصراع والمظاهرات سمات الوضع السياسي الإندونيسي خلال السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الإنتقالية، خصوصاً مع تفاقم الأزمة الإقتصادية. السؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا هو: لماذا لم تصوت غالبية المسلمين الإندونيسيين للأحزاب الإسلامية، وإنما صوتت لأحزاب علمانية أو غير دينية؟ ألم تكن هناك عملية أسلمة في البلاد؟ لماذا لم تؤد موجات الإحياء الديني في إندونيسيا إلى النجاح في كسب السلطة السياسية؟ هناك العديد من الإجابات على هذه الأسئلة، ولكن أكثرها إثارة للدهشة هو أن هناك تغيراً جذرياً في العقلية السياسية لدى المسلمين الإندونيسيين.

يعزى ذلك إلى عوامل خارجية ترجع إلى حكم العلمانية العسكرية تحت نظام سوهارتو، وأخرى داخلية ترجع إلى تأثير المسلمين الإندونيسيين الليبراليين. لعب هذان العاملان دوراً حاسماً في تغيير عقلية وطريقة نظر المسلمين إلى الديمقراطية.

كان يمكن لتأريخ إندونيسيا أن يكون مختلفاً إذا ما كُتب للأحزاب الإسلامية الفوز في الانتخابات العامة عام 1955. ففي تلك الانتخابات بلغت حصيلة الأحزاب الإسلامية مجتمعة 34% من الأصوات، ما يكفي للسيطرة على الحكومة، ولكن ليس للسيطرة

على البرلمان. ووفقاً للقانون فلا بد من الحصول على ثلثي الأعضاء على الأقل من أجل تغيير الدستور.

بالتأكيد أصيب القادة المسلمون بخيبة أمل نتيجة لذلك، لكنهم أدركوا تماماً في الوقت نفسه تبعات الديمقراطية. هذا الفشل كان إيذاناً بقبول قواعد اللعبة. خلال ثمانينيات القرن الماضي، كان هناك عدد لا بأس به من المثقفين المسلمين القادمين من خلفية دينية، قاموا بالدعوة إلى إسلام ليبرالي، هذا هو الإسلام الذي يدعو إلى القيم الليبرالية مثل الحرية، الديمقراطية، التعددية والتسامح<sup>158</sup>.

معظم هؤلاء المثقفين ينتمون إلى تنظيمات إسلامية كبيرة مثل نهضة العلماء والمحمدية، ولعبوا دوراً حاسماً في تنوير المسلمين الإندونيسيين: من خلال وسائل الإعلام ومنتديات النقاش، المحاضرات العامة والإجراءات الاجتماعية. نشروا تفسيراتهم المرنة للإسلام، وناشدوا المسلمين أن ينخرطوا بشكل كامل في شروط الحياة العصرية.

### المجتمع المدني في اندونيسيا

أهم بنود الدستور الجديد في اندونيسيا كانت تلك المتعلقة بحقوق الإنسان وكذلك بدور المجتمع المدني الذي أصبح له صلاحيات كبيرة، ليس فقط في مراقبة الأداء الحكومي، وإنما أيضاً في الحفاظ على الدستور، والتصدي لأية محاولة للعودة إلى الماضي تقوم بها عناصر ما يسمى هناك الثورة المضادة. كانت الفكرة الأساسية وضع جدول أعمال للإصلاح الديمقراطي، حيث أدركت قوي الثورة الاندونيسية أن الديمقراطية لا تتحقق بين يوم وليلة ولا توجد عصا سحرية تجعل البلاد تتحول من نظام دكتاتوري إلى نظام ديمقراطي بين عشية وضحاها.

المجتمع المدني الاندونيسي نشط ويتمتع بدرجة عالية من الحرية النسبية في نظام ما بعد سوهارتو، انشأت عديداً من المنظمات. الشراكة من أجل إصلاح الحوكمة في إندونيسيا (Kemitraan) وهو عبارة عن شراكة بين المجتمع الدولي والعديد من

<sup>158</sup> لطفي أسياوكانى: ترجمة: هيثم عبد العظيم، : معهد جوته فكر وفن، حزيران/يونيو 2012،

<http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/a97/ar9523678.htm>

الجهات الاندونيسية في القطاعين العام والخاص. المنظمة الدولية للشفافية في اندونيسيا، الجمعية الاندونيسية للشفافية، اندونيسيا كورابشين ووتش (ICW) ومبادرة أخلاقيات العمل المتعلقة بروابط العمل في إندونيسيا (IBL) وهي تعمل من أجل تعميق الوعي العام فيما يتعلق بأخلاقيات العمل و المسؤولية الإجتماعية للشركات<sup>159</sup>.

---

<sup>159</sup> سهير هدايت: التجربة الاندونيسية، المصدر: الأهرام اليومى،  
<http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=545247&eid=430>

## الفصل الرابع: قضايا الوضع الإنتقالي: قضايا التغيير الإقتصادي والإجتماعي

نعالج هنا الجزء الثاني من قضايا الوضع الإنتقالي وهي القضايا المتصلة بالتغيير الإقتصادي/الإجتماعي والذي سيشكل البنية التحتية لأي نهوض وطني والوصول لرؤية البناء والتنمية وتشمل: الثقافة الديمقراطية، تمكين المرأة، اجتثاث العنف من الحياة السياسية، محو الامية، الفقر، البطالة والديون.

### أولاً: القضايا الإقتصادية والإجتماعية: الثقافة الديمقراطية

اتناول موضوع الثقافة الديمقراطية باعتبارها جزءاً حاسماً في تسريع مشوار النهضة والتقدم الذي نعالجه في موضوع الرؤية. رغم قدم كلمة الديمقراطية عند اليونان والتي مارسها بشكل مباشر قلة من "المواطنين" في مدن قليلة السكان ولا حقوق فيها للعبيد الأكثر عدداً. فإن الديمقراطية كممارسة ومفهوم حديث جاء ناتجاً للثورة الصناعية والثورة البرجوازية التي اسقطت الاقطاع وتمثلت في الثورة الفرنسية، التي فصلت الدين عن الدولة لان الحكام كانوا يدعون السلطة الإلهية وعدم المساءلة أمام الناس.

يعتقد كثير من الناس أن الديمقراطية تتم بشكل تلقائي عند تطبيق آليات الانتخاب ومنح الحقوق السياسية العامة. وتدلنا تجاربنا السابقة أن السودان الذي عاش ثلاث فترات من الحكم الديمقراطي (ينعتها البعض بالحكم التعددي)، من ازهي فترات الحرية والتي توفر فيها للشعب حريات واسعة بقدر كبير، لكن لم تقم بزرع الثقافة ليتمثلها الشعب في سلوكه.

قال المفكر مونتسكيو 1755-1689 "الناس سواسية في النظام الديمقراطي والنظام الاستبدادي. في الأول لأن الناس هم كل شيء وفي الثاني لأنهم لا شيء". لتحويل الناس من لا شيء في أنظمة القمع الدكتاتوري إلي كل شيء في النظام الديمقراطي

نحتاج إلى أنتقال تدريجي، مدروس ومبرمج، ليس على نهج الهندسة الاجتماعية ولكن على ارضية من الاقتناع، الحوار والتفاهم. الديمقراطية السياسية تبقى ناقصة بدون ديمقراطية إجتماعية. الأولى تهتم بمصدر السيادة والسلطة وحقوق المواطن السياسية ومساهمة في الانتخابات وتشكيل الأحزاب وإبداء الرأي ونشره، أما الثانية، والتي لها أولوية على الديمقراطية السياسية، فتهتم بتحسين أوضاع المواطن المادية، عن طريق مبدأ العدالة الاجتماعية من حيث توزيع خيرات البلد على كل المواطنين لأن للمواطن حق شرعي بنصيب عادل منها<sup>160</sup>.

فالمساواة بين الأفراد في المجتمعات المنظمة تستند بشكل أساسي على هذه العدالة الاجتماعية. فأفراد الشعب المنبوذين والفقراء وقليلي الثقافة، لا يمكن أن يساهموا بشكل جدي في الحياة السياسية التي تتطلب معرفة بأمر الدولة وتسييرها وأمر السلطة ومداخلاتها الا اذا ضمنوا لقمة العيش، أولويات هؤلاء الناس هي لقمة العيش وليست السياسة. لا يكفي التبحر بالحريات العامة والمساواة أمام القانون، إن لم ترفع بتحسين الاوضاع الإقتصادية للمواطنين ليصبح لهذه المساواة والحرية معني واقعياً<sup>161</sup>.

### المنظومة الدينية التراثية

في التعامل مع الديمقراطية لدينا في الحياة السودانية منظومتين فكريتين، الأولى المنظومة الدينية التراثية والثانية المنظومة الاسرية، العشائرية والقبلية. عالج الفقيه العالم بدر الدين الخضر (أبو البراء) أمام مسجد المنشية (وهو من الائمة القلائل الذين لا يملئون خطب الجمعة بالعويل، الثبور، عذاب القبور وتبرير السلطان الجائر)، في احد خطب صلاة الجمعة مدخل الحرية والديمقراطية من المنظومة الدينية. كانت معالجته استناداً إلى تفسير متطور للآية من قوله تعالى "وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا"<sup>162</sup>. عمد البراء من سياق التفسير النصي إلى توسيع مفهوم الشرك،

<sup>160</sup> مونتيسكيو فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمد عليه غالبية الأنظمة حالياً. عام 1748 نشر مونتيسكيو أهم كتبه "روح القوانين" وأضحى من أبرز المراجع في العلوم السياسية.

<sup>161</sup> نويل مبيض: أسس وركائز وتطبيق الديمقراطية ( ألف باء الديمقراطية )، <http://pages.videotron.com/moubayed/index.html>

<sup>162</sup> سورة لقمان، الآية 15

من الشرك بالله إلي ان طاعة الوالدين ترتبط بمسئولية تعليم الابناء عن طريق الحوار، التفاهم والتفاوض.

كان هذا مدخلاً إلي معالجة ممتعة عن نشر قيم الحوار والديمقراطية. اورد الشيخ البراء، أيضاً عن مفهوم الحرية والحوار الذي عمل سيدنا الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على نشره وتشجيعه، ما ذكره الإمام النووي عن ابن عباس في قصة بريرة وزوجها، وكانت بريرة أمه وزوجها عبداً، ثم حرر بريرة سادتها وأعتقوها. والحكم الشرعي أن الأمه إذا كانت متزوجة بعبد، ثم حررت صار من حقها أن تطلب الفسخ، أو تبقى زوجة له. وقد طلبت بريرة حقها في عدم البقاء مع زوجها، وكان الرجل يحبها حباً جماً، وذهب يستشفع إليها بكل من يرجو شفاعته، حتى وصل إلي النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فقال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لبريرة: (لو راجعته). يعني: لو ترجعين إلي زوجك. تساءلت المرأة: يا ترى أهذا أمر من النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليس لي إلا أن أنفذ، أو أن هذا تخيير؟ فسألت النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وقالت: (يا رسول الله تأمرني؟)، قال: (إنما أشفع)، فقالت لا حاجة لي فيه<sup>163</sup>.

جاء في كتاب "نحو خلافة ديمقراطية: تطور الفكر السياسي السني، أن الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أقام دولة الإسلام الأولى في المدينة على أساس احترام دور الأمة، فلم تكن البيعة التي أخذها الرسول على المسلمين تعني تفويضاً مطلقاً من المسلمين للنبي، أو خضوعاً من طرف واحد لحكم مطلق، وإنما كانت أشبه بعقد بين طرفين يستلزم حقوقاً وواجبات لكلا الطرفين. كما أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لم يكن يهتم بفرض سلطته السياسية على القبائل العربية التي كانت تدخل في الإسلام، بقدر اهتمامه بأمر التوحيد والصلاة والزكاة؛ لذلك نجده يخاطب الملوك المعاصرين له، ويدعوهم إلي الإيمان برسالته، ويعددهم بالمحافظة على ملكهم تحت أيديهم، ولم يطلب منهم التخلي عن سلطاتهم السياسية لسلطته. وخلافاً لعادة ملوك ورؤساء القبائل في تلك الأيام بتوريث الحكم والخلافة إلي أبنائهم وأهل بيئهم، لم يعين النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خليفة بعده، ولم يضع دستوراً للحكم من بعده، إلا أن الصحابة قد أدركوا بعقولهم ضرورة إقامة خليفة لرسول الله؛ لينفذ الشريعة الإسلامية، وينجز المهام

<sup>163</sup> الشيخ أحمد حطّبة: شرح رياض الصالحين – الشفاعة،  
<http://audio.islamweb.net/audio/Fulltxt.php?audioid=183933>

السياسية والعسكرية التي تركها الرسول<sup>164</sup>.

يلاحظ مما جرى في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه لم يكن يوجد نص ديني على الخلافة أو على كونها في قريش أو في هذا البيت، أو في هذا الرجل أو ذاك، وأن كل ما حدث في السقيفة كان تلقائياً وعفوياً، ومن وحي الاجتهاد السياسي للصحابه.

مثلت مسألة الشوري والبيعة نقطة دستورية مهمة في تجربة انتخاب أول خليفة للمسلمين؛ حيث تمت بيعة أبي بكر الصديق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) على مرحلتين: الأولى في سقيفة بني ساعدة، والثانية عندما ذهب إلى المسجد وبايعه عامة المسلمين في المدينة، وقد عنت تلك البيعة أن السلطة للأمة تخولها بإرادتها لمن تشاء، ولمن تفوضه للحفاظ على مصالح الأمة. وكان عمر بن الخطاب يشارك أبا بكر الصديق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) مفاهيمه عن الشوري والبيعة وحق الأمة في انتخاب أئمتها؛ حيث يقول: "لا خلافة إلا عن مشورة، ومن دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه".

وانطلاقاً من تلك الرؤية رفض الخليفة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) كسلفه تحويل الخلافة إلى ملك عضوض بأن يورث الحكم إلى أبنائه، رغم اقتراح بعض الصحابة عليه ذلك، الأمر نفسه بالنسبة لعثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الذي اعترف بأن الأمر يعود في النهاية إلى الأمة؛ حيث يقال إنه عندما اشتدت المعارضة ضده فكر بالاستقالة، وأرسل إلى علي، طلحة والزبير (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، وقال لهم "هذا أمركم تولوه، واصنعوا فيه ما شئتم".

أما علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فقد كان يؤمن بحق الأمة في الشوري، وبحق جميع المسلمين في الترشح والانتخاب؛ حيث يقول "الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعدما يموت إمامهم أو يقتل أن لا يعملوا عملاً، ولا يحدثوا حدثاً، ولا يقدموا يداً ولا رجلاً، ولا يبدأوا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً ورعاً عالماً بالقضاء والسنة"<sup>165</sup>.

<sup>164</sup> أسامه نور الدين: نحو خلافة ديمقراطية: تطور الفكر السياسي السني ، دار الإنتشار العربي  
/ <http://www.alkatib.co.uk/towardislamic%20democratic.htm>

<sup>165</sup> أسامه نور الدين: نحو خلافة ديمقراطية: تطور الفكر السياسي السني



إن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعده لم يتطور إلى مؤسسة دستورية، فقد تم انتقال الإمامة بطرق مختلفة لكل خليفة: عهد سيدنا أبي بكر إلى سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) من بعده بالخلافة؛ قام سيدنا عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) باختيار مجموعة من الصحابة لاختيار الخليفة من بينهم، وبعد وفاة عثمان وتولي علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) الخلافة، كان من الواضح أن فهم علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الدستوري يقوم على اشتراط الرضا العام، والبيعة بالاختيار وليس بالإكراه والعنف، وعندما تحقق من حصول ذلك، قَبِلَ البيعة وأصبح أميراً للمؤمنين.

مثلت سيطرة معاوية بن أبي سفيان على السلطة بالقوة، وسن نظام الوراثة في الحكم الانقلاب على أهم مبادئ الخلافة وصفاتها الضرورية، وتحولاً نحو القيصرية والكسروية؛ فقد كان هناك خيط فاصل بين الخلافة والملك، وهو العدل والشورى ورضا الأمة بالإمام، وعندما كان أي حاكم ينتهك هذا الحد حتى ولو كان منتخباً من الأمة، فإنه يفتقد صفة الخلافة. وقد حاول بعض الحكام العباسيين إضفاء صبغة دينية على نظام حكمهم، مما جعلهم يطلقون فكرة "الخلافة الدينية"، وقام بعض الفقهاء بالتنظير لذلك، واعتبار كل الحكام منذ وفاة الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى زمانهم خلفاء بدرجة أو بأخرى، والقول بضرورة استمرار سلسلة الخلافة إلى يوم القيامة، ويبدو أن السبب في ذلك أن العباسيين كانوا يعتبرون أنفسهم من أهل البيت.

وتكرست الصفة الدينية للخلافة العباسية بعد أن فقدت سلطتها وتحولت إلى "خلافة رمزية" في ظل سيطرة البويهيين، السلاجقة، والأتراك، وادت إلى تغييرات في النظرة إلى الخلافة، ابتدأه عبد القاهر البغدادي الذي اعتبر "الخلافة والإمامة ركناً من أركان الدين"، والماوردي الذي اعتبر الخلافة "مؤسسة ضرورية للدين والدنيا"، وذهب الإمام أبو حامد الغزالي إلى إضفاء مسحة غيبية على الخلافة؛ من خلال التأكيد على دور الغيب في نصب الإمام، باعتبارها "رزقاً إلهياً يؤتيه من يشاء"<sup>166</sup>.

اثرث القرون الطويلة من تواجد هذه المنظومة من الإجماع على وجوب الطاعة المطلقة للحكام، ورفض قتالهم والخروج عليهم، وإن كانوا فسقة ظالمين، والتي تبنتها التيارات الدينية السلفية في موقفها من الثورات العربية، إلى أن تكون طارداً للحرية

<sup>166</sup> أسامة نور الدين: نحو خلافة ديمقراطية: تطور الفكر السياسي السني، مرجع سابق

على مستوى الفكر والممارسة التي اشار اليها أبو البراء في كثير من خطب الجمعة. انعكس هذا على سلوك المسلمين وقاد إلي الاستنتاج انهم لا يمكن أن يصيروا ديمقراطيين. لقد كذبت الوقائع في دول عديدة هذا الادعاء من اندونيسيا إلي السودان، ومن ماليزيا إلي لبنان.

### المنظومة الاسرية، العشائرية والقبلية

غير العامل الديني الذي يلعب دوراً كبيراً في حياة السودانيين، تؤثر التكوينات الاسرية، العشائرية والقبلية على الانساق الثقافية والسلوكية وتؤثر سلباً على الديمقراطية. السلوك الديمقراطي يظهر في كل مجالات العلاقات الإنسانية أهمها الاسرة. انبنت الاسرة السودانية على مفاهيم الذكورة وتسلطها كما قرأ وعلق شوقي إبراهيم عثمان على دراسة الدكتور سعاد موسى، حيث تناول بالتحليل مقولة أن المسؤولية في المجتمع ليست فردية.

يرجع شوقي إبراهيم هذا السلوك إلي ارتباط السودانيين بالقيم الريفية حيث يكون ارتباط الشخص بالقبيلة أكبر، ثم جماعة القرية، ثم الحلة ثم العائلة بشكل قوي ومتداخل، ولا يستطيع أن ينفك من قوانينها الداخلية. ويصل أن هذا هو الذي يفسر ضعف المكون النفسي للشخص السوداني، فالسوداني ما يزال ريفياً مقارنة بالمصري واللبناني؛ حتى ساكني الخرطوم والمدن الكبيرة يغلب عليهم الطابع الريفي<sup>167</sup>.

الحوار حول أمور تسيير شؤون البيت، التي هي أول تجربة للديمقراطية، تغيب عنها الشروط الابتدائية مثل أن يكون هناك مساواة كاملة بين الرجل والمرأة، بدونها تبدو الديمقراطية نفاقاً لأن السلطة الأبوية وحدها تتحول غالباً إلي تسلط وتعجرف، وأيضاً فالنقاش المفتوح بين الزوجين يعطي للأبناء درساً وممارسة سليمة. حتى أن إشراكهم في الحوار مع احترامهم، ينمي حرية كل فرد ويزيد من قدراته الخلاقة. الاطفال والابناء في الاسرة السودانية مفترض بهم الطاعة والاقتران بدون أي حوار حقيقي او تفاوض جدى. هذه ممارسة طبيعية حتى أن اغلبنا اختار دراسته من اثر تأثير الاباء.

---

<sup>167</sup> شوقي إبراهيم عثمان: الشخصية السودانية بين المسؤولية الفردية وضعف المكون النفسي، مرجع سابق

المشكلة إن هذا التأثير يرتبط أيضاً بنشأة الآباء والامهات ويؤدي إلى الدخول في دائرة مغلقة.

تلعب المدرسة دوراً هاماً وتكملياً في التشبع بالقيم الديمقراطية وكيفية تطبيقها في الواقع. مع خروج الدولة من مجال التعليم حدث تغيير في بنية التعليم الوطني. مع انحدار ميزانيات التعليم إلى مستويات لا تكفي حتى للمرتبات، تحولت المدرسة القديمة التي كانت تتكون من فصول، ساحات اللعب والرياضة المختلفة، أماكن للأنشطة المختلفة من الرسم والنحت، الموسيقى، المسرح، التصوير، الأنشطة الثقافية والاجتماعية، التي حفلت بها مدارس الاستعمار إلى أقفاص. وتحولت من مدارس تنمي التفكير، الإبداع والانطلاق إلى مدارس ضيقة وقبيحة تتكون من فصول مزدحمة، محطة الاثاث، متهالكة مصممة لحشو راس الطلاب بمطلقات لا يستعمل فيها أي فكر أو تفكير. المدرسة السودانية بحالها لا تضيف إلى الأسرة سوي بشكل سلبي.

يأسهم قادمهم إلى التوجه إلى المدارس الخاصة. كانت المدارس الخاصة في الستينات والسبعينات تنافس المدارس الحكومية في تنوع أنشطتها وجمال مبناها من الحضارة إلى الجامعات. المدارس الخاصة أصبحت شققاً بائسة المعني والمبني ومكان يرتادة الطلاب للحصول على شهادة لن تفيدهم في الحصول على عمل إلا من فضل ربي.

### **بناء الثقافة الديمقراطية**

الديمقراطية فكر، سلوك، ثقافة وتنظيم سياسي وإجتماعي، تتطور تبعاً لمفهوم الناس عنها وتبعاً لسلوكهم الجماعي مع بعضهم البعض. الديمقراطية عملية متواصلة تحتاج إلى وعي من المواطنين للحفاظ والدفاع عنها وتطويرها. لا ضمانات تلقائية لبقاء الديمقراطية. فتجاربنا تظهر أنها يمكن أن تصعد وتهبط وتضمحل كأي قيمة إنسانية. لا ضمانات حتمية بأن ثورات الشعوب العربية التي بدأت عام 2010 ضد طغيان حكامها ستولد بشكل تلقائي أنظمة ديمقراطية.

الديمقراطية كأي ثقافة وسلوك تحتاج لاستزراع طويل الأمد، لكن وفق رؤية واضحة المعالم. لقد أبنا أن الأسرة سوف تسودها الثقافة الذكورية لعقود لأن مؤسسيها هم أبناء

تلك الثقافة. أول الطريق هو في تربية الأجيال الناشئة على القيم الديمقراطية والسلوك الديمقراطي. سنعالج اصلاح التعليم في فصل الكفاءات الأساسية: القوى البشرية السودانية. لن نعيد اختراع العجلة، فالتجارب حولنا من كوريا، اليابان، ماليزيا والصين ماثلة.

ربما كانت تجربة الديمقراطية الثالثة أكثر الفترات تكثيفاً للبعد عن مفاهيم ثقافة الديمقراطية، لقد لعب تيار الدولة الدينية القائم على مفاهيم الذكورة الاسرية بالمولد، السمع والطاعة الحزبية دوراً تخريبياً في تعقيد هذه الفترة. لقد افتخروا بهذا السلوك واعتقدوا أنه كان مهبطهم إلي السلطة. يلعب الاعلام دوراً محورياً في ترسيخ الديمقراطية وتعكس بمختلف اتجاهاتها وجهات نظر الناس وتفكيرهم وتطرح عليهم آراءً ومواضيعاً كثيرة للنقاش وتوضح وتشرح مشاكل المجتمع. كل هذا يؤدي إلي توعية كبيرة للمواطنين وتطور للديمقراطية. الاعلام يرسخ قبول الأفراد لبعضهم البعض كما هم كأمر حيوي لاحترام الذات والشعور بأهمية الفرد وتميزه ضمن الجماعة، احترام الرأي الآخر وقبول سيادة القانون.

الحزب هو تجمع قسم من المواطنين حول مجموعة من الأفكار تتبلور في برنامج سياسي يشرح تصور الحزبيين في تسيير الدولة في حال وصولهم إلي الحكم عن طريق انتخابات عامة. يؤدي الحزب في الأنظمة الديمقراطية وظائف هامة أولها إيجاد مكان ملائم ومشارك للحياة السياسية؛ ثانياً: تعبئة المواطنين حول برنامج سياسي موحد للوصول إلي الحكم في حال حصوله على أغلبية برلمانية، بالاشتراك مع أحزاب أخرى أو بالتأثير على قرارات السلطة الحاكمة؛ ثالثاً: العمل الحزبي يقدم للبلاد قادة ذوي خبرة سياسية لاستلام الحكم.

الأحزاب الديمقراطية تكون مفتوحة لكل المواطنين، أما الأحزاب الدينية، الطائفية، القبلية أو الفئوية فهي تولد إشكالية أساسية لأنها تقوم على الانغلاق والإقصاء وتعمل لصالح قسم من المواطنين. هذا التصرف يطعن بالمبدأ الأساسي للديمقراطية أي المساواة في المواطنة للجميع دون أي تمييز. أما عن تمويل الأحزاب الديمقراطية، فمن الضروري أولاً: أن تتم عن طريق التمويل الشعبي؛ ثانياً: من تمويل الدولة بشكل واضح ومحايدين تبعاً للقانون لإبعاد تسلط رأس المال أو المؤسسات الدينية وغيرها ممن لهم مصلحة خاصة لاستغلال الدولة. إن أهم مؤشرات الديمقراطية في الدولة

والسلطة، ما يتم داخل الأحزاب من إدارة ديمقراطية من حيث حرية التفكير، حرية النقد، المشاركة الجماعية في اتخاذ أهم القرارات، انتخاب القادة، رقابتهم أو إسقاطهم من القيادة الحزبية.

## ثانياً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: تمكين المرأة

ظهر مصطلح (التمكين) Empowerment في اروقة المنظمات العالمية منذ منتصف الثمانينات، ومنها ظهرت عبارة تمكين المرأة في الوثائق والاتفاقيات الدولية التي تعني بقضايا المرأة، وفي ادبيات المنظمات الحكومية وغير الحكومية التي كثيراً ما تستخدم هذا المصطلح في مجالات التنمية. ليس "تمكين المرأة" مجرد مصطلح، لكنه موقف ايديولوجي تتراوح مواقف البشر والتنظيمات منه حسب نظرتها للمرأة. وهو ليس مجرد اتفاقيات او وثائق توقع، لكنها تتصادم في فكرها من موقع التنظيم ومدى الاستجابة في الاتفاقات ذات الطابع الانساني العام.

تنتقل منظمة العفو الدولية من تحليل وضع المرأة ومن وجهة نظر تعرض النساء للعنف "إحدى النتائج المترتبة على التمييز حرمان المرأة من الفرصة المتساوية مع الرجل في التعليم والتدريب الوظيفي والتوظيف. ويفاقم العنف غياب الفرص المتساوية في التعليم والعمل، وهذا بدوره يمكن أن يقيد أكثر فرصة المرأة أو الفتاة في الحصول على العمل والتعليم. ولامتناع الحكومات عن خلق بيئات تمكّن المرأة وتحميها من التمييز عواقب تستمر مع النساء والفتيات طيلة حياتهن"<sup>168</sup>.

## قانون الاحوال الشخصية للمسلمين في السودان<sup>169</sup>

هناك قضايا في هذا القانون مرتبطة بالاجراءات والشغرات التي يمكن للرجال التمييز بها مثل: ظاهرة إنكار النسب في المحاكم، عدم احقية المرأة في المسكن والعفش، قلة قيمة النفقة التي تحكم بها المحاكم للزوجة، طول، تعقيد وعقم الاجراءات في القانون

<sup>168</sup> منظمة العفو الدولية: تمكين المرأة، <http://www.amnesty.org/ar/campaigns/stop-violence-against-women/issues/empowerment-women>

<sup>169</sup> قانون الأحوال الشخصية للمسلمين لسنة 1991م، <http://sjsudan.org/displaylawdetails.php?lawid=945>

مقارنة بالقوانين الأخرى التي قد لا تؤدي بالنهاية لانصاف المرأة وغيرها.

إن الوصول لحلول حول هذه القضايا اجرائية وليس عليها خلاف فقهي من مثل تيسير الاجراءات وتسهيلها، ادخال التقنيات الجديدة في اثبات النسب، تكوين مؤسسة ما قبل المحكمة تقدم العون القانوني، التوعية والنصح، الارشاد النفسي والاجتماعي للنساء، اتاحة خدمات الباحثات الاجتماعيات لتقديم المشورة (مكاتب استشارات الزواج) وغيرها.

من اهم القضايا التي تثير الجدل الفقهي في قانون الاحوال الشخصية للمسلمين 1991 السوداني، قضية زواج الاطفال. جاء في قانون الأحوال الشخصية للمسلمين لسنة 1991م: الفرع الثالث: الولاية في الزواج ما نصه (2) يكون التمييز ببلوغ سن العاشرة. "قالت زينب أن انتشار ممارسة زواج الطفلات بلغت في العام 2011 حوالي 50 إلى 60% في ولايتي جنوب دارفور والنيل الأزرق وما بين 20 إلى 30% في الولاية الشمالية وولاية نهر النيل والجزيرة والخرطوم. وأشارت الي وجود علاقة بين زواج الطفلات وقبول العنف المنزلي"<sup>170</sup>.

والقضية الأخرى ما جاء في الفرع الأول: الشهادة في الزواج: 26- يشترط في الشاهدين أن يكونا رجلين أو رجل وامرأتين مسلمين مكلفين، من أهل الثقة، سامعين للإيجاب والقبول فاهمين أن المقصود بهما الزواج. لقد تم تناول قضية الشهادة من قبل عدد من الفقهاء من الجانبين وقد قال الزعيم الإسلامي السوداني الدكتور حسن الترابي "ونفي ما يقال من أن شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل واحد، وقال "ليس ذلك من الدين أو الإسلام، بل هو مجرد أوهام وأباطيل وتدليس أريد بها تغييب وسجن العقول في الأفكار الظلامية التي لا تمت للإسلام في شيء"<sup>171</sup>.

كما أفتى الصادق المهدي، إمام طائفة الأنصار في السودان "بجواز حضور النساء مناسبات عقد الزواج شاهدات، وتشجيع الموتى مشيعات ابتغاء للثواب. واعتبر اصطفااف النساء خلف الرجال في الصلاة مجرد عادة، قائلًا إن الصواب أن يقفن

<sup>170</sup> ناشطون: قانون الأحوال الشخصية ، مرجع سابق

<sup>171</sup> فتاوي حسن الترابي: للمسلمة حق زواج المسيحي أو اليهودي وشهادة المرأة تعادل الرجل، <http://forum.roro44.com/71281.html>

محاذيات للرجال كما في الحرم المكي"<sup>172</sup>. معالجة هذه القضايا الفقهية فكرية، وتحتاج لنقاش مجتمعي عام يعرض فيه جميع الاطراف حججهم ومسوغاتهم الشرعية والمصالح وغيرها، بعيدا عن الغوغائية، العشوائية ودعوات التكفير.

في هذا الصدد اصدرت المنظمة السودانية للبحث والتنمية (سورد)، دراسة قيمة بعنوان نحو عدالة نوعية في السودان، مشروع قانون الاسرة المقترح للمسلمين. وكما اشار الكتيب "نحو عدالة نوعية في السودان هو احدى مشاريع المنظمة يهدف إلى المساهمة والترويج لحركة حقوقية سودانية تبطل وتواجه التمييز ضد النساء واللامساواة النوعية. ذلك عبر تبني قانون اسرة متقدم ومتطور يحفظ للمرأة السودانية حقوقها وكرامتها ويضمن استقرار الاسرة ورخائها"<sup>173</sup>.

### تمكين المرأة السودانية

إذا كان الفضل يرجع للممرضات والمعلمات في السودان في اختراق سوق العمل العام، فقد سبقت نساء الريف في المشاركة وحيانا الريادة في العمل والانتاج. استطاعت المرأة السودانية عبر السنوات نيل كثير من الحقوق واصبحت جزءاً من واقع الفضاء السياسي والاجتماعي السوداني "نسبة العمالة النسائية في القطاع الزراعي وفي القطاع الهامشي 85%87,8%، في الوظائف العليا بالخدمة المدنية 41%، الوظائف الإدارية 22,3%، وظائف الكتبة 77,8%، تتدنى هذه النسبة في المواقع السياسية: نسبة النساء في المجلس الوطني 19,7%، الوزارات الاتحادية 6,8% ووزراء الدولة 8,6%"<sup>174</sup>.

إن المدخل الحقيقي للتمكين هو إتاحة الفرصة كاملة للمرأة في المشاركة في التنمية، خلق سياق تنموي مواتٍ للمشاركة والتفاعل يعتمد على تطوير المهارات والقدرات وفرص التطوير الحرفي. كما أنه يعتمد أيضاً على تطوير العلاقات الاجتماعية في

<sup>172</sup> أيمن حسونة: دعوات بـ«تكفير» ومحاكمة المهدي بعد «فتواه النسائية» الجديدة، <http://www.almasryalyoum.com>

<sup>173</sup> نحو عدالة نوعية في السودان، مشروع قانون الاسرة المقترح للمسلمين، المعمورة بلوك 70، الخرطوم، السودان

<sup>174</sup> ماجدة سيد حسين سيد: إحصاءات النوع الاجتماعي وتمكين المرأة في السودان، الجهاز المركزي للإحصاء السودان، [css.escwa.org.lb/sd/1089/Sudan.ppt](http://css.escwa.org.lb/sd/1089/Sudan.ppt)

اتجاه مزيد من التوازن والاستقرار.

نظرت دراسة للبنك الدولي إلى التنمية كاساس للتمكين وان مدخلها المساواة بين الجنسين، وراتها ضرورية في حد ذاتها. "فالتنمية هي عملية لنشر الحريات بالتساوي بين الناس جميعا — ذكورا وإناثا....تضييق الفجوة بين رفاهية الذكور ورفاهية الاناث هو عامل أساسي في التنمية على غرار الحد من فقر الدخل. ومن شأن زيادة المساواة بين الجنسين أن تعزز من الكفاءة الاقتصادية وتحسن من نتائج التنمية، وذلك بثلاث طرق أساسية:

أولاً: تمثل المرأة في الوقت الراهن 40% من القوى العاملة على المستوى العالمي وأكثر من نصف طلبة الجامعات حول العالم. إذا ما تم استغلال مهارات المرأة ومواهبها على وجه أكمل سوف تزداد الإنتاجية الكلية. فعلى سبيل المثال، إذا أتيح للمزارعات من النساء نفس الفرصة المتاحة للرجال للحصول على الموارد الإنتاجية كالأراضي والاسمدة، يمكن أن يزيد الناتج الزراعي في البلدان النامية بنسبة تتراوح بين 2,5-4%. ومن شأن إزالة الحواجز التي تحول دون عمل النساء في قطاعات أو وظائف معينة أن تؤدي إلى زيادة الناتج الإقتصادي، عن طريق رفع نسبة المشاركة في القوة العاملة وزيادة إنتاجية العمالة بنسبة قد تصل في بعض البلدان إلى 25%، وذلك بتحسين توجيه مهارات المرأة ومواهبها .

ثانياً: تشير الأدلة المستقاة من البلدان المختلفة كالبرازيل، الصين، الهند، جنوب إفريقيا والمملكة المتحدة إلى أن زيادة الحصة التي تسيطر عليها المرأة من دخل الأسرة تصب في مصلحة الاطفال نتيجة زيادة الإنفاق على الغذاء والتعليم.

وأخيراً: من شأن تمكين المرأة كطرف فعال في المجالات الاقتصادية، السياسية والاجتماعية أن يؤدي إلى تغيير الخيارات المتعلقة بالسياسات وزيادة تمثيل المؤسسات لشريحة أكبر من الا صوات. ففي الهند، كان لاعطاء المرأة سلطة على المستوى المحلي أن أدى إلى زيادة توفير السلع.

لتضييق هوة التباين بين المرأة والرجل في الكسب والإنتاجية الاقتصادية، ينبغي استخدام مزيج من السياسات في هذا الخصوص. ومن بين الحلول الممكنة إتاحة الوقت للمرأة للعمل خارج البيت- على سبيل المثال من خلال توفير خدمات رعاية



الطفل المدعومة، كما حدث في كولومبيا؛ وتحسين فرص حصول المرأة على الائتمان، كما حدث في بنغلاديش؛ وضمان حصولها على الموارد الإنتاجية لاسيما الأرض كما يحدث في إثيوبيا، حيث تمنح صكوك ملكية مشتركة للأراضي للزوجات والأزواج. ومن الممكن أيضاً إتاحة الفرص الاقتصادية للمرأة عن طريق معالجة مسألة نقص المعلومات عن إنتاجية المرأة في أماكن العمل والقضاء على التحيز المؤسسي ضد المرأة، باستحداث نظام الحصص أو برامج التوظيف لزيادة تمثيل المرأة<sup>175</sup>.

### ثالثاً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: إجتثاث العنف من الحياة السياسية

انطلقت كل الأنظمة الاستبدادية، خاصة العسكرية، لمواصلة حكمها من فكرة اساسية مسيطرة منذ قدم التاريخ، مفادها أن العنف وكسر ارادة الشعوب او الجماعات هو السبيل الوحيد لاستمرارها وبقاءها. في تأريخنا المعاصر تجلى هذا في السقوط المدوي في المانيا النازية، ايطاليا الفاشية، روسيا الستالينية، شيلي، الارجنتين، اندونيسيا، تونس بن علي، مصر مبارك، ليبيا القذافي وغيرها.

في السودان لم تستطع أي قوة مهما كانت غاشمة ان تكسر ارادة الشعب، بدأ من مواجهة المك نمر مع الغازي التركي، إلى مواجهة الغزو الانجليزي في كرري "لقد كانوا أشجع من وطئت قدماه الأرض إننا لم نهزمهم في كرري ولكننا دمرناهم بقوة السلاح والنار"، ثورة اكتوبر، انتفاضة 1985 وغيرها<sup>176</sup>.

منذ يومها الأول في الحكم وضعت الإنفاذ هذه السياسة موضع التنفيذ من الفصل التعسفي للتجويع وفرط عقد المؤسسات، الترويع بالقوانين من الطواريء، حظر التجوال، العملة الخ، سياسات "بيوت الاشباح" من الاعتقالات، التعذيب، الاغتصاب، الخطف، القتل، الاعدامات العشوائية وغيرها، السيطرة المجتمعية من اللجان الشعبية، منظمات الاغاثة، اجهزة الاعلام والتعبير واجهزة الامن المختلفة والمليشيات، طلاب الإخوان ثم المؤتمر الوطني حالياً، الجنجويد، المليشيات القبلية وغيرها. لم تستطع هذه

<sup>175</sup> تقرير عن التنمية في العالم 2012 : المساواة بين الجنسين والتنمية، البنك الدولي ، عام

2011

<sup>176</sup> عز الدين محمود (ترجمة): تاريخ الثورة المهدية والاحتلال البريطاني للسودان (حرب النهر لمؤلفه ونستون تشرشل)، دار الشروق بالقاهرة

الممارسات أن تحد من المعارضة المتنوعة التي اندلعت منذ اليوم الأول.

لاستطيع أي سلطة مهما كانت سطوتها كسر ارادة شعب بالكامل، لان الشعوب لديها مخزون مقاومة تأريخية، مرونة في شبكات الامان "اعانة المتسولين، ختة النساء، التعاضد الاسري، العشائري والقبلي، التعاونيات، تحويلات المغتربين.. الخ"، وتنوع مشاربها الفكرية والنضالية.

تنوعت المواجهات بين الشعب والنظام من المشاجرات البسيطة بين الافراد وأجهزة الدولة، خرق القانون وعدم احترام الدولة، الوقفات الاحتجاجية، إسقاط ممثلي النظام في الاتحادات، النقابات واللجان الشعبية، العزل الإجتماعي، الاعتصامات، المظاهرات، المذكرات والدعاوي القانونية، حرب الشائعات واغتيال الشخصيات وغيرها. لم تكتف القطاعات المختلفة فقد تمت إنقلابات تم قمعها بقسوة وعنف دموي، انتظام في حرب ومواجهات عسكرية من التجمع الوطني، الحركات المسلحة في دارفور والتي شقت طريقها إلى العاصمة في غزوة جريئة والحركات المسلحة في جنوب كردفان والنيل الأزرق.

رافق هذه السياسات ظاهرتان مهمتان الأولى: انكار النظام لأي تجاوزات، انتهاكات او عنف الا تفاعلاً مع الضغط الدولي، والثانية: عدم التحقيق والمحاسبة في كل حوادث العنف المستمرة. ارتبطت هذه بفقدان "المصادقية" في النظام والتي تجلت في العزوف الشعبي في المشاركة في أي من الممارسات التي تفرض السلطة هيمنتها عليها بشكل مباشر. الظاهرة الأخرى هي فقدان "شرعية" عنف الدولة المنظم (الاجهزة الامنية) لتعددتها، سريتها والاعتماد على المليشيات. يتجلي هذا واضحاً في تسمية القوات المسلحة "جيش المؤتمر الوطني"، الامن "الرباطة" وجميع منظماتها "الكيزان".

طوال تأريخها لم تخضع القوات المسلحة لمحاسبة حقيقية عن ادائها، انتصاراتها، هزائمها، انسحاباتها او الانتهاكات التي تمت منها. دخلت القوات المسلحة حروباً داخلية متعددة وقليل جداً مع عدو خارجي، وقد دار حديث متكرر عن الاحداث التي صاحبته، لكن لم يتسرب إلى الرأي العام أي تقييم، ايجابياً او سلبياً. التحقيق الوحيد كان ما تسرب بشكل شخصي عن تقرير اللجنة التي حققت في مجزرة الضيافة 1971. لم تقم القوات المسلحة بتقديم أي تقييم موضوعي ومستقل عن احداث يوليو 1976، محاولة الراحل دكتور خليل إبراهيم في مايو 2008، حروب الجنوب الممتدة

وغيرها. ليس المطلوب مجرد رصد للاحداث لكنها ممارسة فنية وسياسية تحدد مسار القوات المسلحة وسياساتها امام الرأي العام.

### **القوات المسلحة في ربة العنف داخل البيت**

كانت اخر المواجهات العنيفة مع المستعمر معركة النهر ابان ثورة 1924، تحول بعدها الشعب السوداني إلي وسائل العمل السياسي. وعبر مؤتمر الخريجين بدأت في التشكل مساقات العمل السياسي من احزاب، نقابات عمالية ومهنية، اتحادات مزارعين، معلمين، طلاب، نساء، شباب وغيرها، أيضاً ابتدعت اشكال متنوعة من منظمات المجتمع المدني من منظمات مناطق، اندية رياضية، ثقافية، تعاونيات.. الخ.

اصبحت هذه الاشكال المعتمدة في نيل الحقوق وتعبيراتها من مذكرات، مظاهرات، اعتصامات، وسائل قانونية، حملات صحفية وغيرها. رغم انتشار العنف في الحياة السياسية السودانية والذي رصدناه في الجزء الأول من الكتاب، الا أن الحياة السياسية والمدنية على اسس سياسية وتنظيم مجتمعي كان مستقراً. أكثر اشكال العنف الدموي في السودان ارتبط بقوات العنف المنظمة خاصة القوات المسلحة والامن وشكل استدعاؤها او تدخلها أقصى درجات العنف.

العنف المفرط بدأ مع احداث الجنوب فيما اسمي "تمرد الجنوب 18 اغسطس 1955" والذي استولت فيه الفرقة الجنوبية بتوريت على مخازن السلاح واعتدت على الضباط الشماليين والمدنيين وسقط كثيرون من الجانبين. تصاعدت مشاعر الغضب والانتقام القومي وزادها اشتعالاً تضخيم الاعلام وبدلاً ان تحتوي تصريحات الحكومة الموقف زادت اشتعالاً.

سوف يحدد هذا المشهد ضلوع الجيش السوداني في مشهد العنف واعتماد الحل العسكري في حل مشكلة الجنوب على مر العصور. رغم أن الاتجاه السائد أن المجتمع السوداني وقواه المنظمة (القوات المسلحة) يتسم بالمسالمة والبعد عن العنف، الا أن اعتماد الحل العسكري في حروب الجنوب ادى إلي اصطباغ الجيش السوداني وبعده القوات المسلحة بعنف دموي، قاس وقاتل.

ينضم السودان إلي مجموعة (العراق، سوريا وليبيا) في العنف والتصفيات الداخلية، المحاكمات الصورية في اغلبها، اخفاء آثار الاعدامات والتصفيات باخفاء اماكن دفن

الضحايا، وأخيراً أنها مرتبطة دائماً بالجزء المسيس من هذه القوات. لكن كمية العنف داخل الجيش السوداني تفوق كافة مثيلاتها في الدول العربية والافريقية في تكرارها عبر الزمن. منذ تدخله في "تمرد الجنوب 18 أغسطس 1955" تحولت مهمة من حماية الوطن من التهديدات الخارجية وحماية الدستور إلي أن أصبح الجيش السوداني طرفاً في النزاعات الداخلية بشكل عميق وفاعلاً أساسياً في خرق الدستور.

سوف تناول هنا السياق العام للعنف الدموي الذي صبغ حياة السودانيين عبر قواه المنظمة، لكنني غير معني بتقديم أي تفسيرات لآحداثها فهي أصبحت جزءاً من التاريخ وتحتاج لجهد كبير من المؤسسات المعنية لسبر غورها والتحقق من مصائر ضحاياها. كانت اول مواجهه داخلية، التي انتهت عبر محاكمات كانت الاطول والأشهر في نوفمبر وديسمبر من عام 1959 (محاكمة أنقلاب علي حامد). بعد استماع طويل لدفاع الضباط عن أنفسهم، أصدرت المحكمة أحكاماً بالإعدام بلغت خمساً، بينما أصدرت أحكاماً بالسجن الطويل على عدد كبير من الضباط الآخرين.

تدخلت القوات المسلحة في الجزيرة ابا بعنف ووحشية وتم قتل المدنيين وقصفهم بالطائرات، انتظرت الاحداث يوليو 1971 لتشهد عنفاً اقصى مما سبق فقد اغتيل 29 ضابط اعزل كانوا معتقلين في بيت الضيافة، لكن من بعدها وفي محاكم اتسمت بالسرعة وعدم توفر العدالة نظمت اعدامات لقادة أنقلاب 19 يوليو 1971 من العسكريين وشملت ابرز قادة الحزب الشيوعي.

تلا ذلك أنقلاب حسن حسين في 5 أغسطس 1975 وقاده المقدم حسن حسين، شامبي وبرشم ومجموعته وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص. في الثاني من يوليو 1977 حاولت الجبهة الوطنية المعارضة وبقيادة العميد محمد نور سعد، تغيير النظام بالغزو من الخارج وتم تنفيذ المخطط بالتحرك من الحدود الليبية إلي جانب تحرك بعض المجموعات الداخلية من طلبة وجنود في الجيش. قامت القوات بقتل بعض منسوبي القوات المسلحة التي ردت بعنف وتمت تصفية المئات في شوارع الخرطوم وتم إعدام قادة الأنقلاب رمياً بالرصاص. لقد مثلت تلك الاحداث ماساة حقيقية اندهش أن المشاركين فيها (القوات المسلحة، حزب الامة، حزب الاتحادي والإخوان المسلمون) لم يفتحوا أي تحقيقات حولها في الديمقراطية الثالثة.

واجه الإنقاذ أنقلاب ابريل 1990 "عرفت تلك المحاولة بأنقلاب رمضان"، وقادها عبد القادر الكدرو وخالد الزين وآخرون، واصلت القوات المسلحة تقليدها الطويل

بالمحاكمات السريعة، الميدانية وعدم توفر العدالة وتم إعدام جميع المشاركين وعددهم 28 ضابطاً من رتبة لواء إلي ملازم أول وسجن آخرون. تمت أيضاً محاولة الاستيلاء على السلطة قامت به حركة العدل والمساواة في مايو 2008 بقيادة زعيمها الراحل دكتور خليل إبراهيم، حيث دخلت هذه القوات من تخوم دارفور إلي العاصمة السودانية وتم قتل عدد من القائمين بها وتم القبض على عدد من المشاركين وصدرت ضدهم حكم بالإعدام. ليس هناك حتى الان أي تحقيق حول هذه المحاولات، بل ان هناك صمت حتى عن اماكن دفن الجثامين لاعدامات أنقلاب ابريل 1990.

### **القوات المسلحة والعنف ضد الآخر**

نعني بالآخر هنا العنف ضد الجهات التي حملت السلاح ضد الدولة من قطاعات واجزاء الشعب السوداني. من نافلة القول ان كل التمردات وحمل السلاح هو احتجاج سياسي عنيف، لكن حله كان يكمن في الحلول السياسية. تم الزج بالقوات المسلحة في هذه النزاعات الأهلية نتيجة لفشل السياسيين في الوصول إلي حل. العنف الدموي الذي كان يلون حسم صراعاتها الداخلية انعكس أيضاً على تعاملها ضد الجهات التي حملت السلاح ضد الدولة.

من حرب الجنوب إحدى أطول وأعنف الحروب في القرن، والتي راح ضحيتها ما يقارب 1.9 مليون من المدنيين، نزوح أكثر من 4 ملايين منذ بدء الحرب، وأعلى النسب في عدد الضحايا المدنيين في أي حرب منذ الحرب العالمية الثانية، والتي ادت إلي انفصال جنوب السودان في 9 يوليو 2011، إلي احداث يوليو 1976، محاولة الراحل دكتور خليل إبراهيم في مايو 2008. منذ 2003 لم تتوقف الحرب في دارفور وازدادت قتلي، لاجئين ونازحين ما اعتبرته المحكمة الجنائية الدولية اتهاماً انها جرائم حرب وجرائم ضد الانسانية في حروب دارفور. لم تتوقف الحروب في تطورها من حروب النيل الازرق وجنوب كردفان.

يروى أن الشيخ الترابي، في أوائل العهد وفي إحدى الاجتماعات، قال إن الشعب السوداني – طال الزمن أو قصر- سوف يغير النظام الديكتاتوري، كما حدث من قبل وأن أفضل الطرق لمنع هذا هو تغيير الشعب السوداني. لقد نهجت الإنقاذ ما قاله الشيخ الترابي وتواصل استعمال الاجهزة الامنية بكافة انواعها في العنف الدموي وواصلته الإنقاذ إلي اعلى سقوف العنف المفرط والبعد عن الحرفية.

ما اضافة الإنقاذ جديداً كان خلق اجسام متعاونة واحياناً موازية من الدفاع الشعبي، المليشيات وغيرها. يتوقف السودانيون كثيراً حول لماذا استطاعت الإنقاذ وهي ديكتاتورية عادية، ليست لديها إنجازات هامة تسندها، وتتميز بالفساد وفقدت سندها السياسي المنظم أن تستمر في الحكم. ليس الغرض من السؤال التعمق في البحث فقد جادت قرائح السودانيين وتحليلاتهم (وإن كنت أرى أنها لم تتوصل لاجابات حقيقية والا كانت استطاعت الاطاحة به). الغرض هنا البحث عن أثر الإنقاذ في استمرار العنف وتجذره في الحياة السياسية السودانية.

تتماهي التنظيمات العقائدية (خاصة الإخوان المسلمين) والفاشية مع الجيش -في اغلب دول العالم- لاشتراكها في اربع خصائص.

**أولاً:** هناك قدر عال من الانضباط، السمع والطاعة والتسلسل القيادي؛

**ثانياً:** هناك قدر عال من السرية في هذه المنظمات، صحيح أن القوات المسلحة سريتها تنظيمية وشرعية لكنها غير معروفة إلا للقلة من القادة السياسيين وتمتلك اجهزة مخابراتها، تمويلها المستقل، قوانينها الخاصة.. الخ؛

**ثالثاً:** التنظيمان لايهمهما سوي تحقيق اهدافهما والتي تتمثل في الحفاظ على الامن والاستمرار في السلطة؛

**رابعاً:** هي حلقة لها تصنيفاتها الخاصة فوق المجتمعية وهناك روابط خاصة تربط بين افرادها ومن ابرزها أنها عندما تدخل المعارك فهي تحمي اطرافها. لقد نقلت الإنقاذ الدولة من أن جزءاً منها هو الطرف الذي يمتلك شرعية ممارسة العنف إلى أن الحزب اصبح يمتلك هذه الشرعية.

## **إجتثاث العنف**

عندما هتف ثوار أكتوبر أن يرجع الجيش لثكناته، كان الجيش قد استدعي للحكم ولكن كان ذلك الخطأ بعينه. فالتجربة كانت تستدعي مراجعة جيش السودان، ولا نعني هنا بالإصلاحات الفنية التي فصل فيها الكتاب العسكريون. الانقلابات أسبابها سياسية ولكن تنفيذها تقني وتتعلق بظروف تقود إلى التمرد العسكري في المجال التقني. ظل الجيش على حاله الذي تركه الاستعمار ولم تعالج الثغرات التي تنتسب منها الأفكار الانقلابية، تجميع الأنصار والتحركات. تركت معالجة العقيدة القتالية لجزء مهم من

تكوين الدولة مسلح معرض لاختراقات حزبية وإقليمية ودولية.

ترك الهيكل التنظيمي الذي يركز السلطة في يد المنظومة العسكرية، أخرجت ميزانيته من النقاش العام، وترك وزير الدفاع المدني بلا أي عمق معرفي حقيقي بما يجري في داخل هذا الجهاز. لم يتم إخضاع المؤسسات الأمنية والعسكرية لأي تغييرات هيكلية، تنظيمية وتمويلية تحد من تدخلها في الحياة السياسية ومن إمكانيات تحركها - الملاحظ أن كافة المؤسسات الموروثة من الزمن الإستعماري حافظت على بنيتها- وهذا ليس سينا في حد ذاته ولكن مع التحديث المطلوب والذي يبلغ أحيانا التغيير الكامل.

تقدم القوات المسلحة السودانية حالة نموذجية على ثبات الحال فهو رغم اقتلعه من السلطة بثورتين ظل كما هو في هياكله، تراتبيته، تنظيمه، توزيعاته بل وحتى تواجده الجغرافي في المدن الكبرى والاهم من ذلك في ردود فعله تجاه التمردات المتوقعة. لقد توغلت القوات المسلحة السودانية في بحور السياسة إلى درجة أنها دفعت كل التنظيمات الحزبية إلى المجال العسكري، خاصة في أعوام 1995-2005. فما هي عناصر الرؤية السودانية التي هناك اتفاق كبير حولها من عديد الذين كتبوا عن الحياة السياسية فيما بعد الاستقلال.

هناك ثلاث قوى من المهم وضعها في الحسبان عند التفكير في اجتثاث العنف من الحياة السياسية السودانية. إننا لن نخترع العجلة في هذا المجال وليس هذه مجرد امنيات ولكنها تعبر عن نفسها في ضيق السودانين سواء الشعب العادي، حاملي السلاح، الاحزاب حتى اطراف عديدة من السلطة من السايحين، الإنقاذ، قوش والاصلاحيين واصحاب المذكرات. إننا هنا نتحدث عن أكثر من نصف قرن من العنف الدموي، الاحتراب والقتل.

### **أولاً: القوات المسلحة والقوى الامنية الأخرى**

القوات المسلحة هي صاحبة الحق الشرعي في استعمال العنف لحماية الوطن. إن هذه القوات لابد أن تعود إلى الاحتراف، القومية والكفاءة. لقد تدخلت القوات المسلحة بما يكفي لتعرف انها ليست مهيأة للسياسة والحكم. لقد دفعت ثمناً غالياً من دم ابنائها ودماً أكثر من دماء شعبها. هذه ليست بالنزهة، ففوات اعتادت على الحكم طوال نصف قرن تحتاج لجهد الكثير من ابنائها لتعيدها منظمة وطنية. لقد فقدت القوات المسلحة في

خلال هذه الفترة الطويلة تقاليداً الراسخة، عقيدتها القتالية، تدنت كفاءتها، قلت مهارتها وتداعت امكاناتها. رفع الكفاءة واعادة التاهيل والتدريب ليس مجرد برامج تقنية ولكنه المدخل الأول لاعادة جاهزية هذه القوات واستعادة دورها الوطني. التجارب عديدة ومتنوعة لكنها كلها تقوم على مبدأ حيادية واستقلال هذه الاجهزة. القوانين التي تحكم هذه الاجهزة هي التي تنظم هذه الاستقلالية وتضمن تطهيرها الذاتي من كافة المؤثرات السياسية والاجتماعية.

**أولاً:** إن البداية لابد أن تكون بمراجعة تأريخ ومستقبل المؤسسة العسكرية والأجهزة الأمنية، بقصد التعمق في الأسباب الذي قادتنا إلى هذا المصير وذلك عن طريق حوار ونقاش شفاف، منظم وحقيقي يشارك فيه كافة الأطراف بما فيها الضباط والجنود، وتلمس متطلبات ومشاكل وقضايا هذه المؤسسة والوصول لاتفاقات حول الإطارات الأخلاقية، القانونية، الإدارية، التقنية والبحثية. مهام القوات المسلحة بموجب قوانينه القديمة أو قانون القوات المسلحة لسنة 1999 أو 2007 تنحصر في حماية سيادة البلاد والدفاع عن النظام الدستوري والذود عنه، تأمين سلامة البلاد والدفاع عنها في مواجهة التهديدات الخارجية. المشكلة ان القوات المسلحة تقوم بمهام أخرى في النزاعات الداخلية. هذه قضية تحتاج إلى دراسة وبحث حول كيفية التعامل مع هذه النزاعات والقتال الأهلي.

**ثانياً:** معظم الجيوش العصرية في الدول الديمقراطية للدول المتقدمة والتي تسير في طريق التقدم حولت القوات المسلحة من نظام الاحتراف الكامل لكافة أفرادها، إلى جيش محدود العدد مبني على التكنولوجيا والتقنية الحديثة ونظام الاحتياط عند الحاجة، مسئول عن حماية ترابه ودستوره ويمنع اشتغاله بأي سياسة أو العمل المدني أو الخدمي. إن دخول القوات المسلحة السودانية، الشرطة والامن في الأنشطة الاقتصادية يمكن القبول به تحت شروط ومعايير دقيقة ترتبط بتسليحها، توفير احتياجات عملها ولكن دخول اجهزة الأمن في الأنشطة الاقتصادية التجارية فريد في دولنا العربية وهي ضارة بحيادها وهناك تضارب مصالح شديد فيها.

**ثالثاً:** بناء القوات المسلحة وكافة الاجهزة الامنية جزء من بناء المؤسسات المحايدة عن النشاط الحزبي، ذات الاستقلال النسبي عن طريق قوانين ومعايير تنظم عملها من استيعاب منتسبيها، وسائل التدريب، نظم الإدارة، الترقى والاستبعاد، المحاسبة



والمراقبة والتطهير الذاتي.

**رابعاً:** ربما أكثر من القوات المسلحة السوداني فان الشرطة تحتاج لمراجعة شاملة بدأ من أوضاعها المعيشية، كفاءتها التقنية، ظروف عملها، تدريبها وعلاقتها بالشعب وقوانينها واحترامه لحقوق الإنسان لاسترداد الثقة المفقودة، تنظيفها من الفساد والالتزام بالسلوك والتعامل الراقى وإرجاعها من الدور العقابي والأمني والتجسسي إلي دورها الخدمي والحمائي.

**خامساً:** تحول دور أجهزة الأمن الوطني من دورها في جمع المعلومات عن المهددات الخارجية (المهددات الداخلية من المفترض أن تباشرها المباحث الجنائية التابعة للشرطة)، إلي تسيير دولاب الدولة نفسها فهو يراقب الصحف ويوقفها ويعطلها، يعتقل المواطنين بلا قواعد أو مسائل قضائية وبدون إبداء الأسباب، يمنع من السفر، يمارس الاعتقال بدون مسوغات قانونية، يمارس التعذيب، الاغتصاب والقتل... الخ. حلت جميع الثورات العربية هذا الجهاز وأنشأت بديلاً له. لقد جربنا هذا ما بعد الانتفاضة ولم تتجح التجربة. إن مدخلنا في إعادة التأسيس تكمن في النظر إلي هذه المؤسسات كأنظمة أولاً ثم الأفراد. إن الإصلاح المؤسسي في كافة قطاعات الدولة هي في القوانين، الصلاحيات، المسؤولية (النزاهة والاستقامة) والمحاسبة وليس في حسن الأفراد أو سوءهم.

## **ثانياً: القوات المسلحة غير الشرعية**

اتحدث هنا عن الدفاع الشعبي، المليشيات والجهزة الأخرى المسلحة. معالجة المليشيات، المجموعات المسلحة والحركات المسلحة قضايا كبرى تنتظر المراجعة والدراسة المتأنية، للأسباب التي قادت لقيامها سواء الموضوعي منها والحزبي وإيجاد الحلول لدواعيها، لأن قضاياها ليست كلها مصطنعة ولكنها جزء من توزيع الموارد ومساائل حياة أو موت. سوف تواجه أي سلطة إنتقالية هذا الكم الهائل من المجموعات المدربة وبعضها مسلح. الموقف المبدئي هو تحريم وتجريم هذه المنظمات واجتثاثها بالكامل من الحياة السودانية. لكن دأبت الأنظمة المختلفة النظر لهؤلاء من منظور تسليم السلاح (هناك تراث كامل وتفصيلي عن كيفية جمع الاسلحة).

هناك خبرات متنوعة في حل هذه القضايا بطريقة شمولية. نفرز بين من ارتكب الجرائم وبين من هم في الغالب ضحايا اوضاع متباينة ويجب تحديدهم، تصنيفهم، اخضاع من يحتاجون للتأهيل النفسي، استيعابهم حسب القوانين في الاجهزة الرسمية وتوفير الحياة الكريمة لهم. جزء من المعالجة ينطلق من تكوين القوات المسلحة نفسها والذي يعكس بجلاء هيمنة جزء قليل من العناصر الشمالية والوسط على قطاع الضباط وتكوين العدد الأكبر من الجنود من المناطق المهشمة. هذا لم يعد ممكناً، محتملاً أو قادراً على التبرير. القوات المسلحة السودانية مؤسسة قومية ويجب أن يتم تكوينها بمعايير صارمة واعتماد الكفاءة.

### ثالثاً: الحركات المسلحة

عند انتهاء الحرب والصراعات سيطر على المشهد السياسي محاربون قضوا سنوات في قيادة حركات مسلحة، مشاغلاً ومسؤولياتها مختلفة عن إدارة الدولة. أن هذه الحركات سوف تكون مضطرة للتحويل لمنظمات سياسية ويحتاج اعضاؤها للتأهيل النفسي (لقد توفر تراث انساني عظيم منذ الحرب العالمية الأولى و/الثانية، حروب فيتنام وغيرها حول التأثيرات النفسية والاجتماعية للحروب، الاعتقال والتعذيب وكيفية التأهيل منها)، التدريب السياسي (نمتلك ذخيرة كبرى من منظمات خيرة قامت بمثل هذا العمل بعد نيفاشا وتقوم به في دارفور الآن) والمهارات الاجتماعية.

إعادة الاستيعاب عملية جدية واولوية، ولنا في تجاربنا السابقة سواء بعد اتفاق اديس ابابا 1972، المجموعات المقاتلة في يوليو 1976، حركات دارفور المنضوية تحت اتفاق الدوحة وغيرها. إن التساهل أو التجاهل في هذا الامر روشة لإعادة النزاعات. هذه مسئولية الدولة وليست الحركات وتحتاج لحلول شاملة واعادتهم إلي الحياة الطبيعية كمواطنين منتجين في مختلف قوس قزح الحياة.

### سودان بلا سلاح خارج الاطر الامنية

انتشر السلاح في السودان بشكل لم يسبق له مثيل، من الدفاع الشعبي، الحركات المسلحة، الميليشيات الحكومية والقبلية، عصابات النهب المسلح وغيرها. يتسرب السلاح من مصادر متعددة ومتنوعة. هناك تراث كامل وتفصيلي عن كيفية جمع

الاسلحة، وخبرات متنوعة في حل هذه القضايا بطريقة شمولية. بعضها يحتاج لاجراءات سياسية واتفاقات تبدأ من السلام، استيعاب القوات وغيرها، الآخر يحتاج لقرارات وتطبيق قوانين معايير حيازة الاسلحة وكلها تحتاج لنشر الشعور العام بعودة الامن والطمأنينة إلي الشارع السوداني<sup>177</sup>.

لقد اعتدنا من الفرقاء، العقداء والعمداء القفز من الثكنة وساحات القتال إلي كرسي الرئاسة، كذلك قفز القادة من الغابة او القفار الصحراوية إلي مقاعد السلطة كل هذا بدون تدريب او تأهيل سياسي. لقد احتاج كل هؤلاء لسنوات طويلة لاكتساب مهارات الحكم والتعامل مع السياسة، وكثير منهم فاشل في ادائها. هناك مكتبة ضخمة في صنوف التدريب، صقل المهارات والتأهيل لابد ان يخضعوا لها.

لقد اختارتهم منظماتهم او حركاتهم لصفاتهم القيادية، لكن ليس منها أنهم يمتلكون صفات القائد السياسي للوطن. لقد اعتدنا في الحياة السياسية السودانية على الايمان أن الممارسة (غير القائمة على أي معطيات علمية) هي التي تصنع السياسي، ويجدر بنا أن نعترف بمقولة أن مساعد الطبيب لن يصبح طبيباً مهما طالّت مدة الممارسة. للسياسة الحديثة معارف، مهارات ومواقف تدرس، ولمن اراد أن يحكم وطناً في أي موقع سياسي أن يتواضع في مقاعد التدريب والتأهيل.

## التأهيل النفسي

لم يعد التأثير الذي تسببه الحروب، الاعتقالات والتعذيب مجرد اطروحات فقد دعمتها دراسات متنوعة وعديدة من السودان وخارجة. إن من تعرضوا إلي انتهاكات جسدية ونفسية خلال فترة الحروب، اعتقالهم، او تعذيبهم بحاجة إلي المساعدة على تحرير أنفسهم من كل الأعراض النفسية والشعور بالذنب. ويشكل الإرشاد الإجتماعي ضرورة ملحة وجزءاً من العلاج الذي يجب أن لا يقتصر فقط على الضحايا ، بل يجب أن يشمل أيضاً جميع أفراد عائلاتهم، ويكون هدف العلاج هو إعادة بناء شخصية الناجين بحيث يصبحون قادرين من جديد على متابعة حياتهم الطبيعية<sup>178</sup>.

<sup>177</sup> التقييم الأساسي للأمن البشري في السودان : تقرير السودان ، العدد 15 ديسمبر 2009 ، <http://www.smallarmssurveysudan.org>

<sup>178</sup> العمل لمعالجة ضحايا التعذيب... الدنمارك مثالا، <http://www.alwasatnews.com/2243/news/read/21041/1.html>

لقد تجذر هذا بإنشاء "المجموعة السودانية لضحايا التعذيب" إلى حركة وتيار داخل عصب الحياة السودانية المتنوعة لهزيمة ثقافة العنف والتعذيب ونشر ثقافة السلام والمحبة والخير "في عام 1993 انعقد أول اجتماع للمجموعة بالقاهرة لتداول هذه الفكرة وتجسيدها على أرض الواقع... وخلالها تم الاتفاق على تكوين جسم قوي وفعال لمناهضة التعذيب ومساعدة ضحاياه واسرهم وتوثيق حالات التعذيب وملاحقة مرتكبيه بغرض تقديمهم للمحاكمة العادلة وفي سبيل ذلك تم تصميم استمارة بحث الحالة بمساعدة مركز النديم وهو مركز مصرى متخصص في مجال التأهيل وإعادة التأهيل لضحايا العنف والتعذيب"<sup>179</sup>.

#### رابعاً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: محو الأمية وتعليم الكبار

حق الإنسان في العلم والتعليم تكفله كل المعاهدات الدولية. ولا يجب التغاضي عن قضية الأمية لأنها تعني أن الأجيال القادمة ستستمر في حالة من الجهل والفقر والعديد من أسباب التخلف. فالدول تتقدم بمدى تحصيل مواطنيها من التعليم، وتضييق الخناق على الأمية ضروري، ولكن هذا الأمر بات خارج الرؤية العالمية والمنظمات الراعية لمكافحة الأمية بما يكفل عدم ازدياد الجهل، الذي هو أحد أسباب الفقر، فمكافحته تحتاج إلى دراسات وبرامج وأسس ومناهج تعليم تقوم كل عامين على الأقل، فالمؤتمرات والاجتماعات لا تؤدي إلى حلول جذرية<sup>180</sup>.

تناولت مروة التجاني في مقال حول الأمية.. "إن الإحصائيات تدل على وجود 3 ملايين) من الأطفال والشباب خارج فصول التعليم، وإن المناهج المتبعة حالياً لتعليم الكبار هي منهج الأساس والتكميلي الذي يشمل اللغة العربية والرياضيات والتربية الإسلامية، وأكدت أن الدعم المادي هو العائق الوحيد الذي يقف في وجه محو الأمية بالسودان، حيث يحتاج المعلم إلى كتاب مدرسي وبيئة مؤهلة، ولا يجدهما"<sup>181</sup>.

معدلات الأمية مرتفعة في كل من المناطق الريفية والحضرية في السودان وكذلك الحال فيما بين الولايات. الأمية في المناطق الريفية تتراوح ما بين 69.1% في شمال

<sup>179</sup> <https://alnadeem.org/ar>

<sup>180</sup> اليوم العالمي لمحو الأمية، <http://www.alwatan.com.sa/Articles/Detail.aspx?ArticleID=13417>

<sup>181</sup> مروة التجاني: الأمية.. عقبة كؤود في طريق التنمية الشاملة، 2012/09/22 ، <http://almeghar.com/permalink/5446.html>

كردفان و30.7% في الولاية الشمالية، بينما تتراوح معدلاتها في المناطق الحضرية ما بين 30.5% في ولاية غرب دارفور و20.4% في ولاية النيل الأبيض. حتى على مستوى ولاية الخرطوم، التي تعتبر الأفضل نسبياً، فإن معدلات الأمية هي 43.5% و21.2% في كل من المناطق الريفية والحضرية على التوالي. وفي المجمل تبلغ الامية (42-50%) للرجال بينما ترتفع لدي النساء إلى أكثر من (60%).

في عام 1944م كانت بداية تجربة تعليم الكبار بقرية أم جر كأول تجربة في السودان. وقد أثبتت التجربة نجاحها مما جعل وزارة المعارف تخصص في عام 1952م إدارة خاصة لتعليم الكبار. واستمر التطور الإداري حتى قام المجلس القومي لمحو الأمية وتعليم الكبار عام 1971م بإدارة تحت إشراف مجلس الوزراء وبرئاسة وزير التعليم العام. وكعادة كل المؤسسات فقد ترحل من اسم إلى اسم ووظيفة إلى وظيفة.

أعدت لجان عربية وثيقة "نحو إستراتيجية عربية مقترحة لمواجهة مشكلة الأمية مستقبلاً في الوطن العربي" قدمت إلى مؤتمر الإسكندرية الثالث 1976 الذي عقد في بغداد. وأصبحت هذه الوثيقة سياسة معتمدة لكل الدول العربية سنة 1978، تهدف إلى تحرير الإنسان العربي من الأمية الأبجدية والأمية الحضارية معاً وفي آن واحد. وقدرت المدة الزمنية اللازمة لتطبيقها (15) سنة. وفي السودان بدأت الخطة الشاملة لمحو الأمية سنة 1985 وكانت نسبة الأمية فيه 44% من سكانه<sup>182</sup>.

شارك السودان في كافة اجتماعات اليونسكو، وعضو في كافة اللجان العالمية والاقليمية، ويحضر مندوبوها كافة الاجتماعات ويوقعون على كافة الاعلانات والخطط. الخ، اخرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، بالتعاون مع مكتب اليونسكو الإقليمي في الدوحة، وبالتنسيق مع اللجنة الوطنية السودانية للتربية والعلم والثقافة، والتي عقدت اجتماعاً إقليمياً للخبراء حول توفير الموارد لتمويل محو الأمية وتعليم الكبار، في الخرطوم خلال الفترة من 27 إلى 30 ديسمبر 2012<sup>183</sup>. كل هذه الاجتماعات حبر على ورق لم ينتج لنا الا زيادة الامية. التجارب العالمية متوفرة وقديمة من كوبا إلى السعودية التي قامت بخفض الأمية من

<sup>182</sup> د. علي محافظة: العرب وتحديات القرن الحادي والعشرين «9» التحديات الاجتماعية: الأمية\*، جريدة الستور الاردنية، 2009-03-29، <http://www.addustour.com>

<sup>183</sup> هدى زكريا: اجتماع خبراء "الإيسيسكو" في الخرطوم لمواجهة محو الأمية، 25 ديسمبر 2010، <http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=324239>

60% في عام 1972 إلى نسبة متدنية بلغت 4% عام 2012.

ان الامة عار على الوطن، وسيحس الناس بعار النسبة العالية للامية في السودان إذا قارنوها بكثير من الدول الأقل شأنًا وإمكانيات عن السودان، وبعضها كان نسيًا منسيًا حين ابتدأت مسيرة التعليم في السودان: "إن الدولة غير جادة في هذه المسألة، حيث كان معلوم محو الأمية جزءاً مهماً من موظفي الدولة، يحصلون على رواتب منتظمة، أما الآن فلا توجد مثل هكذا خدمات، بل لا تتوفر لهم أبسط معينات العمل، وصارت الحكومة تعتمد على طلاب الخدمة الإلزامية وهم غير مؤهلين لهكذا وظيفة حساسة ومهمة". يمتلك السودان خبرة واسعة وعلماء في المجال: "برامج محو الأمية ارتبطت بدول العالم الثالث من بينها السودان، ومن أشهر التربويين في هذا المجال المرحوم الأستاذ "سر الختم الخليفة"، وأخيراً الدكتور "قرمبع" صاحب إحدى أعظم الدراسات في محو الأمية بالسودان"<sup>184</sup>.

لقد دعا فيصل محمد صالح إلى برنامج وطني لمحو الأمية نعتقد أنه ملح وعاجل "من المؤسف أن أحزابنا السياسية لم تلتفت لهذا الجانب المهم، ولم تطرح مشروعاً وطنياً لمحو الأمية تلعب فيه الأحزاب والمنظمات المدنية الفئوية والجماعية دوراً كبيراً، بجانب المؤسسات الحكومية المعنية بالأمر. المواطن الأمي لن يكون رقماً فاعلاً في أي عملية ديمقراطية، بل ربما لا يكون جزءاً منها، وهو فاقد انتخابي ديمقراطي جدير ببذل الجهد لإعادته لساحة الممارسة الديمقراطية مسلحاً بالقدرة على الاختيار. فلنتضافر الجهود نحو صياغة خطة وطنية لمحو الأمية تلعب فيها كل الجهات المهمة، حكومية كانت أو أهلية، دوراً، ولنبتدئ من أي نقطة، لا يهم من أين؛ بل المهم أن نبتدئ"<sup>185</sup>.

#### خامساً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: قضية البطالة

اعدت الامانة العامة للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب دراسة ممتازة عن البطالة في العالم العربي، شملت البطالة في السودان وسوف نستعين بها في التعامل مع الارقام ومحاولة التعرف على جذور المشكلة. طبقاً لمنظمة العمل الدولية فإن العاطل هو "كل قادر على العمل وراغب فيه، ويبحث عنه، ويقبله عند مستوى الأجر

<sup>184</sup> مروة التجاني: الأمية.. عقبة كؤود في طريق التنمية الشاملة، مرجع سابق  
<sup>185</sup> فيصل محمد صالح: برنامج وطني لمحو الأمية، <http://www.alrakoba.net>

السائد، ولكن دون جدوى". وتعد البطالة السبب الأول لتفشي ظاهرة الفقر في العالم العربي، وينتج عنها آفات إجتماعية خطيرة تهدد أمن المجتمعات العربية. ولعل من أهم الأسباب لما نشهده حالياً من انتفاضات وثورات في الدول العربية منبعه تفشي البطالة وارتفاع نسب الفقر مما أدى إلي زعزعة الاستقرار الإجتماعي وأسس لثورات الشباب. إن البطالة تتراوح نسبتها بين 15-20 % في العالم العربي مقابل 6-9 % عالمياً<sup>186</sup>.

### حجم البطالة في السودان

أشار تقرير أعدته لجنة البطالة التابعة للجنة الإختيار للخدمة العامة الاتحادية السودانية إلي ارتفاع معدلات البطالة في السودان إلي 19% وفق لإحصاءات سنة 2009. كما أشار التقرير إلي تراجع فرص العمل في القطاعين العام والخاص وشدد على أن التوظيف الحكومي يعتبر حلاً جزئياً للمشكلة لمحدودية القدرة الإستيعابية لهذا القطاع، وحث التقرير على ضرورة الإستمرار في تمويل مشروعات الإستخدام الذاتي لخريجي الدراسات النظرية.

ووفقاً للجنة الاختيار القومية في السودان فقد زاد معدل البطالة وسط الخريجين من الجامعات، إذ بلغت تقديرات البطالة لذوي المؤهلات العليا 48.7% بنسبة 59% للإناث و41% للذكور، بينما بلغت في الحضر 51.9% ووسط الشباب 28.3%. بلغ معدل البطالة للولايات الشمالية 19%. كما بلغ عدد الخريجين العاطلين 70.222 خريجاً، وهو ما يؤكد ضعف القدرات وعدم ربط الانتاج بحاجة السوق.

تشير البيانات السرية "الرسمية" عن البطالة في السودان، كما جاء في دراسة الامانة العامة للاتحاد الدولي لنقابات العمال العربية، إلي وجود مليونين وستمائة وسبعين ألف تقريباً (2.670.000) عاطل عن العمل داخل ولاية الخرطوم من فئة الشباب ما بين 18 إلي 35 عاماً. البيانات والمعلومات الحقيقية عن حجم البطالة تشكل مصدر ازعاج كبير للحكومة، لذلك ظلت الحكومة تحجب هذه البيانات عن الأجهزة التابعة للأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية. توضح الإحصاءات أن أغلب هؤلاء قد أدى بشكل

<sup>186</sup> الامانة العامة للاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب : دراسة حول البطالة في الوطن العربي  
www.icasu56.org/to%20add/council3/7/1.doc

ما خدمة عسكرية مثل الدفاع الشعبي أو الشرطة الشعبية والخدمة الإلزامية، وعادوا إلى حياة المدنية والبطالة. وتبلغ نسبة هؤلاء 30%، جميعهم يجيدون استخدام السلاح وهذا ما يخيف المنظمات الدولية المهتمة بالتنمية البشرية والسكانية.

### جذور البطالة في السودان

البطالة ظاهرة إقتصادية بدأ ظهورها بشكل ملموس مع إزدهار الصناعة، إذ لم يكن للبطالة معنى في المجتمعات الريفية التقليدية. في العهد الاستعماري والعقدين الذين تليا حتى منتصف السبعينات، كان الاقتصاد السوداني انتاجياً، سواء في مناطق الزراعة الحديثة أو القطاع التقليدي والتي كانت تستطيع استيعاب عمالة كثيفة. منذ منتصف السبعينات، مع ارتفاع أسعار النفط أربعة أضعاف ما كانت عليه، والسياسات التي فرضها صندوق النقد الدولي، خرجت الدولة من الخدمات، قل ضخ الاموال، الإستثمارات في النشاط الإقتصادي الحقيقي الانتاجي وسياسات الاقتراض، وتغير دور الدولة من خلق الثروات إلى مراكمة افراد النظام للثروات.

منذ منتصف السبعينات بدأت آليات صناعة البطالة والتي ارتبطت بموجات الفقر التي سنتناولها لاحقاً. وقد تفاعلت ظروف طبيعية من بدء موجات الجفاف التي ضربت انحاء واسعة من القطر، الهجرات الواسعة إلى دول البترول والتي شملت القوى العاملة المدربة والمكلفة وغيرها، لكن الاسباب العميقة كانت في إدارة الشأن العام من توجهات وسياسات.

جاءت سياسات الصندوق والبنك الدولي في جوهر هذه العملية، الانتقال إلى اقتصاد السوق، لكن هذه لم تكن المعضلة فقد تمت في دول كثيرة رأيناها في العالم واستطاعت بفضل سياساتها الحكيمة، الرؤية الصائبة، حل قضايا التفاوت الطبقي، المناطق والعرق وتحسين آليات التوزيع لتقوم على المساواة والعدالة. لكن عندما طبقت في السودان جاءت مدمرة ووحشية.

طوال السبعينات تنامي إهمال المشاريع الانتاجية الزراعية، زيادة التصحر وإفقار التربة نتاج التوسع بالممارسات الضارة في الزراعة الآلية وتدمير البني الأساسية من وسائل النقل بالسكة الحديد والنقل النهري. ترافق هذا مع سوء إدارة وفساد عام.



اعتمدت عائدات الدولة منذ تلك الفترة على تصدير بعض المواد الزراعية، الجبائية المتصاعدة من السكان الفقراء، عائدات المغتربين التي أصبحت المورد الاساسي للرزق واخيرا الاقتراض من الخارج والذي سنناقشه لاحقا.

عندما فرض الصندوق والبنك الدولييين سياسات وبرامج التثبيت الهيكلي للتحويل من اقتصاد موجه إلي سياسات السوق الحرة، فعلت ذلك في ظل وضع متناقض. فمن ناحية فرضت على الدولة تبني سياسات الحرية الإقتصادية ومن الناحية الأخرى لم تكثرث، كما تفعل في معظم البلدان التي تملي عليها هذه السياسات، أن تدفع الدولة لتبني الحريات السياسية. من واقع الملاحظات العامة من تجربة عشرة اعوام موظفاً في منظمة الصحة العالمية والدراسات المتعددة التي اجريت، أن نرى أن منظمات بريتون وودز، هيئات الامم المتحدة العامة والمتخصصة تعمل بشكل افضل لها في ظل غياب الحرية السياسية. فنفوذها ووسائل ضغطها السياسية والمادية تصلح مع بيرقراطية الدولة المستبدة ومع غياب الارادة الشعبية. إن لهذا جانباً مهماً في إقتصاديات هذه المنظمات فهي تعتاش على الضريبة التي تتقاضاها من تخصيص الاموال (13% في حالة منظمة الصحة العالمية).

لقد عشت هذه التجربة كاملة عندما اشرفت على الملفات الساخنة في فترة من عملي مع المنظمة في افغانستان، العراق والسودان حيث ازدهرت أنشطة المنظمات نتيجة لضخ اموال المانحين. وليس ببعيد تضخم اجهزة الامم المتحدة كلها اiban برنامج النفط من اجل الغذاء العراقي (1992-2003) وما رافقها من اتهامات للامم المتحدة بالتلاعب في هذه الاموال. إن سياسات الصندوق والبنك تهدف إلي تدمير النسيج الإقتصادي للعالم الثالث لحل أزمة المركز، من خلال سياسات التقويم الهيكلي والمديونية التي من نتائجها تفكيك صناعات العالم الثالث وتحويلها لمستهلك لمنتجات الدول الصناعية. فكيف تم ذلك في الحقبة النميرية وتطور إلي دولة الإنقاذ وماهي اثرها على البطالة وانتشارها؟

أولاً: عند تحول الدولة إلي السوق الحر في الظروف التي اوضحناها ارتبط ذلك بتخلي الدولة عن دورها الإقتصادي والإجتماعي، وفيما يخص موضوع البطالة تتصلت الدولة من التزامها بتعيين خريجي الجامعات، مما أدى إلي زيادة كبيرة في أعداد العاطلين عن العمل من هذه الشريحة الكبيرة في المجتمع. تخلي الدولة عن

التعليم أدى إلي الضعف في التأهيل للعمل في بعض التخصصات المطلوبة. تم فتح السوق على مصراعيه امام المنتجات المستوردة مما أدى إلي إفلاس المشاريع الصغيرة والمهن الحرة أو انخفاض مردودها نتيجة المنافسة.

**ثانياً:** فرض برنامج التثبيت الهيكلي التي صممها صندوق النقد الدولي بشكل معمم على بلدان العالم الثالث، تخفيض العمالة وتثبيت الاجور. وفي ظل غياب قوانين رقابية فعالة جعلها في ايدي قوى السوق نفسها. الخصخصة التي تمت بعد ذلك، سواء في الحقبة النميرية او الإنقاذ، كانت لها إسقاطات مدمرة على الصعيد الإجتماعي، بسبب مجموعة من العوامل: سوء الإدارة الإقتصادية، نقص الخبرة، إنعدام الكفاءة في مجال الخصخصة وتدخل عنصر المحسوبيات بشكل سيء، ما أدى إلي فقدان مئات الآلاف من الكوادر لمصادر رزقهم من دون تحضير البدائل .

**ثالثاً:** لم يرافق التحول إلي الليبرالية الإقتصادية أي دفع للدولة لإحلال الليبرالية السياسية وبناء دولة القانون. إن غياب الحريات العامة أدى إلي إضعاف قوى المجتمع المدني التي تلعب دوراً رقابياً مهماً، حرمان العمال من تشكيل تنظيمااتهم النقابية الحقيقية، منع التظاهر والإضراب،....الخ. أدى هذا إلي تقوية تحكم أرباب العمل بشروط العمل و زيادة أعداد العاطلين عن العمل، فعلى سبيل المثال يتم تقليص أعداد العاملين في القطاع الخاص بعدة طرق: منها زيادة عدد ساعات العمل وفصل العمال. وفي نفس الوقت - وهو ما يبدو أنه مفارقة مع النقطة السابقة- فإن هيمنة القوانين الاستثنائية لم يشجع الكثير من رؤوس الأموال ومنها المهاجرة على الإستثمار، وبالتالي خلق فرص عمل جديدة. إن غياب العدالة الإجتماعية من برامج تنشيط النمو الإقتصادي والتوزيع العادل لفوائد النمو، وتأمين رفاهية الأجيال الحالية من دون أن تُضرَ برفاهية الأجيال القادمة أدى أن صار هذا البرنامج وبالاً على السكان.

**رابعاً:** ترافق هذا من بداية نمو المؤسسة الافضل نمواً في السودان، مؤسسة الفساد. إن آثار الفساد تؤثر سلباً على النمو الإقتصادي وذلك بإبطاء تطوير البنية التحتية، زيادة تكاليف الأعمال وتحرم الشعب من المشاركة في الثروة المكتسبة من الموارد. إن آليات الفساد تتمثل في غموض الصفقات، استغلال البرقراطية لمناصبها في منح الاعمال بالتخصيص عن طريق التراضي، انتشار مظاهر الاختلاس، السرقة والابتزاز في المال العام... وغيرها من الاحابيل. إن انتشار الفساد في أجهزة الدولة

ومؤسساتها لا ينحصر تأثيره في نهب أموال الدولة ومواردها، عدم التوزيع العادل للثروة، بل إن الأخطر من ذلك هو فساد أصحاب القرارات وواضعي السياسات، وتحولهم إلى شريحة بيروقراطية لها مصالحها المشتركة التي غالباً ما تتناقض مع مصالح غالبية الشعب.

حلول الصندوق والبنك ترى رفع وتيرة النمو الإقتصادي بشكل يمكن من خلق اعمال، والتي في ظل الرأسمالية المعولمة يمكنها تحقيق النمو دون خلق فرص الشغل، خفض تكلفة العمل أي تخفيض الأجور بشكل يخفض تكلفة الإنتاج ويرفع القدرة على المنافسة وتحقيق الأرباح، تغيير شروط سوق العمل بحذف الحد الأدنى للأجور، خفض تحميلات التغطية الإجتماعية والضرائب، تقليص أو حذف التعويض عن البطالة العمل والمرونة في الأجور وساعات العمل.

اتجاه ثاني اتبعته التجارب الناجحة ويرى للخروج من أزمة البطالة ضرورة تدخل الدولة لضبط الفوضى الاقتصادية والتوازن الاجتماعي (عبرت عنه دولة الرفاه الاجتماعي في الغرب) ودول الرؤية من إعادة هيكلة الاقتصاد على قاعدة تلبية الحاجيات الأساسية لكل السكان، تدريب وتأهيل القوى العاملة واثاحة المعرفة التقنية، تدريب وتأهيل الفتيات وازالة كافة اشكال التمييز.

### **سادساً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: قضية الديون**

تناول كتاب الإمام الصادق المهدي الديمقراطية في السودان عائدة راجحة، الدين الخارجي وكيف تراكم على مر السنوات والثقوب الاسود الذي ابتلعها. كما قدم الإمام رؤية واضحة حول كيف يتم التعامل مع هذا الدين في نظام ديمقراطي<sup>187</sup> "بعد أن بطش نظام النميري بالحزب الشيوعي السوداني في عام 1971م حظي بشهر عسل مع البلاد الغربية. فأتيحت له فرص إقتراض من دول ومؤسسات غربية بحجم كبير ولأسباب سياسية. لم تراع تلك الدول والمؤسسات ضوابط الجدوى المعهودة في مثل هذه الحالات... حيث اقترض السودان بدوره يومئذ من 155 مصراً. هذه القروض لم تراع الضوابط التجارية المعهودة بل كان أكثرها تنقصه الوثائق القانونية

<sup>187</sup> الإمام الصادق المهدي: الديمقراطية في السودان عائدة راجحة، [http://www.umma.org/\\_id=238](http://www.umma.org/_id=238)

المطلوبة. هكذا تراكم على السودان قروض حجمها 10 بليون دولار تزيدها الفوائد "المستحقة" عليها حوالي بليون دولار كل عام. وهذه واحدة من أسوأ ترككات النظام المايوي. تراكمت هذه الديون بزياداتها السنوية حتى بلغت 14 بليون وسوف تتضخم هذه الديون بحوالي بليون دولار كل عام إلي أن يتم وضع حد لهذه الدوامة".

رصد مدني محمد أحمد- استاذ إقتصاديات التنمية جامعة الخرطوم، في دراسة موثقة حول الدين الخارجي افضل معين لنا أن نسبر غور الديون بعد مجيء الإنقاذ عام 1989. حتى بداية السبعينات لم يواجه السودان أي مشاكل خطيرة من المديونية الخارجية على الإطلاق. لكنه اوضح لنا بجلاء أن المبالغ الحقيقية التي استلمتها الحكومة من هذه الديون، والتي زادت عن 24 مليار دولار منذ 2000 إلي حوالي 43 مليار دولار عام 2013 (يعتبر السودان من اكبر الدائنين في العالم)، تبلغ حوالي 46% - 51% حسب السنة والجزء الآخر هي فوائد الديون وعقوبات عدم الدفع والذي تميز به النظامان<sup>188</sup>.

### من المستفيد من هذه الديون: مؤسسة الفساد

يوافق كثير من الباحثين، أن في البيئة العربية السياسية والإدارية ما يساعد على انتشار الفساد وازدهاره، وصعوبة الالتزام بأي درجة معقولة من الشفافية في معظم البلدان. حصر أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة، د. محمود عبدالفضيل، أهم مكونات "اقتصاد الفساد" في العالم العربي على النحو التالي: تخصيص الأراضي، إعادة تدوير أموال المعونات الأجنبية للجيوب الخاصة، حيث تشير بعض التقديرات إلي أن أكثر من 30% منها لا تدخل خزانة الدولة، "قروض المجاملة" التي تمنحها المصارف من دون ضمانات جدية لكبار رجال الأعمال المتصلين بمراكز النفوذ، عمولات عقود البنية التحتية وصفقات السلاح والعمولات والأتاوات التي يتم الحصول عليها بحكم المنصب أو الاتجار بالوظيفة العامة<sup>189</sup>.

188 Medani Mohmed Ahmed: External Debts, Growth and Peace in the Sudan. Some Serious Challenges

Facing the Country in the Post-Conflict era

189 خليل علي حيدر: العرب والمحاور الثلاثة لمحاربة الفساد،

[http://www.siiironline.org/alabwab/derasat\(01\)/325.htm](http://www.siiironline.org/alabwab/derasat(01)/325.htm)

وهذا ما يؤكد الإقتصادي والصحافي الأردني أ. فهد الفاتك في مقارنة بين أوضاعنا وأوضاع الغرب قائلاً "الفرق بين فسادنا وفسادهم أن معظم فسادنا يتم سراً، ومعظم فسادهم يتم علناً... فسادهم العلني يمكن مكافحته عن طريق حرية النقد ونشاط المعارضة السياسية، وفسادنا السري يمكن مكافحته عن طريق العمل الاستخباري... الفساد عندهم معروف، "يقرأ" الناس عنه في الصحف، والفساد عندنا معروف "يسمع" الناس عنه همساً في الإشاعات. يبقى أن المجتمع الغربي يكره الفساد والفاستدين، أما المجتمع الشرقي فيكره الفساد ولكنه يُجَلُّ الفاسدين، ويعتبرهم أذكاء وأقوياء، فلفساد جذور في ثقافتنا وتراثنا". وهكذا، فالفساد في رأي هذا الكاتب وكتّاب آخرين مرض وليس بعرض في حياتنا وتراثنا.

على الرغم من أن الفساد كان سمة للمشهد السوداني الإقتصادي كغيره من البلاد، إلا أن الفساد كمؤسسة بدأ ينشأ في أواخر السبعينات بعد أن تدفقت مبالغ هائلة من الدول العربية المصدرة للنفط، الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. اتاح هذا فرصاً لمجموعات صغيرة محيطة بالنميري لإثراء أنفسهم. يمكن ملاحظة نمو هذه المؤسسة بثلاث آليات مختلفة:

**أولاً: إختلاس الأموال العامة:** وأكثر الطرق شيوعاً لإختلاس اموال عامة الحصول على الأصول السائلة من البنوك أو الوكالات الحكومية عن طريق قروض وهمية، بيع موجودات الدولة، بيع أراضي الدولة، والتهرب. ومعظم هذه الاموال غادر البلاد (اطلق عليها الإمام الصادق المهدي تغريب الثروة).

**ثانياً: تجارة الاراضي:** وهي عن طريق بيع العقارات في المناطق السكنية بأسعار أقل من سعر السوق، ومن ثم بنائها وتأجيرها للدبلوماسيين، تخصيص اراض زراعية لأراضي سكنية بعد أن يستولى عليها السماسرة بمعرفة البرقراطيين، بيع الأراضي الزراعية المملوكة للدولة حيث قامت هيئة الزراعة الالية ببيع حوالي ثلاثون ألف فدان لكبار المسؤولين بأسعار منخفضة. كان هذا جزءاً من اسباب توجه هؤلاء لاستغلال الأرض لتحقيق الربح السريع على حساب السكان المحليين وتسبب بالتدهور البيئي.

**ثالثاً: الإستثمار في المجالات التجارية:** وخاصة في تجارة التصدير والاستيراد، والتي

استفادت من خلال تأثيرها على السياسة العامة. سهلت الحكومة آنذاك للبنوك الأجنبية والمؤسسات الإسلامية التي سيطرت على النشاط المصرفي، وخاصة تجارة التصدير والاستيراد، حيث يمكن تحقيق أرباح عالية بسرعة وسهولة ولم تساهم في المشاريع الزراعية والصناعية والتي تتميز عوائدها بالبطء. أعطيت هذه البنوك امتيازات لا تتمتع بها البنوك الوطنية السودانية، مثل الإعفاء من الضرائب والحق في نقل الأرباح إلى الخارج. أيضاً لعب التهريب دوره وأصبح تجارة واسعة ومتطورة<sup>190</sup>.

### تغريب الثروة

بعد عام 1974م ظهر في السودان ما يشبه حركة الإنفتاح في مصر على عهد السادات، فاقترضت الحكومة السودانية مبالغاً طائلة وصرفتها بطرق غير منضبطة، فانتفع بذلك عدد من محاسيب النظام. هؤلاء هربوا الجزء الأكبر مما حصلوا عليه من أموال عن طريق ما سرقوه عبر المقاولات والقروض التي أقرضهم إياها القطاع العام، فحولوها إلى دولارات وتم تهريبها إثر ذلك. وتفنن الناس في وسائل تغريب الثروة: فتارة يهربونها عبر فواتير إستيراد بأسعار زائدة عن الحقيقة وتارة أخرى يهربونها بفواتير تصدير ناقصة عن الحقيقة. هنالك أرصدة حولها بعض رجال النظام المايوي أنفسهم، في تعاون مع المشاهير أمثال عدنان خاشقجي أو بحجة حماية "الثورة" عند اللزوم. لقد اختلفت تقديرات أموال السودانيين بالخارج ولكن تم تقديرها عام 1985 - أنها لا تقل عن 20 بليون دولار. مسألة معالجة الديون هي أهم قضية واجهت حكومة مابعد انتفاضة 1985، وستفرض نفسها على أي وضع إنتقالي مستقبلي. هي التي ستحدد كيف سنعالج الخلل في الاقتصاد ونحن نحاول النهوض، ولكنها بدلا من 10 مليار أصبحت 43 مليار دولار وربما أكثر.

### معالجة مسألة الديون

نواصل مع الامام الصادق المهدي لنرى تجربة حكومته مع الدين الخارجي: "فعين

النائب العام لجنة متخصصة قامت بالمراجعة. فوجدت أن كثيراً من تلك الديون غير موثقة.... وأصبح الرأي أن البلاد لا تستطيع تحمل هذا الدين وأعباءه، وأن هذا الدين هو إجبار النظام الديمقراطي على دفع ثمن حماقات الدكتاتورية". وقد قدمت عدة اقتراحات للتعامل مع هذه الديون تراوحت من الإعراف بأن تتحمل الدولة المسؤولية مع آخرين مشتركة بين ثلاثة أطراف، تقليل اثر الديون على البلاد، امكانية الاعفاء والدعوة إلي مؤتمر دولي لتداول الأمر، واتخاذ قرار بشأنه<sup>191</sup>.

### سابعا: القضايا الاقتصادية والاجتماعية: قضية الفقر

لا يوجد إتفاق دولي حول تعريف الفقر نظراً لتداخل العوامل الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية التي تشكل ذلك التعريف وتؤثر عليه، إلا أن هناك اتفاقاً بوجود ارتباط بين الفقر واشباع الحاجات الأساسية المادية أو غير المادية، عليه فهناك اتفاق حول مفهوم الفقر على أنه حالة من الحرمان المادي الذي يترجم بانخفاض استهلاك الغذاء، كماً ونوعاً، وتدني الوضع الصحي، التعليمي، السكني، الحرمان من السلع المعمرة والأصول المادية الأخرى، فقدان الضمانات لمواجهة الحالات الصعبة كالمرض والإعاقة والبطالة وغيرها<sup>192</sup>.

راجع د. فهد محمود الصبري تعريفات الفقر المتنوعة كما ورد في باب محاربة الفقر في تقرير التنمية 2001/2000م "يتمثل الفقر إلي حد كبير في انعدام الفرص بسبب عدم كفاية التعليم والتغذية، وضعف الحالة الصحية، وقصور التدريب او بسبب عدم القدرة على العثور على عمل يجزي القدرات الموجودة لدى الشخص"<sup>193</sup>.

لكن هناك من التعريفات ما يمضي أكثر من ذلك ويربطه بالاحتياجات الأساسية "الاحتياجات الأساسية تشمل على حاجات مادية كالطعام، السكن، الملابس، المياه النقية، وسائل التعليم والصحة وحاجات غير مادية مثل حق المشاركة، الحرية الانسانية والعدالة الاجتماعية".

<sup>191</sup> الإمام الصادق المهدي: الديمقراطية في السودان عائدة راجحة، مرجع سابق  
<sup>192</sup> سعيدة همت محمد: ظاهرة الفقر في السودان بين تفاقم المشكلة وجهود الدولة لاحتوائها، وكالة السودان للانباء، 11 مايو 2011 ، <http://www.sunanews.net/sudan-special-reports/19444-2011-05-11-23-20-07.html>

<sup>193</sup> د. فهد محمود الصبري: تعريف الفقر والغنى وقياسه، <http://www.npc-ts.org/article73.html>

## مؤشرات قياس الفقر

قدم تقرير التنمية البشرية الصادر عام 1997م عن برنامج الأمم المتحدة مؤشراً لايركز فقط على فقر الدخل ولكن أيضاً على الفقر بوصفه احد وجوه الحرمان من الخيارات، الفرص في عيش حياة محتملة ومقبولة. ويعد مؤشر الفقر البشري مؤشراً مجعماً لثلاثة مؤشرات اساسية للحرمان هي:

**مؤشر للحرمان من حياة طويلة بصحة جيدة** وهو يتمثل في نسبة الافراد الذين يتوقع الا يعيشوا حتى سن الاربعين.

**والمؤشر الثاني** هو مؤشر تعليمي معرفي يتمثل في نسبة الامية، وتعتبر هذه النسبة عن درجة الحرمان من التسلح بالعلم والمعرفة.

**والمؤشر الثالث** يقيس درجة الحرمان من مستوى معيشي لائق وهو يتكون من مؤشر مركب من نسبة السكان الذين لا يحصلون على مياه مأمونة ومؤشر غذائي صحي يتمثل في نسبة ناقصي الوزن من الاطفال دون سن الخامسة، وتعتبر هذه النسبة عن درجة القصور في القدرة على تأمين الغذاء الجيد وما يرتبط به من حالة صحية جيدة. ويأخذ هذا المؤشر بعض الابعاد التي توضح مستوى المعيشة السائد في البلدان محل الدراسة. الا أنه يعاب عليه عدم اخذ اي مقياس للدخل في الاعتبار والاطر من ذلك هو عدم وجود تعريف محدد لاحد مكونات هذا المؤشر الا وهي نسبة السكان الذين لا يحصلون على مياه مأمونة فمثلاً ما هو تعريف مياه مأمونة.

## أسباب الفقر

أسباب الفقر سياسية، إجتماعية وإقتصادية. البعد السياسي ويكون نتاجاً لسياسات الدولة في تركيز السلطة والثروة، الحروب او التوزيع الجغرافي، وكلها كما سنتعرض لتجارب الدول، قابلة للتعامل معها اذا توفر للبلد قيادة ذات رؤية. سياسات الدولة هي العامل الحاسم في السودان، فمنذ الاستقلال لم تتوفر قيادة تعاملت مع هذه القضية من واقع العدل الإجتماعي. لقد تقلبت السياسات السودانية من تركيز السلطة والثروة في نخبة وسط السودان والمناطق الحضرية بشكل عام والتفضيلات والامتيازات التي جعلت هذه القضية ممكنة.



رافق هذا الاعفاءات المتعددة من الضرائب والتهرب من الرسوم والجمارك ..الخ. أن تحولت الساحة إلي تحكم وسيادة الأنشطة الطفيلية للرأسمالية منذ منتصف السبعينات وتساعد تأثيرها وقبضتها على مفاصل الحياة الإقتصادية حتى تمت السيطرة الكاملة لها مع صعود تيار الدولة الدينية.

هذه الرأسمالية "الطفيلية" ليس لديها أي معالجات لقضايا التفاوت في الدخول والاحتكار وصناعة الفقر، البعد الإقتصادي الذي يرتبط بالسياسات من سوء إدارة الموارد التي تساعد على رفع المستوى الإقتصادي للبلد أوالمجتمع، قرارات الخصخصة والتمويل الإقتصادي، عدم استغلال الموارد الطبيعية الموجودة في المجتمع مثل (البترول - الزراعة - الأنهار). البعد الإجتماعي والمبادئ التي يقوم عليها تتمثل في انسحاب الدولة من الخدمات مثل الرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل، انخفاض مستوى المهارة وغيرها<sup>194</sup>.

يقدر عدد سكان السودان بحوالي 32 مليون نسمة (2011)، الغالبية العظمي، حوالي 70% وفقاً لتعداد السكان عام 2008 يعيشون في المناطق الريفية. إن الغالبية العظمي من السكان فقراء بمتوسط دخل فرد أقل من 400 دولار في السنة، ولو أن هذا المستوي المنخفض للدخل لايعكس التباين الكبير بين الأقاليم في التنمية الإقتصادية والإجتماعية.

إن مستويات التعليم منخفضة والأمراض واسعة الإنتشار وتشكل عبئاً ثقيلاً. البنيات الأساسية إما غير موجودة أوغير متطورة وغير كافية، وحتى القليل الموجود منها منهار نتيجة للإهمال الطويل لعمليات الصيانة الضرورية والدورية. وفيات الامهات في فترة الحمل والولادة مازال يسجل نسباً عالية، مقارنة بالدول الأخرى في اقليم شرق المتوسط حيث 49% من النساء ينجبن تحت اشراف كوادر مؤهلة، تبلغ النسبة حوالي 20% في السودان، كما ان 31% من الاطفال دون الخامسة يعانون من نقص الوزن الحاد، وتزداد معدلات وفيات الاطفال طردياً مع زيادة مستويات الفقر في اوساط الاسر في ظل انتشارالاسهالات، الملاريا، محدودية فرص الحصول على مياه الشرب النقية والصرف الصحي.

<sup>194</sup> عزو محمد عبد القادر ناجي: الفقر في أفريقيا: أبعاده والإستراتيجيات الموضوعة لإختراله (السودان نموذجاً) ، الحوار المتمدن-العدد: 2186 - 9 / 2 / 2008

## تقييم الفقر

في حين أنه لا يمكن الوصول إلى تقدير دقيق عن مستوى الفقر في السودان في الوقت الحاضر بسبب الإفتقار إلى البيانات الحديثة الخاصة بقياس الفقر إلا أن البيانات المتوفرة تشير أن: "تقديرات نسبة الفقر في السودان حوالي 46.5 % من جملة السكان، وذلك إستناداً لتحليل الفقر على المسح القاعدي لبيانات الأسر الذي تم إجراؤه في العام 2009 بتمويل من الحكومة وبنك التنمية الأفريقي. أعلى معدلات الفقر سجلت 59 % في الأسر التي تعمل في مجال الزراعة والثروة الحيوانية"<sup>195</sup>.

إن العديد من خرائط الفقر المستندة على هذه المسوحات والتي تم نشرها، تشير أيضاً إلى الإنتشار الواسع للفقر والمناطق التي تأثرت كثيراً بذلك. هذه الخرائط توضح، إنه ما عدا الشريط الضيق الذي يغطي مناطق من الخرطوم وعلي طول الجزيرة إلى القصارف في شرق السودان، فإن تفشي الفقر هو قاسم مشترك تقريباً في كل المناطق الأخرى. إن تحليل البيانات من مسح الأمم المتحدة للأمن والمعيشة، تشير بأن الحرمان من البقاء منتشر في كل أرجاء البلاد، لكنه مرتفع قليلاً في المناطق الريفية.

وعلى الرغم من وجود فروقات بين الريف والحضر في كل هذه المؤشرات، فإن التباين ما يزال ضئيلاً. ومن ناحية ثانية، وبإستخدام مؤشر الحرمان المركب للبقاء في المناطق الريفية لترتيب الولايات، يتبين أن المستويات الأعلى للحرمان توجد بالمناطق الريفية لولايات البحر الأحمر، النيل الأزرق، كسلا، جنوب كردفان، وشمال دارفور، ويعتبر البحر الأحمر من أكثر المناطق حرماناً في هذه المجموعة.

ومن جهة أخرى، وبإستخدام مؤشر الحرمان المركب للبقاء في المناطق الحضرية، يتبين أن المستويات الأعلى للحرمان توجد في المناطق الحضرية لولايات النيل الأزرق، البحر الأحمر، جنوب كردفان، وكسلا. ويجب التنبيه، بأن ولايات البحر الأحمر والنيل الأزرق وكسلا وجنوب كردفان تبرز كأكثر المناطق حرماناً لكل من السكان الريفيين والحضرين.

---

<sup>195</sup> 46.5 % نسبة الفقر بالسودان: الخميس، 24 مايو 2012،  
<http://www3.youm7.com/News.asp?NewsID=686734&SecID=88&IssueID=31>

إن مؤشر الحرمان من المعرفة يوضح بأنه رغم التباين الكبير بين الريف والحضر، إلا أن الحرمان من المعرفة هو القاسم المشترك بين كل الولايات وتتعرض له كل من المناطق الريفية والحضرية، وبالرغم من الاختلاف بينها لكن المستويات تظل غير مقبولة. وتظهر المسوحات بأن المتوسطات الريفية القومية لمعدل أمية البالغين، في التعليم الاساسي والثانوي للذين لم يلتحقوا أبداً و/أو معدل الفاقد التربوي هي 52.3% و49.8% و53.6% على التوالي، في حين أن المتوسطات الحضرية القومية لنفس هذه المؤشرات هي 28.9% و26.82% و27.4% على التوالي<sup>196</sup>.

المقارنات فيما بين الولايات تشير أيضاً إلى التباين الكبير. وعلى سبيل المثال، فإن معدل الذين لم يلتحقوا أبداً و/أو الفاقد التربوي في التعليم الاساسي في المناطق الريفية يتراوح ما بين 75.5% في النيل الأزرق و 17.8% في الشمالية.

بينما يتراوح نفس المعدل في التعليم الثانوي في المناطق الريفية ما بين 77.9% في شمال كردفان و23.2% في الشمالية. وعلى نحو مماثل، فإن الذين لم يلتحقوا أبداً و/أو معدل الفاقد التربوي في التعليم الاساسي بالمناطق الحضرية يتراوح ما بين 46.5% في ولاية غرب دارفور و9.6% في ولاية الجزيرة. بينما يتراوح نفس المعدل في التعليم الثانوي في المناطق الحضرية ما بين 41% في غرب دارفور و8.5% في الجزيرة. وتظهر كل من ولايات النيل الأزرق، شمال وغرب كردفان، وشمال وغرب دارفور باعتبارها الولايات الأكثر تضرراً. بالإضافة لذلك، فإن معدلات الأمية أيضاً مرتفعة في كل من المناطق الريفية والحضرية وكذلك الحال فيما بين الولايات.

### سياسات الفقر: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي

لن يكتمل الحديث عن الفقر، العطالة والديون، إلا اذا تناولنا المؤسسات التي تعمق من الفقر في الدول النامية وفي نفس الوقت تقرض مفاهيم واجنده تدعي محاربة الفقر. سوف نتناولها من قراءة ما جاء في نشرتهما التعريفية، ومن ثم ننظر لهما كما يتجليان في الواقع<sup>197</sup>.

تبلورت فكرة صندوق النقد الدولي في يوليو 1944 أثناء مؤتمر للأمم المتحدة عقد في

<sup>196</sup> عزو محمد عبد القادر ناجي: الفقر في أفريقيا: أبعاده والإستراتيجيات الموضوعة لإختراله (السودان نموذجا) ، مرجع سابق

<sup>197</sup> ما هو صندوق النقد الدولي؟ <http://www.imf.org/external/pubs/ft/exrp/what/ara/whata.htm#box5>

بريتون وودز بولاية نيوهامبشير الأمريكية، في ذلك المؤتمر ولد صندوق النقد الدولي وهو وكالة متخصصة من وكالات منظومة الأمم المتحدة، أنشئ بموجب معاهدة دولية في عام 1945 للعمل على تعزيز سلامة الاقتصاد العالمي. صندوق النقد الدولي هو المؤسسة المركزية في النظام النقدي الدولي - أي نظام المدفوعات الدولية وأسعار صرف العملات الذي يسمح بإجراء المعاملات التجارية بين البلدان المختلفة. يعمل صندوق النقد الدولي على تحسين الأحوال السائدة عالمياً من خلال ما يلي: التوسع المتوازن في التجارة العالمية، تحقيق استقرار أسعار الصرف، تجنب التخفيض التنافسي لقيم العملات، إجراء تصحيح منظم لاختلالات موازين المدفوعات. الجدير بالذكر أن الأهداف القانونية التي يتوخاها الصندوق اليوم هي نفس الأهداف التي تمت صياغتها في عام 1944.

### **من هو صانع القرار في صندوق النقد الدولي؟**

صندوق النقد الدولي مسئول أمام بلدانه الأعضاء، وهي مسئولية تمثل عنصراً لازماً لتحقيق فعاليته. ويتولى القيام بأعمال الصندوق اليومية مجلس تنفيذي يمثل البلدان الأعضاء، وهيئة موظفين دوليين يقودهم المدير العام وثلاثة نواب للمدير العام - علماً بأن كل عضو في فريق الإدارة يتم اختياره من منطقة مختلفة من العالم. على عكس بعض المنظمات الدولية الأخرى التي تعمل على أساس تمتع كل بلد بصوت واحد (مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة)، فإن صندوق النقد الدولي يطبق نظاماً للتصويت المرجح، فكلما زادت حصة بلد عضو في الصندوق - والحصة تحدد عموماً على أساس حجمه الإقتصادي - كان عدد أصواته أكبر. غير أن المجلس التنفيذي نادراً ما يتخذ القرارات بالتصويت الرسمي، وإنما يتخذ معظم قراراته استناداً إلى توافق الآراء بين أعضائه، ويجري تأييد هذه القرارات بالإجماع.

### **من أين يحصل صندوق النقد الدولي على أمواله؟**

المصدر الرئيسي لموارد صندوق النقد الدولي هو اشتراكات الحصص (أو رأس المال) التي تسدها البلدان عند الانضمام إلى عضوية الصندوق أو في أعقاب المراجعات الدورية التي تزداد فيها الحصص. وتدفع البلدان 25% من اشتراكات حصصها بحقوق السحب الخاصة أو بإحدى العملات الرئيسية. ويمكن للصندوق أن

يطلب إتاحة المبلغ المتبقي، الذي يدفعه البلد العضو بعملة الوطنيه، لأغراض الإقراض حسب الحاجة. وتحدد الحصص ليس فقط مدفوعات الاشتراك المطلوبة من البلد العضو، وإنما أيضاً عدد أصواته وحجم التمويل المتاح له من الصندوق ونصيبه من مخصصات حقوق السحب الخاصة. والهدف من الحصص عموماً هو أن تكون بمثابة مرآة لحجم البلد العضو النسبي في الاقتصاد العالمي؛ فكلما ازداد حجم اقتصاد العضو من حيث الناتج وازداد اتساع تجارته وتنوعها، ازدادت بالمثل حصته في الصندوق. والولايات المتحدة الأمريكية، أكبر اقتصاد في العالم، تسهم بالنصيب الأكبر في صندوق النقد الدولي حيث تبلغ حصتها 17.6% من إجمالي الحصص.

### كيف يخدم صندوق النقد الدولي أعضاءه؟

يساعد صندوق النقد الدولي أعضاءه عن طريق ما يلي: (1) استعراض التطورات المالية والاقتصادية الوطنية والعالمية ومتابعتها، وتقديم المشورة للأعضاء بشأن سياساتهم الاقتصادية؛ (2) إقراض الأعضاء بالعملة الصعبة لدعم سياساتهم المعنية بالتعديل والإصلاح التي تستهدف تصحيح مشكلات ميزان المدفوعات وتشجيع النمو القابل للاستمرار؛ (3) تقديم مجموعة كبيرة ومتنوعة من أشكال المساعدة الفنية وتوفير التدريب للعاملين في الحكومات والبنوك المركزية، وذلك في مجالات اختصاص الصندوق وخبراته.

تدعو اتفاقية تأسيس صندوق النقد الدولي إلى قيام الصندوق بالإشراف على النظام النقدي الدولي، بما في ذلك ممارسة " الرقابة " الدقيقة – أي الإشراف – على سياسات أسعار الصرف في بلدانه الأعضاء. على نحو أكثر تحديداً، توافق البلدان الأعضاء على توجيه سياساتها نحو أهداف النمو الاقتصادي المنظم مع مستوى معقول من استقرار الأسعار، بالإضافة إلى إرساء أوضاع مالية وإقتصادية أساسية منظمة، وتجنب التلاعب في أسعار الصرف لتحقيق ميزة تنافسية غير عادلة. وبالإضافة إلى ذلك، يتعهد كل بلد عضو بأن يقدم للصندوق المعلومات اللازمة لممارسة دوره الرقابي على نحو فعال.

يمارس الصندوق دوره الإشرافي بطرق ثلاثة: (1) الرقابة القطرية: وهي تتخذ شكل مشاورات شاملة منتظمة معفرادى البلدان الأعضاء حول سياساتها الاقتصادية، مع إمكانية إجراء مناقشات مرحلية أخرى عند الحاجة؛ (2) الرقابة الإقليمية: وبموجبها

يدرس صندوق النقد الدولي السياسات المتبعة طبقاً لاتفاقيات إقليمية؛ (3) الرقابة العالمية: وهي تستتبع قيام المجلس التنفيذي للصندوق باستعراض الاتجاهات والتطورات الإقتصادية العالمية.

### الإقراض لمساعدة البلدان المتعثرة

عندما يتوجه أحد البلدان إلي صندوق النقد الدولي طالباً التمويل، يقدم الصندوق المشورة إلي سلطات البلد المعني فيما يتعلق بالسياسات الإقتصادية التي ينتظر أن تعالج بها المشكلات القائمة بأقصى درجة من الفعالية. ولكي يقدم الصندوق التمويل المطلوب، لابد أن يتوصل إلي اتفاق مع السلطات حول برنامج للسياسات يستهدف تحقيق أهداف كمية محددة فيما يتصل بسلامة المركز الخارجي، والاستقرار المالي والنقدي، والنمو القابل للاستمرار.

أما المقترضون الحاليون من الصندوق فجميعهم إما بلدان نامية، أو بلدان تمر بمرحلة التحول من نظام التخطيط المركزي إلي نظم قائمة على اقتصاد السوق، أو من بلدان الأسواق الصاعدة التي تسير في طريق التعافي من الأزمات المالية. وكثير من هذه البلدان لا يملك إلا إمكانية محدودة للنفاد إلي أسواق رأس المال الدولية، وهو ما يرجع في جانب منه إلي المصاعب الإقتصادية التي تواجهها. ومنذ أواخر السبعينات، أصبح بمقدور جميع البلدان الصناعية تلبية احتياجاتها المالية من أسواق رأس المال، واستأثرت بأكثر من نصف التمويل الذي يقدمه الصندوق خلال العقد الأول من إنشائه.

### البنك الدولي

في نفس الوقت الذي أنشئ فيه صندوق النقد الدولي<sup>198</sup>، أنشئ البنك الدولي للإنشاء والتعمير المعروف باسم البنك الدولي بغية تشجيع التنمية الإقتصادية طويلة الأجل من خلال سبل شتى تتضمن تمويل مشاريع البنية التحتية، مثل بناء الطرق وتحسين إمدادات المياه. البنك الدولي ليس "بنكاً" بالمعنى المتعارف عليه. البنك الدولي أحد

198 World Bank Group: [www.worldbank.org](http://www.worldbank.org) accessed during December 2012

وكالات الأمم المتحدة المتخصصة. يتكون البنك من 184 بلداً من البلدان الأعضاء ذات المسؤولية المشتركة عن كيفية تمويل المؤسسة وكيفية صرف الأموال على المشروعات الإنمائية التي تحد من أعداد الفقراء.

"البنك الدولي" هو الاسم الشائع الذي يستخدم لوصف البنك الدولي للإنشاء والتعمير والمؤسسة الدولية للتنمية. وتوفر هاتان المنظمتان قروضاً منخفضة الفائدة وائتمانات معفاة من الفائدة ومنحاً للبلدان النامية. يعمل نحو 10 آلاف موظف في مجال التنمية من كل دول العالم في مقر البنك الدولي بالعاصمة الأمريكية، واشنطن، أو في مكاتب البنك القطرية المائة والتسع.

تضم مجموعة البنك الدولي ثلاث منظمات أخرى بالإضافة إلي البنك الدولي للإنشاء والتعمير والمؤسسة الدولية للتنمية: مؤسسة التمويل الدولية التي تشجع إستثمارات القطاع الخاص عن طريق مساندة البلدان والقطاعات عالية الخطورة؛ وكالة ضمان الإستثمارات المتعددة الأطراف التي تقدم تأمينات (ضمانات) ضد المخاطر السياسية للمستثمرين في البلدان النامية والمقرضين لها والمركز الدولي لتسوية منازعات الإستثمار الذي يسعى إلي تسوية الخلافات المتعلقة بالإستثمار بين المستثمرين الأجانب والبلدان المستضيفة.

وتجدر الإشارة إلي تكامل عمل صندوق النقد الدولي ومجموعة البنك الدولي. فبينما يركز صندوق النقد الدولي في المقام الأول على أداء الاقتصاد الكلي وسياسات الاقتصاد الكلي والقطاع المالي، ينصب اهتمام البنك الدولي على القضايا الأطول أجلاً المتعلقة بالتنمية وتخفيف حدة الفقر. وتضم أنشطة البنك الدولي تقديم القروض إلي البلدان النامية وبلدان التحول الإقتصادي لتمويل مشاريع البنية التحتية وإصلاح قطاعات بعينها في الاقتصاد والإصلاحات الهيكلية الأوسع نطاقاً.

اليوم يتمركز عمل البنك حول تخفيف حدة الفقر كهدف عام يشمل جميع أعماله وتحقيق الأهداف الإنمائية للألفية الجديدة. عند إنشاء صندوق النقد الدولي، كان هناك تفكير في إنشاء منظمة تعمل على تشجيع تحرير التجارة العالمية. ولكن إنشاء منظمة التجارة العالمية لم يتحقق إلا في عام 1995، وكانت الاتفاقية العامة للتعريفات

والتجارة (الجات) هي الأساس الذي تستند إليه معالجة قضايا التجارة حتى ذلك الحين.

### القراءة النقدية: ما وراء الكلمة

نبدأ في تحليل هذه الكلمات المنمقة والحيادية التي تجيء بها النشرات التعريفية للمؤسستان، وسنحاول هنا أن نقدم قراءة موضوعية لهذه المنظمات، بلغة سهلة ومفهومة. لقد أصبح من كلاسيكيات الفهم السياسي، إن مؤسسات بريتون وودز، قد نشأت بعد الحرب العالمية الثانية لضرورة نشوء مؤسسات وادوات الاستعمار الحديث للسيطرة السياسية، الإقتصادية والثقافية.

المنتصرون في الحرب العالمية الثانية، واهمهم الولايات المتحدة كانوا يريدون وراثة الاستعمار القديم انجلترا وفرنسا وغيرها. اتفقت هذه القوى على إنشاء الامم المتحدة وتطوير مؤسساتها. وعندما نرى تكوين كافة المنظمات التابعة للامم المتحدة نجد أنها جاءت ممثلة لتوازن القوى الدولية السياسية والإقتصادية، وبروز دور الولايات المتحدة كقوة عظمي لم تخسر أي من قوتها من جراء الحرب بينما كان الاتحاد السوفيتي، انجلترا وفرنسا خارجة من الحرب وهي منهكة. بدأ هذا عند تكوين مجلس الامن وتحسينها بالدول الدائمة العضوية الاربعة (الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي آنذاك، انجلترا وفرنسا) وحرمت الصين التي لم تكن لديها آنذاك مايكفي من القوة. وجاءت مؤسسات بريتون وودز في نفس السياق.

لابد أن اوضح بجلاء هنا موقعي من هذه المؤسسات، برغم انني خرجت في مظاهرات تهتف بسقوط البنك الدولي، الا أنني ايقن جازماً وبعد ان عملت في احدي منظمات الامم المتحدة أن تغيير هذه المنظمات ليس بالمظاهرات فقط او الكتابة ضدها، لكن بتغيير توازنات القوى العالمية وتحسين حالة البلاد ووضع رؤية واضحة ومرتزة.

عند حدوث الازمة النقدية لجنوب شرق اسيا استشار الدكتور مهاتير محمد الصندوق حول الحلول، ولكنه ضرب عرض الحائط بتوصياته وركز على حله المبنية على الرؤية الوطنية. ماهي كلمة السر التي استعملها مهاتير: ببساطة العدالة الإجتماعية. لقد انضمت الصين لمجلس الامن بعد ان حسنت موقفها السياسي وتطورت إقتصادياً وهناك دعوات لزيادة الاعضاء الدائمين وسوف تحدث. مؤسسات بريتون وودز



جاءت لتعبر عن توازن قوى محدد في العالم بعد الحرب وسوف يتم حتماً تغييرها بتغيير توازن القوى العالمية حالياً.

عندما يتوجه بلد ما إلي صندوق النقد الدولي طالباً التمويل، فهو إما أن يكون في أزمة إقتصادية فعلية أو على وشك الوقوع فيها؛ فعملته تكون هدفاً للمضاربة في أسواق الصرف الأجنبي واحتياطاته مستنفدة ونشاطه الإقتصادي راكداً أو آخذاً في الهبوط وحالات الإفلاس فيه آخذة في الزيادة. هذه هي الحالة النموذجية التي يتدخل فيها الصندوق وهي دائماً مترافقة مع دول الفساد والاستبداد، سوء إدارة المال العام والتحيز لصالح الطبقات القادرة. قروض الصندوق مشروطة بالسياسات، بمعنى أن البلد المقترض لابد أن يعتمد سياسات تعمل على تصحيح مشكلة ميزان المدفوعات.

هنا مربط الفرس، فرغم الصياغة الجميلة لهذه العملية فهي اس الداء. وقد طبقت بلادنا بالفعل تلك السياسات في تسعينيات القرن الماضي فيما عُرف بـ "سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي"، التي رأى كثير من الإقتصاديين أنها كانت سبباً رئيسياً في ارتفاع معدلات البطالة، وزيادة نسب الفقر، بالإضافة إلي ما نتج عن سياسات الخصخصة من استحواذ القطاع الخاص على كثير من السلع والخدمات الإستراتيجية في صفقات شابها الفساد، وتسببت في عمليات إهدار واسعة للمال العام.

وضع صندوق النقد والبنك الدوليان وصفة إقتصادية عامة (روشتة)، افترضنا صلاحها لجميع الدول التي تعاني من مشكلات إقتصادية، بغض النظر عن ظروف كل منها بعد المرور على نادي باريس<sup>199</sup>. تقدم هذه الروشتة في كل البلدان، وكل الظروف<sup>200</sup>.

**أولاً: إطلاق الأسعار:** وذلك بالقضاء على كل أنواع السيطرة الحكومية على الأسعار، وإلغاء دعم السلع الشعبية اللازمة لمعيشة الفقراء وموظفي الحكومة وذوي الدخل

---

<sup>199</sup> نادي باريس الإقتصادي: هو مجموعة غير رسمية من الممولين من 19 دولة من اغني بلدان العالم، التي تقدم الخدمات المالية مثل اعادة جدولة الديون وتخفيف عبء الديون، والغاء الديون علي البلدان المدينة والدائنة. ويجتمع النادي بالدول المدينة التي تحتاج إلي دين عاجل والتي نفذت والتزمت بتنفيذ الإصلاحات اللازمة لتحسين وضعها الإقتصادي والمالي. وهذا يعني من الناحية العملية ضرورة أن يكون للدولة المدينة برنامج مع صندوق النقد الدولي مدعوم باتفاق مشروط. دول نادي باريس هي: أميركا، إنجلترا، ألمانيا، فرنسا، اليابان، إيطاليا، كندا، هولندا، بلجيكا، والسويد

<sup>200</sup> محمد حسن يوسف: روشتة صندوق النقد الدولي، الموافق 15 من مايو عام 2007 ، <http://www.saaid.net/Doat/hasn/105.htm>

المنخفضة. يعني هذا أن الدولة تخرج من كل مهامها وتترجم في انسحاب الدولة في السودان من الخدمات الصحية، التعليم، المياه. كما تتخلي الدولة عن مراقبة وتركيز الاسعار وتصبح كافة الخدمات والسلع تحت رحمة الاحتكارات ووسائل الفساد الشائعة في دولنا ذات الإدارة السيئة والفاصلة.

**ثانياً: تجميد الأجور:** ويتم ذلك من خلال وقف قيام الحكومة بتوظيف الداخلين الجدد إلى سوق العمل. كما يتضمن ذلك أيضاً الاستغناء عن الآلاف من العاملين، بما يؤدي إلى تضخم أعداد المتبطلين. يتم ذلك، كما لاحظنا في دول عديدة بخصخصة القطاع العام، بيعه، الاستغناء عن العاملين، وفتح الأبواب على مصراعيها لدخول الشركات متعددة الجنسيات. وبعد أن تتخلي الدولة عن كل سيطرتها باسم تحرير التجارة والأسعار، يتم عرض المجالات التي تمت خصصتها للإستثمار العالمي، فتأتي رؤوس الأموال العالمية فتشارك في عمليات الإستثمار، مشترطة شروطاً معينة في صالحها، منها تخفيض الضرائب عليها، السماح لها بنقل أرباحها إلى الخارج، عدم وضع العراقيل أمامها بعمل حماية جمركية أو أي نوع من الحماية على الصناعات المحلية الصغيرة التي يديرها رأس المال المحلي بجهد الخاص.

**ثالثاً: تحرير سعر صرف العملات الأجنبية:** وذلك بالتخفيض المستمر لسعر العملة الوطنية أمام العملات العالمية. فتخفيض الدولة لعملتها يعني زيادة صادرات هذه الدولة، لأن أسعار الصادرات سيكون منخفضاً أمام السلع الأجنبية الأخرى. تعتمد أدبيات الصندوق على أن انخفاض سعر صادرات الدولة سيؤدي إلى تشجيع المنتجين فيها لزيادة كمية الصادرات، وهذا ما لا يحدث على الإطلاق في ظل نظم الإنتاج الضعيفة والبالية التي تمتاز بها الدول النامية. فالجهاز الإنتاجي في هذه الدول غير مرن بما يسمح للدولة من زيادة إنتاجها إذا ما حدثت زيادة في الطلب على هذا الإنتاج.

اذن الدول التي تطلب الاقتراض مجبرة على نيل موافقة نادي باريس (حسن السير والسلوك) ثم يقوم الصندوق<sup>201</sup> بفرض شروطه السابقة وليس كما حاول ان يوهمنا: "تتعاون السلطات الوطنية تعاوناً وثيقاً مع خبراء الصندوق في صياغة البرنامج المدعم بموارده، بحيث يكون مصمماً لمواجهة الاحتياجات والظروف الخاصة للبلد

---

<sup>201</sup> ما هو صندوق النقد الدولي، مرجع سابق

المعني. ويعد هذا أمراً أساسياً لتحقيق فعالية البرنامج وحتى يتسنى للحكومة اكتساب التأييد الوطني له. ومثل هذا التأييد - أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الشعور بالملكية المحلية" للبرنامج - (local ownership) هو أحد العناصر الحيوية لتأمين نجاحه".

ومع ان الممارسة المتبعة هي نشر ملخصات مناقشات المجلس التنفيذي لعدد كبير من مشاورات المادة الرابعة، إلي جانب ملخصات تحليلات خبراء الصندوق في إطار نشرات معلومات معممة (Public Information Notices)، والواقع أنه يتم في حالات كثيرة نشر التقارير الكاملة التي يعدها خبراء الصندوق عن هذه المشاورات، وهي تقارير يمكن الاطلاع عليها في موقع الصندوق على شبكة الإنترنت، شأنها شأن نشرات المعلومات المعممة. هذه التقارير المنمقة والمصاغة بافضل التقنيات العلمية لا تتحدث عن كيفية ممارسة الصندوق لضغوطه واستمالة الموظفين العموميين (من تحت التربة).

إن الصندوق والبنك يضمنان المع العقول العالمية، التي تحظى بمرتبات وحوافز عالية أكثر من نظيراتها في الامم المتحدة، ولديها نظام إداري غاية في البراعة. أن نقد الصندوق والبنك لايعديان أنهما غير مفيدان، ففيها خبرات مهمة وابتدعت إطارات عمل مفيدة، القضية أنك اذا ذهبت لهما في حاجة فهي ستفرض عليك سياسات ضد الفقراء ومنحازة للثرياء.

إن الصندوق والبنك معاديان فلسفياً ضد العدالة الدولية والعدالة الإجتماعية وانشأتا للوقوف ضدها، بالتالي فالدول التي ارادت الفكك من اسر الفقر واللامساواة المحلية والعالمية فعلت ذلك بسياسات اخرى وعن طريق رؤية مجتمعية واسعة، وعندما تلجأ للصندوق او البنك فهي تلجأ لهما للاستعانة بهما كبيوت خبرة في قضايا فرعية وليست الإصلاحات الهيكلية الكلية سيئة السمعة. سوف نتعرض في الجزء التالي كيف ان الصندوق والبنك وتحت ضغوط سياسية واخلاقية يمكن ان تتجه لتصحيح ما تؤدي اليه سياساتهما.

مع تعرض الصندوق والبنك للنقد، الاحتجاجات والاتهامات بصورته اللانسانية ومكمل قط للكارتيلات العالمية والدول المتقدمة، ومع التطور العالمي والتغيرات في

التوازنات العالمية تتراجع امكانيات الصندوق والبنك بالتدخل في شؤون الدول، فكل الدول التي سلكت طريق المستقبل ترفض سياساتهما وتتخذ اجراءات اخرى في صالح شعوبها، كما انشئت منظمات اقليمية بديلة (الاسيان وغيرها) لمعاجة أي خلل في دولها.

لاحظنا هذا عندما تدخل البنك الدولي بقوة في الخدمات الصحية منذ 1993 واطلقت وثيقتها "الإستثمار في الصحة"<sup>202</sup> ومن ثم استطاعت تسويق افكارها التي أدت إلى اضعاف الرعاية الصحية الأولية، تشجيع الدول على الانسحاب من التمويل وغيرها من الافكار التي استنزفت جهداً كبيراً من منظمة الصحة العالمية لتعيد الرعاية الصحية الأولية إلى الصدارة. أيضاً بعد ان وضح جلياً الاثار الكارثية في مجال الخدمات الصحية وغيرها. بدأ الصندوق والبنك لا في مراجعة سياساتها التي تؤدي للفقر ولكن لتلتف وتطلق مشروعات لمكافحة الفقر في البلدان منخفضة الدخل<sup>203</sup>.

### ماذا قال أهل الاختصاص من الدول الصناعية

جيفري ساش أستاذ الإقتصاد في جامعة هارفرد الأمريكية لأكثر من ثلاثين عاماً، ومستشار لعدد كبير من الدول النامية من إفريقيا إلى آسيا إلى أمريكا اللاتينية منذ أكثر من ربع قرن، يشير إلى أن السياسات المالية التي فرضها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على الدول الأفريقية هي سياسات ليس لها أساس علمي، ونتائجها هامة، ويؤكد أن إفريقيا هي أكثر فقراً في بداية القرن الحادي والعشرين مما كانت عليه خلال الستينيات عندما بدأت تتبنى سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

ويؤكد ساش على أن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لا ينسقان مع المؤسسات المتخصصة في الأمم المتحدة، وهذا يجعلهما على عدم دراية بواقع الدول النامية وهذا يفسر إلى حد كبير عدم فعالية سياساتهما التنموية، وعلى الرغم من ذلك فإن الدول الصناعية تعطيهما الأولوية على بقية المؤسسات الدولية لسبب بسيط وهو أن التصويت فيهما ليس "صوت لكل دولة" كما هو حال الأمم المتحدة وإنما التصويت مرتبط بالحصة المالية التي تملكها الدولة وهذا يجعلهما تحت هيمنة الدول الصناعية.

World Bank: Investing in health: World development report, New York: Oxford University Press. 1993 202

The World Health Report 2008 - primary Health Care (Now More Than <sup>203</sup> Ever), <http://www.who.int/whr/2008/en/index.html>

أما عن كيفية علاج الأزمة التي تعاني منها المؤسسات المذكورتين فهو يقترح إستبدال الوصفات الإقتصادية الحالية الجاهزة التي تفرض على الدول النامية مقابل القروض، ببرامج تنموية تأخذ في الاعتبار خصوصيات كل دولة والظروف المحيطة بتخلفها حتى لا تؤدي هذه البرامج إلي تفاقم مشكلات التنمية كما حصل نتيجة لممارسات البنك والصندوق الدوليين عبر السنوات الماضية.

جوزيف ستيجلتس-الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد لعام 2001 وكبير المستشارين الإقتصاديين في إدارة كليتون وفي البنك الدولي سابقاً- يؤكد بأن الشروط التي تفرضها المؤسسات الدوليتان على القروض المقدمة للدول النامية ليست لها اعتبارات إقتصادية وقد تكون ضارة في حالات كثيرة. بل إن هناك مواد في لوائح هذه المنظمات تمنع من ممارسة ضغوط على الدول المقترضة لإجبارها على تبني سياسات لا علاقة لها بالمشكلة الإقتصادية التي تقدم القروض لحلها. تعرضت كوريا لهكذا ضغوط، فخلال أزمة أسواق شرق آسيا في عام 1997، طلب من كوريا فتح قطاعاتها الخدمية كالصارف والتأمين للشركات الأجنبية الغربية وتحرير بعض قطاعات المنتجات الصناعية أمام السيارات اليابانية مقابل حصولها على القروض لعلاج أزمتها.

بل إن حتى الأرقام التي ينشرها البنك حول التغيرات الإقتصادية كمعدلات النمو والإستثمار والادخار وغيرها ليست بالدقة التي يدعيها البنك بل إن فيها، كما يقول ستيجلتس، كثير من التعديلات التي يتطلبها إظهار البنك بمظهر المؤسسة الناجحة. فهذه الإحصاءات لا تقوم على تنبؤات مرتكزة على نماذج إحصائية متطورة ولا حتى على أفضل التقديرات من قبل من هم على دراية بهذه الإقتصاديات وإنما هي أرقام تم الإتفاق عليها كجزء من البرامج الإصلاحية أي أنها أقرب إلي الأرقام المطبوخة أو المتفق عليها.

أخيراً وليام استرلي، أستاذ الاقتصاد بجامعة نيويورك والذي عمل في البنك الدولي أكثر من 16 عاماً في قضايا التنمية، يؤكد بأن البنك الدولي يفتقر إلي المعايير التي يمكن من خلالها معرفة درجة كفاءة استغلاله لموارده، مدى إنتاجية برامجه ومشروعاته مما يعني أن بيئة المساءلة في هذه المؤسسة الدولية ضعيفة إذا لم تكن مفقودة كلياً. لقد توسع البنك في أهدافه المعلنة من بناء المشاريع الأساسية إلي تغيير السياسات إلي بناء المؤسسات ثم إلي إعادة بناء الدول المدمرة بالحروب وهذه

الأهداف سامية في رأيه، إلا أن البنك الدولي لا يستطيع تحقيقها فعلاً، لأنها تتأثر بقوى خارجية عن سيطرته الأمر الذي يحتم على البنك أن يقلص من أهدافه ويجعلها محددة وقابلة للقياس كبناء الطرق، معالجة أمراض محددة وتوفير معارف معينة وترك القضايا الكبرى لشعوب الدول النامية وحدها لأن التنمية الفعلية لن تتم إلا على أيدي أبناء هذه المجتمعات النامية وحدهم<sup>204</sup>.

### مكافحة الفقر في البلدان منخفضة الدخل: قراءة الصندوق والبنك

يقول البنك عن نفسه: البنك الدولي هو مؤسسة نقدية، وليس مؤسسة إنمائية، ولكنه يسهم بدور مهم في الحد من الفقر في بلدانه الأعضاء. فالنمو الإقتصادي القابل للاستمرار، وهو عنصر أساسي في جهود الحد من الفقر، يتطلب سياسات إقتصادية كلية سليمة، وهي السياسات التي تمثل جوهر التفويض المنوط بصندوق النقد الدولي. ويقول صندوق النقد الدولي أنه ساعد البلدان منخفضة الدخل لسنوات عديدة في تنفيذ سياسات إقتصادية من شأنها تعزيز النمو ورفع مستويات المعيشة، وذلك بتقديم المشورة والمساعدة الفنية والدعم المالي.

وفيما بين عامي 1986 و1999، حصل 56 بلداً يبلغ مجموع سكانها 3.2 بليون نسمة على قروض بأسعار فائدة منخفضة طبقاً لتسهيل التصحيح الهيكلي (SAF) وخليفته التسهيل التمويلي المعزز للتصحيح الهيكلي، اللذين أنشئاً لمساعدة أفقر البلدان الأعضاء في جهودها الرامية إلى تحقيق نمو إقتصادي أقوى وتحسن مستمر في أوضاع ميزان المدفوعات. يقول الصندوق إن هذه التسهيلات أسهمت إسهاماً ملموساً في جهود التنمية في البلدان منخفضة الدخل، ولكن كثيراً من هذه البلدان لم تحقق المكاسب اللازمة للوصول إلى تخفيض دائم في حدة الفقر بالرغم من المساعدات الكبيرة المقدمة من صندوق النقد الدولي ومجتمع المانحين الأوسع.

نلخص رؤية صندوق النقد الدولي حول هذه القضية<sup>205</sup> "الهدف من وضع تقرير إستراتيجية الحد من الفقر (PRSP) هو تدعيم المبادئ الأساسية المتمثلة في شعور البلدان بملكية البرامج المدعومة بـموارد الصندوق، والتنمية الشاملة، والمشاركة العامة على نطاق واسع. هناك عدد من العناصر الأساسية المرجح أن

<sup>204</sup> The World Health Report 2008 - مرجع سابق

<sup>205</sup> ما هو صندوق النقد الدولي، مرجع سابق

تشترك فيها جميع الاستراتيجيات. تشخيص العقبات أمام تحقيق النمو والحد من الفقر، تحليل العقبات الاقتصادية الكلية والاجتماعية والمؤسسية التي تعوق تحقيق النمو والحد من الفقر بسرعة أكبر، السياسات والأهداف، متابعة التقدم، أن تؤدي الإستراتيجية أيضاً إلى زيادة فعالية المساعدات الخارجية ورفع كفاءتها".

### **القراءة الرسمية: البنك الدولي**

بدأ البنك الدولي أعماله بالمساعدة في إعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وقد خصص القرض الأول لمجهودات إعادة إعمار فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. وإستمرت جهود الإعمار موضع تركيز هام لعمل البنك وذلك في ظل الكوارث الطبيعية، الطوارئ الإنسانية واحتياجات إعادة التأهيل في ما بعد للنزاعات والتي دائماً ما تؤثر على إقتصاديات البلدان النامية والتي تمر بمرحلة تحول. لكن اليوم يتمركز عمل البنك حول تخفيف حدة الفقر كهدف عام يشمل جميع أعماله. يتكون البنك من 184 بلداً من البلدان الأعضاء ذات المسؤولية المشتركة عن كيفية تمويل المؤسسة وكيفية صرف الأموال على المشروعات الإنمائية التي تحد من أعداد الفقراء.

### **القراءة النقدية: مكافحة الفقر**

كيف يصنع الفقر في بلادنا؟ إن الوصول إلى أن تتخذ مجموعة من الاسر منزلها في مجرى سيول -بني زمن الاستعمار فكان متسعاً وعميقاً وثابتاً وهم سودانيون مثلهم مثلي، لديهم كل الحقوق والواجبات - بالقرب من منزلي، وهي فيلا تبلغ مساحة غرفة نومه سبعون متراً مربعاً، يبدو مشواراً طويلاً، هذا المشوار الذي حملهم إلى ذلك الجحر اللإنساني. هذا هو السؤال الذي سوف نفتح به الابواب لنقد مداخل الصندوق والبنك وسائر منظمات الامم المتحدة في معالجة قضية الفقر، والتي جعلت كل البلدان التي استطاعت أن تقضي على الفقر، تضرب عرض الحائط بإستراتيجيات الحد من الفقر التي تسوقها منظمات الامم المتحدة بين الداعمين.

رغم أن العديد من الايديولوجيات تطرح افكاراً مختلفة حول النشأة، فان هناك اتفاقاً لحد ما إلى ارجاعها لمجموعة معقدة من تداخل السياسي، الإقتصادي و الإجتماعي، الا

أننا للتبسيط أولاً، وثانياً لأن الدول التي نجحت في القضاء على الفقر ركزت عليها في وضع الإستراتيجيات. سوف نتناول الفقر من ثلاثة مسببات رئيسية: التفاوت التنموي، الخدمات، سياسات التوزيع.

## التفاوت التنموي في السودان

نشر د. مدثر أحمد أبو القاسم دراسة متميزة عن أثر التفاوت الاقتصادي على التوزيع الجغرافي لظاهرة الفقر في السودان. إعتد الكاتب على دراسة أولى تمت عام 1959م عن تصور توزيع الدخل القومي في السودان ولهذا الغرض فقد تم تقسيم السودان إلى أربعة أقاليم تشمل:

**الإقليم (أ):** مديريات كسلا ، الشمالية ، الخرطوم: جاءت النتائج أن الإقليم يحوز على 22.6% من السكان و 33.5% من المساحة الكلية للسودان، ويبلغ متوسط دخل الفرد فيه (32) جنيهاً، وهذه النسبة أكثر ب 20% من الدخل في القطر ككل .

**الإقليم (ب) مديرية النيل الأزرق:** يملك 20.2% من السكان، وتبلغ مساحته 5.7% فقط من المساحة الكلية للسودان ، ويمتاز الإقليم بأعلى معدل لدخل الفرد بين الأقاليم الأربعة حيث بلغ (42) جنيهاً في العام - وهو ما يعادل ثلاثة أضعاف دخل الفرد كل السودان.

**الإقليم (ج) مديريات كردفان ودارفور:** الذي يعرف بغرب السودان فبرغم إحتوائه أكبر كثافة سكانية في البلاد (30.1%) وتبلغ مساحته 35% من مساحة السودان ولكن دخل الفرد في هذا الإقليم لا يتجاوز (27.4) جنيهاً في العام .

**الإقليم (د) :** مديريات أعالي النيل، الإستوائية، بحر الغزال الإقليم الجنوبي فإنه يأتي في ذيل القائمة إذا أن سكانه يشكلون 27.1% ومساحته تبلغ 25.8% بينما يحصل على (14) جنيهاً كمتوسط لدخل الفرد في العام وهو نصف معدل متوسط دخل الفرد في السودان ككل في تلك الفترة.<sup>206</sup>

كان هذا تحذيراً واضحاً من تداعيات التنمية الإستعمارية، وكيفية الاتجاه لحل معضلة التفاوت بين اطراف السودان والتي تخفي ورائها مشكلة اعرق هي مشكلة الهوية

<sup>206</sup> د.مدثر أحمد أبو القاسم: أثر التفاوت الاقتصادي على التوزيع الجغرافي لظاهرة الفقر في السودان <http://swideg.arabblogs.com/geography/archive/2009/1/778339.html>



والتهميش، وكانت تشير بوضوح إلى مشكلة الجنوب. وبدلاً من التوجه إلى الاهتمام بالمناطق الأكثر فقراً توجهت الدولة العسكرية، وبعدها الحكومة الديمقراطية المنتخبة وبينهما ثورة أكتوبر اتجاها عكسياً وضح في الدراسة اللاحقة:

الدراسة الثانية قامت بها بعثة لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو) في عام 1973م بوضع خطة طويلة المدى لتنمية الزراعة في السودان، وقامت الدراسة بدراسة توزيع الناتج المحلي الإجمالي والإستهلاك الخاص بين الأقاليم الثلاثة لعام 1968، ورأت من المناسب أن تخفض عدد الأقاليم من أربعة إلى ثلاثة وذلك بدمج الإقليمين (أ) و (ب)، وتسميتها بالطريقة التالية: الإقليم الشرقي: (أ) + (ب) الإقليم الغربي: (ج) الإقليم الجنوبي: (د). ويمكن ملاحظة إزدياد الفجوة الاقتصادية بين الأقاليم، فقد ارتفع نصيب الإقليم الشرقي في الناتج المحلي الإجمالي من 57% إلى 71% في الوقت الذي هبط فيه نصيب الإقليم الغربي من 29% إلى 19% ونصيب الإقليم الجنوبي من 14% إلى 10%.

إن كل مساهمة الإقليم الشرقي في الناتج المحلي الإجمالي (71%) يستغل داخله وحده أما إستهلاكاً أو استثماراً مما أدى إلى رفع متوسط إستهلاك الفرد فيه من (29) جنيهاً عام 1956م إلى (53) جنيهاً في عام 1968. وقد أرجعت الدراسة إرتفاع مساهمة الإقليم الشرقي في الناتج المحلي الإجمالي، لزيادة إنفاق الحكومات الوطنية الجزء الأكبر من إستثماراتها في هذا الإقليم، حيث أقامت ستة مشاريع كبيرة في الإقليم الشرقي شملت، تنفيذ إمتداد المناقل، توليد الكهرباء من خزان سنار وتشبيد خزاني الروصيرص وخشم القرية وإقامة مصنعي السكر في الجنيّد وخشم القرية. علاوة على إحتواء الإقليم لجميع مشاريع الري الحديث حيث أصبح بعد الاستقلال يحوي أكثر من 85% من الزراعة الآلية في المناطق المروية مطرياً وأكثر من 90% من القطاع الصناعي في البلاد. وقد هبط متوسط إستهلاك الفرد في الإقليم الغربي من (27) جنيهاً في عام 1956/55م إلى (21) جنيهاً عام 1968م.

درس د.مدثر نفس الموضوع ولكن لعدم وجود بيانات متوفرة، فقد إستند الباحث لمعرفة وقت تخطي كل إقليم لعتبة الفقر بوصول دخل الفرد فيه لمعدل دولارين في اليوم حسب إعلان الألفية. تمّ تقسيم ولايات السودان المختلفة لثلاثة أقاليم على أساس الدراسة السابقة: الإقليم الشرقي (ولاية الشمالية، نهر النيل، الخرطوم، الجزيرة، النيل

الأبيض، النيل الأزرق، سنار، كسلا، القضارف والبحر الأحمر)، الإقليم الغربي (ولايات شمال وجنوب وغرب دارفور وشمال وجنوب كردفان) والاقليم الجنوبي.

اثبتت الدراسة أن الإقليم الشرقي سيتخطي عتبة الفقر حسب إعلان الألفية (في سبتمبر عام 2000 أجمع قادة العالم في قمة الأمم المتحدة للألفية ويشتمل إعلان الألفية الذي صدر عن القمة وتبناه (189) بلداً (بما فيها السودان) على التزامات جماعية ملحة بالتغلب على الفقر تبلورت فيما سمي بأهداف التنمية للألفية)<sup>207</sup>.  
بوصول متوسط دخل الفرد فيه إلي دولارين في اليوم عام 2009.

أما الإقليم الغربي فسيصل متوسط دخل الفرد فيه إلي هذا المعدل عام 2029 وعام 2058 في الإقليم الجنوبي. كما يمكن ملاحظة أنه وبوصول متوسط دخل الفرد إلي دولارين في اليوم عام 2009 في الإقليم الشرقي فإن متوسط دخل الفرد في نفس السنة في الإقليم الغربي بلغ 0.835 دولار فقط .

يشير هذا بوضوح إلي الدور الكبير الذي لعبه الاستعمار والحكومات الوطنية في تعميق حدة التفاوت الإقتصادي بين اقاليم السودان المختلفة. ففي حين ركز الاستعمار على الاقليم الشرقي إشباعاً لحاجاته اهتمت كل الحكومات الوطنية بهذا الأقليم حيث انفقت الجزء الأكبر من إستثماراتها في اقامة مشاريعها الكبرى، علاوة على احتواء هذا الاقليم لجميع مشاريع الري الحديث.

استمرت هذه السياسات طوال السبعينات والثمانينات وعهد الإنقاذ وازدادت الفجوة الإقتصادية والخدمية بين اقاليم السودان المختلفة. قادت هذه التفاوتات إلي اشتعال الحرب الأولى 1954- 1972، ثم ادى فشل الاستقرار السياسي والإقتصادي بعد اتفاقية اديس ابابا إلي الحرب الثانية.

الحرب الثانية كانت تعبيراً واضحاً وصريحاً عن رفض هذا التفاوت والعمل على تصحيح الفوارق والتفاوتات، وانتهت بانفصال الجنوب. لكن قبل ان تنتهي دخل الشرق في الصراع المسلح وانتهي باتفاق الشرق والذي لم يؤد لأي إختلاف في ازالة

---

<sup>207</sup> في سبتمبر عام 2000 أجمع قادة العالم في قمة الأمم المتحدة للألفية ويشتمل إعلان الألفية الذي صدر عن القمة وتبناه (189) بلداً (بما فيها السودان) على التزامات جماعية ملحة بالتغلب على الفقر تبلورت فيما سمي بأهداف التنمية للألفية

التفاوت. بدأت حرب دارفور، تلاها جبال النوبة والنيل الأزرق وهذه إشارة واضحة إلى استمرار نفس التركيبة التي ورثناها من الاستعمار.

## الخدمات الصحية

بدأ الانخفاض في الصرف على الصحة في السودان منذ السبعينات حتى أصبح في العقود الأخيرة مجرد فتات من الناتج العام. حافظ التفاوت الذي اثبتته الدراسة السابقة في المؤسسات والكوادر الصحية بأقاليم السودان المختلفة خلال طوال العقود الماضية وحدث تدهور عام في نسب مؤسسات الرعاية الصحية الأولية، الشفخانات، المراكز الصحية والمستشفيات، والتي ورغم النسبة الضعيفة لعدد المستشفيات في الأقاليم المختلفة فإن وجودها في المدن الصغيرة والمناطق الريفية محدود أو قد يكون منعماً. وينطبق الأمر على تركيز القوي العاملة في العاصمة بشكل خاص ومن ثم في عواصم الوسط وندرته في اغلب اطراف السودان.

إن ارتباط الصحة بالفقر اثبتته دراسات متعددة. استخدم شو وزملاؤه من منظمة الصحة العالمية، بيانات مسوحات الأسر المعيشية في 59 دولة لإستكشاف الآثار المترتبة على النفقات الصحية الباهظة. حدد الإنفاق بأنها كارثية إذا بلغت المنصرفات المالية للأسرة في النظام الصحي ما يتجاوز 40٪ من الدخل المتبقي بعد استيفاء احتياجات الكفاف. تفاوتت نسبة الأسر التي تواجه المدفوعات الباهظة من النفقات الصحية من جيبها على نطاق واسع بين البلدان. وكانت معدلات الإنفاق أعلى كارثية في بعض البلدان التي تمر بمرحلة إنتقالية، وفي بعض بلدان أمريكا اللاتينية.

وقد تم تحديد ثلاثة شروط مسبقة رئيسية للمدفوعات الكارثية: توافر الخدمات الصحية التي تتطلب الدفع، انخفاض القدرة على الدفع، وعدم وجود الدفع المسبق أو التأمين الصحي. إن الفقراء يلجئون لاستخدام المدخرات، أو الإعتماد على الشبكات الإجتماعية القائمة المساعدة والتضامن، ولكن أيضاً بيع الأصول الإنتاجية وتشغيل الأطفال لتغطية النفقات الصحية<sup>208</sup>.

أيضاً دلت دراسة عن نسبة الأسر التي تقع في الفقر نتيجة الانفاق الصحي الكارثي

<sup>208</sup> Xu K etal: Household catastrophic health expenditure: a multi country analysis. *Lancet* 2003; 362

هو 0.6٪، وتواجه الأسر الريفية 2.5 مرة أكثر من سكان المناطق الحضرية. ويزيد وجود طفل، شخص مسن أو معاق ما قبل المدرسة في المنزل من خطر وقوع الكارثة<sup>209</sup>. وقد أظهرت نتائج دراسة أجرتها منظمة الصحة العالمية في إيران أن الإنفاق الصحي الكارثي يدفع 1-1.4 ٪ من السكان للفقر كل عام<sup>210</sup>.

### الخدمات التعليمية

مثل كافة المؤشرات فإن هناك تدهوراً عاماً في إجمالي الإنفاق العام، اما على أساس التقسيم الإقليمي السابق للسودان فيمكن ملاحظة التفاوت في الإنفاق على التعليم في أقاليم السودان المختلفة، ويستمر التفاوت في الكوادر والخدمات التعليمية بين أقاليم السودان المختلفة منسوبة إلى إجمالي السكان في كل إقليم. وينطبق هذا الأمر على التعليم في مرحلة الأساس استناداً إلى نسب المعلمين/ الطلاب ونسبة التلاميذ / المدارس ونسبة المعلمين / المدارس. فهناك معلم لكل 15 طالب في الاقليم الشرقي ومعلم لكل 50 طالب في الاقليم الغربي. كما أن هناك مدرسة لكل 206 طالب في الاقليم الشرقي ومدرسة لكل 320 طالب في الاقليم الغربي.

ويمكن ملاحظة انطباق هذا الأمر على التعليم الثانوي، الفني، تعليم الكبار ومحو الأمية. ورغم أن معدل الالتحاق بالتعليم الأساسي لم ينخفض حيث ارتفع معدل الإلتحاق في مرحلة الأساس من 67.5٪ عام 2003 / 2004 إلى 67.8٪ عام 2004/2005، إلا أن القيمة الاجتماعية للتعليم قد تضاءلت لانه لم يعد يقدم أفقاً مستقبلية للحصول على وظائف منتجة، وفي الوقت ذاته يمثل التعليم أعباءاً مالية إضافية على الأسر. يؤثر هذا على الاناث بشكل كبير، أن حوالي 200 ألف فتاة في عام 2004 / 2005 في الشريحة العمرية للسكان عمر 6 سنوات خارج التعليم الابتدائي وأن 81٪ منهن من المناطق الريفية.

<sup>209</sup> Yardim MS etal: Catastrophic health expenditure and impoverishment in Turkey, Health Policy, 2010

<sup>210</sup> Jan; 94(1):26-33. الاقتصاد الإيراني هي ثاني أكبر في المنطقة بعد المملكة العربية السعودية مع إجمالي الناتج المحلي أكثر من 200 مليار دولار أمريكي في 2006.

## سياسات التوزيع

تعني توزيع الموارد والقيم المادية والمنافع، لتلبية احتياجات ومطالب المواطنين والمجتمع. هنا يتجلى الفرق بين كل الإستراتيجيات التي تبدأ من ربط هذه السياسات بخطة واضحة من الاستقرار السياسي- تعالج كافة قضايا التمييز والاقصاء سواء العرقي، الجندري أو الديني وغيرها- وتترجم هذا بالإستقرار بالعمل على تحقيق العدالة الإجتماعية ومعالجة التفاوتات الجهوية، الإجتماعية.

عندما نتعامل مع الفقر نعالجه من معالجة هذه القضايا وليست كقضية مسلم بحدوثها. يمكن ان تلجأ احياناً قليلة إلى وسائل الدعم الإجتماعي والمادي، لكن اساس الحل هو من خلال التنمية الشاملة "ماليزيا: النمو يقود إلى المساواة في الدخل، كوريا الجنوبية: الصناعات التصديرية كثيفة العمل وذات الأجر المنخفض، جنوب أفريقيا: التنمية في جميع المجالات، إصلاح العدالة وتقاسم الثروة والمساواة في الفرص والصين: معدلات نمو مرتفعة، العدالة في التوزيع، محاربة الفساد وتحقيق اندفاعه قوية في مجال الإبداع والتطوير والتجريب". ان المدخل لكل هذه التجارب إنه بحثت عن حل مشكلة الفقر من المدخل الشامل السياسي، الإقتصادي والإجتماعي، العدالة الإجتماعية، التي تغيب تماماً عن ادبيات الصندوق والبنك، اللذان مدخلهما سياسي إقتصادي فقط.

## موجات الفقر السودانية وخصائصها

نمط إستراتيجيات التنمية الموروث منذ القدم، والحروب التي خاضها الخليفة التعايشي وادت لانهايار حياة العديد من المجتمعات، كانت المصادر الاساسية لأول موجات الفقراء الذين توافدوا على المشاريع الزراعية في النيل الابيض، الجزيرة، القصارف. هؤلاء هم اجداد القبائل التي نزحت من دارفور وكردفان وشكلت القوى العاملة في هذه المشاريع. سكنوا الكامبوهات، القطاطي وبيوت الطين في الجزيرة ابا. ابناء هؤلاء تم استيعابهم في دائرة دولة التعليم والصحة المجانية واستطاع كثير منهم الافلات من دائرة الفقر.

الوضع الذي خلفه الاستعمار، استمر لحد ما في ضمان استقرار المجتمعات. الغالبية

العظمي من السكان ظلت صامدة في القطاع التقليدي الزراعي مع توفر السهولة النسبية في الحياة وعمل أنظمة التضامن الإجتماعي بكامل طاقتها، لكنها مع السنوات تخلفت من حيث تقنيات الإنتاج، التمويل، الإدارة، البحوث والإرشاد، الوصول إلي الأسواق والطرق الريفية. حتى نهاية الستينات كانت هناك هجرات للمدن للبحث عن عمل وتحسين ظروف حياة أفضل. هذه هي التي انشأت امتدادات المدن من الكلاكلة، الدروشاب... الخ. وللمتأمل في صور ثوار أكتوبر يجد الطبقة الوسطي ذات الملابس النظيفة، والوجوه المتوردة ولا نري أي من الفقراء ولا يظهر لهم اثر. الشعارات التي تم رفعها في أكتوبر كانت تعبيراً عن التوق للتوجه الذي ساد آنذاك، الاشتراكية ، أكثر منها عناويناً لثوار ذوي احتياجات محددة.

مع منتصف السبعينات بدأ السودان يشهد تحولات إجتماعية وإقتصادية اعنف واشد قسوة، بدأت الدولة بالاستجابة لمشورات الصندوق بالتخلي عن دولة التعليم والصحة المجانية، الانكماش في الوظائف والاجور، توزيع اراضي الزراعة المطرية بعد نزاعها من ملاكها الاصليين. لعب ارتفاع اسعار البترول بعد حرب أكتوبر 1973 دوراً كبيراً في زيادة الاسعار وعجز الدولة عن توفير الكميات الكافية منها لاجراض الزراعة. هذا هو عصر تأكل الطبقة الوسطي وفقدان التوازن بين الاجور وتكاليف الحياة. أيضاً عاني السودان آنذاك من سوء إدارة المشاريع الزراعية والعوامل الطبيعية من الجفاف الذي اصاب المنطقة. انعكس هذا أيضاً على الفقراء وبدأت **الموجة الثانية** بتكاثر اعدادهم، الزيادة والظهور في طرقات المدن وفي مجاري الامطار (ما اطلق عليهم بعد ذلك الشمساسة).

حتى هذه السنوات كانت الثروة متمركزة عند البرقراطية التي ورثت المشاريع والاعمال المملوكة والتي تم تأميمها عام 1970، وطبقة الرأسمالية الناشئة ( آل أبو العلا، آل الميرغني، آل المهدي، عبد القادر حاج الصافي، أبو رجيلة، الكوارنة، النفيدي، الشيخ مصطفى الامين... الخ). هذه الطبقة كان لديها من الوعي السياسي والإقتصادي وحدة الحس الوطني، مما يجعلها تعي تماماً اثار عدم التوازن بين الدخل والحياة المعيشية وعواقب الاحتكار.

مع اشتداد قبضة الصندوق على النظام، إنشاء البنوك والمعاملات الإسلامية ودخول الإخوان المسلمين ضمن حكومة النميري وبدء المصالحة الوطنية وفد إلي السلطة

نوع جديد من الرأسمالية، كان يتواجد دائماً على هوامش الحركة الإقتصادية ويلعب دوراً محدوداً فيها. نشأت هذه الفئة الرأسمالية- ما اطلق عليها الرأسمالية الطفيلية.

إن هذه الفئة التي تنامت منذ اواخر السبعينات، وكانت جزءاً من إستراتيجيات بناء حزب الإخوان المسلمين، ذات خصائص محددة في السودان، فهي نشأت بشكل مفاجيء، عكس رصيفتها الرأسمالية التقليدية، التي تطورت عن طريق إنشاء مشاريع إنتاجية او تجارية وعلى مدى زمني طويل استغرق اجيالاً من الاسرة. وهذا طبيعي لأن طبيعة عمل هذه الفئة ارتبطت بأنشطة ذات عائد سريع وكبير مثل تجارة العملة او تغييرها، الاراضي وتخصيصها، احتكار السلع ورفع الاسعار..الخ.

الخاصية الثانية انها تعتمد في نموها على علاقتها بالدولة وروابطها مع البرقراطية الحكومية. الخاصية الثالثة انها ضعيفة الحس الوطني (العملة، تجريف الاراضي هي أنشطة تخريبية للدول..الخ) وتعمل في الأنشطة غير الانتاجية، لاتعترف بالقوانين السارية وأخلاقيات العمل، الاجور او تأثير انشطتها على التدهور الإقتصادي العام. في هذه السنوات اندلعت حرب الجنوب الثانية في 1983.

هذه الفترة دفعت **بالموجة الثالثة من الفقراء**، بنوعين من الفقراء كانوا الأثر المباشر للسياسات التي سادت آنذاك. **النوع الأول** كان بدء هجرة الجنوبيين في رحلة عذاب طويلة إلى الشمال والدول المجاورة، المجموعات التي اسست أحياء اطراف حاج يوسف، مايو، السلام ...الخ. **النوع الثاني** أيضاً ترحلوا طويلاً بعدما اجتاحت المجاعة غرب السودان، وبالأخص إقليم دارفور، في عام 1984 مما حدا بهم إلى النزوح إلى أقرب مدينة بحثاً عن ضروريات الحياة حتى وصلت طلائعهم إلى معسكرات المويلح، الشيخ أبو زيد على مشارف أم درمان.

مع هذه المجموعات سيبدأ ظهور المنظمات الإسلامية المحلية أولاً، ثم ستتبعها المنظمات العالمية في السودان بشكل كبير، التي لن تغادر السودان بعد ذلك. من هذه المجموعات ستبدأ خصائص جديدة فقد هاجروا إلى مدن دولة الفساد والاستبداد الثانية وقد افل نجم دولة التعليم والصحة المجانية، ودخلوا دائرة فقر متشابكة لن يفلتوا منها لاهم ولا ابنائهم. هذه سنوات بداية إستراتيجيات محاربة الفقر لانها عمت القارة الافريقية بحروبها وكوارثها الطبيعية والجفاف الطويل.

عندما خرجت جماهير ضاق صبرها بالضنك، الظلم وفقدان الامن الإجتماعي يوم 26 ابريل 1985، بعد أن استفزها رئيسها في موكب الثالث من ابريل، كان مشهداً مهيباً، ضم كل ألوان الطيف من بقايا القوي الحديثة: القانونيين، الأطباء، الصيادلة، المهندسين. مع هؤلاء ظهر لأول مرة مشردي المدن، جائعي الاطراف ومهاجري الهوامش، ما اطلق عليهم الشماشة. لخص الكاتب صلاح عبداللطيف في كتابه عشرة أيام هزت السودان، حال الديكتاتور. يروي في صورة قلمية وصفت حال الحكام الذين كنستهم ثورات الربيع العربي لاحقاً "إن نميري عندما قام بالإنقاذ العسكري في 25 مايو 1969 كشفت الأحداث بعد ذلك أنه جاء كما لو كان مرتدياً ملابسه ثم راح عاماً بعد آخر يخلع أرويته قطعة قطعة، ولما جاء مارس 1985 بدا نظامه عارياً تماماً ولم تعد لديه حتى ورقة تستره لذلك كان السقوط مدوياً"<sup>211</sup>.

الاعوام التي تلت لم تشهد سوي محاولات بطيئة في حل المشاكل العالقة من دستور دائم، حل مشكلة الهوية والتفاوت الجهوي والمناطقي، مثلت تلك الفترة في أحسن حالاتها، إستراحة شعب أهلكه الغلاء، الفقر والتهميش. لقد كان أساسياً، ان قوى الانتفاضة والذين تحملت الكثير من السجون، الفصل التعسفي ودفع بعضهم دمائهم، رجعوا إلي الشارع يرفضون روشتة الصندوق القاتلة، وعدنا كاطباء نبحث عن تحسين الخدمة وتحسين شروط الحياة. في خضم الصراعات العنيفة للأحزاب الطائفية لم تلتفت للعدالة الإجتماعية لتضع الوطن في طرق سار فيها اخرون قبلنا.

لم يتوقف السادة الجدد من الرأسمالية الطفيلية الإسلامية عن النمو في ظل مهادنة الحكومة، في صيف الخرطوم تسلل اقل من 400 عسكري واستلموا السلطة. ماحدث بعد ذلك تناولته عقول السودانيين عبر السنوات، خاصة في المجال الإقتصادي من الخبراء الإقتصاديين: محمد إبراهيم كبح، دكتور ابراهيم الكرسي، د. مدثر أحمد أبو القاسم، محمد علي جادين و الكتاب البارعين: الاستاذ فتحي الضو، عبد الرحمن الامين، مصطفى سري واخرون كثر يغنون حياتنا يومياً.

**الموجة الرابعة من الفقراء**، كدسها نظام الإنقاذ طوال أكثر من عقدين والتي اوضحها الخبير الإقتصادي محمد إبراهيم كبح "إن معدلات الفقر في السودان بلغت في

---

<sup>211</sup> صلاح عبداللطيف: عشرة أيام هزت السودان، دار صنب للنشر والتوزيع، بدون تاريخ



الخرطوم 49 %، و90 % في شمال دارفور. أن نسب الفقر في عام 2009م، بلغت حسب دراسة أجراها الجهاز المركزي للإحصاء التابع لمجلس الوزراء «المسح الأسري» 46% من سكان السودان، وفي الخرطوم أكثر من 26 %، والولايات الشمالية 33%، وفي شمال دارفور بلغت 69%، وأن هذه الإحصائيات تؤثر لتفاوت كبير لا يمكن توقعه بالنسبة لبلد واحد". هذه الموجة تكونت من مدفعي الفقر – قدر عددهم 3-4 ملايين- الذي يعرفون بأنهم يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم، دفعت بهم الحرب المهلكة في الجنوب والشرق في عقد التسعينات حتى منتصف الالفية الثانية<sup>212</sup>.

النوع الأخير في هذه الموجة هم ضحايا حرب دارفور والذين تشردوا من قراهم الأمانة من واقع القمع القاسي تدمير المنشآت، الاعتداءات والاعتصابات. الذين قتلوا تقدرهم الجهات المحايدة بحوالي 300-400 ألف وهؤلاء هم الذين قادوا رئيس الجمهورية وآخرون إلي باب المحكمة الجنائية الدولية. الباقون تشتتوا في أكثر من 100 معسكر ووصلت أعدادهم لملايين عديدة. تبعم بعد قليل نازحي جبال النوبة والنيل الأزرق.

هؤلاء جاء لنجدتهم كل العالم، من قوات اليونميد التي تعد بالآلاف واقتعدت ربي دارفور في معسكرات اضخم من معسكرات اللاجئين. لقد أصبح الفقر السوداني صناعة ضخمة يعتاش عليها الاف الموظفين الدوليين، وتخدش حيائنا وكبرياءنا لأننا عجزنا أن نخطط طريقنا الذي يرتقي بنا إلي مستقبل أفضل للأطفال السودانيين. لقد افلحت الإنقاذ في أن تقيم أفضل نظام، واكفاً عملية لتوليد الفقر والعجز والاختفاق. وإذا ارادوا أن يفتخروا فبدلاً من سد مروي، مجموعة الكباري، مصانع السكر ومجموعة جباد (من المفترض انها كلفت حوالي 30 بليوناً، اذا حذفنا ديون النميري)، فليفتخروا أن بلادهم قد انتجت البترول الذي نجح في وضع أكثر من 50% من السكان تحت خط الفقر (أقل من دولار في اليوم) وعلى عتبة الفقر (دولارين في اليوم)

### من صناعة الفقر إلي مكافحة الفقر

في مرحلة الخمسينات ظهر الاتحاد السوفييتي بوصفه مقرضاً للدول النامية، بما فيها أكثرها فقراً وبشروط شديدة التساهل: منها سعر الفائدة المنخفض 2.5% و فترات

<sup>212</sup> أحمد يونس: خبراء يشكون في نصائح صندوق النقد للسودان، [http://www.alrakoba.net/news-](http://www.alrakoba.net/news-action-show-id-70662.htm)

السماح الطويلة. دفع هذا الدول الرأسمالية وفي محاولة لقطع الطريق على الاتحاد السوفييتي إلى إجراء تغيير حيوي في البنك الدولي تمثل في إنشاء: هيئة التنمية الدولية عام 1958 لتقدم قروضاً مدعومة من حكومات تلك الدول المانحة مع أسعار فائدة منخفضة وفترات سداد طويلة مع فترات سماح للدول الأكثر فقراً.

الإطار الذي تتحرك فيه الهيكلية الاقتصادية في العالم هو قاعدة تشغيل المال بالمال، فكان الاهتمام منصباً على تنمية (رأس المال المالي)، وأصبح (رأس المال التجاري) ثانوياً. المواقع التي تشغل فيها هذه القروض هي ميزان المدفوعات أو الميزان التجاري ثم المنشآت التحتية كالموانئ والمطارات والمصانع الكبرى، ثم العمل في أسواق المال والبورصات. يراقب الصندوق الدول ثنائياً وجماعياً. ولا تخضع الدول الصناعية الكبرى لأية مساءلة من جانب الصندوق<sup>213</sup>.

تحركت معالجة مشكلة الفائض الاقتصادي من خلق السوق الاجتماعي بديلاً عن السوق الحر. بدلاً من توجه الصندوق والبنك إلى خلق وتكوين الرأسمالية والراسماليين، اتجهت الاشتراكية إلى تصفيتهم وتقوية الدولة. ويوضح كتاب حول البرنامج، هذا التوجه بجلاء في حالة السودان وبدأت بضرورة وقف استنزاف هذا الفائض بواسطة رأس المال الأجنبي، ونهوض الدولة كعامل إقتصادي يطور البلاد وفق متطلبات التخطيط، السياسية المالية والضريبية اللازمة لتفجير الفائض الكامن.. الخ.<sup>214</sup>

أنتهت النظريتان إلى نتائج ليست مختلفة تماماً، فقد تم في السوق الحر إفقار قطاعات واسعة من الشعب، وكلما تطورت الطبقة الجديدة زاد هذا الفقر وتعمق. في السوق الاجتماعي عمم الفقر مع وجود شبكات امان في اول العهود ومن ثم تأكلها وآلت الثروة إلى نفس الفئات الطبقية، البرقراطية والتي تحولت إلى طبقة رأسمالية.

لقد اثبتت الدول التي استعرضناها سابقاً (ماليزيا، الهند، جنوب افريقيا، الصين، كوريا الجنوبية وكذلك البرازيل ودول اوربا الشرقية) أنها جميعا اعتمدت السوق الحر ولكن

<sup>213</sup> أبو غازي: صندوق النقد والبنك الدوليان وسيلتان مالتان للاستعمار الأميركي الجديد، 10.09.2012 ، <http://www.al-waie.org/home/issue/187/htm/187w03.htm>

<sup>214</sup> عبد الخالق محجوب: حول البرنامج، دار عزة للنشر 2000م

مع الحفاظ على قدرات عالية لقطاع عام – محدود في القطاعات التي لها ارتباط بالمجتمع كفاءة وفاعل واعتماد العدالة الاجتماعية وادخالها كجزء اساسي في عملية التنمية الاقتصادية الاجتماعية.

### مكافحة الفقر في البلدان منخفضة الدخل

أدى وضوح النتائج الكارثية لروشتة صندوق النقد الدولي لكافة البلدان النامية إلى وضع النقد الدولي منهجاً جديداً للتقليل من هذه الآثار، واسماها التركيز على خدمة الفقراء: "من شأن استراتيجيات الحد من الفقر ذات الأهداف المركزة أن تضمن إعطاء أولوية قصوى لاحتياجات الفقراء في إطار المناقشات المعنية بالسياسة العامة، خاصة في حالة اتساع قاعدة المشاركة في صياغة الإستراتيجية – بما في ذلك مشاركة عناصر من المجتمع المدني. فضلاً عن ذلك، يمكن لاستراتيجيات الحد من الفقر أن تضع البلدان "في موقع القيادة" لتسيير عملية التنمية فيها على أساس رؤية واضحة المعالم لمستقبلها وخطة منظمة لتحقيق أهدافها".

ويستند هذا المنهج الجديد إلى عدد من المبادئ التي تسترشد بها عملية وضع إستراتيجيات الحد من الفقر. وتتضمن هذه المبادئ ما يلي: (1) من الضروري وجود منهج شامل إزاء التنمية ورؤية واسعة لأوضاع الفقر؛ (2) تحقيق النمو الاقتصادي بمعدل أسرع هو عنصر حاسم من عناصر التخفيض المستمر لحدة الفقر، وزيادة المشاركة من جانب الطبقات الفقيرة من شأنها زيادة إمكانات النمو في البلدان المعنية؛ (3) من الاعتبارات الحيوية شعور البلدان "بملكية" أهداف التنمية والحد من الفقر، والإستراتيجية المتبعة لتحقيقها، والتوجه المعتمد في تطبيقه؛ (4) يجب أن تتعاون الدوائر الإنمائية تعاوناً وثيقاً في هذا الميدان، أما البنك الدولي فواضح أنه كبقية مجتمع التنمية، يركز جهوده على تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية التي أقرها أعضاء الأمم المتحدة في عام 2000 تستهدف هذه الأهداف تحقيق تخفيف مستدام لحدة الفقر.

تمت إعادة النظر في آلية التكيف الهيكلي المعزز عام 1999 واستبدلت بإستراتيجية تخفيض أعداد الفقراء (PRSP)، وكانت المبادئ الأساسية للإستراتيجية الخمسة: أن تكون نابعة من الدولة، تعزز الملكية الوطنية لاستراتيجيات واسعة النطاق من خلال مشاركة المجتمع المدني؛ أن يكون محركها الأساسي تحقيق النتائج التي ستعود بالنفع

على الفقراء؛ شاملة في تعريفها الطبيعة المتعددة الأبعاد للفقر؛ تنطوي على مشاركة منسقة من شركاء التنمية (الحكومة، أصحاب المصلحة المحليين، والجهات المانحة الخارجية)، وتعتمد على منظور طويل الأجل للحد من الفقر<sup>215</sup>.

إن كل هذا هراء لم يحدث، فالمجتمعات لا تسمع سوي أن الدولة تفاوض الصندوق ثم تعلن عن النتائج. تتسم المناقشات الثنائية بالسرية التامة يحرص فيها خبراء الصندوق وفنيوه على تحليل ودراسة سياسات الدولة العضو الاقتصادية، أوضاعها المالية، التأكد من مدي مطابقتها لقواعد السلوك الدولي وتبرّر هذه السرية بالحرص على سلامة القرارات الاقتصادية التي تتخذ بشأن الدولة<sup>216</sup>.

لو نظرنا لحالة السودان فقد ارتفعت الديون من الصفر تقريباً في نهاية الستينات إلي حوالي 43 مليار دولار في 2013، تصاعدت نسبة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر إلي حوالي 40% على احسن الفرضيات، 70% من الميزانية العامة تصرف على الامن والذين يدفعون ثمن ذلك هم الفقراء.

قال الخبير الاقتصادي محمد إبراهيم كبح إن معدلات الفقر في السودان بلغت 49% في الخرطوم، و90% في شمال دارفور، ما يعني أن كل سبعة أفراد من عشرة تحت خط الفقر، أما الثلاثة الباقون فليسوا أغنياء. يعتبر كبح التفاوت الاقتصادي أساساً للحرب، وأن اتفاقيات السلام لا تنهي الحروب، بل تنتهي بخلق التوازن التنموي بين الولايات، وأن الحكومة حصلت على موارد عالية بسبب البترول والذهب، لكنها استثمرتها في غير مكانها، ولم تحدث تحسناً وتوازناً في الاقتصاد والتنمية في السودان، ما حولها لحكومة في مهب الريح<sup>217</sup>.

يمكن أن نحمل الصندوق والبنك مسؤولية مشاكلنا، كما يفعل اصحاب نظرية المؤامرة وقادة الدول الفاشلة، لكن كما قال الصندوق عن نفسه فهو مصمم لهذا الدور ولديه اجنده واضحة. ليس مهماً حسن او سوء النية، لكن هذا ما يسمح به توازن القوى. أن الدول النامية وحكامها الفاسدين والمستبدين كانوا جزءاً من المسؤولية في هذا الانهيار، اذ قامت سياساتهم على المبالغة في الاقتراض دون مراعاة حد الأمان، مستفيدة من

<sup>215</sup> IMF: fact sheet IMF Extended Credit Facility (ECF), <http://www.imf.org>

<sup>216</sup> IMF: The Poverty Reduction and Growth Facility (PRGF)--Operational Issues <http://www.imf.org>  
<sup>217</sup> الشرق الاوسط، <http://www.alrakoba.net/news-action-show-id-70662.htm>

قروض قصيرة الأجل بدون توجيهها إلى مجالات إنتاجية حقيقية أو الاعتماد على التراكم المحلي لخدمة التنمية، التوسع في الإنفاق العسكري (وصل حتى 40% من نصيب الدول المشتري للسلح) ورغبة هذه الدول بتحقيق نمو سريع عن طريق التصنيع وهو ما لزم إستثمارات رأسمالية كبيرة عالية التكنولوجيا مما أدى لارتفاع واردات هذه الدول وحاجتها للاقتراض. إننا نعتقد أن الـ 43 مليار محصلة ديون السودان لم تظهر البتة في تنمية البلاد<sup>218</sup>.

لدينا الخيارات عند تأسيس الرؤية وبنائها وقد تعددت تجارب الدول عند التعامل مع الصندوق والبنك. قد نضطر للتعامل مع الصندوق لأننا في عالم لا نتحكم في آلياته، لكن الفيصل هو كيف نتحمل الجرعة المرة لسياسات الصندوق؟ لقد افادتنا التجارب أن نحدد اهدافنا بدقة عند قبولنا، نعتمد الشفافية مع الشعب في اقرارها، نوجه القروض لما حددناه بالضبط، ندرس الاضرار المترتبة ونقل بقدر الامكان من انعكاسها على الفقراء واخيراً نحدد من البداية إستراتيجية الخروج من الاعتماد على القروض المرة الطعم.

نختتم هذا الجزء باحدث وآخر تجارب الصندوق مع مصر، لخص محمد السخاوي طريق الدول التي ترغب في التطور والانعتاق من ربقة التبعية: "الطريق للنهوض والتقدم والإخلع من حالة التبعية بالنسبة لشعوب العالم الثالث هو التنمية المتمحورة حول الذات، أي التنمية المعتمدة على الذات، بنسبة لا تقل عن 75% من إجمالي تكلفة خطط التنمية الإجتماعية الشاملة في مجالات الإستثمارات المستخدمة في القطاعات المختلفة حسب أولويات الخطة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية الشاملة، ذلك لأن نهر التنمية ينبع من الوطن ويصب فيه، وهذه هي آلية التقدم والنهضة، أما الصندوق كآلية فإن المصب دائما يكون خارج الوطن، فيحرم الوطن من عائد الإستثمارات الأجنبية التي تجرى على أراضيهِ وتستنزف طاقاته المادية والبشرية<sup>219</sup>.

### تجارب الآخرين مع الفقر: كوريا الجنوبية

لقد شكلت كوريا الجنوبية ومعها دول شرق آسيا تجربة رائدة في التنمية الإقتصادية،

<sup>218</sup> مخطط البحث: السياسات التدخلية للبنك والصندوق، [firashiary.arabblogs.com/](http://firashiary.arabblogs.com/)

<sup>219</sup> محمد السخاوي: رسائل إلى الرئيس .. الرسالة الثانية: نحن نرفض قرض صندوق النقد الدولي، <http://www.moheet.com>

حيث استطاعت هذه الدول وخلال فترة قصيرة نسبياً لم تتجاوز الثلاثة عقود من أن تحقق نمواً هائلاً وتطوراً كبيراً، إذ انتقلت كوريا من بلد متخلف لم يتجاوز متوسط دخل الفرد فيه حوالي (100) دولار عام 1965 إلى بلد متطور وصل متوسط دخل الفرد به إلى أكثر من (10,000) دولار عام 1995.

عندما بدأت التجربة التنموية في الخمسينات من القرن الماضي كانت هناك نسبة مرتفعة من البطالة، قلة في فرص العمل ساهم بها الركود الإقتصادي في تلك الفترة، فلجأت الحكومة إلى استثمار هذه الميزة النسبية في الصناعات التصديرية كثيفة العمل وذات الأجر المنخفض. هذه السياسات أوصلت كوريا الجنوبية من الفقر المدقع إلى مصاف النور الآسيوية.

عندما واجهت كوريا الجنوبية الازمة الآسيوية 1998-1999، بعد أن وصلت الأوضاع الإقتصادية إلى حافة الانهيار وبعد أن استنزفت الاحتياطات الدولية ولمنع الانهيار التام في الاقتصاد الكوري، أعلنت الحكومة الكورية عن اتفاق مع صندوق النقد الدولي تحصل بموجبه الحكومة على قروض طارئة لحل الأزمة في السوق المالية، وسوق العملة مقابل تنفيذ برنامج إصلاح إقتصادي وضعه الصندوق. لم تلجأ كوريا للكواليس بل أفتتحت الحكومة اتحاد العمال وعامة الشعب بتحمل تبعات الإصلاح الإقتصادي. كانت القيادة السياسة الجديدة وعلى رأسها الرئيس كيم داي جونغ مصرة على التدخل الكبير لإصلاح ما أفسدته الأزمة المالية. خلال الستة أشهر الأولى من إعلان الاتفاقية بين الطرفين في ديسمبر 1997 طبقت الحكومة الكورية إصلاحات كثيرة لاستقرار الاقتصاد أدت إلى الخروج من الازمة<sup>220</sup>.

### **تجارب الآخرين مع الفقر: جنوب أفريقيا**

التي طالما مزقها الفصل العنصري والاستعمار، باتت الآن هي القوة الإقتصادية الأكبر في القارة السمراء، بفضل حسن استغلال مواردها، وقواها العاملة في مختلف المجالات، حيث أصبح شعارهم جميعاً "لا يمكننا تغيير الماضي، ولكن نستطيع تغيير

<sup>220</sup> عدنان فرحان الجوارين: دراسة تحليلية لمرتكزات نجاح التجربة التنموية في كوريا الجنوبية للمدة (1965-2005) الحوار المتمدن-العدد: 3451 - 9 / 8 / 2011

## المستقبل".

لقد بني مانديلا التجربة بعد زوال الحكم العنصري على ثلاث استراتيجيات متكاملة ومتداخلة:

**أولها** بناء الأمة عبر مد جسور التنمية في جميع المجالات وفي ذات الوقت،

**ثانيها:** إعادة تعريف وإصلاح العدالة التي غابت عن الحقب الماضية،

**وأخيراً** إعادة تنظيم الاقتصاد ومؤسسات الدولة على المدى الطويل للتأكيد على مبدأ حق تقاسم الثروة وتحقيق المساواة في الفرص.

لم يكتف مانديلا بتلك الخطوات المعنوية ولكنه إتجه لخطوات واقعية لإرساء الرضا والسكينة في نفوس السود والملونين ممن أضرّوا في الحقبة العنصرية. أعيدت الملكية للذين أُجبروا على ترك أراضيهم في الفترة من 1913-1994، وملّك الأرض لمن يجيدون الزراعة معلناً سعيه لتمليك السود نحو 30% من المزارع التجارية بحلول عام 2014. كما أصدر قانوناً لتحقيق المساواة في التوظيف في القطاعين الخاص والعام عرف باسم (Action Affirmative) وحدد به نسبة يجب ألا تقل عنها أعداد السود في الشركات، قانون تقوية الاقتصاد الأسود، تسهيل دخول السود عالم المال والأعمال الذي يسيطر عليه غالبية البيض لتحقيق المساواة في المجتمع. وتبني حزب المؤتمر الوطني برنامج إعادة البناء والتنمية منذ عام 1994 ثم تغير اسمها بعد عامين بعد فشلها في تحقيق المهام المنوطة بها، وتم وضع برنامج اسمه النمو، التوظيف، وإعادة توزيع الثروات، واستفاد من هذا البرنامج منذ عام 1996، وحتى اليوم نحو 12 مليون جنوب أفريقي<sup>221</sup>.

## تجارب الآخرين مع الفقر: الصين

وفقا لبيانات البنك الدولي، نجد أن عدد الفقراء الذين يعيشون بأقل من دولار واحد للفرد يومياً قد انخفض في الصين من 634 مليون نسمة في عام 1981 إلى 374

<sup>221</sup> نشوي الحوفي: جنوب أفريقيا..3 استراتيجيات لبناء الدولة، المصري اليوم، 31.01.2012 ، <http://www.almasryalyoum.com/node/630906>

مليون نسمة في عام 1990، ثم إلى 128 مليون نسمة فقط في عام 2004. بل إنه عند مقارنة نسب الفقراء الذين يعيشون على أقل من دولار واحد للفرد في اليوم إلى إجمالي السكان، نجد أنها قد شهدت انخفاضاً كبيراً كذلك، من 32% في عام 1990، إلى 9.9% فقط في عام 2004.

عند محاولة النمور الآسيوية الخروج من الأزمة التي عصفت بإقتصادات الدول المصنعة حديثاً في جنوب شرق آسيا، تبنت الصين رؤية مخالفة للأجندة الغربية التي تحاول التركيز على واقعها الداخلي. فبدلاً من التركيز الشديد على إعطاء الأولوية لإزالة العقبات أمام دخول رؤوس الأموال الأجنبية إلى البلاد، سعت الصين لبلورة إستراتيجية وطنية، كان من أهم محاورها:

**أولاً: تحقيق معدلات نمو مرتفعة:** ولا يعود نجاح الصين إلى موقعها المتميز أو مواردها الطبيعية. بل يعزي صندوق النقد الدولي أن الإستثمار في رأس المال المادي والبشري، مع تزايد الكفاءة، هو السبب في تفوق الصين والدول الآسيوية لتقفز بعيداً عن أمريكا اللاتينية وأفريقيا من منظور التنمية.

**ثانياً: العدالة في توزيع الدخل:** أن يصاحب المعدلات المرتفعة للإنتاج انتهاز سياسات توزيعية جادة، من شأنها ضبط العلاقة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع في جني آثار ذلك النمو المتحقق. ويعتمد في ذلك على تمكين السكان من الحصول على فرص للعمل، كسب العيش بكرامة وبصورة دائمة تضمن الحد الأدنى من حياة كريمة وبعيدة عن الفقر المدقع على الأقل. كما يعتمد النظام في تحقيق ذلك على سياسة دعم السلع، الخدمات الإجتماعية، وسياسة التحويلات الإجتماعية.

**ثالثاً: محاربة الفساد:** شن الحزب الحاكم خلال الفترة من 1995 وحتى 2002 حملة كبيرة على الفساد، وحرمت تلك الحملة على كبار رجال الحكومة والمؤسسات العسكرية القيام بأنشطة تجارية، لمنع التربح عن طريق استغلال المنصب، وسمحت لقوى وجماعات من خارج الحزب الحاكم بالتعبير عن نفسها من وقت لآخر. وبذلك فقد نجحت الدولة في وقف تزاوج المصالح فيما بين رجال الأعمال ورجال البيروقراطية في الصين، وهو ما يعد أحد أهم إنجازات الصين في محاربة الفساد.

**رابعاً: تحقيق اندفاعه قوية في مجال الإبداع والتطوير والتجريب:** تشير العديد من



الدراسات إلى تنامي القدرات الصينية التكنولوجية، وذلك من خلال الالتزام بسياسة واضحة تشجع نقل وإنتاج التكنولوجيا<sup>222</sup>.

### تجارب الآخرين مع الفقر: ماليزيا

بعد الاستقلال لم تتبع ماليزيا توجهات المؤسسات الدولية بل اختارت أن تتبع النماذج التنموية لجيرانها. إن أوربا أخذت فترة طويلة للوصول إلى التطور الذي هي فيه الآن، عكس كوريا واليابان حيث أخذت فترة قصيرة واستطاعت الوصول وبسرعة إلى التطور والتقدم الإقتصادي. ركزت ماليزيا بعد الاستقلال على محاربة الفقر، حيث كانت نسبة الفقر في ماليزيا ما يقارب 70 %، وعملت على تخفيضه في الثمانينيات إلى 30%، وتم تخفيضه في بداية الألفية إلى حوالي 5 %، ووصل في سنة 2010 حوالي 3.4% وتتوى ماليزيا لتخفيضه إلى 1 % ونسفه نهائياً.

تقوم فلسفة التنمية في ماليزيا على فكرة أن "النمو الإقتصادي يقود إلى المساواة في الدخل"، وعليه فإن مكاسب التطور الإقتصادي يجب أن تنعكس إيجابياً على المواطنين في تحسين نوعية حياتهم، بما يشمل توفير الضروريات من الغذاء، العلاج، التعليم والأمن، وأن يكون أول المستفيدين من هذا النمو الإقتصادي هم الفقراء، العاطلون، المرضى والمجموعات العرقية الأكثر فقراً في المجتمع والأقاليم الأقل نمواً.

تمثلت إستراتيجية توزيع الدخل في ماليزيا على إعادة هيكلة العمالة، زيادة تنمية الأعمال التجارية والصناعية للأغلبية الفقيرة من السكان الأصليين، حتى يتمكن السكان الأصليون من الانتفاع من الثروة القومية للبلد؛ مما أفضى إلى نتائج مهمة، منها انخفاض معدلات الفقر وتناقص فوارق الدخل بين المجموعات السكانية المختلفة. وكان دور القطاع غير الحكومي في التخفيف من نسبة الفقر في ماليزيا هو وضع اعتبار كبير للمرأة، حيث أن المرأة تمثل نصف المجتمع، والمرأة ساهمت وتساهم في خلق ثروة كبيرة للاقتصاد خاصة إذا كانت متعلمة<sup>223</sup>.

عالجت ماليزيا فقر وتخلف إحدى مجموعاتها العرقية عن طريق المعاملة التفضيلية

<sup>222</sup> محمد حسن يوسف: لماذا نجحت الصين فيما فشلنا نحن فيه؟،

<http://www.saaaid.net/Doat/hasn/117.htm>

<sup>223</sup> المعجزة الماليزية: <http://rayanaljazair.com/vb/showthread.php?p=117265>

من قبل الحكومة الماليزية للمالاي، وهدفت منها بالأساس إلي تحسين أوضاعهم الإقتصادية، التعليمية والثقافية المتردية وليست لتمييز المالاي عن غيرهم من العرقيات. رأت القيادات الماليزية المتعاقبة أن وجود تمييز عرقي موجه ضد شعب المالاي أصحاب البلاد الاصليين، يعني حتما عدم إمكانية قيام امة ماليزية بالمعني الصحيح، وبالتالي استحالة تحقيق التنمية والتقدم في ظل غياب العدالة العرقية في ماليزيا. اعتمدت هذه الخطط التنموية التي تحارب الفقر علي فلسفة النمو المصحوب بالعدالة التوزيعية، وهو ما ادي الي الحفاظ علي الوحدة الوطنية، تحقيق تقدم ملحوظ في القضاء علي الفقر سواء المدقع أو النسبي، وهو ما تشير إليه الإحصاءات وما توضحه الأرقام.. بمعنى آخر التوزيع العادل لثمار التنمية حقق الوحدة الوطنية وقضي علي الفقر<sup>224</sup>.

لقد حاربت ماليزيا البطالة بدراسة أسبابها وتوصلت أنه لابد من التحول لبلد مصنع للمواد الخام بدلاً من تصديرها، حتي تستوعب البطالة وتحد منها والنظرة الجادة للعدالة الإجتماعية. عبرهذين الطريقتين، حققت ماليزيا تجربة رائدة في محاربة البطالة. بمعنى إنها تحولت من بلد مصدر للمواد الخام إلي دولة يعتمد اقتصادها علي مجالات خدمية وصناعية متعددة. انطلقت التجربة الماليزية في سبعينات القرن الماضي بعد الكثير من البلدان العربية؛ التي لا زالت تعاني معدلات مرتفعة من البطالة. وذكرت آخر الإحصائيات، أن معدل البطالة لعام 2010م، في هذا البلد الآسيوي، انخفض إلي نحو 3٪ فقط، بعد أن كان متوسطه يناهز 10٪ خلال فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

### **تجارب الآخرين مع الفقر: البرازيل: لولا دي سيلفا وبرنامج صفر فقر**

عندما تسلم رئيس البرازيل السابق "لولا دا سيلفا" (2003-2010) مقاليد الحكم، كانت البرازيل تشرف على الإفلاس لعدم قدرتها على سداد دين خارجي كبير. وأصبح رئيساً لدولة يقترب عدد سكانها من 200 مليون مواطن يعاني أغلبهم من

<sup>224</sup> محمود عطية: صاحبة أحدث دراسة عن النهضة الماليزية: جريدة الأخبار المصرية : 03 - 11 - 2011، <http://www.masress.com/elakhbar/54702>

كوارث إجتماعية متمثلة في الفقر، الجوع والبطالة وغيرها، وسط آمال وطموحات عريضة من ناخبين أعطوه أصواتهم، ليكون لهم بمثابة طوق النجاة من هذا الظلم الإجتماعي، الذي توارثته أجيال وراء أجيال في تلك الدولة وخاصة باعتباره رئيساً ذو خلفية عمالية وانتماء يساري قوي.

تبنى لولا سياسات يسارية لحل معضلة الفقر البرازيلي ولانجاز تقدم قوي في تحقيق العدالة الإجتماعية، من جهة أخرى انتهج سياسات ليبرالية تفوق كل أحلام شريحة الرأسماليين لحماية صناعاتهم وإستثماراتهم، لدرجة جعلت هذه الطبقة أكثر تأييداً لحكم لولا من الطبقتين الوسطى والفقيرة. مثل لولا البطل ذو الشعبية المطلقة، لدرجة أن شعبيته كادت تصل إلى 80% قبيل انتهاء فترة رئاسته الثانية وكان هناك مطلب شعبي عارم بتغيير الدستور لتمكينه من فترة رئاسية ثالثة، إلا أنه رفض وفضل دعم "روسيف" مرشحة حزبه ورئيسة وزرائه السابقة. كيف نفذت البرازيل معجزتها؟.

أولاً: نفذت البرازيل برنامجاً للتقشف وفقاً لخطة صندوق النقد الدولي "ورثه من الرئيس السابق له" بهدف سد عجز الموازنة والقضاء على أزمة الثقة، والمهم أنه عند تولي "لولا" الرئاسة لم يتراجع عن هذا البرنامج الذي كان قد بدأه سلفه "كاردوسو" بل استمر فيه على غير توقعات ومخاوف الطبقات العليا، حيث لجأ للصراحة والمكاشفة وأعلن أن سياسة التقشف هي الحل الأول والأمثل لحل مشاكل الاقتصاد، وطلب دعم الطبقات الفقيرة له والصبر على هذه السياسات، وقد كان له ذلك بسبب شعبيته ونجاحاته المتتالية.

ثانياً: تم توفير تسهيلات ائتمانية، وهو ما سهل الإقراض بالنسبة للمستثمرين الصغار، ومن ثم أدى ذلك إلى تسهيل إقامة المشروعات الصغيرة وتوفير فرص العمل.

وثالثاً: التوسع في الزراعة واستخراج النفط والمعادن. اتجهت السياسات الإقتصادية في هذا الشأن إلى الاهتمام بشقين، الأول هو الصناعات البسيطة القائمة على المواد الخام مثل تعدين المعادن والصناعات الغذائية والجلدية والنسيج، أما الشق الآخر فهو الصناعات التقنية المتقدمة وتنشيط قطاع السياحة<sup>225</sup>.

<sup>225</sup> أمل مختار: تجربة النمو الاقتصادي في البرازيل: نموذج استرشادي لمصر، <http://acpss.ahramdigital.org.eg/News.aspx?Serial=84>

## الطرق المباشرة لحل مشكله الفقر (الإعانات الإجتماعية)

كان في قلب هذا الجانب سياسة الإعانة البرازيلية المعروفة بـ (بولسا فاميليا). يقوم البرنامج على أساس إعطاء معونات مالية للأسر الفقيرة بقصد رفع مستواها وتحسين معيشتها، على أساس أن تُعرف الأسر الفقيرة بأنها الأسرة التي يقل دخلها عن 28 دولار شهرياً. تم ربط هذه المعونات بشروط صارمة تشمل التزام الأسرة بإرسال أطفالها للتعليم والحصول على الأمصال واللقاحات للأطفال بشكل منتظم. كما تصرف هذه الإعانات للام بهدف ضمان صرفها لتحسين ظروف الأطفال والأسرة. كان هدف البرنامج هو مساعدة الأسر حتى تستطيع أن تترك الأطفال يتعلمون ولا يجبروهم على ترك الدراسة من أجل العمل، وهنا تكمن الاستفادة الحقيقية وهو تحويل مسار أبناء الفقراء حتى لا يكون الفقر والمرض وراثياً وطبقياً. برامج "لولا" لم تقض على الفقر تماماً ولكنها حركت ملايين الأسر من منطقة الفقر إلى منطقة "الطبقة الوسطى الجديدة".

## دروس تجربة لولا الإقتصادية في البرازيل

لم تكن التجربة البرازيلية فقط تجربة "لولا دا سيلفا" أو سلفه "كاردوسو" وخليفته "روسيف"، بل هي تجربة نجاح ما كان لها أن تحدث لو لم تتوفر إرادة شعبية حقيقية ووعي جماهيري لأهمية النهوض، فالشعب البرازيلي بطبقاته الفقيرة هو من تحمل أعباء سياسات النقشف حتى تعافي الاقتصاد البرازيلي وهو الذي ينتج ويصدر.

وقد بنيت النجاحات على ضرورة توفر الرؤية الواضحة، الإرادة السياسية القوية، الصدق والشفافية في التعامل مع الجماهير. إن ما تحقق من انجاز إقتصادي كبير على أرض الواقع في البرازيل، لم يكن ليتم في غياب ذلك المناخ الديمقراطي الراسخ. تقدم التجربة البرازيلية تصوراً عن حل المشكلات المتعلقة بالعدالة الإجتماعية والفقر، يتلخص في أن هذا الأمر لا ينبغي أن يتم بعيداً عن مراعاة حقوق الطبقات الغنية واخيراً أن من المهم جداً في البداية أن تصب كافة الجهود على حل مشكلات الداخل، ثم في وقت لاحق تستخدم هذه النجاحات الإقتصادية لمزيد من النجاح في السياسة الخارجية.

## تجارب الآخرين مع الفقر Make Poverty History

بدأت أكبر حركة عالمية لمكافحة الفقر عام 2005، وعرفت باسم لنجعل من الفقر تأريخاً وقد كان من أبرز من أطلقوها بوب جيلدوف. في عام 1984 وبعد سماعه لتقرير بي بي سي نيوز عن المجاعة في إثيوبيا والسودان، عمل لتعبئة عالم موسيقي البوب وكتب اغنية الشهيرة "هل يعلمون انه عيد الميلاد؟" من أجل جمع الأموال. واستطاع بمساعدة آخرين اطلاق اكبر حفل عالمي باسم نحن العالم عام (1985). انبنت مبادرة لنجعل من الفقر تأريخاً عام 2005، باقناع زعماء قمة الثمانية على تبني حلول لمكافحة الفقر، وكانت النتيجة لجنة أفريقيا. دعا بلير، جيلدوف و16 مفوضين آخرين، معظمهم من أفريقيا وكثير منهم ساسة في السلطة، لإجراء دراسة لمدة عام عن مشاكل أفريقيا. وتوصلو إلي: أن أفريقيا تحتاج إلي تغيير، لتحسين الحكم ومكافحة الفساد، وبأن على العالم الغني العمل على دعم هذا التغيير وهذا يعني: مضاعفة المساعدات العالمية بنسبة الضعف، إلغاء الديون على الدول الفقيرة وإصلاح قواعد التجارة العالمية.

وضعت اللجنة خطة مفصلة للكيفية ولاحقاً أصبحت توصيات اللجنة مخططاً للتعامل مع الديون الأفريقية وحزمة المساعدات. رغم النوايا الطيبة للعاملين في هذه المبادرات، لم تكن هي الطريق لبناء الدول، فالدول تبني من جهد ابناء الاوطان<sup>226</sup>.

### الطريق السوداني لازالة الفقر والعطالة

من رصدنا للتجارب العالمية نرى إنها جميعا تصدت للفقر والعطالة بانحيازات إجتماعية وإقتصادية واضحة. لن يفيدنا الانتقال من مؤشر البنك الدولي (كان السودان يشغل الرقم 83 عام 2007 و94 عام 2008) إلي مؤشر الجوع العالمي. او من صياغة برامج المنظمات الدولية التي لاتنفذ. نرى أن الفقر صناعة محلية وحلها محلي، وحلها يكمن في توجيه موارد الميزانية (10% سنوياً)، عبر هيئة وطنية عليا، مشاركة منظمات المجتمع المدني، ترصد للقضاء على الآليات التي تسببها، خلق فرص للعمل والتخلص منها وفق سياسات، خطط وبرامج.

---

<http://www.makepovertyhistory.org/2005/unsummit05.shtml> <sup>226</sup>

## البرنامج الإقتصادي الإجتماعي

أحد أهم أهداف التنمية الإقتصادية الإجتماعية هو اعتماد العدالة الإجتماعية كمدخل في معالجة الفوارق الكبيرة بين مختلف فئات الدخل، وبين المجتمعات الريفية والحضرية وكل المناطق داخل الدولة. هذه هي التي قادت إلي الحروب الجهوية المستمرة، أدت لانفصال الجنوب وعدم الاستقرار<sup>227</sup>.

أولاً: نبدأ من الأساسيات ونوقف طوفان الرأسمالية الطفيلية المستشري، المدخل هو تعديل السياسات النقدية، التمويلية والضرائبية. لقد خطت الدول جميعاً، حتى الولايات المتحدة في تطبيق الحزم القانونية، التمويلية، التمييز الايجابي لبعض الأنشطة وغيرها للحد من هذا النشاط إلي الحدود المقبولة في بنية اقتصاد رأسمالي. هذا ليس صعباً إذا وصلنا جميعاً لفهم مشترك من كافة الفئات ذات المصلحة من الأحزاب، قوى المجتمع المدني، القطاعات العاملة في المجالات المختلفة وخاصة الرأسمالية بكافة أنواعها، المبدأ أن هؤلاء جميعاً شركاء أساسيين في التنمية ولا بد ان يشاركوا في اتخاذ القرار بشكل شفاف وليس تحت التريزة.

ثانياً: نعيد النظر بشكل موضوعي عن دور القطاع العام في الاقتصاد في ظل الظروف الراهنة، في نمط الإستثمار في البنية التحتية للدولة كشريك نشط وقادر على أحداث التغييرات التشريعية والإدارية المطلوبة ودور الدولة كميسر فعال للتعويض عن قصور آليات السوق في تقديم السلع العامة (نعني بها في السودان التعليم العام، الصحة، الري، مياه الشرب وغيرها).

ثالثاً: العنصر الأساسي في التنمية الإقتصادية، هي أنها إستراتيجية شاملة لتحقيق الأمن الغذائي الوطني وهو شرط ضروري لرفع إنتاجية القوى العاملة في السودان إلي مستويات دولية. الهدف الأول تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وبعد ذلك، من خلال تزايد المخزون الفائض من الحبوب الغذائية يوجه للتصدير وخلق فرص عمل جديدة والنمو الإقتصادي.

هذا التوجه في جوهره يقوم على المعرفة والأبحاث. لا يمكن حل مشكله النقص

<sup>227</sup> Planning Commission, Government of India: India Vision 2020, New Delhi, December, 2002

المزمن في الغذاء عن طريق سياسات واحدة من مثل: الزيادة في إنتاج الغذاء أو تراكم أكبر مخزون احتياطي الغذاء، إصلاح نظام التوزيع أو برامج العمل المستهدفة التغذية كلها تخفف من المشكله مؤقتاً. ولكن في المدى الطويل، فإن الحل هو ضمان فرص العمل لجميع المواطنين بحيث يكتسبون القوة الشرائية لتلبية احتياجاتهم الغذائية.

**رابعاً: الخدمة المدنية:** ورث السودان خدمة مدنية ذات كفاءة في أداء متطلبات المستعمر وكما حدث لكل القطاعات فقد تم المحافظة عليها في نفس إطارها برغم اختلاف نظام الحكم ومفاهيمه. حتى أكتوبر سارت الخدمة المدنية تنجز ما هو مطلوب في بلد ذو مجال مدني محدود. في أكتوبر حدثت أول محاولة للتعامل مع الخدمة المدنية واركتب ما يسمى الصحيح سياسياً ولكن المخطئ تقنياً. فبدلاً من أن تنتظر للخدمة المدنية كنظام وتدخل عليه الإصلاحات المطلوبة، تبنت الأفكار التقليدية عن الفساد الفردي وطرحت التطهير. حتى هذه لم تعالجها من خلال قوانين الخدمة المدنية واحترام المؤسسية وبذلك بذرت المبرر الأخلاقي والسياسي لما سيشكل أخطر وأسرع وسائل تدهور الدولة السودانية. لعله من نافله القول أن التوسع فيما سمي قوائم الصالح العام والتي مارسها الحكم العسكري الثاني، وصل بها الإنقاذ إلي حد الإحلال الكامل للخدمة المدنية من أعضائه وبمن صدق لا بمن سبق. أدى هذا على مر السنين إلي التدهور في الأداء والكفاءة والتسيب والفساد والرشوة.

في التصدي لقضايا الخدمة المدنية السودانية نحتاج للإصلاح المؤسسي الذي ذكرناه سابقاً، لكن هذا وحدة لن يكفي في خدمة تعرضت لتشويع طويل. يفترض التعامل مع تطوير الخدمة المدنية أن نبدأ بالنظرة الكلية، فمشاكل الخدمة المدنية تبدأ من الاستقرار السياسي والرضا العام عن الدولة، الإحساس بالمواطنة المتساوية، توفر الحقوق والحريات الأساسية خاصة حرية العمل النقابي، الإعلام والتعليم ومناهجه.

لا نعيد اختراع العجلة في إصلاح الخدمة المدنية، فهي من أكثر المجالات التي بها تجارب إقليمية وعالمية مجربة. ولكن أول ما نحتاج تعديل قوانينها لتتماشي مع الأسلوب الديمقراطي في إدارة شؤون البلاد، ومن ثم إيجاد التوازن بين مجالات أربع: ضمان وجود عدد كاف من الموظفين على جميع المستويات (النوعيات المطلوبة، عداله التعيين، التوزيع المناسب..الخ)، تحديد الكفاءة والمهارة المطلوبة لكل مهنة

(إطار وطني للكفاءة والمهارة، وسائل دعم الكفاءة وخطط التطوير...الخ)، توفير أنظمة الدعم المطلوبة كل حسب مجاله (المعلومات، الدعم اللوجستي، التخطيط... الخ) وخلق بيئة عمل مواتية (توفر السياسات والإجراءات، المعايير الوطنية، المتابعة الداعمة، الكرامة والكينونة، الحوافز المادية وغير المادية وأنماط تحمل مسؤولية القرارات).

**خامساً: الخدمات التعليمية:** قضايا التعليم لا تنفصل عن الأزمة السياسية للوطن وحلولها مرتبطة بالحل الشامل، تنطلق في مجملها من النظر إلي التعليم كرافعة للتقدم والتنمية وإزاله التشوهات المنطقية والجهوية. التعليم الذي أهمل طوال العقود من الأنظمة جمعاء في عهود الحكم العسكري والديمقراطي. إن أهمية التعليم ليس ترفاً ومجرد حق ولكنه بوابة الدخول لسودان المستقبل أذا شئنا أن نبني الوطن. إن الدول التي وضعت نفسها في مسار التقدم وضعت نصب عينها تطوير التعليم (كوريا، الهند، البرازيل..... الخ) مما فسرهما وأوضحها الدكتور منصور خالد في عدد من كتبه ومقالاته أيما توضيح.

إن المدخل لأي إصلاح في التعليم يبدأ من التزام الدولة بمسؤولياتها الاجتماعية ورفع مساهمة الدولة لتبلغ 15% من الميزانية السنوية للدولة. (حدث التغيير الكبير في التعليم السوداني والخدمات الصحية عندما كان عبد الرحمن علي طه وزير المعارف وعلي بدري وزيراً للصحة وصار التعليم والصحة يساويان خمسة وعشرين في المائة من ميزانية الدولة). إن المسؤولية تعني التزام الدولة بتوفير تعليم مجاني أساسي بكافة مستلزماته.

إن هذا يستدعي إعادة النظر في السلم التعليمي، وأود هنا أن اسطر بوضوح أنني مع النظام القديم المبني على نظام الأربع سنوات ولكنني لست متحيزاً ضد أي نظام. يستدعي هذا أيضاً إعادة النظر في الخارطة التعليمية وإعادة توظيفها بناء على حاجة سوق العمل والاحتياجات مبنية على مؤشرات النمو ووتائر التنمية. التعليم رافعة إثراء التعدد وإدخال المجتمعات المتنوعة عن طريق وضع لغاتها، ثقافتها وأغانيتها واحترامها في العملية التعليمية. كافة الأعراق في سودان المستقبل لها صوت يكفله الدستور وتسن له القوانين والسياسات والخطط.



كانت المناهج التعليمية مرتعاً خصباً لكافة الأنظمة الحكم العسكري لفرض تصوراتها الشائنة على العقول الصغيرة، التشويش والخلط، حتى أصبح هناك تناقض مريب بين ما يمارسه الصغار في منازلهم وبين ما يدرسونه في الفصل الدراسي. إن بداية ترسيخ المفاهيم الديمقراطية وتحويلها من شعارات وأناشيد وأغاني إلي سلوك ناظم لحركة المجتمع، هو إدخال هذه المفاهيم عن طريق تحويلها إلي مواد في المناهج الدراسية على كل المستويات.

إن هذا التحول إلي التعليم من أجل التنمية، هو تحول كامل للتعليم والمسئولية الإجتماعية ويقودنا إلي التخلص من الخصخصة الشائنة التي حدثت في مجال التعليم، والتي قادها الطفيليون وحولوا التعليم إلي مجال لتراكم الثروة، غسيل الأدمغة ونشر الفكر الإقصائي. إن من أول واجبات إصلاح التعليم هو فصل التمويل عن العملية التعليمية، تحديد المناهج الموضوعية بواسطة وزارة التربية والتحكم في التسعيرة وغيرها.

مدخلنا إلي هذه القضية الخروج من آثار إعادة هيكله الإقتصادية ووصفات البنك الدولي حول تكلفة الخدمات الإجتماعية. وإن تعود الخدمات الأساسية التعليم والصحة جزءاً من المسئولية الإجتماعية للدولة، ورفع المخصصات إلي 15% من الناتج الإجمالي القومي لكل منهما، وهذا سهل إذا توقفنا عن الحرب الأهلية، واعدنا ميزانية الدفاع والأمن إلي حجمها الطبيعي. سال حبر كثير حول التعليم، عقدت المؤتمرات وورش العمل ولكن يرتبط كل ذلك بالالتزام السياسي المفقود في ظل الأوضاع السائدة.

قضايا التعليم واضحة ومباشرة يحسها كل مواطن، وتحتاج لعقد سياسي ملتزم ضمن عملية التحول الديمقراطي بتطوير كافة مكونات العملية التعليمية من المعلمين (الإعداد، التدريب المستمر، تحسين الأجور وتوفير معينات التدريس)، المنهج (مناهج قائمة على حل المشاكل، مشاركة المعلمين والخبراء، التوسع في التعليم الفني والزراعي والتقني، التدريب، إدخال التقنيات الحديثة في العملية التعليمية، المراجعة والتحديث)، الطلاب (التعليم المجاني في التعليم ما قبل الجامعي، توفير الأدرج والكراسي والكتب) والبيئة المدرسية (النماذج المعتمدة في مباني المدرسة، الأنشطة خارج المنهج، ديمقراطية العمل الطلابي في المراحل الثانوية وحرية التعبير).

تناول د. أحمد إبراهيم أبو شوك بشكل مبدع العناوين الرئيسية لإصلاح التعليم العالي: "ضرورة تعزيز الحرية الأكاديمية في الجامعات السودانية، وتحديث نظمها الإدارية، ومدها بكفاءات مهنية مدربة، وترسيخ الشفافية في إجراءات التعيينات والترقيات، وإصلاح مقارها الحالية والخدمات المصاحبة لها، وتوفير الدعم المالي اللازم للبحث العلمي والطلبة النابهين. ويتبع هذه الخطوات الإجرائية ترقية أكاديمية في تصميم المناهج الدراسية، ترافقها إدارة جودة شاملة ومستدامة، يراعي في تطبيقها مرتكزات الهوية السودانية والمعايير القياسية المستخدمة على الصعيد الدولي في ضبط الجودة الخدمية وتجويد العطاء المهني ومخرجاته البشرية في الجامعات"<sup>228</sup>.

وعلى نفس المنوال فإن أي حديث عن التحديث والتنمية والديمقراطية "لن يجد ما لم نبدأ بإصلاح جذري لنظام التعليم العام والعالي وعلى أسس علمانية بحيث تشق المؤسسات التعليمية طريقها مستقلة وبمنهج يهدف لخلق عقول حرة تملك القدرة على الإبداع والابتكار والتفرد. ودون ذلك سنبقى في أسفل قائمة الأمم المغلقة والمنكفئة على ذاتها"<sup>229</sup>.

سادساً: الخدمات الصحية: مثل انسحاب الدولة من الخدمات الصحية مبكراً، بداية التدهور المستمر في حياة المجتمعات، فقد انتشرت الأمراض التي كانت قد اختفت أو لم تكن أصلاً موجودة في كافة أنحاء الوطن إلى حد أن مرضاً كالمalaria التي أصبح من التأريخ في معظم دول العالم، يمثل أكثر من ثلث أسباب الوفيات، وصار السودان متحفاً لكل الأمراض التي وجدت في العالم.

مدخلنا إلى الخدمات الصحية، أن نعود إلى دوره الرفاه الاجتماعي في خطي أفضلها، اعدلها وأكثرها كفاءة وهو النظام الصحي الوطني في تطبيقاتها الحالية والمبنية على الرعاية الصحية الأولية، اللامركزية الحقيقية رفع قدرات العاملين. نظام مجاني يعتمد على الضرائب في التمويل ويخصص له 15% من ميزانية الدولة السنوية. يقوم النظام الصحي على طبيب الأسرة في المدن والمجتمعات الكبرى والأشكال المبتكرة

<sup>228</sup> د. أحمد إبراهيم أبو شوك: التعليم العالي في السودان: الثورة والواقع؟ (www.sacdo.com)

<sup>229</sup> قراءة في واقع التعليم العالي.. هل يعمل لاعداد قادة المستقبل؟ جريدة الايام : العدد رقم: الاربعاء العدد 9170 29-07-2008.

في القرى والفرقان، مما أبدعت فيه العقول السودانية. كل هذه تتولاها المجالس المحلية والبلديات إشرافاً وتمويلًا حسب ميزانيات حقيقية وليست ورقية.

المهمات، الواجبات والأولويات تمت دراستها مراراً وتكراراً من منظمة الصحة العالمية والمنظمات الأخرى العاملة في الصحة، ولكنها لم تمثل أولوية في أجندة الأنظمة ووضعت فوق الأرفف. لقد نشطت الوزارة في مجالات عدة ولكن كل جهودها تضيع لأنها محكومة بنظام شمولي، سياسات رزق اليوم باليوم، أسس الاختيار الحزبية، عدم الإنصاف في الترقيات وتجريد العاملين من منظماتهم النقابية الديمقراطية.

المشاكل والتحديات التي تواجه الصحة ليست وقفاً علينا، والحلول لا تحتاج لإعادة اختراع العجلة، لكن لقيادة تجيء نتاج الاختيار العادل، الشفاف، إعادة الحياة للتقاليد، المصداقية والنزاهة. يحتاج العاملون الصحيين إلي الرعاية والعناية. المدخل الرئيسي يبدأ بإعادة النظر بإصلاح التعليم الطبي والصحي، إنهاء الفصل القسري بين إنتاج الكليات الصحية والخدمة والتي أدت لكثير من الإختلالات الهيكلية، الوظيفة والكفاءة.

# الجزء الثاني

## ممهّدات الرؤية

الفصل الأول : نقاط القوة والضعف السودانية

الفصل الثاني : الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: الزراعة والحيوان

الفصل الثالث : الكفاءات الأساسية: المياه

الفصل الرابع : الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية: المعادن والبترو

الفصل الخامس: القوى البشرية السودانية و التكنولوجيا

الفصل السادس: التنوع البيئي

## الفصل الأول: نقاط القوة والضعف السودانية

عندما نال السودان إستقلاله كانت هناك نقاط قوة كبرى في البلاد مما يسمى الكفاءات الأساسية (core competencies). فما هي الكفاءات الأساسية؟ يعني أنه في قطاعات الدولة هناك بعض نقاط القوة الكامنة حيث يمكن أن تظهر نتائج أفضل في أقصر وقت. هناك بعض الأمور التي يمكن أن تفعل الكثير بنفس الإرادة والجهد، إما بسبب وجود بيئة تمكينية أو بسبب تجربة أفضل. رغم ذلك ليس هناك اتفاق عام على هذه النقاط القوية لأن هناك تفاوتاً شديداً في تواجد هذه الكفاءات الأساسية في اطراف الدولة ومناطقها المختلفة. رغم ذلك فاننا يمكن أن نحدد بعض جوانب الكفاءة التي وجدها الرواد بعد الاستقلال.

ترك الاستعمار اربعة أنظمة مهمة: نظام الحكم، نظام الإدارة، الخدمات ومشروعات ناجحة. لقد ترك لنا المستعمر نظام حكم ديمقراطي تعددي، دستور مؤقت به حريات واسعة كان صالحاً للتطوير واستيعاب طموحات الاغلبية واحترام الاقلية. نظام إدارة قائم على الكفاية (يؤمن حياة كريمة للموظف)، الكفاءة (القدرة على انجاز ما هو مطلوب بالمستوى المطلوب)، الانضباط والنزاهة المهنية. نظام تعليمي وصحي يركز على الكيفية، الجودة ويطبق افضل معطيات العلم. مشروعات إقتصادية ناجحة ومنتجة وقائمة على اسس علمية وإجتماعية.

هذه الكفاءات كانت ضمن محتوى إستعماري قائمة على كفيه استغلال الدولة باقل التكاليف وأعظم المخرجات. لقد استطاع السودانيون أن يستوعبوا هذه النظم الحديثة عليهم سواء في الإدارة، التعليم والتدريب، التنظيم سواء على مستوى الخدمة العامة، الاحزاب والنقابات.. الخ.

حافظت الخدمات على انضباطها وحسن إدارتها، بل وابتدعوا وسائلأ أفضل، في النقل

الحديدي والنهري، مشاريع الري الكبرى في البلاد، مراكز الأبحاث المتقدمة (بركات) والتي اضافت للمعرفة الانسانية. هذه الخبرة والمعرفة لم تقتصر على الوطن فقط ولكنها ساهمت في بناء دول. عدم وضوح رؤية الأنظمة المتعاقبة حول نقاط القوة، تعزيزها وتطويرها كان عاملاً رئيسياً في أننا تدهورنا على طول السنوات.

## نظام الحكم

افتخر الانجليز بإمكانهم حكم السودان بإدارة عالية المستوى، قليلة العدد وذات كفاءة والاعتماد على أنظمة محلية (الإدارة الأهلية) ذات فعالية عالية. كان التقسيم الإداري محافظاً على الاشكال الموروثة منذ الاف السنين، بسيطاً وقائماً على الجغرافيا والتوزيع السكاني. لقد اتيح للسودانيين التدريب على نظام الحكم الذي ورثوه بدأ من تنظيم مؤتمر الخريجين، المجلس الاستشاري لشمال السودان 1943م، الجمعية التشريعية 1948-1953، تطبيق الحكم اللامركزي بصدور قانون الحكم المحلي في عام 1951، مقررات مؤتمر جوبا 1947 وتوحيد البلاد.

تم تعديل دستور الفترة الإنتقالية ليوائم فترة ما بعد الاستقلال على أن يعمل به بشكل مؤقت لحين إقرار دستور جديد دائم. كفل الدستور المؤقت الحريات والديمقراطية، السيادة فيه للشعب وعلى تكوين مجلس سيادة (مجلس رئاسي عالي) ليكون السلطة الدستورية العليا وتؤول إليه قيادة الجيش. تعرض نظام الحكم لتجارب وتغييرات متعددة ارتبطت ليس بالكفاءة وعدم تحقيقها لاهداف واطارات القبول المجتمعي.

## الخدمة المدنية

الخدمة المدنية تمثل الاداة الاساسية في التعبير عن نجاح مؤسسية الدولة في تحويل الغايات والاهداف (من خانة الاحلام والاماني إلي خانة الواقع – وهي تمثل المستوى الإداري – للسلطة التنفيذية وهي احد سلطات الدولة العامة)، الذي يعني بالوظيفة الإدارية أي تنفيذ السياسة العامة التي يقرها المستوى الاعلي (الجهاز السياسي) الذي يقوم برسم السياسة العامة. ترتبط الوظيفة العامة في هذا السياق بالنظام السياسي، إذ تمثل نظاماً فرعياً للنظام السياسي سواء بتحقيق الرضاء العام او تسبب التوتر العام.

الخدمة المدنية هي العنصر الجوهري في نجاح أو فشل أي نظام سياسي، وقد مثلها بعض المفكرين بالدورة الدموية في الجسم الانساني، تؤثر وتتأثر بما في داخلها وبما حولها<sup>230</sup>.

تطورت الخدمة المدنية السودانية عبر سنوات من النمو المضطرد، حسب حاجة الدولة آنذاك. وعندما رحل الاستعمار البريطاني عن السودان نهاية عام 1955، ترك خلفه خدمة مدنية ممتازة لا يضاهيها انضباطاً وكفاءة إلا تلك التي تركها البريطانيون في شبه القارة الهندية (حتى الآن يمكن ضبط ساعتك على القطار الهندي بينما اختفي القطار السوداني).

حافظ الحكم الوطني الأول بزعامة الرئيس اسماعيل الازهري على الخدمة المدنية وصانها من التدخلات السياسية، واستمرت الخدمة الوطنية تؤدي دورها بذات الكفاءة في عهد الرئيس ابراهيم عبود "الاستاذ صلاح السيد طه من اعيان مدينة الابيض .... وكان سكرتيراً عاماً للحزب الوطني الاتحادي يحكي عن الزعيم الازهري قصة ذات مغزى.. يقول إنهم في الحزب الوطني الاتحادي طلبوا من السيد اسماعيل الازهري بوصفه رئيساً للوزراء في ذلك الوقت ان يعفي مدير المديرية ومقره الابيض من منصبه، ولعله كان الاداري المقتدر بلدو وذلك لانتمائه لحزب الأمة.. فغضب السيد اسماعيل الازهري لهذا الطلب، وأوضح لهم بأنه لا ينبغي للسياسة ان تتدخل في الخدمة المدنية وان المعيار الوحيد للخدمة المدنية يجب ان يكون الكفاءة وليس الولاء الحزبي"<sup>231</sup>.

عند الاستقلال اعتمد اختيار القادة التنفيذيين على التدرج الوظيفي في المجال المعين، وقد كان المبدأ مقدساً لدرجة كبيرة ومحترماً من الجهاز السياسي. حتى مايو لم يخرق هذا المبدأ إلا بدرجات معدودة ولكن معها بدأت التغيرات الحادة. الفترة الأولى رأّت اليسار يتصدر الجهاز التنفيذي وبعد فشل 19 يوليو ذهبوا إلى المعتقلات، وتصدر القوميون واشياهم ومن ثم بعد المصالحة حطت كوارر تيار الدولة الدينية. استطاع

---

<sup>230</sup> الدكتور/ بركات موسى الحواتي: الخدمة المدنية المشاكل والحلول،  
[http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com\\_content&view=article&id=76&Itemid=83](http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com_content&view=article&id=76&Itemid=83)

<sup>231</sup> حافظ محمد علي حميدة: السودان: الخدمة المدنية وشماعة الصالح العام، جريدة الشرق الأوسط، 4 فبراير 2007 العدد 10295

جهاز الدولة المحافظة بصعوبة على كفاءته في ظل هذه التغيرات ولكن تصاعد تدني كفاءة العامل البشري.

اضافت الهجرة الكثيفة في سبعينات وثمانينات القرن الماضي ضغوطاً اقصى على جهاز الدولة وسرعت تدهوره. واصل الزمن الديمقراطي – بشكل اقل جداً- ترضياته في التعيينات وتواصل تعيين كفاءات متواضعة وعدم الاستقرار الوظيفي. مع تربع سادة الإنقاذ حدثت الكارثة المحدقة وابتدرت اوائل عهدها بخطة التحطيم الشامل للآله المدنية والعسكرية السودانية وتمزيق اوصالها، ثم تلاها تعيينات القفز بالزانة من ذوي اللون الواحد.

تحول السودان متنوع تماماً إلي جهاز موصول بحبل سري ضخم يحركة القابح في المنشية أولاً ثم في القصر اخيراً. ورث الكادر التنفيذي في السودان تقاليد العمل من دوله الاستعمار وتجمد عندها، وحين تطورت الدول المثل في تطوير كادرها البشري بمعطيات العلم والتجربة، تقاصرنا عن مراجعة سبل التعليم والتدريب، وعلى طوال تأريخ الخدمة المدنية والعسكرية السودانية انتقلت من الاقدمية المطلقة إلي الاختيار المبني على الثقة والقرب من الرئيس.

## المشروعات الاقتصادية

عالجت السلطة الإستعمارية قضايا النمو الإقتصادي حسب إستراتيجيتها لتحويل السودان إلي مصدر لخامات رخيصة مطلوبة للصناعة الاوربية، فتح الاسواق المحلية للصناعات الاوربية وتكوين الطبقة التي ستقوم بهذه المهام. انحصرت أهم هذه القضايا في تحرير القوى العاملة لتكون حرة للعمل المأجور، تحرير ملكية الارض وجوانب التنمية الإستعمارية ومجالاتها. نفذت السلطات الإستعمارية القرارات العالمية التي اتخذت بخصوص الغاء نظام الرق وتجارة الرقيق عالمياً، لكن تم تنفيذ هذا القرار بشكل تدريجي عن طريق حزمة من الاجراءات من التحرير الذاتي، منع التجارة في الرقيق، تجفيف مصادرها وتطوير الاقتصاد لاستيعاب الأفراد للعمل باجر حسب قوانين عمل تنظمها.

على أثر الغزو، اصدرت الحكومة عدة قرارات بخصوص ملكية الارض كانت تهدف



في نتائجها إلي اعادة ملكية الحكومة على جميع الاراضي الغير المأهولة، تقييد بيع الأراضي وعلى أن يكون التصرف في الأراضي من خلال وثائق معتمدة. وجاء قانون تسوية الأراضي وتسجيلها عام 1925، ليحدد معايير تسوية وتسجيل الأراضي، وكذلك صدر لاحقا قانون ملكية الأراضي الذي منح الحاكم العام السلطة للحصول على أي مساحة للاستخدام العام.

تمت تهيئة البيئة المناسبة لتحويل السودان إلي دولة منتجة للخام، فطورت زراعة القطن في مشروع الجزيرة، القاش، طوكر، النيل الأبيض، جبال النوبا، منطقة الزاندي بجنوب السودان، مشاريع الطلمبات في النيل الابيض، الازرق والشمالية وقامت إلي جانبها صناعات مساعدة من المحالج وغيرها. تم التحكم في تجارة القطن، الصمغ ولاحقاً الذرة، السمسم والمواشي بواسطة شبكة من البنوك الأجنبية والمختلطة، لكي يلعب الاقتصاد السوداني دوره لمد بريطانيا باحتياجاتها من المواد الخام الزراعية، وتشكيل سوق لمنتجاتها من السلع المصنعة، كما تم اكمال مد خطوط السكك الحديدية من حلفا حتى الخرطوم ومن ميناء بورتسودان في البحر الأحمر حتى مناطق الانتاج الزراعي في الشرق، الجزيرة وكردفان.

السمة الغالبة على التطور الصناعي كان الاتجاه نحو الصناعات الخفيفة القائمة على الاستفادة من الخامات الزراعية المتوفرة. كانت هناك صناعات محليه أهمها: الاحذية، البلح في المنطقة الشمالية، الخبز، الخميره، الفخار، صناعة العناقريب والقفف والابراش .. الخ.

رغم أن السودان كان لايملك المصانع ولا العماله المدربة، إلا أنه نجح في إنتاج المعدات العسكرية الصغيرة في ورش المخازن والمهمات والسكة حديد والأشغال. في المدن الكبرى تطورت الحياة الإجتماعية والمؤسسات الحديثة، مثل العاصمة المثلثة التي انتشرت فيها الصناعات التحويلية كالحلج، معاصر الزيوت، الصناعات الأخرى كالصابون والمشروبات الروحية وغيرها.

ارتبطت بورتسودان بعمال الشحن والتفريغ في الميناء كما كان بها جراجات، ورش ومصانع الثلج، المياه المعدنية، الصابون، معاصر الزيوت ودباغة الجلود. مدينة عطبره تركزت فيها ورش السكة الحديد وكان بها مصنع الأسمنت، مصنع الزرارير

معمل الألبان. مدينة الأبيض ازدهرت كمركز لتجارة الصمغ، الفول السوداني، السمسم والماشية وخاصة بعد مد السكة الحديد إليها<sup>232</sup>.

رصد الاستاذ محمد علي جادين ما ترتب على نمط التنمية الذي فرضه المستعمر، إذ تخلفت الصناعة، وتم إجهاض أي محاوله من جانب الرأسمالية السودانية الناشئة لاقامة صناعة وطنية، وذلك لان المستعمر كان يريد السودان سوقاً لتصريف منتجاته الصناعية وتم ذلك بتخفيض الضرائب الجمركية. في عام 1956 كان القطاع الزراعي يساهم بحوالي 61% من الناتج الإجمالي، ويعتمد عليه أكثر من 85% من السكان، قطاع الخدمات يساهم بحوالي 35% من الناتج الإجمالي (مؤسسات التجارة والنقل والتوزيع والخدمات الأخرى) أما القطاع الصناعي، فقد كان ضعيفاً يساهم بأقل من 1% من الناتج المحلي ويستوعب أقل من نصف في المائة من القوى العاملة<sup>233</sup>.

عند الاستقلال كان من المأمول أن نبني على هذا الارث وتغييره لصالح التنمية الراشدة، لكن اتجهت حكومات ما بعد الاستقلال وحتى 1969 إلي تبني نفس السياسات من التوسع في الزراعات التجارية الموجهة للتصدير (امتداد الجزيرة والمناقل)، التوسع في مشاريع الزراعة الآلية ومعظمها عن طريق القطاع الخاص. أيضاً تم التوسع في إنشاء بعض الصناعات لكنها انحصرت في إحلال الواردات، كما أنها انحصرت في وسط السودان.

لقد حدث تغيير لا يمكن وصفه بالإيجابي في حاله السودان في مساهمة القطاعات المختلفة، حصة القطاع الزراعي في إجمالي الناتج المحلي أخذت في التناقص، بينما كانت تلك الحصة 61% في عام 56، أصبحت في السنوات الأخيرة من القرن الحالي حوالي 46% ويعمل بها حوالي 70% من السكان. عموماً يعني تدني نسبة الحصة الزراعية في الدخل الوطني، من فترة لأخرى واتجاهها نحو الهبوط في البلدان المتقدمة إلي تطور الزراعة واحتلال الصناعة للقسم الأكبر من الإنتاج الوطني، ولكن

<sup>232</sup> تاج السر عثمان : نشأة وتطور الطبقة العاملة السودانية: الفترة: 1900- 1956، الحوار المتمدن-العدد: 2319 - 21 / 6 / 2008 ، <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=138475>

<sup>233</sup> محمد علي جادين: تطور القطاع الخاص في السودان، جريدة الصحافة على حلقات، <http://www.alsahafa.sd/details.php?type=a&scope=a&version=602&catid=169>

في السودان الأمر يختلف، فالصناعة لم تساهم إلا بحوالي 12%- 16% من إجمالي الناتج المحلي طوال السنوات بينما الصناعة والزراعة تساهمان 55% تقريباً من إجمالي الناتج المحلي والباقي (45%) يأتي من قطاع الخدمات<sup>234</sup>.

### الخدمات: التعليم

بعد الاستقلال في عام 1956م، ورث السودان نظاماً تعليمياً بني على المناهج والهيكلية البريطانية. قامت الحكومات الوطنية المتعاقبة بإدخال تغييرات عليه لتحقيق أهدافها ومواكبة التطور في البلاد وظروفها المتغيرة، وزاد الطلب على التعليم بعد الاستقلال على نحو تجاوز موارد الدولة المخصصة له. ففي عام 1956 بلغت ميزانية التعليم 15% من الموازنة العامة للدولة، لدعم حوالي 1778 مدرسة ابتدائية، 108 مدرسة متوسطة و49 مدرسة ثانوية حكومية. بلغت نسبة محو أمية الكبار 22.9 %، وعلى الرغم من جهود الحكومات المتعاقبة، فقد إرتفعت النسبة بحلول عام 1990م، إلي حوالي 30 %، في وجه الزيادة المضطردة لعدد السكان ومعدلات المواليد.

إن المستعمر ركز هذه الخدمات التعليمية الجيدة حسب احتياجه من ناحية المنتج ومن ناحية التوزيع، وهذا منطقي، لكننا إذا قارنا الوضع آنذاك وحالياً بعد أكثر من ستة عقود، سنجد توسعاً كلياً في النسب العامة لكن احتفظت التفاوت بين المناطق على نسبتة تقريباً مع الانحدار التام في ميزانيات التعليم، مستواه ..الخ.

### الخدمات: الصحة

في 29 فبراير 1924 أفتتحت مدرسة كتنشر الطبية وقد قامت على نفقة حكومة السودان، وأوقاف المغفور له أحمد هاشم البغدادي التاجر الإيراني الذي أوقف جميع ثروته للصرف على الكلية. وتعتبر مدرسة كتنشر أول مدرسة طب في شمال إفريقيا تنشأ على منهج متناسق ومتكامل ولم تتقيد بمنهج كليات الطب بإنجلترا. يعطي البروفسير أحمد بيومي في كتابة القيم لمحة ممتازة عن نظام صحي يحقق الاهداف

<sup>234</sup> بروفيسور فرح حسن آدم: الزراعة السودانية بين البقاء و الفناء، Apr.27, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

المرجوة منه، قائماً على بناء من أوائل العهد الاستعماري، والذي رغم أن تركيزه كان على خدمة أماكن تواجده إلا أن التطورات اللاحقة - وجود أفضل أطباء الصحة العامة في قيادة العمل الصحي- ترك لنا عند خروج الاستعمار أحد أكثر النظم الصحية كفاءة، وطرائق مبتكرة في إيصال الخدمة إلى بيئات السودان المختلفة (نقاط الغيار، الشفخانات والمستشفيات الريفية)، العاملين الصحيين الملائمين (قابلات القرى، الزائرات الصحيات، ممرضات الشفخانات، مسؤولي صحة البيئة... الخ). حافظت القيادات التي استلمت القيادة بعد الاستقلال على جودة الخدمة مع محاولات حثيثة لتوسيع رقعتها ودائرة المنتفعين منها. ظلت هذه السمات تميز الخدمة حتى منتصف السبعينات والتي بدا التدهور المتصل بعدها. مثل التعليم فقد عانت الصحة من نفس التركيز في وسط وشمال السودان مع التدهور المريع في الخدمات وخروج الدولة تماماً من التمويل<sup>235</sup>.

رسم الكاتب حافظ محمد علي حميده صورة قلمية شيقة تلخص المستوي الراقي للخدمات الصحية كنظام ورثناه من الاستعمار "حكى لي عالم الفيزياء الراحل البروفيسور محبوب عبيد طه انه وفي نهاية الخمسينات من القرن الماضي حضر من القطينة مع شقيقته لعلاجها في مستشفى العيون بالخرطوم وبعد مقابلة الطبيب تقرر لها عملية بعد شهر من تأريخ المقابلة وذكر انه قبل اسبوعين من موعد العملية تسلم خطاباً من المستشفى تذكره وتأكيداً على موعد العملية مع بعض الارشادات وقائمة بالاشياء التي يجب ان تحضرها المريضة معها مثل ملابس النوم وفرشة للاسنان وغير ذلك من الاشياء التي لا يمكن للمرء ان يستغني عنها"<sup>236</sup>.

## واخيراً

نمط التنمية السودانية الموروث من الاستعمار الذي اتبعته كافة الأنظمة المتعاقبة بدرجات مختلفة هو الذي يعطيها السمات التي تميزها وهي:

أولاً: انحصارها في السودان الشمالي والوسط (ما سمي مثلث حمدي) سواء في

<sup>235</sup> البروفيسر احمد بيومي: تاريخ الخدمات الصحية السودانية 1979 ( Bayomi A: the history of Sudan health services, Kenya literature bureau, P.O.Box 30022, Nairobi, 1979.

<sup>236</sup> حافظ محمد علي حميدة: مرجع سابق

الخدمات او تراكم عوائد انتاج المناطق الأخرى؛

ثانياً: اعتمادها على العماله اليدوية الرخيصة من باقي القطر؛

ثالثاً: ظاهرة الثنائية الإقتصادية أي النمط الإقتصادي الحديث والمتطور نسبياً والمربوط بشكل مباشر بالسوق الرأسمالي (ماسمي القطاع الحديث) والنمط التقليدي الهش والمتخلف (ماسمي القطاع التقليدي)؛

ورابعاً: عوائد الإستثمار في خارج المثلث لا تعود إلي مناطقها، ولكن يعاد تشغيلها اما في عواصم مثلث حمدي او في الخارج (الزراعة الآلية في جنوب كردفان، القضارف والثروة الحيوانية في دارفور....الخ) تاركة هذه المناطق متخلفة وباقل القليل من الخدمات.

مثل منتصف السبعينات بداية النهاية في انهيار الكفاءات الاساسية، الإنقاذ كانت أكثر تسريعاً في تحطيم كافة المشاريع التي كان يقودها القطاع العام (خصخصة، بيعا للقطاع الخاص او مستثمرين اجانب، لاحتمال إنشاء شركة مستقبلية او ببساطة سوء الإدارة والاهمال)، الفساد الاقصي، زيادة الاحتكار، سوء الإدارة، قلة الكفاءة الشاملة، الخروج كلياً من الخدمات خاصة التعليم، الصحة، اهمال الزراعة والرعي بكافة انواعها.

## الفصل الثاني: الكفاءات الأساسية (core competencies)

### الموارد الطبيعية: الزراعة

في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية، تناولنا الرؤى السودانية التي ترعرعت في الفضاء السياسي السوداني: رؤية المهدية، رؤية 1924، مؤتمر الخريجين (رؤية الرواد)، القومية العربية، الحزب الشيوعي السوداني، الدولة الدينية والسودان الجديد. تم تحليل كل رؤية من سياق موحد من خلال مفهوم التيار الرئيسي ونظريات ومفاهيم التنمية السياسية.

عندما تصدت الدول لقضايا الرؤية عند بدء انطلاقها في طريق المستقبل، نظرت كلها إلى أهم الكفاءات الأساسية التي تتوفر فيها "الكفاءات الأساسية تعني أنه في قطاعات الدولة هناك بعض نقاط القوة الكامنة حيث يمكن أن تظهر نتائج أفضل في أقصر وقت. وإن هناك بعض الأمور التي يمكن أن تفعل الكثير بنفس الإرادة والجهد، إما بسبب وجود بيئة تمكينية أو بسبب تجربة أفضل". حدث هذا في وضع سيناريوهات جنوب أفريقيا 2025، التركيز على ما يمتلكونه بكثافة: القوى البشرية في كوريا الجنوبية، فكرة "تكبير الكعكة" الماليزية وتقييم الكفاءات الأساسية المتوفرة في الهند كشرط مسبق من القدرة على استيعاب الجديد من التقنيات، المهارات وأساليب الأداء أيضاً.

سوف نتناول في هذا الفصل الكفاءات الأساسية السودانية باكبر قدر من الموضوعية والمعلومات الموثقة، من مصادر حكومية، دولية أو محايدة. وسنتناول هنا ما اعتقده الكفاءات الأساسية التي يمكن أن تمهد الطريق للمستقبل في السودان: الموارد الطبيعية من أراضي ومياة وثروة حيوانية، القوى البشرية والتكنولوجيا، المعادن والنفط والتنوع البيئي. لقد تناول الكتاب "العمد" قضايا، تحديات ومشاكل القطاعات المختلفة، لكنهم أيضاً ابرزوا بشكل واضح الايجابيات التي كان من شأن اعلائها أن

تطورها وتجعلها ممرا للمستقبل. سوف نتناول الامكانيات والايجابيات من وجهة نظر التيار الاساسي (الدولة المسئولة) ضمن ثلاثة مبادئ اساسية:

أولاً: الدولة المدنية ونعني بها أن الدولة ليست عسكرية او دينية. إن تعميق هذا المفهوم يستوجب النظر وبشكل مجتمعي حول ما اصبح ظاهرة يمثل فيها السودان أكثر ظواهرها حدة على مستوى العالم من دوران الحلقة الشريرة. إن التحولات التي شهدها السودان من الجيش المحترف الحاكم، إلي الجيش العقائدي المتسيد، هي القضية المركزية في استقرار وتطور النظام.

إن التجربة الماثله اعطتنا تفكيراً كاملاً لمؤسسة الجيش في ليبيا، الحفاظ على مؤسسة الجيش في مصر كما هي وتدخلها المباشر في السياسة. إن أول مدخل للإصلاح هو اعادة الاعتبار للنظر إلي مؤسسة الجيش والمؤسسات الامنية كاحدى مؤسسات الدولة الخاضعة للنقاش والنقد العام.

إننا نحتاج لمراجعة عاجله وشامله للجيش في اطار نظام ديمقراطي. في نفس الوقت، الدولة ليست دينية باخراج الدين من السياسة، والتفكير العميق من التجارب العديدة والتناول الواسع لدور الدين في المجتمعات، الذي حدث في العقود الخمسة السابقة سواء محلياً او اقليمياً، حول اشباع الاحتياجات الروحية لافراد الشعب وكيفيه صياغتها في الدستور والقوانين.

ثانياً: دولة ديمقراطية ونعني بها أن تتخلل هذه القيمة في كافة مناحي حياتنا. لقد اغتنت المكتبة السودانية بنقاشات عميقة حول قضايا الديمقراطية في السودان. إن حصر الديمقراطية في الانتخابات يجعلها دولة تداول سلمي ولكن لايجعلها ديمقراطية. إن تعميق الحريات في التعليم، القوانين، سلوك المؤسسات والافراد، حق الاختيار في جميع المؤسسات، دعم وتشجيع وتقوية المجتمع المدني والمشاركة الواسعة وغيرها هي المعطيات لتحقيق هذه القيمة.

**العدالة الإجتماعية:** عندما تصدت الدول التي استطاعت النهوض لقضايا الفوارق الشاسعة بين السكان اتجهت جميعها إلي حزمة سياسات واضحة "تكبير الكعكة"، وليس التنازع عليها، المعاملة التفضيلية لجهات، سكان او مجموعات ..الخ، مصاحبة المعدلات المرتفعة للانتاج بسياسات توزيعية جادة من شأنها ضبط العلاقة بين

الأغنياء والفقراء، تمكين السكان من الحصول على فرص للعمل وكسب العيش بكرامة وبصورة دائمة ، سياسة دعم السلع والخدمات الإجتماعية..الخ.

عند النظر في الكفاءات الأساسية لا يعني هذا القطع بصحتها، فهي كما يؤمن الكاتب مجرد افكار أولية يود طرحها على المهتمين بهذا الشأن، كما أن القضايا والاتجاهات التي تبني عليها ليست بالضرورة صائبة لكنها أيضاً تصب في اعطاء مثال تجريبي لكيفية التقدم لبناء الرؤية. بعد تحديد الكفاءات الأساسية والتي تضم مجالات مختلفة، ليست من اختصاص الكاتب او مجال خبرته، سوف نستعين بالاراء المنشورة من ابرز العلماء السودانيين في كل مجال لتحديد مكونات الكفاءة الاساسية، قضاياها، تحدياتها ومن ثم كيف يمكن ان تكون مكوناً اساسياً في الرؤية السودانية.

هؤلاء العلماء ينتمون إلى تيارات سياسية مختلفة وادوات تحليلية مرتبطة بها، سوف يكون مرشدنا فيها أننا سوف نرى اقربها إلى نظرة الدولة المسئولة كما عرفتها الدكتورة فاطمة بابكر محمود "وهي موجودة في النظام الرأسمالي في كل دول غرب اوربا والدول الاسكندنافية، واستهدت بها دوله مثل بريطانيا... ان الدولة المسئولة هي من امكانات الدولة الرأسمالية اذا ما تم الضغط الكافي لتلبية حاجات العمال والعاملين".<sup>237</sup> كذلك سوف نهتدي بعلاقتها بصناعة الرؤية وليس تقديم حلول او اتجاهات التنمية في القطاع، فهذا عبء سوف يقوم به من سوف يرسمون الرؤية.

عندما سئل رئيس الوزراء الماليزي السابق د. مهاتير محمد عن مقومات النهضة السودانية اجاب<sup>238</sup> "النموذج الماليزي تأسس على قاعدة أساسية هي تحقيق شراكة عادله بين مكونات المجتمع في الحكم وفي تحقيق المكاسب... توافقنا على تأسيس نظام سياسي يركز على تحقيق الشراكة بين كل مكونات ماليزيا العرقية الرئيسية الثلاثة، التي يستتبعها وجود ثلاثة أديان وثقافات، وأيضاً بعض المكونات القبلية، ولدينا 13 مجموعة قبلية، وصممنا نظاماً سياسياً يضمن مشاركة الجميع في الحكم، والحل الوحيد لاستيعاب الطبيعة التعددية لأية دولة هو أن تكون هناك شراكة حقيقية

<sup>237</sup> د. فاطمة بابكر محمود، ترجمة سعاد عطا: الراسمالية السودانية...أطلعية للتنمية؟ معهد البديل الافريقي، لندن، المملكة المتحدة، 2006.

<sup>238</sup> خالد التيجاني: د. مهاتير محمد (صانع المعجزة الماليزية)،  
<http://news.askmorgan.net/records/27851-2012-11-03-10-11->



في الحكم لكل مكونات البلاد والاستجابة لتطلعات كل مواطنيها.... وإذا أردت أن تمضي إلي مكان يلزمك أن تحدد أولا ما هي وجهتك، كنا نريد لبلدنا أن تنمو وتنهض، وكانت وجهتنا هي اللحاق بالأمم المتطورة، ومن هنا جاءت إستراتيجية رؤية 2020".

وحول الاستفادة من التجارب السابقة "وفي الواقع أن ما تعلمته ماليزيا من اليابان ليس فقط أهمية منظومة قيم العمل الأخلاقية، بل كذلك كيفية إدارة الأمور في شأن علاقات العمل ... تعلمنا من اليابان مفهوم الاندماج المؤسسي تلك الصلة الوثيقة بين الحكومة والقطاع الخاص، والحرص الرسمي على دعمه وتقويته والعمل على إنجاحه، وضمان مساهمته الفعالة في الترويج للإستثمار في البلاد".

### الموارد الطبيعية (اراضي ومياه وثروة حيوانية)

يغرم السودانيون بوصف بلادهم بأنها اغني البلدان او يستعملون وصف سله غذاء العالم وهو تعبير جاء عام 1974 في تقرير اعده منظمة الاغذية والزراعة (الفاو) عن حاله الغذاء في العالم، مشيرة إلي أن السودان، استراليا وكندا هي سلال العالم من الغذاء، في مجال توفير الغلال والحبوب الزيتية والمنتجات الحيوانية، لما لهذه الدول من امكانات طبيعية.

وحسب تقارير المنظمة ذاتها فأن استراليا وكندا استطاعتا تحقيق القدر الاكبر مما هو مطلوب منهما في عملية توفير الغذاء للعالم، ويكفي أنهما صارا من اكبر مصدري القمح في العالم. كندا تصدر كميات كبيرة من القمح واستراليا تسد جبهة عريضة للنقص في غذاء العالم. اما السودان فلم يتحرك قيد انمله في اتجاه تحقيق تلك المقولة المحفوظة عن ظهر قلب في البلاد، بل يعتبر الآن من اكبر الدول المستوردة للغذاء، ومن اكبر الدول التي تتلقى العون الانساني الاممي في العالم بسبب الازمة في دارفور.

منذ يوليو 2011 تغيرت مساحة السودان إلي قطر أصغر حيث تبلغ المساحة مليون

و881 ألف كيلومتر<sup>239</sup>، وعدد السكان وفق الإحصائية الجديدة بلغ حوالي 34 نسمة، فيما حافظت نسبة الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة على نفس الرقم السابق وهي 200 مليون فدان<sup>240</sup>. تقلص عدد دول الجوار السوداني من تسع إلى سبع دول. ويبلغ طول الشريط الحدودي بين السودان واثيوبيا 725 كيلومترا، ومع افريقيا الوسطى 380 كيلومترا، بينما بقيت الحدود على حالها مع كل من تشاد (1300) وليبيا (380) ومصر (1280) واريتريا (605). الحدود المشتركة بين السودان ودوله جنوب السودان تبقى هي الاطول اذ تبلغ أكثر من ألفي كيلومتر.

### أنواع الزراعة في السودان

هناك أربع أنواع رئيسية للزراعة في السودان، ويعتمد تصنيفها على نوع الريّ أو أسلوب الإنتاج وهي:

**أولاً:** الزراعة المروية بالريّ الصناعي (25%) (نهر النيل وروافده) وهذه بدورها تنقسم إلى زراعة عن طريق الريّ الانسيابي (من السدود والخزانات)، الريّ بالطمبات والريّ الفيضي (الأراضي المغمورة بمياه الفيضانات الدورية كما في دلتا نهر القاش)؛

**ثانياً:** الزراعة المطرية المعتمدة على تساقطات الأمطار وتغطي حوالي 25% من المساحة المزروعة؛

**ثالثاً:** الزراعة الآلية (12%) أي تلك التي تستخدم الآله في عمليات إنتاجها؛

**رابعاً:** الزراعة التقليدية في أطراف القرى والبوادي بواسطة الأهالي.

في عام 1999 شكلت مناطق الزراعة التقليدية نحو 56% من إجمالي الناتج المحلي الزراعي لنحو 70% من سكان الريف. في المقابل، فإن مناطق الزراعة الآلية تنتج

---

<sup>239</sup> السودان سيفقد ربع مساحته بعد انفصال الجنوب، 2011:07:05، <http://arabic.people.com.cn/31662/7429943.html>

<sup>240</sup> اسماعيل آدم: أكثر من 200 مليون فدان صالحة للزراعة.. لكن السودان يستورد قائمة أغذية طويلة من القمح إلى الطماطم، جريدة الشرق الأوسط، 11 ابريل 2008 العدد ، 10727، <http://www.aawsat.com/details.asp?issueno=10626&article=466415>

عادة 8% من الناتج المحلي الإجمالي الزراعي، ولكن فقط لحوالي 0.7% من السكان. مناطق الزراعة المروية تنتج نحو 22 % من الناتج المحلي الإجمالي من الزراعة ويعيش فيها حوالي 12% من السكان<sup>241</sup>.

## الزراعة المروية

تبلغ مساحتها الحالية 4.5 مليون فدان وتشمل مشروع الجزيرة الزراعي الذي تم إنشاؤه في عام 1925 (ومساحته 2.12 مليون فدان)، مشروع حلفا الجديدة الزراعي (500 ألف فدان)، مشروع السوكي (115 ألف فدان) ثم مشروع الرهد (300 ألف فدان) حيث تمثل هذه المشاريع 60% من جملة الأراضي المروية ويتم ريها بشكل أساسي من نهر النيل وفروعه بواسطة الري الانسيابي من السدود أو بواسطة المضخات الرافعة للمياه.

هناك مشاريع الري الفيضي (ومساحتها ربع مليون فدان) ومشاريع الضخ من الآبار (750 ألف فدان). تزرع في هذه المشاريع المروية القطن - وهو المحصول الرئيسي - الذرة، الفول السوداني، القمح، قصب السكر، زهرة الشمس، الذرة الصفراء والبنجر، بالإضافة إلى المحاصيل البستانية كالخضروات والفاكهة والبقوليات والتوابل وغير ذلك.

كانت مشروعات القطاع المروي الكبرى تدار جميعها بواسطة القطاع العام قبل أن تتبنى الدولة سياسات الخصخصة لتحويل المشروعات للقطاع الخاص. نتيجة لسياسات الخصخصة تم تحويل 700 ألف فدان من مشاريع الطلمبات على النيل الرئيسي والنيلين الأزرق والأبيض حيث سلمت للمزارعين وذلك خلال عقد التسعينات.

لازالت الحكومة تدير المشروعات الاتحادية الكبرى، وذلك لكبر حجمها، ضخامة الأموال المستثمرة فيها، تعدد الوحدات الإنتاجية والخدمات المرتبطة بكل منها وهي: الجزيرة، حلفا الجديدة والسوكي. وتساهم هذه المشاريع حالياً بحوالي 12.4% من إجمالي الناتج المحلي (نحو 29% من الناتج الزراعي) ومعظم استهلاك البلاد من

البقوليات وتستخدم أكثر من ربع القوى العاملة بالسودان، بما في ذلك المزارعين والعمال الدائمين والموسميين (40% من إجمالي العماله الموظفة في القطاع المروي).

تركزت الإستثمارات الزراعية في فترة ما قبل وبعد الاستقلال في المشاريع المروية في مناطق بعينها وتم الاهتمام بتطوير الزراعة التصديرية، وبصفة خاصة القطن علي حساب الفروع الأخرى للإنتاج الزراعي. وبعد أن أصبح محصول القطن المحرك الأول والأساسي للإستثمارات في الري، انصب اهتمام الدولة من حيث الرقابة والإشراف عليه، وتم توجيه استخدام وسائل الإنتاج الحديثة (الأسمدة بجميع أنواعها واللجوء للرش بالمبيدات الحشرية واستخدام الآلات الزراعية الحديثة) بصفة أساسية نحو القطن. وعموما اتخذ تطور الزراعة المروية في السودان طابعا أفقياً من خلال تكرار المشاريع المروية علي نمط مشروع الجزيرة رغم الحديث المتواصل عن تكثيف الزراعة. ظل ضعف الإنتاجية وتدهورها، وسلبية العلاقة بينها وبين معدلات الاتفاق (التموي والجاري) من الصفات الملازمة للمشروعات في القطاع المروي.

### الزراعة المطرية الآلية

عرف السودان الممكنة machinazation (أي إدخال الآلات في كافة عمليات الإنتاج الزراعي) منذ عام 1942، في السهول الطينية الوسطي، حيث تضافرت عدة أسباب لتجعل هذا النوع من الزراعة هو الأنسب لهذه السهول: منها نوعية التربة الطينية الثقيلة، وفرة المساحات الشاسعة وقلة الأيدي العاملة، وقد تركز الإنتاج في الأراضي الطينية الثقيلة في حزام السافانا الرطب بين خطي عرض 14 و 15 درجة، حيث يتراوح هطول الأمطار بين 400 - 800 ملم. وبدأت بالقضارف بهدف مضاعفة إنتاج الذرة لمقابله الطلب المتنامي عليها كغذاء رئيسي. وأعقب ذلك توسعاً إبان ستينات القرن الماضي في ولايات القضارف، سنار، النيل الأزرق، النيل الأبيض، جنوب كردفان وكسلا.

وبالرغم في التوسع الكبير في المساحة الذي حدث خلال العقود الثلاثة الأخيرة من

القرن الماضي إلا أن حجم الإنتاج اتسم بالتذبذب وضعف الإنتاجية، تقدر المساحة الصالحة للزراعة الآلية حوالي 70 مليون فدان، زرع في (2011 م) حوالي 14 مليون فدان أي ما يوازي نسبة 20% فقط. وتأتي الذرة الرفيعة في صدارة محاصيل الزراعة الآلية وذلك بمساحة قدرها 85% من إجمالي المساحة المزروعة، وحوالي 65% من إنتاج الذرة الرفيعة في السودان. من المحاصيل الأخرى السمسم (10% من المساحة المزروعة و53% من إنتاج السمسم في السودان)، زهرة الشمس، الدخن، القطن (قصير التيلة) وغيرها.

### الإنتاج السلي الصغير

يشمل هذا النوع الزراعة المروية الصغيرة والمطرية التقليدية، ويتواجد هذا النوع من علاقات الإنتاج في كافة أنحاء البلاد. وبالنظر إلى مستوى تطور القوى المنتجة داخل هذا القطاع، يمكن التمييز بين نمطين: نمط أول للإنتاج متخلف، ونمط ثان أكثر تطوراً نسبياً. ويسود النمط الأول، الذي تتنوع أيضاً قسماته الاجتماعية الاقتصادية (إنتاج رعي متنقل خالص، إنتاج نباتي مستقر خالص، إنتاج مختلط) في المناطق المطرية حيث الاعتماد على مياه الأمطار والعلف الطبيعي، واستخدام الأدوات البدائية في العملية الإنتاجية (السلوك، الفأس. الخ) وعلي وسائل النقل التقليدية في العملية التسويقية، واللجوء لتجار الشيل، للاستعانة بهم في قضاء الاحتياجات التمويلية<sup>242</sup>.

يسود هذا النمط التقليدي في المناطق المطرية في كسلا والجزء الجنوبي الغربي من ولاية سنار حيث يقوم قسم آخر من أصحاب الحيازات التقليدية الصغيرة بإنتاج الدخن والذرة كمحصولين غذائيين رئيسيين، بالإضافة إلى إنتاج الفحم والحطب للتزود بالوقود ومحاصيل أساسية متنوعة أخرى (الصمغ، الفول السوداني، السمسم..... الخ) يجرى إعدادها لاحقاً للتصدير.

كما تتواجد الزراعة التقليدية بجمال النوبة، ولاية جنوب كردفان ودارفور وتقدر مساحتها المزروعة بحوالي 23 مليون فدان، وتعتمد على المعدات اليدوية، التقاوي

<sup>242</sup> بروفيسور فرح حسن آدم: الزراعة السودانية بين البقاء و الفناء، Apr.27, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

المحلية، نمط الزراعة المتنقلة وعدم استخدام الأسمدة مما أدى إلى قلة الإنتاج والإنتاجية. وبالرغم من ذلك فأنها تلعب دوراً كبيراً في توفير الغذاء في المناطق القروية وإنتاج محاصيل مثل الذرة الرفيعة (11% من إنتاج السودان)، الدخن (90 % من إنتاج السودان)، الذرة الصفراء والسّمسم (28% من إنتاج السودان) كما تساهم في الصادرات الزراعية بتصدير السّمسم والصمغ العربي (كل الإنتاج السوداني و80 % من إنتاج العالم)، الفول السوداني، الكركدي، حب البطيخ، ويتذبذب الإنتاج من موسم لآخر وفقاً لكمية الأمطار وتوزيعها. توجد معظم الثروة الحيوانية في السودان متداخلة مع هذا النوع من الزراعة حيث يستفاد من المساحة التي لا تحصد كعلف للماشية وغيرها من الحيوانات.

أما النمط اللاحث فيوجد وبصفة خاصة في المناطق المحيطة بالمدن الكبيرة، حيث يقوم قسم من صغار المنتجين بالتركيز على إنتاج الخضراوات والفواكه، تربية المواشي لإنتاج الألبان واللحوم، الدواجن لإنتاج البيض، صيد الأسماك وكذلك في المناطق النيلية في ولايتي الشمالية ونهر النيل حيث يتم إنتاج البقوليات، التوابل، التمور، الموالح والقمح.

### المحاصيل السودانية

يعتبر القطن من محاصيل التصدير الرئيسية، والسودان أكبر منتج للسّمسم في العالم، وهو أيضاً من دول العالم الأكثر إنتاجاً للذرة. المحاصيل النقدية التي تزرع في الأراضي المروية بواسطة ريّ الأنهار والأمطار تشمل القطن، السّمسم، قصب السكر، الفول السوداني، البطاطس، الطماطم، المانجو، البن، التبغ، الذرة الرفيعة، الدخن، القمح، اللوبيا، الفاصوليا، البقول، الذرة، الشعير، الصمغ العربي، الموز، الجوافة، الكركدي، الأرز، زهرة عباد الشمس، الخضروات، الحمضيات والتمور. وهو أيضاً الأول في إنتاج حليب النوق والثالث في حليب الماعز، والثالث في إنتاج حب البطيخ، والحادي عشر في إنتاج لحم الضأن، كما ينتج الشاي والصوف والوبر<sup>243</sup>.

<sup>243</sup> منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) ومصادر أخرى متنوعة

بدأت منذ عشرينات القرن الماضي زراعة القطن المطري في جبال النوبة منذ عام 1952، وانشأت مراكز بحثية لدعم هذه المشاريع. وقد تراجعت الزراعة من 340 ألف عام 1964/63 إلى حوالي 20 ألف في موسم 2002/2001<sup>244</sup>.

## القمح في السودان

زراعة القمح في السودان موغله في القدم وانحصرت حتى الاربعينات في مناطق الشمالية، بربر وجبل مره في مساحات صغيرة للاستهلاك المحلي. ولاية الشمالية تمتلك أكثر من (14) مليون فدان صالحة لزراعة القمح، لكن المساحات المستغلة لا تتجاوز المليون فدان، وزرعت الولاية في موسم 2010/2009 ما بين (60-70) ألف فدان فقط في الوقت الذي كان مستهدفاً فيها زراعة (120) ألف فدان وبانتاجية عالية في حدود (20-25) جوال للفدان<sup>245</sup>.

استطاعت محطات البحوث الزراعية في الجزيرة وخشم القرية أن توفر المعلومات العلمية عن إمكانية إنتاج القمح بشكل تجاري جنوب الخرطوم في أوائل الستينات. تم إدخال القمح تدريجياً في المشاريع المروية في أواسط وشرق السودان، في مؤسسة حلفا الجديدة وفي مشروع الجزيرة موسم 1976/1975م، وصار يزرع في مشاريع النيل الأبيض شمال كوستي.

تناول الاستاذ محمد عبده كبح<sup>246</sup> في دراسة جيدة تطور زراعة القمح في العقود الاخيرة "أما إنتاج القمح (ثالث أنواع الحبوب الغذائية في السودان) فقد هدفت الخطة العشرية إلى إنتاج (2) مليون و(297) ألف طن من القمح ولكن الانتاج الفعلي للقمح كان (330) ألف طن فقط عن نهاية الخطة العشرية وقد كان فعلياً (247) ألف طن من القمح في العام الذي سبق نهاية الخطة العشرية والحال أن كمية

<sup>244</sup> بروفيسر الفاضل عبد الرحمن بابكر: زراعة القطن في السودان، وزارة العلوم والتقانة، هيئة البحوث الزراعية، نشرة ارشادية رقم 6 [www.arcsudan.sd](http://www.arcsudan.sd)

<sup>245</sup> عابدة قسيس: <http://www.alahdath.sd/details.php?articleid=19083>

<sup>246</sup> الاستاذ محمد عبده كبح كاتب وباحث اقتصادي. نشر العديد من المقالات التي تناولت بالتحليل الكثير من القضايا، مثل قضايا البترول، الميزانية العامة، الزراعة وغيرها. نشر له معهد البديل بجامعة كمبرج كتاب "السودان، اقتصاد الانقاذ والافقار الشامل"، وهو يعتبر من الكتب القليلة التي تناولت في تشريح عميق جوانب واداء الاقتصاد السوداني في ظل نظام الجبهة الاسلامية.

(247) ألف طن من القمح قد تم انتاجها في عام 1989/1988 قبل حكم الإنقاذ دون ضجيج حول الاكتفاء الذاتي من القمح. ولا بد أن نضيف هنا أن انتاج القمح قد وصل إلي كمية (838) ألف طن في عام 1992/1991 ولكنها فقاعة سرعان ما انحسرت ووصل الانتاج إلي (172) ألف طن في عام 1999/1998 وبلغ (214) ألف طن في موسم 2000/1999 و(303) ألف طن في موسم 2001/2000<sup>247</sup>.

### السكر في السودان

بدأ التفكير في صناعة السكر في الثلاثينات من القرن الماضي وكانت زراعة قصب السكر موجودة في كل من الجيلي، مدني، الكاملين، سنجه وجبل مرة وغيرها من المناطق بالسودان الا إنها لم تكن لأغراض الصناعة التحويلية كما هو الحال الآن. كما كان هناك مصنع لعسل القصب في منطقة بحري يتبع لشركة الشرق الأوسط الزراعية الحصرية. في مطلع عام 1959م تمت الإستعانة بالبروفسير فريدريك رون (خبير سويسري الجنسية) لإعداد دراسة لقيام صناعة السكر في السودان. وفي عام 1960م تم وضع حجر الأساس لمصنع سكر الجنيد، وتلاه مصنع سكر حلفا الجديدة 1963، مصنع سكر سنار 1976، مصنع سكر عسلايه 1979، مصنع سكر كنانه، وسكر النيل الابيض<sup>248</sup>.

هناك خطة كبرى للتوسع في زيادة المساحات المزروعة بالسكر<sup>249</sup>، لكن سوف يكون توفر امكانيات الري عائقاً في الوقت الحالي، دون تجاوز الحصة المائية الحالية المقررة للسودان حسب اتفاقية مياه النيل المبرمة مع دول حوض النيل. وقد تقرر انقاص الاستهلاك المائي من خلال ادخال البنجر في الدورة الزراعية بنسبة (37%) من الارض المستزرعة، وادخال الحصاد الاخضر والذي يتواءم مع البيئة ويساهم في زيادة أنتاج الطاقة الكهربائية من خلال استغلال مخلفات الحصاد. قدم عبد المنعم خليفه خوجلي دراسة جيدة ودارت حولها حوارات مفيدة حول سكر كنانه كنموذج

<sup>247</sup> محمد عبده كيج: الاقتصاد السوداني إلى أين؟ [http://www.sudaneseconomist.com/start\\_3\\_12.html](http://www.sudaneseconomist.com/start_3_12.html)

<sup>248</sup> بداية فكرة صناعة السكر في السودان:  
[http://www.ssc.sd/index.php?option=com\\_content&view=article&id=10&Itemid=60&lang=ar](http://www.ssc.sd/index.php?option=com_content&view=article&id=10&Itemid=60&lang=ar)

<sup>249</sup> عبد المنعم خليفه خوجلي: صناعة السكر في السودان، <http://www.sudaneseonline.com>



لتعاون القطاع الحكومي، الرأسمال العالمي والخدمات الإجتماعية التي يقدمها المشروع وامكانيات الصناعات القائمة عليه.

## زراعة النخيل ونتاج التمور في السودان

تعتبر النخلة اقدم الاشجار البستانية التي أدخلت إلى السودان، فقد حدث ذلك منذ أكثر من 3000 سنة. النخيل من أشجار المناطق شبه المدارية، حيث تنتشر زراعته في المناطق الصحراوية القاحلة، الأراضي الجافة وشبه الجافة. تتركز زراعة النخيل في ثلاث ولايات رئيسية هي الولاية الشمالية، نهر النيل وشمال دار فور (81.4 %) من إجمالي أشجار النخيل في السودان. ويتوزع الباقي في ولايات الخرطوم، الجزيرة، كسلا والبحر الاحمر.

من الولايات التي يمكنها المشاركة في برامج التوسع الافقي في زراعة النخيل بالتركيز على الاصناف المستوردة هي: ولاية النيل الابيض، سنار، غرب كردفان شمال كردفان، غرب دارفور، شمال دارفور، الجزيرة، القضارف، الخرطوم، كسلا، نهر النيل، البحر الاحمر والشمالية. لقد ظلت الجهود الخاصة بمحاولة تطوير النخيل تبذل منذ منتصف القرن الماضي حتى عام 1965. ومع التقدم الذي حدث في علوم الزراعة النسيجية، تم التوصل إلى أعظم حدث في زراعة النخيل في القرن العشرين وهو الإكثار عن طريق الزراعة النسيجية<sup>250</sup>.

## الصناعات الغذائية

أنشئت وزارة الصناعة في عام 1966م بعد أن ظلت إدارة تابعة لوزارة التجارة والتعاون والتموين، وكانت تتبع لها عدداً من الادارات وإنفصلت عنها لاحقاً كالتعدين والمواصفات والبتروك وحملت أسمها الحالي وزارة الصناعة في عام 2002م وحتى تاريخه. الصناعة قديمة في السودان (خاصة القطاع الحرفي)، لكن الصناعة الحديثة بدأت في العهد التركي بصناعات السكر، الصابون والنسيج ثم في عهد المستعمر

<sup>250</sup> الدكتور عوض محمد احمد عثمان: تطوير زراعة النخيل ونتاج التمور في السودان، المنظمة العربية للتنمية الزراعية، الخرطوم، السودان، اعيد طبعه من كتاب ندوة النخلة حياة وحضارة ومعرض منتجاتها، مركز عيسى الثقافي، 2009 م

الانجليزي الذي بدأت فيه صناعات الأسمنت، الزيوت النباتية، الألبان وتصنيع الفاكهة.

يعتبر قطاع الصناعات الغذائية، القطاع الرئيسي من جملة القطاعات الصناعية في البلاد لما له من أهمية في توفير الغذاء وارتباطه بقطاع الزراعة الذي يمثل حجر الزاوية في القطاع الإقتصادي السوداني، والطاقت المتاحة في هذا القطاع تفي بحاجة البلاد وهناك فائض قابل للتصدير. تمثل الصناعات الغذائية 70% من جملة المنشآت الصناعية بالبلاد والتي تبلغ 24762 منشأة. أهم الصناعات الغذائية في السودان تشمل صناعات الدقيق ومشتقاته، العصائر، المياه الغازية والمعدنية، الألبان والأجبان، اللحوم وغيرها.

تنتج منظومة السكر بالإضافة إلي انتاج السكر وعسل القصب وباستغلال معالجة مخلفات الصناعة من بقاس ومولاص، بعض المنتجات الغذائية الأخرى كالخميرة والاعلاف الحيوانية والتي مهدت لصناعة منتجات الالبان واللحوم والدواجن بالإضافة إلي انتاج الخضر والفواكه والمحاصيل الأخرى<sup>251</sup>.

أسس مركز بحوث تصنيع الأغذية في العام 1965م، بهدف مساعدة قطاع الصناعات الغذائية بالسودان لتطوير منتجاته والاستفادة من المواد الخام الزراعية بالسودان. يعمل المركز كجهة مرجعية لهيئة المواصفات والمقاييس، وزارة الصحة، الصناعة والزراعة. إن الإهتمام بالمعلومات، الإحصاءات الدقيقة، توثيقها وحفظها بالوسائل المختلفة، إسترجاعها وتبادلها يكتسب أهمية متزايدة نسبة للدور الهام والمؤثر الذي تلعبه المعلومات في التخطيط السليم، اتخاذ القرار، البحث والدراسة.

ومن هنا فقد أولت وزارة الصناعة السودانية هذا الجانب إهتماماً كبيراً تركّز ذلك في القيام بثلاث مسوحات صناعية شاملة: أُجريت أولها في عام 1973 لعام الأساس 1971/70م، الثاني عام 1984/83م لعام الأساس 1982/81م وأخيراً الثالث لعام الأساس 2001م، والذي صدرت تقاريره في أربعة مجلدات في مطلع العام 2005م. وقامت الوزارة بإجراء مسوحات جزئية في المناطق الصناعية وقد تم إجراء أول هذه

---

<sup>251</sup> وزارة الصناعة في السودان: الصناعة في السودان،  
[http://www.sudanway.sd/economic\\_industry.htm](http://www.sudanway.sd/economic_industry.htm)

المسوحات في أغسطس 2010م بالمنطقة الصناعية بالخرطوم بحري.

## هيئة البحوث الزراعية

يعود تاريخ البحث الزراعي في السودان إلى العقد الأول من هذا القرن، انشأت أول مزرعة تجريبية في شندي في عام 1902 وأخرى في الكاملين، تبعتها في عام 1903 حقول تجريبية في كل من رمبيك وواو. تم في عام 1904 إنشاء محطة بحوث شمبات بواسطة مصلحة الزراعة للقيام بالبحوث العلمية في النباتات وطرق فلاحتها بالتعاون الوثيق مع معامل ويلكم.

وفي 1903 أنشأت معامل ويلكم (welcome) للبحوث المدارية، كجزء من مصلحة التعليم لإجراء البحوث الزراعية في مجالي الكيمياء والحشرات "بدأ السودان الابحاث الطبية في طب المناطق الحارة منذ 1902 حيث انشأ الصيدلي هنري ويلكم (امريكي المولد انجليزي الجنسية) معمل ويلكم في كلية غردون كهديّة للسودانيين، بعد أن راعه منظر مرضى الملاريا وهم يحتضرون، وقد شاهداهم في السبلوقة عندما زار السودان على باخرة نيلية قادما من مصر، وتم تعيين احد كبار الاطباء البريطانيين اندرو بلفور كمدير لهذا المعمل، ولم يكن محض صدفة أن عُين د. بلفور كمدير لصحة الخرطوم التي شهد عهده وعهد من اتوا بعده من البريطانيين والسودانيين اجتثاث لجحافل البعوض ولداء الملاريا من العاصمة حتى سبعينات القرن الماضي".

وأنشأت محطة بحوث الجزيرة في عام 1918 بهدف دراسة البيئة الطبيعية وتعريفها علمياً ودراسة تفاعل المحاصيل المختلفة مع هذه البيئة. كان من أهم واجبات المحطة تقديم النصائح والإرشاد للشركة الزراعية آنذاك، في الطرق المثلى لإنتاج القطن وبعض المحاصيل ذات الصلة بالدورة الزراعية. المتتبع لتطور مشروع الجزيرة لآبد أن يلحظ الدور الكبير الذي لعبته البحوث الزراعية في تطوير إنتاج القطن، المحافظة علىه وتجنيب البلاد نكسات كثيرة مثل انتشار مرض تجعد الأوراق الفيروسي ومرض اللفحة البكتيرية اللذان تسببا في انخفاض إنتاجية القطن إلى حد أدنى في منتصف الثلاثينات.

أعقب ذلك إنشاء عدد من محطات البحوث الزراعية في كادقلي بجنوب كردفان

(1935)، يامبيو بجنوب الإستوائية (1948)، أبو نعامة بوسط السودان (1963)، خشم القرية بشرق السودان (1960)، الحديبة بشمال السودان (1962) وسنار ومعنوق بوسط السودان (1963)<sup>252</sup>.

لقد كانت البحوث الزراعية منذ عام 1918 وحتى عام 1967 تدار كقسم من أقسام مصلحة الزراعة سابقاً. وفي عام 1967 وضح جلياً أن مناشط البحوث الزراعية قد بلغت من الأهمية والحجم والمسئولية ما يستوجب الاستقلال الفني والإداري. قاد هذا التوسع الكبير في مجال البحوث الزراعية في عام 1967 إلي استحداث هيئة البحوث الزراعية، كمؤسسة عامة شبه مستقلة بموجب قانون 1967 والمعدل لعام 1977، تجمع تحت إدارتها كل محطات البحوث والمراكز التخصصية، بغرض القيام بالأبحاث الزراعية التطبيقية بما يتلاءم وخطة التنمية الزراعية بشقيها النباتي والحيواني. ونتيجة للتنظيم الجديد تم ضم وحدات البحوث في مجالات تصنيع الأغذية، والأسماك والحيوانات الوحشية والغابات والمراعي إلي هيئة البحوث الزراعية.

في سياق عملية تطوير البناء المؤسسي للدولة، تم إنشاء وزارة العلوم والتكنولوجيا في عام 2001 لتجمع بين أروقتها كل المؤسسات البحثية التابعة للوزارات الأخرى، من أجل التنسيق بين مختلف الجهات المهتمة بالبحث العلمي مما يقلل من الازدواجية، يرشد استخدام الموارد المادية والبشرية ويعمل على تركيز الجهود وتوجيهها نحو التنمية الإقتصادية المستدامة.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هيئة البحوث الزراعية جزءاً من وزارة العلوم والتكنولوجيا، كجهة وطنية مسئولة عن ترجمة التوجهات الإستراتيجية للدولة في مجال تنمية وتطوير الإنتاج الزراعي، من خلال القيام بالبحوث والدراسات العلمية والتطبيقية في المجالات الزراعية المختلفة، واعتماد نتائجها ونشر مخرجاتها على مختلف الفئات المستفيدة عبر مراكزها ووحداتها المتخصصة ومحطاتها البحثية المنتشرة في مختلف مناطق البلاد.

### القيمة المضافة والتميز المقارن للموارد الطبيعية (الزراعة)

<sup>252</sup> هيئة البحوث الزراعية السودان: نبذة تعريفية: [www.arcsudan.sd/arcarabic/abouarcar.htm](http://www.arcsudan.sd/arcarabic/abouarcar.htm)

عندما نتناول الكفاءة الأساسية للموارد الطبيعية في لبنات بناء الرؤية السودانية، سوف نتعرض لافضل الإستراتيجيات التي طرحها العلماء السودانيون "العمد" في المجال وهم كثر، المؤلفات الموثقة القائمة على الادله وكذلك تجارب الدول التي سبقتنا. ليس الغرض من هذا وضع خطط او أن نفتي فيما لانفهم، وليس الموضوع حول خراط طريق او كيف ندير مواردنا فهذا له مختصيه، مجالات نقاشه وكيفيه الوصول لها. ما نود التعرف عليه هو مقدار قوة الكفاءات الاساسية، موضوعية مبررات اختيارها، قدرتها على التفاعل معاً لتحقيق الحد الاقصى من الدفع بالوطن إلي المستقبل والقيمة المضافة والتميز المقارن في كل كفاءة نستعرضها.

لقد كنت محظوظاً في بحثي هذا، أن انشأ مجموعة من العلماء الإقتصاديين واحداً من اهم وافضل الصفحات الاسفيرية، إنني ممتن لهذا الموقع في أن هذا الكتاب لم يكن ممكناً لشخص مثلي مختص في الرؤية، وعلى حافة العلم العادي في القطاعات الأخرى خاصة الإقتصادية<sup>253</sup> "الإقتصادي السوداني هو موقع يُعنى بالبحث في قضايا الإقتصاد السياسي بشكل عام ، وعلي صعيدٍ خاص بقضايا الإقتصاد السياسي السوداني في مرحله تحولات عالمية كبرى. لن يكن موقع الإقتصادي السوداني قصراً علي مدرسة فكرية إقتصادية واحدة. و كما أن الحقيقة ليست حكرأ لفكر بعينه او مرهونة بسياقاته، سيعمل الموقع علي نشر المعارف الجادة، متعددة المشارب، في حقل الإقتصاد السياسي. وبالقطع، تلك ضرورة يؤكد عليها الموقع، والقائمون على أمره".

### القيمة المضافة والتميز المقارن

ليس مجرد وجود الموارد الطبيعية (اراضي ومياه وثروة حيوانية ومعادن) كافياً أن نعتبرها كفاءة اساسية، فقد ظلت هذه الموارد هناك منذ الازل ولم تحقق أي نتائج مفيدة، بل ظلت افضل تجاربنا محصورة ايام الاستعمار. إن اعتبار الكفاءة الاساسية كرافعة يستلزم وجود ادله أن هناك امكانيات تجعل الاستفادة منها ممكنة، في ظل التحديات الكثيرة التي تواجه الوطن وتواجه القطاعات المختلفة، بتغيرات في

<sup>253</sup> الإقتصادي السوداني: عن الموقع: <http://www.sudaneseconomist.com>

السياسات والتوجهات.

إن اقرب البلاد لمثل حالتنا في توفر الموارد الطبيعية هي الهند وجزئيا ماليزيا. وقد اعتبرت الهند الموارد الطبيعية من ضمن كفاءتها الاساسية، ووضعت احد اهدافها أن لا تتوقف الصناعة الغذائية عند الزراعة وحدها، ولكن إعطاء انتباه اكبر إلي تكنولوجيات ما بعد الحصاد - تحديث مرافق التخزين والمعالجة، ليس فقط للحد من الخسائر ولكن في زيادة كفاءة استخدام المنتجات الثانوية. لقد تناول الكتاب "العمد" قضايا، تحديات ومشاكل القطاعات المختلفة في الموارد الطبيعية، لكنهم أيضاً ابرزوا بشكل واضح الايجابيات التي كان من شأن اعلانها أن تطورها وتجعلها ممراً للمستقبل. سوف نتناول الامكانيات والايجابيات من وجهة نظر التيار الاساسي (الدولة المسئولة).

### تجاربنا السابقة

سوف اتخذ لي مدخلاً لهذا الجزء صورة قلمية لأثر مشروع الجزيرة على السكان لعلاقتها المباشرة بالموضوع وتعطينا لمحة قصيرة عن كيف سيكون أثر استغلال الكفاءة الاساسية عند وضعها ضمن رؤية. إن هذا لايعني أنني من يعتقدون بإعادة انتاج المشروع، والبكاء على نوستالجيا المشروع الذي كان ناجحاً لفترة طويلة. لقد تغيرت كثير من المعطيات واختلفت احتياجات العالم من حولنا، حدثت تحولات قاسية على البيئة المحيطة وغيرها مما يستدعي اعادة التفكير في تنظيم، إدارة والتوجه الإستثماري في منطقة الجزيرة. لكن يظل المشروع مرجعاً حول كيف يتم بناء هذه الرؤية وتنفيذها.

قدم صديق عبدالهادي، المهموم بالمشروع واحد اشد المدافعين عنه "لا يختلف الناس في السودان ولا يكابرون حول الدور الذي لعبه أهل الجزيرة ومشروعهم في تطور السودان، نجد انه لابد من إضاءة بعض الجوانب العميقة، سمها إن شئت المعرفيه في محتواها، والتي إقترنت بوجود مشروع الجزيرة"<sup>254</sup>.

<sup>254</sup> صديق عبدالهادي: بكالوريوس العلوم في الاقتصاد القياسي - الاحصاء، جامعة الخرطوم، السودان. ماجستير العلوم، كلية توماس أديسون، الولايات المتحدة الأمريكية. ناشط سياسي في

**أولاً:** إن قيام وتأسيس مشروع الجزيرة مثَّل تحولاً عميقاً في تاريخ السودان وبالقطع في تاريخ المنطقة أيضاً. إن مشروع الجزيرة نقل جزءاً كبيراً من النشاط الإقتصادي في السودان من حيز القطاع التقليدي إلي حيز قام على اسسٍ حديثة، وبكل ما يعنيه ليس فقط التحديث، وإنما بكل ما تعنيه "الحداثة" بمفهومها المعاصر. فالنقل لم تُترجم فقط في تنوع ما هو منتج، وإنما انعكست في شكلٍ جديدٍ للعلاقات الإقتصادية والانتاجية لم يألفه السودان من قبل، وقد تبع ذلك تحولات إجتماعية، سياسية وثقافية بل ومعرفية مثَّلت في مجملها الخيوط الرابطة بين التحول العميق، الذي أحدثه أهل الجزيرة بنشاطهم الإقتصادي، وبين مفهوم الحداثة.

**ثانياً:** إن علاقات الانتاج تلك كانت تستند إلي قانون محدد تحتكم إليه الأطراف التي تربطها تلك العلاقات الانتاجية، وهم المزارع والحكومة المركزية وإدارة المشروع.

**ثالثاً:** إن المؤسسات الإجتماعية التي ارتبط وجودها بفضل قيام المشروع هي التي شكلت حياة الناس اليومية في الجزيرة، وميزت خبرتهم في التعامل مع قضايا وجودهم كمجتمع. تشكل وعي أهل الجزيرة من خلال مؤسسات إجتماعية ديمقراطية المحتوي، كانت تنتظم كل المشروع بقراه وبمدنه. كان المزارعون يمارسون حقهم الديمقراطي في انتخاب اعضاء مجالس الانتاج. وكانت هناك أيضاً الجمعيات التعاونية والتي لم تكن مؤسسات ذات دورٍ إقتصادي فحسب وإنما كانت وسائل واقنية حاملة للوعي الديمقراطي وترسيخه.

**رابعاً:** كان أهل الجزيرة يقومون بانتخاب واحدة من اكبر نقابات السودان الا وهو "إتحاد مزارعي الجزيرة والمناقل" الذي تشكل وتأسس منذ العام 1953م. يضم الاتحاد في عضويته أكثر من 125 ألف مزارع ومزارعة. وهنا لابد من إشارة ضرورية، وهي أن عدد المزارعات النساء في مشروع الجزيرة يقارب 14%، اي أن ما يقارب 17.500 من نساء الجزيرة كن يمارسن حق الانتخاب الديمقراطي في كبري نقابات السودان.

---

العمل العام وسكرتير عام "المجموعة المناهضة للتعذيب في السودان" بالولايات المتحدة الأمريكية لعدة دورات. كاتب في عدد من الصحف و المجلات و الدوريات. من المهتمين بمشروع الجزيرة واصر كتابا عنها بعنوان مشروع الجزيرة وجريمة قانون سنة 2005 .

**خامساً:** ساهم أهل الجزيرة وبفضل الوعي الذي نشأ وإرتبط بممارستهم لنشاط إقتصادي حديث، عززته كذلك خبرة العمل من خلال المؤسسات الديمقراطية السالف ذكرها، ساهم وبفضل كل ذلك أهل الجزيرة في إحداث كل التحولات السياسية الكبرى في تاريخ السودان الحديث .

**سادساً وأخيراً:** كل هذا الأثر البائن لعب دوراً متعاضداً آخر وهو لا يتمثل فقط في إتاحتها إمكانيات اكبر للتمازج وقبول الآخر، وإنما في إضعافها للحس القبلي وبالتالي في تضيقها نطاق الأسباب التي من الممكن أن تفتح مصاريع ممارسة العنصرية. كل ذلك جعل من منطقة الجزيرة مثلاً حياً للتعايش السلمي، ونموذجاً ساطعاً للتنوع الاثني والعربي في السودان، بل ونموذجاً للدولة السودانية في المستقبل<sup>255</sup>.

### اهمية مشروع الجزيرة

غير ما تناوله الاستاذ صديق عبد الهادي، فأن هناك قضايا محددة عالجه تطور المشروع وتقدم نموذجاً يمكن الاهتداء به عند صياغة الرؤية. تناول المشروع في السنوات الاخيرة- من ضمن كثيرين تناولوه في حقب مختلفة - الدكتور سلمان محمد أحمد سلمان<sup>256</sup>، الدكتور محمد يوسف أحمد المصطفى<sup>257</sup>، الحزب الشيوعي بمنطقة الجزيرة والمناقل، محمد قسم الله محمد إبراهيم، تحالف مزارعي الجزيرة، إبراهيم علي إبراهيم المحامي وإتحاد أبناء الجزيرة والمناقل<sup>258</sup>. تتنوع مواقف هؤلاء من

<sup>255</sup> صديق عبد الهادي: مشروع الجزيرة هو بوابة العبور "الاخيرة" نحو تفكك الدولة السودانية !!!- http://www.sudanile.com/2008-05-19-17-39-36/114-2009-01-21-09-49-22/29970-----qq----- .html

<sup>256</sup> عمل د. سلمان محمد احمد سلمان خبيراً قانونياً في البنك الدولي ولاكثر من عقدين من الزمان، مستشاراً للبنك الدولي في قانون المياه. كما عمل مع الصندوق الدولي للتنمية الزراعية التابع للأمم المتحدة، في روما بايطاليا، تخرج من كلية القانون جامعة الخرطوم وحصل علي درجة الماجستير ودرجة الدكتوراه في جامعة "ييل" الشهيرة والعريقة

<sup>257</sup> الدكتور محمد يوسف أحمد المصطفى دكتوراه علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا) كلية الدراسات الإقتصادية والإجتماعية جامعة الخرطوم وجامعة هال، قيادي بحركة تحرير السودان قطاع الشمال وشغل منصب وزير الدولة بوزارة العمل والخدمة العامة وتنمية الموارد البشرية 2005-2011 .



اليمين إلى اليسار لكنها عندما تعالج قضية مشروع الجزيرة تنطلق في الاغلب من نظرة التيار الاساسي وعلى التجربة التاريخية الثرية.

أولاً: إن التجربة التاريخية تثبت أن الدولة الإستعمارية اعتمدت على مصادر حكومية في إنشاء خزان سنار، تمويل كافة عمليات التحضير والتجهيز للمشروع، رغم العروض التي تلقتها من مؤسسات خاصة. لقد اعطتنا التجربة أن إدارة المشاريع في نظام شراكة ثلاثية بين الحكومة، الإدارة والمزارع. الحكومة تملك السد والقنوات والاراضي، الشركة تقوم بإدارة المشروع وأيضاً تمويل القطن فقط وتشرف علي انتاجه، والمزارعين هم الذين يقومون بزراعة القطن في الحواشات تحت اشراف الشركة.

الحكومة نصيبها 40%، الزراعة 40% والشركة الزراعية 20%. ظلت تلك النسب سارية من العام 1925م، وتمّ تعديل هذه النسب إلي الزراعة الي 42% والحكومة الي 42% وحددت نسبة ارباح إدارة مشروع الجزيرة ب 10%. كما اضاف البنود التالية وهي الخدمات الإجتماعية والمجالس المحلية وصندوق الاحتياطي وحدد نسبة 2% لكل منها. وفي العام 1965م وتقديراً لدور المزارعين في ثورة اكتوبر تمّ رفع نسبة ارباحهم الي 48% وخُفضت نسبة ارباح الحكومة الي 36%.

لمعالجة وضع عدم عدالة التوزيع تجاه المزارعين خاصة في السنوات التي تدنى فيها انتاج القطن، سُمح للمزارعين بزراعة 5 افدنة من الذرة و 5 اخرى من اللوبيا وذلك لاستخدامهم الخاص دون شراكة مع الحكومة او الشركة الزراعية وإدارة المشروع لاحقاً. إن هذا النجاح لم يكن فقط خاصاً بمشروع الجزيرة لكن تعداها إلي كافة المشاريع الإستراتيجية من سكك حديدية، سودانير والخطوط البحرية السودانية والتي اديرت كقطاع عام بنجاح.

بدأ تدهور مشروع الجزيرة منذ بداية السبعينات من القرن الماضي، لتفاقم المشاكل التي كانت موجودة اصلاً والمشاكل المستجدة. اهم هذه الاسباب: عمليات صيانة

<sup>258</sup> يعود الفضل للنعمة محمد الطيب في انشاء تحالف مزارعي الجزيرة والمناقل عقب تدافع مزارعي المشروع للاجتماع بأمانة المؤتمر الوطني بالحصاحيصا في مارس 1999 مطالبين بحقوقهم المسلوبة من مؤسستهم التعاونية والتي تمتلك مطاحن قوز كبرو ونسيج الملكية وغيرها. <http://www.wadmadani.co/vb/t3101.html>

قنوات الري وتراكم الطمي والحشائش وأدى في النهاية الي ضعف أدائها في عملية الري، أثر وجود الطمي أيضاً علي أداء خزاني سنار والروصيرص، حيث فقد نصف طاقتيهما التخزينية بسببه، زيادة اسعار المحروقات عالمياً واثرها علي المدخلات الزراعية والوقود، تدني أسعار القطن لزيادة الانتاج من القطن في آسيا الوسطى والصين والهند، الزيادة الكبيرة في تكاليف الانتاج مما أدى الي هجرة عدد كبير من المزارعين وتوقف الكثيرين منهم عن العمل فيها واخيراً التخطي في السياسات الزراعية كجزء من سوء الإدارة المايوية العام.

**ثانياً:** بعد عقدين من الحكم الوطني وتسلسل سوء الإدارة والفساد لجسد المشروع، دخل على الخط البنك الدولي عام 1966. بدلاً من معالجة المشاكل الواضحة والمباشرة اتجه البنك إلي علاقات الانتاج فيما عرف بتقرير "رييس" لعام 1966م: ركّز التقرير عموماً علي علاقات الانتاج داخل المشروع، وانتقد بشدة نظام الحساب الجماعي وقتها، وأشار إلي أن نظام الشراكة يقلل كثيراً من حوافز الانتاج بالنسبة للمزارع. وقد إقترح التقرير إدخال حرية إختيار المحاصيل. ولكن هذه التوصية رُفِضت بشدة بواسطة الحكومة وإدارة المشروع. اقترح التقرير أيضاً إدخال تجربة تربية الحيوان بالمشروع، وكذلك تنظيم المزارعين في جمعيات تعاونية.

شكل تقرير رييس الأساس الفكري والنظري للدراسات اللاحقة عن مشروع الجزيرة وغيره من المشاريع المروية في السودان. اشترط البنك الدولي عام 1983م، لإعادة تأهيل مشروع الجزيرة بقروض ميسرة من البنك الدولي والصندوق العربي للتنمية الإقتصادية والإجتماعية والحكومتين الايطالية واليابانية، إصدار قانون مشروع الجزيرة لعام 1984م، وهذا ما حدث. آخر هذه التدخلات تقرير الفريق المشترك بين البنك الدولي وحكومة السودان لعام 2000م، والذي أعقبه صدور قانون مشروع الجزيرة لعام 2005م<sup>259</sup>.

حدث تطوران مهمان في العام 1980 عندما أعلن رئيس الجمهورية الأسبق (جعفر النميري ) قراراته حول مستقبل مشروع الجزيرة وغيرها من المشاريع الزراعية في

<sup>259</sup> الدكتور سلمان محمد احمد سلمان: اضواء علي مشروع الجزيرة التطورات، و المتغيرات و قانون 2005م، Apr.27, 2011 in، عرض صديق عبد الهادي، <http://www.sudaneseconomist.com/?cat=8>

القطاع المروي. وبناء على تلك القرارات فإن نظام الشراكة الثلاثية القائم على إقتسام التكلفة والأرباح بين الشركاء (الحساب المشترك) المطبق وقتذاك استبدل بنظام فئات الماء والأرض (الحساب الفردي).

التطور الثاني حدث في اغسطس من العام 2005 عندما أجازت الحكومة عبر مؤسساتها المختلفة قانوناً جديداً لمشروع الجزيرة، يؤسس لإنسحاب الدولة الكامل من أي دور في إدارة المشروع باستثناء الحصول على الإيرادات الريعية مقابل توفير الأرض والماء للزراعة، هذا بالإضافة إلي التمكين للقطاع الخاص (غير المحددة جنسيته) وتعزيز فرصه للاستيلاء على أصول المشروع الإقتصادية.

يوضح د. محمد يوسف أحمد المصطفى ان كل تلك القرارات مرتبطة، وتمثل تجلي علاقة الإعتماد المتبادل والتحالف الوثيق بين الدولة والرأسمال ضد العمل الذي يمثله المزارعون المحليون والعمال الزراعيون. إن إنتاج القطن في الجزيرة كان دائماً عملية إقتصادية – سياسية إجتماعية تشمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة عديداً من القوى الإجتماعية المتفاعلة. إنسم الطابع العام لتفاعل الصراع بين هذه القوى بالصفة التنافسية – والتنافسية في أدنى مستوياته وأكثرها تخفيفاً<sup>260</sup>.

نظر تحالف مزارعي الجزيرة والمناطق من نفس الموقف "في عهد الإنفاذ التي اتخذت سياسة التحرير الإقتصادي وخصخصة القطاع العام الذي فتح المجال واسعاً أمام الشركات والبنوك والمقاولين ومتعهدين حتى جاء قانون 2005م الذي بدأ بخصخصة كل البنيات الأساسية بالمشروع، باع الهندسة الزراعية وسكك حديد الجزيرة والمناطق والمحاج والمبوت والمكاتب – المخازن – الخدمات الإجتماعية . . الخ) تم هذا دون أسس محاسبية وعلي أعلي درجة من الفساد. كما ساهمت الخصخصة والهيكله في تشريد العاملين والموظفين والعمال الزراعيين وأفقر أهل المشروع الذين يعتمدون علي خيرات هذا المشروع"<sup>261</sup>.

لقد اوضح صلاح الباشا<sup>262</sup> و محمد قسم الله محمد إبراهيم كيف ان المشروع قدم

<sup>260</sup> د. محمد يوسف أحمد المصطفى: علاقات الانتاج في مشروع الجزيرة، Apr.19, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

<sup>261</sup> تحالف مزارعي الجزيرة والمناطق، May.23, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

<sup>262</sup> صلاح الباشا: مشروع الجزيرة الماضي والحاضر والمستقبل المجهول؟؟،

نموذجاً عن التنمية الإقتصادية والإجتماعية لسكان المنطقة والوطن عموماً، وذلك بتوجيه النسبة المئوية التي كانت تُستقطع من الأرباح بواقع إثنتين بالمائة تحت بند الخدمات الإجتماعية باقامة العديد من دور التعليم والصحة، توفير مياه الشرب والإهتمام بصحة البيئة وتعليم الكبار (محو الأمية)، قيام الجمعيات التعاونية حيث إنتدبت الخدمات ضباطاً للعمل في الجزيرة ومن ذلك برنامج زراعة غابات الكافور (شجرالبان) بالتعاون مع مصلحة الغابات بغرض توفير الخشب كمادة بناء ووقود. كذلك تأسيس الفصول الصناعية، إنشاء مدارس لتدريب أبناء المزارعين على زراعة المحاصيل المختلفة في بركات ومساعد وأنشأت فيما بعد جامعة الجزيرة بأبعادها الريفية والزراعية.

قدم الأمين عبد الباقي بابكر<sup>263</sup> (تحالف مزارعي الجزيرة والمناقل، مكتب تورس، قسم وادي شعير، أغسطس 2006م) دراسة محكمة من وجهة نظر المزارعين. إن هناك وجهات عديدة وافكار جيدة من كل طرف ولكن يعيق التوصل لأفضل المقترحات من اجل التوافق حول مصالح كافة الاطراف. إن كل القرارات المصيرية اتخذت بدون الاخذ في الاعتبار مصالح المزارعين.

**ثالثاً:** إذا كانت الاطراف الثلاث قد استطاعت أن تدير مشروعاً ناجحاً لأكثر من نصف قرن، فإن حاله التدهور والتجاذب الحاد نشأت عند مناقشة علاقة القطاع الخاص ودوره. لقد تجلى هذا في أن كافة المعالجات اتجهت نحو تغيير علاقات الانتاج من أنظمة حسابات المشروع (المشترك والفردى)، حرية اختيار المحاصيل، تملك الاراضي للمزارعين، اخراج الدولة من عملية الانتاج وذلك بإنشاء روابط مستخدمي المياه لإدارة وصيانة وتشغيل قنوات الحقل بالمشروع وتقليص دور مجلس الإدارة<sup>264</sup>.

هذه ليست خاصة بمشروع الجزيرة، ففي كل المشاريع الكبرى في السودان إتجة

---

Apr.19, 2011·<http://www.sudaneseconomist.com>

<sup>263</sup> الأستاذ الأمين عبد الباقي: دراسة حول الإصلاح الزراعي في مشروع الجزيرة: تدهور

مشروع الجزيرة والمناقل .. وبرنامج لإصلاح زراعي، May.04, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

<sup>264</sup> إبراهيم علي إبراهيم المحامي :الجوانب القانونية لمشكلة الأراضي بمشروع الجزيرة ، Jun.02, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

القطاع الخاص، بدلاً من إنشاء مشاريع جديدة وجذب الرساميل لتشييد البنيات الأساسية ووسائل الانتاج وبالتالي إنشاء مشاريع انتاجية جديدة وفرص عماله.. الخ، إلي وراثة المشاريع القائمة وشرائها باقل الاسعار في صفقات فاسدة.

إن الدولة بدلاً من أن تعالج المشاكل البيئية في هذه المشاريع، تهديها للقطاع الخاص بلا مبرر سوي الجشع والفساد. لقد استطاعت الدول التي صنعت طريقاً جديداً للمستقبل أن تحدد هذه العلاقة بشكل واضح ومحدد. يحتاج هذا لجو من الشفافية والاستقامة. لقد ساهم راس المال الخاص الاجنبي والمحلي في تنمية السودان منذ الحكم التركي وانشأ الكثير من الشركات مشاريع القطن على ضفاف النيل، القمح والفول في الشمالية والزراعة الآلية في كردفان، دارفور، القضارف.. الخ

### التمييز المقارن للزراعة في السودان

أولاً: يتواجد في السودان ثلاثة أشكال رئيسية لعلاقات الإنتاج في الزراعة السودانية: علاقات إنتاج رأسمالية الدولة، الزراعة الرأسمالية الكبيرة والإنتاج السلعي الصغير بشقيه المتخلف والحديث. هذه الاطراف جميعها لها خبرات هائلة ومستمرة منذ أكثر من قرن. حققت هذه التجارب نجاحات كبيرة وكانت لعقود طويلة عصب الاقتصاد السوداني ولا زالت. لم يثبت دخول القطاع الخاص أي افضلية في استقرار الاوضاع او الانتاج الاحسن. بل ادت عمليات الخصخصة، تكدس الارض عند قله من الاغنياء وتوجيه التمويل والتسهيلات لها إلي تدهور الزراعة.

وكما لاحظ بروفير فرح حسن ادم "إن الرؤية حول إمكانية الارتقاء بالإنتاج والإنتاجية في مؤسسات الزراعة المروية عبر آلية السوق (تحرير سوق الأرض والتمويل .. الخ وإلغاء دور الدولة الإقتصادي والخصخصة) لن تفضي إلا إلي بعثرة الموارد الإقتصادية والإجتماعية لمشروعات الري القومية الكبرى وزيادة إفقار الغالبية العظمي من العاملين بتلك المشاريع"<sup>265</sup>.

<sup>265</sup> باحث معروف في مجال الاقتصاد الزراعي، و العميد السابق لكلية الزراعة بجامعة الخرطوم. يعتبر باحثاً مرجعاً في الاقتصاد الزراعي. كتب العديد من البحوث و الدراسات والاوراق العلمية المتخصصة في هذا المجال

**ثانياً:** إن السودان لديه من الامكانيات لكي يحقق الاكتفاء الذاتي في اهم الحبوب الغذائية التي تعتبر الغذاء الاساسي لسكانه من الذرة، الدخن والقمح. إن الهدف الاساسي لتحقيق ذلك هو المواطن، خاصة مواطن الريف الذي يعيش فيه أكثر من 60% من السكان ولا تزال الزراعة المصدر الرئيسي للعماله ودخل الأسرة في المناطق الريفية.

تضم هذه أكثر الفقراء الذين يعيشون تحت خط الفقر، والذين تدهورت حالتهم بسبب السياسات الإقتصادية الكلية والزراعية والتي خلقت التذبذب في الانشطة الزراعية والإنتاج الرعوي، ضعف التكنولوجيا، احتكارات أسواق التصدير، الفيضانات والجفاف والجراد واخيراً الحروب المستمرة. لقد تعرض هذا المجال لآخذ ورد سياسي تغيب فيه الحقائق الاساسية، لكن التطور كان مستمراً في البحث عن وسائل حل الاشكالات الاساسية التي تواجه القطاع.

إننا نمتلك في مجال الحبوب الغذائية تاريخاً، معرفة، تقاليداً وخبراء وعلماء، القضية الرئيسية تكمن في السياسات والهدف الرئيسي للتنمية وسنواجه بسؤال صعب حول هل هذا مجد إقتصادياً. أيضاً نواجه هنا بمشكلة سلوكية هي تحول كمية كبيرة من السكان لتغيير غذائهم الرئيسي من الذرة والدخن إلي القمح. هذه مشكلة تحتاج لآليات وبحوث وتدخلات لمعالجتها. القضية الاساسية في هذا المجال المياه، كما اوضحنا سابقاً.

إذا استهدفنا هذه المحاصيل نحتاج لمراجعة جدية عن توزيع زراعة القمح بشكل إقتصادي وذا جدوى، لانه الوحيد الذي يحتاج لكميات كبيرة من الزراعة المروية وتقليل الفاقد من المياه في زراعة القمح. وربما النظر حول زراعة السكر والتوسع فيه اما باستبدال اغلبها بالبنجر او استعمال تكنولوجيات احدث للري او غيرها<sup>266</sup>.

**ثالثاً:** مايسمى القطاع التقليدي واحياناً يوصف بالمتخلف، هو مخزن لخبرات المزارع السوداني في التعامل الحكيم مع معطيات البيئة المحيطة. هذا القطاع هو أيضاً مخزن للاقتصاد المعيشي وتوفير الغذاء من خضر، فاكهة، حبوب.. الخ وكان دائماً الداعم

<sup>266</sup> بروفيسور فرح حسن آدم: الزراعة السودانية بين البقاء و الفناء، Apr.27, 2011، <http://www.sudaneseconomist.com>

الاساسي للاسر والعائلات في الارياف، ويضم دائماً حيوانات ودواجن للاستعمال المنزلي. هذا نمط يتواجد في الزراعة المنزلية مثل الصين الذي يعيش أغلب سكانه حوالي، 64% من مجموع الفئة النشيطة أي ما يعادل 700 مليون فلاح، في الأرياف ويعتمدون على الزراعة كنشاط رئيسي يشتغلون في رقعة لا تتعدى 12% من المساحة الاجمالية.

إن هذا القطاع حيوي وهام في تطوير الاقتصاد السوداني ويحتاج إلى سياسات صائبة. أعد لفيف من العلماء والخبراء السودانيون وثيقة بهدف الاستفادة منها في إعادة صياغة السياسات الزراعية، لإحداث تحول نوعي في القطاع الزراعي من قطاع تقليدي ينتج بمعدلات الكفاف في كثير من محاوره إلى قطاع إقتصادي نشط ومتطور، لتحقيق إنتاج مرن، مستدام وقادر على المنافسة.

حددت الوثيقة المذكورة عوامل تطوير هذا القطاع في التغييرات في السياسات، في الجوانب الإقتصادية الإجتماعية من تقنين استخدامات الأراضي، تحفيز المنتجين نحو تطبيق سعر صرف يأخذ في الاعتبار تشجيع الإنتاج الزراعي للصادر، تخصيص الموارد الكافية لتأهيل وتحسين البنية التحتية للقطاع الزراعي ولدعم البحوث الزراعية والإرشاد ونقل التقنية ومكافحة الآفات، تكوين تجمعات تعاونية للمنتجين وإحداث نقله كمية ونوعية في التسويق الزراعي بتأسيس الأسواق الريفية وتوفير معلومات السوق في متناول المنتجين وإنشاء مواعين التخزين الكافية.<sup>267</sup>

رابعاً: للبحوث الزراعية السودانية باع طويل يمتد لقرن كامل، بدأت وهي على اتصال بمراكز البحوث العالمية منذ ذلك. هذا القطاع كان رائداً و انتج اعداداً مقدره من العلماء البارزين الذين ساهموا في اغناء العلم والبحث في البيئة السودانية والعالمية. تقاليد البحوث الزراعية السودانية راسخة وقوية رغم اهتزازها في العقود الخمسون الماضية.

الزراعة الحديثة هي حاضن للتكنولوجيا الحديثة ولا تتطور الا بها. كل الدول التي طمحت للارتقاء بالزراعة اعطت اولية قصوى للبحث العلمي وادخال التقنيات

<sup>267</sup> ركائز المعرفة للدراسات والبحوث: السياسات الزراعية في السودان - الحاضر والمستقبل، 19 أكتوبر 2011، 13:05، [http://rakaiz.org/index.php?option=com\\_content&view=article&id=434:2011-10-13:05](http://rakaiz.org/index.php?option=com_content&view=article&id=434:2011-10-13:05)

الحديثة. لقد تخلف البحث العلمي وتبعثر علماءه سواءاً بالتمكين، سوء الاحوال المعيشية، ضعف اذا لم نقل غياب التمويل واعتبارها اولوية دنيا في الزراع. لقد انقطعت صلة البحوث الزراعية مع المراكز العلمية، الا القليل، وتوقفت البعثات لتاهيل العاملين، حضور المؤتمرات..الخ.

القطاع الخاص المحلي والعالمي في الزراعة احد اعمدة هذا القطاع، ولديه خبرة طويلة وإستثمارات ضخمة وعلاقات باسواق تقليدية وحديثة. وكمدخل سوف اورد الصورة القلمية لكيفية قام الإمام الراحل عبد الرحمن المهدي بتعمير الجزيرة ابا وجعلها مثلاً لزراعة القطن.

في عام 1927م وافقت السلطات على منحه تصديقاً لزراعة 180 فدناً في الجزيرة أبا على سبيل التجربة فنجحت زراعته نجاحاً باهراً إذ أنتج الفدان الواحد 12 قنطاراً من القطن....صارت الجزيرة أبا رائدة في زراعة القطن في القطاع الخاص في السودان ذلك القطاع الذي استطاع أن يعمر مليون فدناً علي شاطئ النيل الأبيض والنيل الأزرق يزرع فيها 300 ألف فدناً من القطن في الدورة الواحدة أي أكثر من نصف ما يزرع في مشروع الجزيرة.

بعدها اقام أنجح البساتين لزراعة الفواكه والخضروات والإعلاف في الجزيرة أبا ومرة أخرى صارت الجزيرة أبا رائدة في ميدان فلاحه البساتين في السودان ومنها تخرج عمال الجنائن وفيها قامت المشاتل التي استمد منها السودانيون الشتول في مناطق مختلفة من السودان.

وقامت في الجزيرة أبا أنشطة متعددة للصناعات الخفيفة كصناعة الزبد والجبن وصناعات يدوية ازدهرت وانتشرت في أنحاء السودان المختلفة كصناعة الطواقي والأحذية (والمراكيب) والمصنوعات الجلدية. وفي الجزيرة أبا قام أهم إسطنبول لتوليد وتحسين نسل الخيول وهناك ربيت الفحول التي وصلت عن طريق الإهداء إلي العاصمة والي كل أنحاء السودان مما حسن نسل الخيول السودانية وغير صفات الجواد السوداني قوة وجمالاً وسرعة.

في أبا قام نشاط تعليمي مرموق إذ أنشأت مدرسة أولية للأولاد كانت من أوائل المدارس الأولية في السودان، مدرسة أخرى للبنات، مدارس للإرشاد ولمحو الأمية



ومدرسة صناعية وأخرى زراعية لأعداد الكوادر التي انتشرت بعد ذلك في جميع أنحاء السودان. وتأسس في الجزيرة أبا معهد علمي للعلوم الدينية كان من أوائل المعاهد العلمية الأهلية في السودان. أقيمت في الجزيرة أبا فرق للفتوة والكشف والموسيقى علمت كثيراً من الصبيان الضبط والربط والعمل الجماعي. وكان الصبي يدخل الخلوة لحفظ القرآن ثم ينتقل إلى المدرسة الأولية ثم المدرسة المهنية ويمارس أثناء ذلك أنواعاً من النشاط الكشفي والتدريبي تحت هيئة أولاد النظام<sup>268</sup>.

الاهتزاز الذي أحدثته الإنقاذ أنها انحازت لمصالح القطاع الخاص بشكل طفيلي، فاستطاعوا مراكمة ثروات ولكنهم أيضاً دفعوا الثمن غالياً بالانهيار التام للزراعة، الأمر الذي دفع لتسمية د. فرح حسن ادم دراسة العمدة الزراعة السودانية بين البقاء والفناء. بنت الإنقاذ نظريتها على تجربتها عندما قاربت العلاقة بين التنظيم والسوق، كما بين د. التجاني عبد القادر وبالتالي فقد ظنت أنها يمكن أن تحقق الطفرة باخذ بعض المنتسبين إليه فيصنع منهم اغنياء عن طريق الخصخصة وهؤلاء يصنعون الطفرة.. النفرة.. الخ<sup>269</sup>.

إن القطاع الخاص القوي يوجد في دوله مؤسساتها قوية، والتطور فيه يستدعي قوة مؤسسات الدولة الرقابية، البحثية التي تدعم وتوفر ما قالت عنه هيئة البحوث الزراعية أنه اهدافها الإستراتيجية: إنتاج تقانات ومعلومات ذات جدوى إقتصادية ومستوفيه لمواصفات الجودة في مجالات إنتاج المحاصيل، الغابات، المراعي، تصنيع الأغذية وصيانة الموارد الطبيعية؛ توسيع دائرة البحث ليتسق مع الحاجات البحثية للسلع والنظم الزراعية المتعددة؛ ربط أجندة البحث بالواقع المتاح من موارد القطاع الزراعي وبالتناغم مع مبدأ البحث بدافع الحاجة؛ الاعتبار الكافي لتفاعل أجندة البحث مع نظم الإنتاج، التصنيع والاستهلاك ليتسنى تطبيق مخرجات البحث؛ التأكيد على مساهمة البحوث والمخرجات المستهدفة على البيئة والتنمية المستدامة؛ الاهتمام بالبحوث الموجهة نحو الأمن الغذائي والحد من الفقر؛ الاهتمام بالبحوث الموجهة لتوفير فوائض للصادر؛ تحسين أساليب إنتاج وحفظ التقاوي؛ تطوير طرق تنمية

<sup>268</sup> الإمام الصادق المهدي: الجزيرة أبا ودورها في نهضة السودان، [www.umma.org](http://www.umma.org)  
<sup>269</sup> د. التجاني عبد القادر: الراسماليون الاسلاميون: ماذا يفعلون في الحركة الاسلامية؟  
<http://alsahafa.info>

الموارد الإحيائية من خلال تبني أساليب التقانات الحيوية والهندسة الوراثية وتوظيفها لخدمة الموارد النباتية والمساهمة في نقل وتوطين التقنية للمنتفعين<sup>270</sup>.

### قضايا الزراعة في الرؤية السودانية

سوف نسترجع إنشاء مشروع الجزيرة لكي نرى مداخلها لعلها تعيننا على تلمس القضايا التي سوف نحتاج للتعامل معها عند تطوير الرؤية. لقد حددت الاجهزة الإستعمارية هدفها بوضوح في أن تقيم مشروعاً هدفه زراعة القطن لتصديره إلى إنجلترا، واجريت دراسات عديدة في انحاء السودان لاختيار افضل الاماكن لزراعة القطن. ظلت هذه الدراسات مصدراً غنياً في مختلف المجالات ربما تصلح حتى الان.

تمّ خلال هذه المرحلة وضع القواعد الأساسية التي تنظم العمل بالمشروع وتقن علاقات الإنتاج به. القضايا التي عالجتها السلطة آنذاك شملت: الملكية، المياه، علاقات الانتاج، العمليات التقنية للزراعة نفسها، النقل، التخزين، التسويق، الإدارة والقوانين المنظمه.

بعد أن استقرت الامور لإدارة الحكم الثنائي، بدأت في تسوية وتسجيل الاراضي بعد اثبات ملكيتها. وجدت الإدارة أن جزءاً من الاراضي التي سيقوم عليها مشروع الجزيرة هي ملك حر لبعض الافراد. و بناءً عليه وبعد عدة مداولات قررت الإدارة الا تنزع هذه الاراضي من اصحابها للصالح العام وتعوضهم كما يقر القانون. وقد كان أن نزعت الحكومة بعض الاراضي لاقامة المباني والتقنات وقامت بدفع تعويضات، وأن يتم تأجير الاراضي الملك الحر من ملاكها إيجاراً قسرياً بواقع عشرة قروش للفدان في العام الواحد. ومن ثم تضاف تلك الاراضي الي الاراضي الحكومية، علي أن يتم تأجير هذه الاراضي كلها في شكل حواشات للمزارعين حتى ولو كانوا ملاكاً. علي إثر ذلك صدر "قانون اراضي الجزيرة لعام 1927" لاجل تقنين وتنظيم ايجار الاراضي الملك الحر للحكومة و لمدة 40 عاماً، انتهت في العام 1967م.

إن الاصل في الارض انها ملك سكان الدولة، وليس الدولة حسب القوانين التي في اغلبها عرفيه مستقرة لقرون. عندما تتصدى الدولة لقضية الملكية لابد أن تضع

<sup>270</sup> هيئة البحوث الزراعية: <http://www.arcsudan.sd/arcarabic/abouarcar.htm>

مصلحة السكان المحليين أولاً، الدولة ثانياً ثم أخيراً الاطراف الأخرى. إننا بين مصالح متعارضة نحتاج أن نمعن فيها النظر لكي نصل لتوازن بين هذه الاطراف.

التجربة السابقة ترينا بوضوح أنه كان هناك تغليب لاحد الاطراف. ظهر هذا في تسلسل تطور الزراعة الآلية على مر السنوات عام 1942 وحتى عام 1961م كانت تغليباً للسكان المحليين والدولة. الفترة التي امتدت منذ بداية السبعينات وحتى الوقت الحالي وشهدت قفزات سريعة ومتواصلة في عملية التوسع الرأسمالي كان هناك تغليب الاطراف الأخرى.

بعد موسم 74/73 قامت الدولة بتوجيه قروض البنك الدولي للإنشاء والتعمير، تسهيلات البنك الزراعي السوداني، خدمات مؤسسة الزراعة الآلية والمؤسسات الفرعية التابعة لها لتلبية احتياجات القطاع الخاص في مجال الزراعة المطرية الآلية. أيضاً قامت الدولة بوضع قانون تشجيع الإستثمار الزراعي الذي جعل من قطاع الدولة مجالاً يقدم المزيد من الامتيازات والإعفاءات لإثراء الفئات الرأسمالية.

توضح المعلومات المتوفرة عن تخصيص الأراضي الزراعية لفرص الإستثمار الزراعي المطري الآلي، أن الدولة في عهد مايو قد قامت بمنح حوالي عشرين شركة من كبريات الشركات الزراعية الخاصة وفي فترة أربع سنوات فقط في ذلك الوقت حوالي 2 مليون فدان. واصلت حكومة الإنقاذ سياسة الاستيلاء علي الأرض التي تبنتها الحكومات السابقة مستعينة علي ذلك باتخاذ سلسله من التدابير والتي شملت إصدار قانون تشجيع الإستثمار لسنة 1990م وتعديل قانون الأراضي غير المسجله لعام 1970 بقانون المعاملات المدنية لعام 1990م.

ورد في دراسة قام باعدادها جمال واخرون حول حقوق الأراضي والموارد الطبيعية واصلاح الأراضي، أن الهيئة العامة للإستثمار التي أنشئت بموجب قانون تشجيع الإستثمار لعام 1990، قد خصصت في إطار البرنامج الثلاثي للإنقاذ الإقتصادي (1990-1993م) "ملايين الافدنة الزراعية في مناطق كردفان وجبال النوبة والنيل الأزرق والنيل الأبيض واعالي النيل علي شركات وأفراد وخليط من أنصار الحكومة وكوادر الجبهة والإسلاميين العرب".

كذلك انتقلت عدوي التوسع في الزراعة المطرية الآلية إلي دارفور، حيث أشار

الدكتور محمد سليمان في مؤلفه "كتاب السودان: حروب الموارد والهوية"<sup>271</sup> بان حكومة الإنقاذ قد منحت، حتى أبريل 1993م حوالي 3.5 مليون فدان في جنوب دارفور لشخصيات من كبار التجار، شخصيات عامة وكبار ضباط القوات المسلحة. تراوحت المساحات المصدق بها لتلك الشخصيات ما بين 45 ألف فدان كحد أدنى إلى 600 ألف فدان كحد أقصى، أي ضعف مساحة مشروع الرهد الزراعي.

فتحت تلك المشاريع باباً جديداً للاستيلاء الاعتباري على أراضي السكان المحليين، رغم تنبيه المؤتمر التداولي لإقليم دارفور الذي عقد قبل ثلاث سنوات تقريباً من مجيء حكومة "الإنقاذ" بتاريخ 26 نوفمبر 1986م بقاعة الصداقة بالخرطوم تحت شعار "نحو تنمية إقليمية متوازنة" لخطورة مثل هذا التوسع، وإصداره توجيهاً لوضع ضوابط لممارسة الزراعة المطرية، خاصة الآلية، بالإقليم ومنع الإبادة الكاملة للغطاء النباتي وربما للزراعة الإعاشية كما هو الحال في شرق السودان.

إن مصالح السكان تتجلى في أن تقوم الدولة بدورها الرقابي في الاعتناء بالجوانب الفنية الخاصة بإعداد ومسح وتحديد الأرض، وفقاً لاسس زراعية سليمة مع اعتبار ما قد ينجم عن ذلك من خلل في شقي الإنتاج النباتي والحيواني، ما يترتب عليه من تجاهل لحركة القبائل الرعوية ومن استغلال محل لموارد البلاد الطبيعية، مما يمثل تجاوزاً لكل الحقوق التاريخية للقبائل الزراعية والرعوية التي كانت تستخدم تلك الأراضي لكسب قوتها. إن ما يحدث الآن من نزاعات دامية في إقليم دارفور يعود في أصله إلى حرمان المزارعين من حيازتهم التقليدية، والرعاة من مساراتهم التي ارتادوها عبر الزمن.

الأسوأ من ذلك أن الإنقاذ عدلت قانون الأراضي غير المسجله لعام 1970 بقانون المعاملات المدنية لعام 1990م، وحرمت على الجهاز القضائي النظر في الشكاوي المقدمة من قبل الأطراف المتضررة من تلك القبائل، بينما تم تعزيز القدرات الاحتكارية للمستثمرين الجدد بإزالة كل العقبات الإدارية، القانونية والإقتصادية من طريقهم، لتمكينهم من الانطلاق في نهج خيرات القطاع التقليدي من خلال الاتجار

---

<sup>271</sup> د. محمد سليمان محمد: كتاب السودان: حروب الموارد والهوية، دار كامبردج للنشر - المملكة المتحدة، 2000

بمنتجاته ذات الميزة النسبية المرتفعة مقارنة ببقية الفروع الزراعية (تجارة الفحم النباتي، الثروة الحيوانية، الصمغ العربي، الحبوب الزيتية ... الخ)<sup>272</sup>.

## علاقات الانتاج

عندما عالجت السلطة الإستعمارية قضايا مشروع الجزيرة اعتمدت على الخلط بين نظام رأسمالي وآخر اشتراكي (العدالة الإجتماعية). برز النظام الرأسمالي في تركيبة الشركة الزراعية السودانية وطريقة إدارتها للمشروع. فالشركة شركة مساهمة مسجلة في الأسواق المالية، ولها مساهمين يتوقعون عائداً وفيراً منها كل عام. لذا كان همُّ الشركة الأساسي تحقيق أكبر قدرٍ من الأرباح إرضاءً لهؤلاء المساهمين وبذل قصاري جهدها في تقليل تكلفة الإنتاج وتعزيز أرباحها. من الناحية الأخرى كان نظام العلاقات بين الزراع أنفسهم نظاماً اشتراكياً تكافلياً (العدالة الإجتماعية) يتحمّل فيه الزراع كمجموعة تكلفة زراعة القطن وتوزّع الأرباح عليهم بعد خصم التكلفة الإجمالية، وليست الفردية، لزراعته. ولكن كان من سلبيات هذا النظام أن مستوى المزارع الدؤوب الجاد بنظيره الذي لا يملك نفس المقومات.

إذن فقد كان إطار علاقات الإنتاج إطاراً رأسمالياً وكان المضمون اشتراكياً تكافلياً. إن من حق الدولة نزع بعض الاراضي لصالح المنفعة العامة ولكنها لابد ان تحمل المستثمر التعويضات المجزية، المحافظة على التوازن الإيكولوجي والبيئي الذي يؤثر على حياة الملايين: كفتح ممرات الرعاة، حقهم في الحصول على المنتجات بأسعار تفضيلية، استيعابهم كقوة عمل بشروط عادله. إن الاثر الضار الذي احدثه اعطاء حقوق المنفعة على أراضي القطاع المطري لجماعات ليس لديها أي ارتباط بالارض بدون شروط ومع الضعف في الرقابة، هذا مع الزيادة الكبيرة في اعداد المواشي والرعي الجائر الذي صحبها، ادي لآثار كارثية بازاله الغطاء النباتي وعدم تجديدها.

<sup>272</sup> بروفيسور فرح حسن آدم: الزراعة السودانية بين البقاء و الفناء، مرجع سابق

## الفصل الثالث: الكفاءات الأساسية : الموارد الطبيعية – المياه

يزخر السودان بالموارد المائية الصالحة للزراعة: من مياه الأمطار، المياه السطحية والمياه الجوفية. ويمثل نهر النيل وفروعة الامداد المستمر طوال العام. تأتي حوالي 86% من مياه نهر النيل من الهضبة الاثيوبية (59% من النيل الأزرق و14% من نهر السوبات و13% من نهر عطبرة، بينما تساهم البحيرات الاستوائية بحوالي 14% فقط من مياه نهر النيل.

وتُقدّر كميات مياه النهر التي تصل اسوان سنوياً بحوالي 84 مليار متر مكعب. وتقدر حصة السودان من مياه النيل بـ18.5 مليار متر مكعب في العام يستغل السودان منها حالياً حوالي 12.2 مليار متر مكعب في العام. تشير الدراسات إلى إمكانية إضافة عدة مليارات إلى النيل الأبيض من مستنقعات جنوب السودان من خلال القنوات المقترحة والتي تشمل قناة جونقلي<sup>273</sup>.

في عام 1997، برزت فكرة "مبادرة حوض النيل" والتي أخذت شكلها الرسمي في 22 شباط/ فبراير عام 1999 في مدينة دار السلام في تنزانيا، إثر توقيع وزراء المياه لدول الحوض بالأحرف الأولى على وقائع الاجتماع الذي أسس لقيام مبادرة حوض النيل. وقد نجحت المبادرة في عدّة مجالات، من بينها إنشاء البنية التنظيمية للمنظمة وتمويل عدد من المشاريع المشتركة. وبدأ العمل قبل عدّة أعوام في اتفاقية الإطار التعاوني لحوض النيل. وتضم اتفاقية الإطار التعاوني: تنزانيا، كينيا، يوغندا، اثيوبيا، رواندا، بوروندي، جنوب السودان، مصر، جمهورية الكونغو الديمقراطية، السودان واريتريا كمراقب.

### الامطار

<sup>273</sup> د. سلمان محمد أحمد سلمان: الصراع في حوض النيل، سودانيل

تغذي مياه الأمطار عشرات الأنهر المتدفقة في اتجاهات مختلفة في البلاد، أبرزها إلى جانب نهر النيل وافرعه الرئيسية النيلان الأزرق المنحدر من الهضبة الإثيوبية، والابيض المتدفق من بحيرة فكتوريا في أوغندا، الرهد، عطبرة، الدندر، بحر العرب، الزراف، القاش وبركة والخيران الموسمية مثل: خور ابوحبل في كردفان بغرب السودان، ازوم، كجا، بلبل، كايا، ابرة، قوقني وبرلي في دارفور المنحدرة أغلبها من جبل مرة. ويتميز السودان بتنوع مناخي يمتد من: السافنا الغنية والفقيرة إلى المداري إلى الصحراوي إلى مناخ البحر الابيض المتوسط على الشريط الساحلي وسلسله جبال البحر الاحمر في شرق السودان<sup>274</sup>.

### المياه الجوفية

تنتشر مصادر المياه الجوفية في أكثر من 50% من مساحة السودان ويقدر مخزونها بنحو 15.200 مليار متر مكعب، يعادل هذا المخزون الجوفي أكثر من 200 ضعف العائد السنوي من النيل<sup>275</sup>. يقول خبير المياه الدكتور هشام حسين للشرق الاوسط أن أغلب السودانيين يعيشون فوق بحيرات من المياه الجوفية، أبرزها حوض البقارة في غرب السودان وحوض وادي هور في اقليم دارفور. يتمتع السودان بغزارة الأمطار وينحصر فصل الهطول من شهر إبريل حتى نوفمبر<sup>276</sup>. يستغل السودان حالياً حوالي 2 مليار متر مكعب من المياه الجوفية لأغراض الري والاستخدامات المدنية والتغذية السنوية للمياه الجوفية تقدر بحوالي 4.5 مليار متر مكعب.

وقد قدم السفير أجانق موييك أجانق دراسة عن حوض الحجر الرملي النوبي وهو خزان جوفي للمياه تبلغ مساحته تقريباً مليوني كيلو متر مربع، وتقع هذه المساحة المتصلة داخل حدود أربع دول: السودان، مصر، ليبيا وتشاد. المساحة المقدرة والواقعة داخل حدود السودان حوالي (750) سبعمائة وخمسون ألف كيلو متراً مربعاً وتتم تغذية هذا الحوض من النظام النيلي بالسودان من النيل النوبي ونهر عطبرة،

<sup>274</sup> اسماعيل آدم: أكثر من 200 مليون فدان صالحة للزراعة، مرجع سابق  
<sup>275</sup> وزارة الاستثمار: حول السودان: [http://www.sudaninvest.org/Arabic/About\\_Sudan\\_Out.htm](http://www.sudaninvest.org/Arabic/About_Sudan_Out.htm)

<sup>276</sup> اسماعيل آدم: أكثر من 200 مليون فدان صالحة للزراعة، مرجع سابق

وتتضمن ولايات شمال دارفور، شمال كردفان والشمالية على الحدود المصرية مع السودان.

تعتبر تنمية حوض الحجر الرملي النوبي حجر الزاوية للبرامج التي قد تؤدي إلى تحقيق الأمن الغذائي وإصلاح مشاريع القمح بالشمال في المستقبل، وذلك بوقف الزحف الصحراوي بري هذه المناطق وزراعتها. بالرغم من أنه لم يتم دراسة هذا الخزان الجوفي دراسة علمية مكثفة لتحديد المخزون المائي فيه، وطريقة وكمية التغذية السنوية وبالذات تحديداً على الجزء السوداني<sup>277</sup>.

أوردت البي بي سي العربية خبراً عن تمكن العلماء للمرة الأولى (مركز المسح الجيولوجي البريطاني وكلية لندن) من وضع خريطة توضح توزيع وحجم كميات هائلة من المياه في جوف الصحراء الكبرى وأجزاء أخرى من القارة الأفريقية. وأكد العلماء أن هذه الكمية موجودة على عمق يصل إلى خمسة وسبعين متراً داخل طبقات صخرية قديمة امتلأت منذ نحو خمسة آلاف سنة. ويقول العلماء إن مصادر المياه الجوفية هذه يمكن أن توفر ما يكفي من الاستهلاك البشري والزراعة في أفريقيا كلها. إلا أنهم أشاروا إلى صعوبة استخراج تلك المياه لأن حفر آبار كبيرة قد يؤثر سلباً وبسرعة على الطبقات الصخرية. وقد أوردت القناة خريطة للتوزيع<sup>278</sup>.

<sup>277</sup> أجاثق موييك أجاثق: حوض الحجر الرملي النوبي رؤية سودانية ، <http://www.nubian-forum.com/vb/showthread.php?t=2102>

<sup>278</sup> البي بي سي: وضع خارطة تبين توزيع المياه الجوفية في الصحراء الأفريقية الكبرى، 20 أبريل، 2012، [http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2012/04/120419\\_africa\\_water.shtml](http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2012/04/120419_africa_water.shtml)





قدم العالم الجليل بروفيسور فاروق الباز محاضرة بدار الشرطة بالخرطوم في يوم 2007/6/20م عن اكتشاف ما اسماه بالبحيرة الكبرى (Mega lake) بولاية شمال دارفور، في أكثر من 19 ألف كيلومتر مربع، وهي نتائج دراسات تم فيها استعمال الرادار الفضائي لسير الأرض.

علق خبير ابحاث المياه من هايدرو الاستشارية، أن هناك دراسات حول هذا الحوض يعود بعضها إلي نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، (دراسة شركة دقنة -1959)، واهمها تلك التي قامت بها جامعة برلين التقنية والتي أمتدت منذ الثمانينات وإلي أكثر من عشر سنوات، وكذلك دراسات اللجنة الفنية المشتركة لأبحاث الحوض الرملي النوبي وهي لجنة مشتركة بين السودان ومصر وليبيا)، منذ الثمانينيات وما زالت اعمالها متواصله.

تشير هذه الدراسات أن حوض الصحراء النوبي يغطي ما يقدر بمساحة 275 ألف كيلو متر مربع في دارفور وحدها. وإذا حسبنا انتشاره وامتداده المتصل مروراً بكردفان وحتى حدودنا مع مصر، فإن المساحة تقدر بأكثر من نصف مليون كيلو متر مربع. وأن مخزون المياه الجوفية في دارفور وحدها يقدر بحوالي 6000 مليار متر مكعب وتقدر التغذية السنوية بحوالي 20 مليون متر مكعب وهي تعتبر ضئيلة قياساً بمساحة الحوض.

يترواح منسوب المياه في هذا الحوض بين (10-60 متر) تحت سطح الأرض وهذه

تعتبر مياهاً ضحله وقريبة من سطح الارض الامر الذي يساعد كثيراً في استخدام بدائل الطاقة، خاصة طاقة الرياح في ضخ وسحب المياه من باطن الارض حسب ما اثبتت الدراسات في هذا الصدد، وذلك من واقع الدراسات والقياسات الميدانية لهذه المنطقة في عام 1983م. تتميز مياه هذا الحوض بعذوبتها التي تضاهي مياه النيل او حتى المياه النقية المعبأة في القارورات. وقد اشارت الورشة التي نظمتها جامعة جوبا بقاعة الشارقة بعنوان (التممية مفتاح السلام في دارفور عام 2003م إلي امكانية الاستفادة من هذا الحوض الجوفي في اقامة المزارع الرعوية التي يمكن أن تحد من حركة الرعاة (الابالاه) جنوباً وبالتالي تقلل من الاحتكاكات والصراعات بينهم والمزارعين حول المراعي وموارد المياه<sup>279</sup>.

### القيمة المضافة والتميز المقارن للموارد الطبيعية (المياه)

كيف يتصرف السودان في هذه الكفاءة الاساسية والنادرة والتي تتشكل منها النذر الداكنة لحروب المياه من حولنا. المياه اساساً تستهلك في السودان في الزراعة، الاستهلاك الادمي والحيواني وجزئياً جداً في انتاج الكهرباء. نتناول استهلاك المياه في الزراعة والتي لم نستطع أصلاً ان نستفيد من حصه مياة النيل والبالغة 18 مليار متر مكعب سنوياً بالكامل، المصيبة اكبر من ذلك أنه حتي الذي نستهلكه يذهب الجزء الاكبر منة هدرًا: اما لطرق الري التقليدية المتبعة او المحاصيل التي نقوم بزراعتها او ضعف عائدات الزراعة نفسها.

غير الخضر والفاكهة التي تزرع في مساحات محدودة والسكر، القمح وبعض الذرة فكل منتجات السودان الاساسية تعتمد على المطر (معظم الذرة، الكركدي، السمسم، الدخن، القمح في دارفور، الصمغ العربي والبول السوداني). لايشكل الاستهلاك الادمي والحيواني الا اليسير من فاقد المياه.

في دراسة محكمة وتفصيلية نشر محمد جلال هاشم سلسله من المقالات بعنوان

---

<sup>279</sup> خبير ابحاث المياه – هايدرو الاستشارية: حول محاضرة بروفيسور الباز عن ما أسماه بالبحيرة الكبرى Mega lake بشمال دارفور، جريدة الايام، العدد رقم: الاربعاء 8867 2007-25-07  
<http://www.sudaneseonline.com/cgi-bin/sdb/2bb.cgi?seq=msg&board=151&msg=1198818172>

"السدود وما أدراك ما السدود"، في جريدة اجراس الحرية (التي تم اقفالها بعد انفصال الجنوب لانها رأسمال مشترك) عن السدود في السودان، جدواها، الاسباب الحقيقية لانشائها وغيرها من الاسئلة المطروحة للنقاش. عندما فكر الانجليز في بناء خزان سنار كان هذا بمثابة إجابة لسؤال تنموي قائم يتعلّق بالرّي. خزان جبل اولياء تم بنائه أيضاً وفق اتفاقية بقبول قيام خزان سنار حتى تحفظ مصر حقها في مياه النيل، وظل الخزان يمثل خط إمداد ثاني للمياه في مصر من عام 1937م، إلي ان زالت اهميته لمصر بعد قيام السد العالي. خزان الرصيرص أيضاً تم انشائه لري الامتدادات الزراعية في منطقة الجزيرة وتمت تعليته بعد تراكم الطمي. خزان خشم القربة تم انشائه بناءً على اتفاقية مياه النيل الموقعة بين مصر والسودان في عام 1959 واكتمل تشييد خزان خشم القربة على نهر عطبره في العام 1964م لري مشروع حلفا الزراعي والذي تبلغ مساحته 250 الف هكتار لتوطين المهجرين من وادي حلفا إلي هذه المنطقة.

واخيراً تم إنشاء سد مروي لتأمين جزء ضئيل من احتياجات السودان من الطاقة الكهربائية. ويقوم هذا السد الذي يحجب جزءاً كبيراً من رواسب الطمي التي تصل السد العالي، مما يؤدي إلي زيادة السعة التخزينية لبحيرة النوبة في مقابل انخفاض حجم المخزون الميت من الطمي.

يورد د. محمد جلال هاشم أن أسوأ السدود من حيث الإنتاج الزراعي والكهربائي تلك التي تُقام على الأنهار الإطمائية، مثل نهر النيل؛ ثم يزداد السوء لدرجة غير مقبولة عندما تُقام هذه السدود في مناطق شديدة الحرارة (بالضبط مثل شمال السودان)، حيث تزيد درجة تبخر الماء بما يقلل من جدوى السد. تمت اقامة كافة السدود في السودان للري والكهرباء على النيل الازرق ونهر النيل وعطبره. ويشير الكاتب أن خزان الروصيرص قد فقد ما نسبته 56% من سعته التخزينية خلال السبعة وعشرين عاماً الأولى منذ انتهاء آخر مراحلها عام 1978م، وان السعة الحالية لخزان خشم القربة قد تناقصت بسبب الإطماء إلي 50% من السعة الابتدائية للخزان، حسب المسح الباثيمتري لعام 1992م والآن إلي أقل ما نسبته 70% على أقل تقدير هو فاقد السعة التخزينية لخزان خشم القربة. نحتاج لأن نفكر بعيداً عن الافكار التقليدية والحلول التي

تقدمها التكنولوجيا الحديثة<sup>280</sup>.

## القيمة المضافة والتميز المقارن

قضايا المياه في السودان متشعبة ومتداخلة مع أنظمة أخرى، لأنها متعددة المصادر كما أوضحنا سابقاً. الامداد النهري هو احد اهمها وله تشابكات مع تسع دول تقع في نطاق حوض النيل، وكما اثر تراجع الاداء والكفاءة في كافة مناحي حياتنا فقد تخبطت خطانا في التعامل مع هذا الملف. إن جزءاً من الحلول بأيدينا وبعضها في التعاون مع الاطراف الأخرى. التجربة السودانية الطويلة اثبتت أن مساله المياه لا يمكن معالجتها بمعزل عن التوجهات الإستراتيجية في مجالات الزراعة، الطاقة والاستهلاك الادمي. وسوف نتناول هذه المجالات لنحاول الوصول لكيفية التعامل مع هذه الكفاءة الاساسية في ضمن رؤية المستقبل.

### أولاً: مجالات الزراعة

السودان لديه وفرة نسبية في المياه في ظل ظروف النشاط الزراعي المتدني (يستعمل اقل من 12 مليار من كامل نصيبه 18.5 مليار متر مكعب سنوياً)، لكنه يتميز بالهدر والاسراف وضعف تكنولوجيات الري، وكذلك ارتفاع تكلفة إنتاج بعض المحاصيل وعدم جدواها إقتصادياً. وسوف يعتمد أي تطور يعتمد على الزراعة في السودان أن ندرس عديداً من البدائل المتاحة لرفع كفاءة استعمال المياه، التوسع في استعمال المياه الجوفية، تعظيم الاستفادة من مياه الأمطار وادخال التقنيات الجديدة -كما في مشروع كنانة وغيرها.

### ثانياً: مجالات الطاقة

نقرأ مع د. محمد جلال هاشم حيث عرض وثيقة الهيئة للتوليد الكهربائي حتى عام 2030م. وفيها ستكون خدمات الكهرباء قد غطت سكان السودان بنسبة 80%. التوليد الحراري: 18.491 ميغاواط (بنسبة 72%). التوليد المائي: 4.587 ميغاواط (بنسبة

<sup>280</sup> محمد جلال هاشم: السودان وما أدراك ما السودان، <http://www.alrakoba.net/news-action-show-id-78141.htm>

28%) وبهذا يبلغ مجموع الإنتاج الكهربائي الحراري في العام 2030م ما مقداره: 23.078 ميغاواط! أن هذا مرتبط بالاطماء الذي يؤدي إلى تقليل إنتاج الكهرباء بعد وقت ليس بالطويل. السد العالي بمصر، كانت إنتاجيته في عام 1966م تغطي ما نسبته 55% من احتياج مصر للكهرباء، ثم انخفضت هذه النسبة إلى 15% بعام 1998م، والآن لا تغطي إنتاجية السد العالي غير 9% فقط. وما هذا إلا لأن الطاقة التخزينية للسدود تتأثر بالاطماء<sup>281</sup>.

طرح د. سلمان محمد أحمد فوائد سدود اثيوبيا وإبان أنها تحجز الطمي الذي أفقد سدود السودان نصف طاقتها التخزينية والتوليدية، وتوقف الفيضانات وتنظم انسياب النيل الأزرق خلال العام. ويمكن بقدر من التعاون الاتفاق على الفترة التي ستملأ فيها اثيوبيا البحيرات وراء السدود التي تزمع اثيوبيا بناءها، لأنه كلما طال فترة ملء البحيرات كلما قلت التأثيرات السلبية على السودان ومصر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التبخر قليل في اثيوبيا بسبب الطقس وعمق البحيرات، مقارنة بالتبخر الكثيف والذي يبلغ عشرة مليار متر مكعب في بحيرة السد العالي، وحوالي سبعة مليار في سدود السودان.

إن هذا يعيدنا إلى سؤال د. محمد جلال هاشم حول جدوى إقامة السدود على الأنهار الإطمانية وفي المناطق شديدة التبخر؟ هذا سؤال رؤيوي ويحتاج إلى دراسات وابحاث حول التصرف حول السدود الحالية والبدائل التي يمكن ان تتوفر. إن هذا يطرح اسئلة اخرى حول حدود التعاون بيننا وبين المحيط الاقليمي في قضايا الحدود، الاكتفاء الذاتي من الطعام، المياه وتوليد الطاقة.... وغيرها.

### الاستهلاك الادمي والحيواني

يتراوح السكان الذين لديهم امداد بالمياه الصحية من حوالي 21% في البحر الاحمر إلى 87% في الشمالية (55% في السودان) عام 2011<sup>282</sup>، كما أن هناك مشاكل متعددة في سقيا الحيوانات في وقت الصيف. أي رؤية لابد ان تضع من اولوياتها

<sup>281</sup> محمد جلال هاشم: السدود وما أدراك ما السدود، مرجع سابق  
<sup>282</sup> Sudan indicators: CBS 2011، <http://www.cbs.gov.sd/en/node/87>

توفير الماء النظيف لسكانها وكذلك امكانية استعمالات اخرى.

## الفصل الرابع: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية (الثروة الحيوانية)

يعتبر السودان من أغنى الدول العربية والافريقية بثروته الحيوانية (أبقار-أغنام-ماعز-إبل) بحوالي 136 مليون رأس (2005)، إضافة لـ 4 ملايين رأس من الفصيله الخيلية، 45 مليون من الدواجن، إلي جانب أعداد كبيرة مقدرة من الحيوانات البرية. يلعب القطاع الحيواني دوراً كبيراً في الاقتصاد السوداني حيث يساهم بنسبة 20% من إجمالي الناتج المحلي وبنسبة 23% من إجمالي دخل البلاد من النقد الأجنبي.

ويعزي نصف إجمالي الناتج الزراعي للقطاع الحيواني. ويؤمن القطاع الحيواني العمل لنحو 40% من المواطنين السودانيين وقطاع الثروة الحيوانية بأكمله تقريباً في يد القطاع الخاص. وينحصر الدور الحكومي في إنشاء البنيات التحتية من وسائل نقل، إرشاد، خدمات صحة الحيوان، صيانة المراعي وموارد المياه<sup>283</sup>.

ينعم السودان بمساحات شاسعة من المراعي الطبيعية التي تعد مصدراً مجانياً لغذاء الحيوان، علماً بأن بند تغذية الحيوان يكون نسبة عالية قد تصل 70% من جملة تكلفة رعاية الحيوان، في الحالات التي يتم فيها شراء العلف وتقديمه للحيوان داخل الحظيرة. وتمثل المساحات الكبيرة من الأراضي الزراعية الخصبة والموارد المائية من انهار، بحيرات، مياه جوفيه وأمطار موسمية، ثروات يمكن إستغلالها في توفير الغذاء للحيوان بجانب المراعي الطبيعية. وتوفر المراعي الطبيعية أكثر من 70% من احتياجات الرعاة، وتوفر الأعلاف المستزرعة والمحاصيل الزراعية وبقايا حصاد المحاصيل الزراعية ومخلفات التصنيع الزراعي 23% من جملة الأعلاف المتاحة للحيوانات بالسودان.

---

<sup>283</sup> د. السمانى الجبلى عبد الحمود: الوضع الراهن للثروة الحيوانية بالسودان، من كتاب: تشخيص فرص الاستثمار في مشروعات الثروة الحيوانية بالسودان

رغم وجود هذه الثروة الهائلة إلا أنها ما زالت تمارس بالشكل التقليدي من الرعي البدوي المفتوح والمتنقل في أكثر من 80% من الابقار، مع تواجد الأنظمة البدوية شبه المترحل والمستقر. إن قليلاً من التطور ادخل على أنظمة الرعي، الانتقال، المياه، الاعلاف، صحة الحيوان، التسويق وغيرها. كما تساهم هذه الثروة في تنمية الوطن فان لها عوامل سلبية في الرعي الجائر، إفساد البيئة ومن ثم التصحر. أشارت الموازنة العلفية وهي نسبة عجز المتوفر من العلف الكافي لتغذية الحيوانات في العام، لعام 2002 مايعادل 50%، مما يشير إلي أن تعداد الحيوان يفوق الطاقة الغذائية التحملية للموارد الرعوية الطبيعية<sup>284</sup>.

إن هذا ينعكس على الحيوان بعدم حصوله على الغذاء الكافي وبالتالي نقص التوليد، الوزن وانتاج اللبن. وينعكس على البيئة من نتائج الرعي الجائر مما سنتعرض له لاحقاً. إن اخطر الآثار تنعكس على السكان والتنافس بين الزراعة الآلية، القبائل المستقرة والرعاة وتؤسس هذه جذر الصراعات التي تدور في مناطق النزاعات من دارفور، جنوب دارفور، اببي والنيل الازرق.

هنالك فرص كثيرة لتسويق الحيوانات الحية واللحوم في العالم والبلدان العربية لما لدي السودان من فائض، إذ يقل معدل الإنتاج السنوي المحلي للحوم الحمراء عن معدل الاستهلاك السنوي لها في كل الأقطار العربية ما عدا السودان، الصومال، موريتانيا وجيبوتي. كما أن هنالك أعداد كبيرة ومتنوعة من الحيوانات البرية والطيور بالسودان مثل تربية النعام (لتصدير لحومه وجلوده وريشه) وتربية الغزلان (لتصديرها حية أو كحوم) والتماسيح (لتصدير جلودها).

**الدواجن:** هناك ثلاثة نظم لتربية الدواجن والتي يقدر عددها بنحو 40 مليون طائر، يعتمد علي السلالات المحلية بهدف تأمين متطلبات الأسر من البيض والفراخ ثم بيع الفائض. الأنظمة تتراوح من القطاع التقليدي المنتشر في كل مناطق السودان، القطاع العام والقطاع الحديث من عدد من شركات القطاع الخاص ورأس المال العربي، وهي تقوم علي استيراد الأمهات وتربية الكتاكيت لإنتاج البيض أو إنتاج الفراخ، غير أن

<sup>284</sup> د. علي دراج علي وآخرون المراعى الطبيعية ودورها فى الانتاج الحيوانى والاقتصاد الوطنى، فى الثروة الحيوانية، الماضى الحاضر والمستقبل، المركز العالمى للدراسات الافريقية، يونيو



طاققتها جميعاً قاصرة عن تلبية الطلب المحلي مما يستوجب تشجيع قيام العديد من مزارع الدواجن<sup>285</sup>.

يمتلك السودان ثروة سمكية لم يسبق أن تم تقدير إحصائي لها ولكن تدل الشواهد بأنها توجد وبجسم كبير في المياه العذبة والمالحة. يقدر المخزون السمكي ب 200 ألف طن سنوي ويوجد معظمه، على وجه التحديد، خلف الخزانات وفي بحيرة سد مروي، وادي حلفا وفي مياه البحر الأحمر. مصدر الثروة السمكية البحرية هو البحر الأحمر ويمتد بطول ساحل في حدود 720 كلم وجرف قاري 9800 كلم ومساحة إقتصادية خالصة 91600 كلم، حسب طبيعة وخواص المياه الإقليمية للبحر الأحمر فان الثروة من الاسماك الزعنفيه قليله وصعبة الاستغلال وتقدر ما بين 6 إلي 35 الف طن/العام. نجد أن الانتاج الفعلي قد ارتفع من 555 طن/عام 1975 الي 1489 طن للعام 1984م وذلك لوجود مشاريع التنمية المدعومة خارجياً. انخفض الانتاج ليصل الي 1084 طن للعام 94/ 1995 وعموما فان متوسط الانتاج في حدود 1200- 1300 طن / عام.

مساحة المياه الداخلية في السودان (انهار – خزانات- بحيرات) تغطي حوالي 2 مليون هكتار وهي تشمل النيل وروافده، البحيرات المرتبطة به وبحيرات الخزانات. الثروة السمكية في المياه الداخلية تقدر بحوالي 110 الف طن / عام ينتج النيل الابيض 82.2% منها، الازرق 11.2%، نهر عطبرة 3.4%، والنيل 2.7%. جميع المياه الشمالية ماعدا بحيرة النوبة مستغله لحدود مثلي. اهم مصادر الانتاج هي: **بحيرة النوبة**: تمتد في اقصى مساحة لها بالحدود السودانية لحوالي 180 كلم ومن المفترض الا يقل الانتاج عن 2500 طن /عام. **بحيرة خزان جبل اولياء**: يبلغ حجم الثروة السمكية المقدرة للاستغلال حوالي 15000 طن/ عام وتعتبر عالية مقارنة بالمساحة المتاحة والانتاجية المقدرة من واقع الانتاج الفعلي في حدود 8000 طن. **بحيرة خزان الرصيرص**: الانتاج الحالي مقدر بحوالي 1000 طن ويقارب المتاح للاستهلاك. **بحيرة خزان سنار**: المتاح من الثروة السمكية في حدود 1000 طن /العام وقد بلغ الانتاج مرحله الاستغلال الامثل. **بحيرة خزان خشم القربة**: تقدر بمئات الاطنان قدر

---

<sup>285</sup> المصدر : وزارة الثروة الحيوانية والسمكية - إدارة التخطيط ،  
<http://www.marf.gov.sd/home.php>.

المتاح للاستغلال الامثل 500 طن/عام<sup>286</sup>.

## المدايح

بدأ القطاع الحديث عام 1945م بإنشاء مدبغة ممكنة ومعها مصنع للأحذية. أنشأت ثلاث مدايح حكومية كبيرة خلال الستينات والسبعينات وتبعها عدد من المدايح الصغيرة أنشأها القطاع الخاص. توسعت صناعة الدباغة حتى بلغت المدايح 24 مدبغة بجانب قطاع حرفي (ريفي) وحوالي 30 مجمع دباغة بلدية ويرتبط به قطاع حرفي عريض لصناعة الحذاء الشعبي (المركوب) والمنتجات الأخرى. وفي أوائل الستينات أنشأت شركة باتا العالمية مصنعها الكبير في الخرطوم بحري، والذي كان نموذجاً لأفريقيا والشرق الأوسط، والذي تم تأميمه 1971م وتوسعت صناعة الأحذية خلال السبعينات بقيام مصانع متوسطة وورش مختلفة الأحجام تقدر أعدادها بأكثر من 600 ورشة. مع بداية فك حظر الصادر من الجلود الخام بدأت الطاقات تتدني بل أغلقت مصانع، مدايح وورش وتزامن ذلك مع إغراق السوق بالمنتجات الرخيصة المتدنية الجودة من الجلود الصناعية من شرق آسيا.

في بداية الثمانينات شكلت لجنة للعمل على خصخصة المدايح، وكان هذا بعد مشاركة الإسلاميين لسلطة نميري في الحكم في أعقاب المصالحة الوطنية، بعد الإنقاذ ابتداء المشروع الفعلي لبيع المدايح. تم بيع مدبغة النيل الأبيض والتي كانت في مرحله إعادة تأهيل مع مدبغتين هما الجزيرة، الخرطوم بقروض من يوغسلافيا، إيطاليا وألمانيا. المعلومات التي ذكرت لاحقاً أوضحت أن المدبغة كانت مقيمة بمبلغ يفوق 8 ملايين دولار، بينما كان عقد البيع للمستثمرين المنتمين للجبهة الإسلامية القومية بمبلغ 4 ملايين دولار تدفع بالتقسيط وبالجنه السوداني. فشل ملاك المدبغة الجدد في توفير رأس مال تشغيله.

بيعت مدبغة الخرطوم، التي أنشئت في عام 1962 بقرض يوغسلافي بعد الإنقاذ لشركة الهجرة، وهي إحدى شركات أسامة بن لادن ولا يعرف بالضبط المبلغ الذي

<sup>286</sup> مشرف قسم كلية الانتاج الحيواني:جامعة الخرطوم، السودان: الثروة السمكية في السودان، <http://www.syriavet.com/vet/showthread.php?p=85803>

دفع لقاء المديغة. بعد خروج بن لادن من السودان آلت للصندوق القومي للمعاشات فتدهور حالها ومنيت بالخسارة ولا زالت تعمل حتى الآن بكفاءة متدنية مقارنة بما كانت عليه قبل الخصخصة.

مديغة الجزيرة كانت تعتبر من أفضل المدايع في المنطقة وقد أنشئت عن طريق شركات فرنسية ولها اتفاقيات تجارية للتسويق والتدريب. كانت توفر الجلد المشطب لمصانع الأحذية السودانية ولل سوق المحلي. وإضافة للصادر كانت توفر 25% من الشوايك التي كانت تستعمل في المحالج، كانت تنتج الجلود شبه المصنعة وتصدرها للخارج. تمت خصصتها وآلت لشركة داو الكورية مقابل مديونية على حكومة السودان وبناءً على ذلك حصل الكوريون على 51% وحكومة السودان 49%. لم يكن هم الكوريين تشغيل المديغة بأفضل السبل، أهملت المحطة وتوقفت وكل أقسام المديغة التي لا تعمل في مجال الجلود شبه المصنعة بيعت لجهات مختلفة وأهملت الصيانة<sup>287</sup>.

### صناعة الجلود

من الصناعات القديمة، وفي بدايتها استعملت المواد الدابغة النباتية وتطورت عبر القرون. وتشكل الجلود أهم المنتجات الجانبية لإنتاج اللحوم. تحتل صادرات صناعة الجلود المركز الأول في الصادر الصناعي، والثاني في صادرات الثروة الحيوانية بعد صادر الحيوانات الحية واللحوم. أهم المنتجات الجلدية صناعة الأحذية حيث مازالت صناعة المنتجات الجلدية كحذاء بأنواعها المختلفة منحصرة في الورش والقطاع الحرفي ويشمل ذلك المنتجات الفلكلورية وجلود الزينة. الدباغة الحرفية قديمة ومنتشرة في مناطق عديدة هناك 30 مجمع دباغة حرفية في ولايات دارفور، كردفان، الجزيرة (مدني- سنار)، النيل الأبيض كوستي وكسلا القضارف وهي تغذي الصناعات الحرفية خاصة صناعة المركوب<sup>288</sup>.

### الصناعات الدوائية في السودان

<sup>287</sup> صناعة الجلود في السودان: <http://www.mojtamai.com>

<sup>288</sup> صناعة الجلود في السودان: <http://www.mojtamai.com>

نعالج صناعة الدواء هنا باعتبارها بنية أساسية للإنسان والحيوان. تشير بيانات وزارة الصحة السودانية، أن الصناعة الدوائية السودانية بدأت منذ الخمسينات بقيام مصنع الصناعات الكيماوية السودانية، وحتى نهاية الثمانينات لم يتجاوز عدد المصانع 7 مصانع، وزادت بعد الإنقاذ إلى 23 مصنعاً حاصلًا على الترخيص لمزاولة العمل، يعمل منها الآن 19 مصنعاً. تمثل الصناعة المحلية 20% من إجمالي قيمة الدواء في السودان حيث تقدر قيمة الإنتاج لهذه المصانع بـ 8 ملايين دولار. وفي بلد يمتلك أكثر من مائة وأربعين مليون رأس من الماشية، فإن إقامة صناعة دوائية بيطرية، الذي يستورد من أكثر من خمسين دولة، أكثر من هامة<sup>289</sup>.

### الصناعات الصغيرة والحرفية في السودان

القطاع الحرفي السوداني، هو الأقدم والأوسع انتشاراً في شتي اطراف السودان، وستظل الأكثر توظيفاً للعمالة، الأقل تكلفة في توفير فرص العمل، وصاحبة الدور الأكبر والمحوري في تلبية احتياجات السكان المحلية من السلع والخدمات بأسعار تتوافق مع قدراتهم الشرائية، والأكثر اعتماداً على المواد الخام الموجودة في البيئة المحلية، كما أنها توفر البديل المحلي لكثير من المنتجات المستوردة. تشكل الصناعات الصغيرة، القاعدة الأساسية للقطاع الصناعي، حيث تمثل الأغلبية في صياغة هيكل الصناعات التحويلية في السودان والتي تأتي في المرتبة الثانية بعد الصناعات الحرفية من حيث الحجم والتوزيع الجغرافي وتشكل الصناعات الصغيرة والحرفية نسبة 93% من إجمالي حجم الصناعات التحويلية.

يقدر حجم الصناعات بحوالي 5000 منشأة تنتشر في ولايات السودان المختلفة. حظيت الأعمال الصغيرة والحرفية في دول العالم الثالث بأهمية كبيرة باعتبارها أحد الركائز الأساسية في عملية التنمية الاقتصادية، ومما لا شك فيه أن الأعمال الصغيرة هي نواة وقاعدة الصناعات الكبيرة مكمل ومغذية لها. الأعمال الصغيرة مؤهلة أن

<sup>289</sup> وزارة الصحة الاتحادية: الإدارة العامة للصيدلة، الإستراتيجية الصيدلانية ربع القرنية، 2005 م 029. <http://digicollection.org/hss/documents/s16717a/s16717a.pdf>

تنمو حتى تصبح صناعات كبيرة<sup>290</sup>.

يواجه السودان مثل الدول النامية في العالم الثالث مشكلة تعرض منتجاته وصناعاته لمنافسة غير متكافئة، مع منتجات الدول الأخرى وتفاقت هذه المشكلة مع إلغاء القيود الجمركية في العام 2006 م. المفهوم البسيط للعولمة هو الجودة، اتقان العمل وتقليل التكلفة حتى تتمكن الصناعات الصغيرة من القدرة على التنافس والصمود في السوق. لكن لهذا القطاع قيود ومشاكل تعيق تطوره وتنميته، مما يجعل المنافسة غير متكافئة إلا إذا استطاعت الدولة حماية هذا القطاع من الآثار السلبية وبناء القدرات للاستفادة من إيجابيات العولمة. ولذا من الضروري على الدول أن تضع الحلول الجذرية للمشاكل، تسخير الإمكانيات ووضع إستراتيجية وتخطيط إقتصادي سليم لمواجهة آثار العولمة حتى يقوى القطاع على المنافسة والصمود والبقاء في ساحة التنافس في السوق.

### التميز المقارن للثروة الحيوانية

أنشأت وزارة الثروة الحيوانية كمصلحة في عام 1902، مصاحبة لجيش الغزو البريطاني، لرعاية خيول الانجليز حتي العام 1911. وتغير اسمها وتبعيتها على مر السنوات. إن عدم الاستقرار الواضح دليل حاسم على الأولوية المتدنية التي احتلها هذا القطاع الهام والحيوي وأن هم الحكومات كان استغلال القطاع بالتصدير.

عندما يقترب الكثيرون من النظام الرعوي التقليدي أو بالحيازات الزراعية التقليدية الصغيرة يتجه تفكيرهم فوراً إلي الدعوة للتحديث. إن هذا النظام الرعوي هو الأسلوب الأكثر ملاءمة للبيئة الرعوية، ولإستغلال موارد المراعي الطبيعية في المناطق الهامشية الجافة وشبه الجافة. هؤلاء الرعاة ينتجون لحماً قليل التكلفة وينتجون لحوماً طبيعية خالية من الأمراض المنتشرة وآثار التكنولوجيا الضارة.

تمر هذه الثروة عبر سلسله الأسواق الطويلة والوسطاء إلي المدن حيث الاستهلاك

---

<sup>290</sup> الوضع الراهن لقطاع الصناعات الصغيرة والحرفية في السودان :

[http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com\\_content&view=article&id=56&Itemid=6](http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com_content&view=article&id=56&Itemid=6)

الأكبر. إن هذا الأسلوب هو المرحلة الأولى التي يجب الحفاظ عليها وتحسين بيئة الانتاج من مياة، علاج، توفير المسارات.. الخ. سوف يحدث التحديث برفع مستوى العاملين على هذه الثروة وتوفير الظروف الملائمة وليس قسراً. هذا القطاع يوفر المعيشة الكريمة لحوالي 10% من السكان ولا يمكن نقلهم إلي التحديث إلا في اطار الإستفادة القصوي من البيئة الرعوية وفي وقت طويل.

كعملية مكتملة لرفع إنتاجية الأبقار من اللحوم والألبان، والتي تبلغ حوالي 33% من المستوى في أستراليا، 20% ومستواها في الولايات المتحدة و14% من مستواها في أوروبا<sup>291</sup>. نفكر في الافكار المطروحة مثل: الإستثمار في مجال توفير مياه الشرب في المراعي الطبيعية، حصاد النباتات الرعوية، تحزيمها وترقية قيمتها الغذائية وذلك نظرا لندرة الكلاً وتدهور قيمته الغذائية بحلول فصل الصيف، نقل الحيوان بالشاحنات المتخصصة من مناطق الاستهلاك إلي مناطق الإنتاج وغيرها<sup>292</sup>.

قضايا التدخلات الداعمة كثيرة ومتعددة مثل توفير المياه، تحسين السلالات مع الأخرى ذات الإنتاجية المرتفعة، إعداد وتأهيل اليد العاملة الفنية الماهرة والتي لها دراية واسعة بنظم التربية الحديثة، وتطوير وتنظيم استغلال المراعي الطبيعية وحمايتها من الاستنزاف والتدمير. توفير كافة التسهيلات أمام القطاع الخاص لإنشاء المشاريع الكبيرة والمشاركة التي تتبع نظم إنتاجية حديثة ومكثفة وتوفير الرعاية الصحية ونشر التعليم بين أوساط المربين وتحسين الكفاءة الإنتاجية للسلالات المحلية من خلال التهجين.

يمثل قطاع الأسماك، في إطار القطاع الزراعي العريض بشقيه النباتي والحيواني، رافداً هاماً كأحد البدائل المتاحة لتوفير البروتين الحيواني لتغطية جانب من الفجوة الغذائية: إلي جانب كونها مصدر دخل، زيادة الدخل القومي ونافذة لتوفير فرص عمل لقطاعات واسعة من المجتمع، تحسين مستوى المعيشة في المجتمع وتقليل الوارد

<sup>291</sup> د. السمانى الجيلي عبد المحمود: الوضع الراهن للثروة الحيوانية بالسودان،

<http://www.sudaneseonline.com/cgi-bin/sdb/2bb.cgi?seq=msg&board=156&msg=1203591604>.

<sup>292</sup> واقع قطاع الثروة الحيوانية بالسودان : تاريخ الحلقة 10/1/2011 : الجزيرة ،

<http://www.aljazeera.net/programs/pages/91454602-2ba0-4505-8776-1439b9003592>

من المنتجات السمكية من الأسواق الخارجية.

إن السودان يتوفر على مقومات عالية التميز من الموارد المائية السطحية، الجوفية والأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة، التي تشكل في مجملها قاعدة لتنمية وتطوير قطاع الثروة السمكية، من المصايد الطبيعية الداخلية، البحرية، تربية الأسماك والأحياء المائية الأخرى بأنماطها المختلفة في الأحواض، الأقفاص، الحظائر والمسيجات لأغراض الأمن الغذائي، دعم الاقتصاد القومي بصفة رئيسية والمكافحة البايولوجية لمشكله الأعشاب المائية في قنوات الري بالمشاريع الزراعية الكبرى وانعكاساتها السالبة علي عمليات الري والبيئة المائية وصحة المواطنين<sup>293</sup>.

تمارس صناعة الأسماك في السودان بطرق بدائية، وبالتالي فإن الكميات المصنعة قليلة نسبياً وتستهلك محلياً مما لايسمح بمجال للتصدير بالمستوى الذي يشجع على التوسع في تصنيع هذه الأسماك. لذا لابد من زيادة الإستثمار في مجال الأسماك، واستغلال المخزون بالكميات التجارية المناسبة عن طريق حفظ وتصنيع الأسماك. تستخدم مخلفات الأسماك في صناعة الأعلاف والأسمدة والمخصبات وفي صناعة الصابون<sup>294</sup>.

### التميز المقارن للصناعات الدوائية في السودان

تراكمت خبرة واسعة في مجال تصنيع الدواء في السودان، ويعلم العاملون في المجال كافة المعوقات التي بحثت عشرات المرات وتتوافر مجلدات من سبل التعامل الرشيد معها. السوق السوداني واسع بما يكفي لاستيعاب انتاج كافة المصانع بتشجيع المصانع المحلية بالتقيد بالممارسات الجيدة، العمل على استقطاب الشركات العالمية والإستثمار المشترك في إطار السياسة الوطنية للصناعات الدوائية، تشجيع المصانع الوطنية لإنتاج الأدوية المحمية ببراءة اختراع قبل عام 2016 للاستفادة من الفرصة الممنوحة

<sup>293</sup> ياسر رجب وكالة السودان للأنباء: رؤية لواقع و آفاق تنمية قطاع الاسماك في السودان للمساهمة في الدخل القومي، 19 يوليو 2012، <http://www.sunanews.net/sudan-special-reports/23597-2012-07-19-19-34-56.html>

<sup>294</sup> وزارة الثروة الحيوانية والسمكية: صناعة الأسماك،

<http://www.marf.gov.sd/page.php?id=41>

للدول الأقل نموًا من قبل منظمة التجارة الدولية، قيام مركز بحث وتطوير مركزي مشترك بين القطاع الصناعي، قطاع التعليم والاتحاد المهني ليضطلع بدور الرائد في المجال وتوصيات كثيرة تنتشر في الملفات المبعثرة. السوق الخارجي أيضاً كبير ومتاح، خاصة الدول المجاورة وإفريقيا<sup>295</sup>.

---

<sup>295</sup> الامانة العامة لهيئة المستشارين: حلقة نقاش حول مشاكل التصنيع الدوائي في السودان، 2008/12/3 م [http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com\\_content&view=article&id=53&Itemid=61](http://www.advisors.gov.sd/index.php?option=com_content&view=article&id=53&Itemid=61)



## الفصل الخامس: الكفاءات الأساسية: الموارد الطبيعية (المعادن والنفط)

تأريخ التعدين في السودان يرجع إلى عصر مملكة مروي القديمة، كما نشطت ممالك النوبة منذ العهد الفرعوني في أعمال تعدين الذهب، في المنطقة الممتدة ما بين النيل إلى البحر الأحمر ومن النيل إلى كردفان الكبرى غرباً. وقد ثبت استخلاص النحاس من منطقة حفرة النحاس بدارفور منذ القرن الثامن عشر الميلادي. يتميز السودان بوفرة، تنوع وجودة كثير من المعادن الأمر الذي سيساعد بالنهوض بمهارات التنمية المعدنية والتصنيع التعديني.

تمثل المعادن ما نسبته 63% من حصيلة الصادرات غير البترولية عام 2011 (يشكل الذهب فيها ما نسبته 62% من حصيلة الصادرات غير البترولية)، بينما تمثل السلع الزراعية 21%، الحيوانية 12% والمواد المصنعة والآخرى 4%. على ضوء الدراسات والخرائط الجيولوجية تتواجد بالسودان المعادن الإستراتيجية (مجموعة الحديد) والكروم والمنجنيز ومعادن الاساس (النحاس الزنك والرصاص و المعادن الصناعية وهي التي لا تحتاج لمعالجة أو إستخلاص ) كالحجر الجيري والرخام.

### تعدين الذهب

بدأ الإنتاج في مربع أرياب منذ نهاية الثمانينات، بعد أن اكتملت كل مراحل أعمال التنقيب والتقييم والتي اكدت تواجد حوالي (200) طناً من الذهب، ولكن عُدن حتى الآن ما يربو علي (70) طناً. تُنتج الفضة كعنصر مصاحب للذهب من بعض مناجم أرياب. هنالك توقعات ضخمة للفضة في الرواسب المعدنية بقاع البحر الأحمر في المنطقة المشتركة بين السودان والمملكة العربية السعودية.

أهم توقعات المنجنيز المكتشفه حتي الان تقع في جبال البحر الاحمر وصحراء بيوضه بنهر النيل وبلغ إنتاج المنجنيز (500) طن عام 2004 م. وهناك توقعات

بوجود كميات كبيره من خام المنجنيز في الغطاء الرسوبي حول ولاية الخرطوم والولاية الشماليه لم يتم تقييمها حتي الان. يتواجد الحديد في عدة مواقع بجبال البحر الأحمر، واكتشفت خامات للحديد في كل من جبل أبوتولو في جنوب كردفان، كرنوي بولاية غرب دارفور، بالقرب من حلفا القديمة وأخيرا بالبحراوية بولاية نهر النيل. يتواجد خام الكروم بعدة مواقع بالسودان (جبال الانقسنا، جبال النوبة، جبال البحر الاحمر وقلع النحل).

يُقدر مخزون الانقسنا من الكروم بحوالي مليون طناً من الخام عالي الجودة مع احتمال لتواجد كميات إضافية. يتواجد الحجر الجيري كرخام بكميات كبيرة في عدة مواقع بالسودان، اهمها مخزون البيوضة، اما محاجر جنوب ربك فهي تمتد شركة النيل للاسمنت بحاجتها من الخام، بالإضافة للمخزونات الضخمة بالبطانة، كسلا، البحر الاحمر وجنوب كردفان. يتواجد الجبس بمنطقة بيرايث شمال بورتسودان علي ساحل البحر الاحمر، وبها احتياطي يقدر بحوالي (220) ملايين طناً. الرمال السوداء وتتواجد علي سواحل البحر الاحمر في منطقة ترنكتات ودلتا خور برکه، وقُدر الاحتياطي في هذا الموقع بحوالي (10) مليون طن من الخام. ويحتوي علي معادن الماغنيتايت، الالمنييت، الروتايل والزايركون.

يوجد التلك بمناطق قلع النحل، وقد قدر الاحتياطي بحوالي 25 مليون طن، كذلك يوجد في منطقة جبال الأنقسنا بولاية النيل الأزرق، جبال البحر الأحمر بمحافظة حلايب، جبال النوبة، وبربر وأخيراً اكتشف في منطقة البطانة وجبل راهب في شمال غرب البلاد. توجد المايكا بولاية نهر النيل غرب الشريك، من نوع المسكوفايث، ويقدر الاحتياطي في هذه المنطقة بحوالي 147378 طن، ولقد تم انتاج 700 طن حتى عام 1971م.

يستخرج الملح من البحر الأحمر بكميات تكفي حالياً الاستهلاك المحلي. العطرون يوجد في مناطق متفرقة من ولاية شمال دار فور وغيرها. يوجد رخام بمناطق بربر وعطبره، ويوجد الجرانيت في السبلوقة بولاية الخرطوم وبجبال النوبة وغيرها. وتأتي أهمية الرخام والجرانيت لدخولهما كأحجار للزينة والبناء، كما يعتبر الرخام المكون الأساسي لصناعة الأسمنت وصناعة الجير وقد تم تصدير كل من الرخام

والجرائيت إلى بلجيكا، مصر، الأردن، ولبنان وغيرها<sup>296</sup>.

## البتترول في السودان

بدأت حكاية النفط السوداني في العشرينات من القرن الماضي، عندما بدأ الحديث عن احتمالات وجود بترول في السودان ابان الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الاثناء ورد تقرير لاحدى الشركات الانجليزية يؤكد حقيقة احتمالات وجود بترول في السودان، لكن لم تبذل اي جهود في هذا المجال الا في العام 1959، عندما حصلت شركة "اجب" الايطالية علي امتياز التنقيب في المناطق الساحلية للبحر الاحمر شمال ميناء بورتسودان، وبموجبه قامت بحفر ست آبار تجريبية اسفرت عن وجود شواهد بترولية غير مشجعة تجارياً.

في العام 1975، ابرمت حكومة النميري اتفاقية مع شركة شيفرون الاميركية للتنقيب في جنوب وغرب البلاد، وتمكنت الشركة من اكتشاف البترول في بئر ابو جابر. ونتيجة للمسوحات الجيولوجية والجيوفيزيائية في مناطق مختلفة من البلاد تم حفر 95 بئراً استكشافيه منها 46 منتجة و49 جافة، وأدى ذلك إلى اكتشاف حقول سواكن، ابو جابر، شارف، الوحدة، طلح، هجليج، عدارييل، لكن هذه الاكتشافات لم يتبعها اي نشاط انتاجي.

وضعت الاكتشافات حجر الأساس المتين لجذب انتباه الشركات العالمية حيث دخلت شركة "توتال" الفرنسية للتنقيب في البحر الاحمر، وشركة تكساس اكسترن برما في شمال البحر الاحمر، كما دخلت مجموعة تكساس بنسيون وبرما، مجال التنقيب في دلتا طوكر في حين ابرمت مؤسسة الطاقة العالمية والمؤسسة العامة للبترول السودانية اتفاقاً للتنقيب في جنوب البلاد. تم في العام 1981، التعاقد مع شركة "ميلبس" للتنقيب في المنطقة الواقعة بين ام درمان ودنقلا في مساحة 120 كيلومتراً مربعاً، وكانت أكثر النتائج المبشرة بوجود كميات مقدرة من البترول في مناطق المجلد وبانتيو، وطرحت أثر ذلك خيارات عدة لاستغلال البترول السوداني: اولها إنشاء مصفاة صغيرة بطاقة 1500 برميل في اليوم، وشرعت وزارة الطاقة والتعدين السودانية في

<sup>296</sup> وزارة المعادن: [http://www.minerals.gov.sd/minerals.php?action=minerals&mineral\\_s\\_id=9](http://www.minerals.gov.sd/minerals.php?action=minerals&mineral_s_id=9)

اجراء الدراسات والخطط لإنشاء المصفاة بمدينة كوستي في وسط البلاد بطاقة تقديرية بلغت 10 آلاف برميل في اليوم، لكن وبزيادة الاكتشافات قررت الوزارة إنشاء مصفاة متكامله تبلغ طاقتها 25 الف برميل في اليوم كما تقرر إنشاء خط انابيب لتصدير الخام من حقوله إلي ميناء بورتسودان<sup>297</sup>.

جاءت أكثر الدراسات توثيقاً وادله من مجد الدين عبد الحافظ الجزولي (د. مجدي الجزولي)، وهو كاتب سوداني غزير الانتاج مع ركون إلي التوثيق الدقيق والموضوعية من مواقع اليسار، وقد تابعت الدراسة مساله البترول في السودان من نظرة تحليلية إقتصادية- إجتماعية في ثمان حلقات نشرت في مواقع عدة. يصنف د. مجدي أن السودان بإعتماده شبه الكامل على البترول اندرج تحت عنوان "اقتصاد المعادن" وهذا بناءً على تقرير صندوق النقد الدولي الصادر في مايو 2006م.

عندما أطاحت الانتفاضة الشعبية في مارس/أبريل 1985م بديكتاتورية النميري، ونتجت عن إنتخابات 1986م حكومة مدنية برئاسة السيد/ الصادق المهدي. في نوفمبر 1986م قامت الحكومة بتعليق كل العقود الخاصة ببناء خط الأنابيب. كما عادت شيفرون باحتراز وقدمت عام 1988م برنامجاً للاستكشاف والتنقيب مدته ست أعوام. يعود تأريخ الانتباهة الصينية للبترول السوداني إلي هذه الفترة، حيث قامت الصين في ذات العام بشراء قسط من امتياز شركة شيفرون. كذلك دشنت الصين شراكة مع حكومة السودان، نمت لاحقاً وتطورت فحوها البترول مقابل السلاح، إذ أقدمت حكومة الصادق المهدي على عقد صفقة سلاح كبري مع الصين. مع الإنقاذ وضع شعار "البترول مقابل السلاح" موضع التنفيذ الفعلي، الصين توفر التكنولوجيا والتمويل اللازم لاستغلال البترول السوداني مقابل حصة، ثم تشتري الصين البترول، والسودان يشتري السلاح الصيني.

دخل البترول قائمة الصادرات السودانية في سبتمبر من العام 1999م، حيث غادرت ميناء بورتسودان إلي الأسواق الآسيوية (سنغافورة) حمولة مقدارها 600 ألف برميل. في العام 2004م بلغت جملة الصادرات السودانية 9,4 مليار دولار، وكما سبق،

<sup>297</sup> الخرطوم: اسماعيل آدم: قصة البترول السوداني.. من العشرينات وحتى نيفاشا: الاحتياطي يقدر بمليار ومائتي مليون برميل.. ينتج من 99 بئراً.. معظمها في الجنوب، ديسمبر 2003 العدد 9157 <http://www.aawsat.com/details.asp?article=209353&issueno=9157>

80% منها أو يزيد بترول خام، تتوزع بين ثلاثة دول، الصين التي تستأثر بنسبة 64،3% من الصادر السوداني، اليابان (13،8%) والسعودية (3،7%).

### الإنتاج الفعلي للنفط

بدأ الإنتاج النفطي في السودان في حقول أبي جابرة وشارف، ثم لحق بذلك الإنتاج من حقول عدارييل وهجليج. وصل حجم الإنتاج الفعلي بنهاية يونيو 1999 إلى 150 ألف برميل من حقلي هجليج والوحدة. وارتفع الإنتاج إلى مايقارب 500 ألف برميل حتى 2011. بوجود 85% من إنتاج النفط السوداني في دوله جنوب السودان، فقد انخفض الإنتاج عند انفصال الجنوب إلى حوالي 120 ألف برميل يومياً نصيب الدولة منها 55 ألف برميل يومياً. ومن المتوقع أن يرتفع الإنتاج بعد تشغيل الحقول التي كانت معطلة بسبب التوترات في المنطقة وزيادة الاستثمار في التنقيب إلى 180 ألف برميل. تختلف خصائص النفط الخام السوداني باختلاف حقول إنتاجه، ولكن بصفه عامة يمكن تلخيص أهم سماته في أنه متوسط الكثافة ويقارب الخامات الخفيفة. ويعتبر من أفضل الخامات في منطقة الشرق الأوسط فيما يتعلق بهذه الخاصية نسبة لقله آثار الكبريت الجانبية الضارة بالبيئة والمحركات<sup>298</sup>.

### عائدات البترول

رغم أن صناعة البترول فيها من الغوامض الكثير، إلا أن عائدات البترول ربما هي أكثر القضايا الغامضة في عمليات البترول. وإذا بدأنا بقول الدكتور حسن عبد الله الترابي لصحيفة الخرطوم "إن البترول الذي أخرجناه من آبار دخل... آبار أعرق منها وأصبح وبالأعلى السودان"<sup>299</sup>، فقد انتشرت في الفيسبوك والمواقع الاسفيرية الأخرى محاوله لتقدير دخل السودان من البترول منذ إنتاجه، ورغم أن هذه المحاولة جادة وتحاول أن تعتمد على النسب الأعلى في المنصرفات والنسب الأعلى في الدخل فقد قدرت المحاولة دخل السودان من النفط من 2000-2011 بحوالي 27 بليون

<sup>298</sup> <http://sudaninanama.8k.com/Petrol.htm>

<sup>299</sup> الدكتور حسن عبد الله الترابي: صحيفة الخرطوم، الثلاثاء 10 أبريل 2007.

دولار<sup>300</sup>.

لكن الإقتصادي والسكرتير الإقتصادي لحزب المؤتمر الشعبي، حسن ساتي، يرى أن الدخل كان حوالي 8 بلايين دولار<sup>301</sup>. ويرفعها الاستاذ خالد التيجاني النور، وحسب تقارير رسمية في السنوات الخمس الماضية، أنها بلغت أكثر من اثنين وثلاثين مليار دولار، وإذا أضفنا إليها النفط المستهلك محلياً، وعادة ما يوازي نحو خمس الصادرات، فإن جملة عائدات النفط حققت قرابة الأربعين مليار دولار في السنوات الماضية<sup>302</sup>.

## الديون

كانت ديون السودان الخارجية سنة 1989، 13 مليار دولار، بلغت في العام 2005 حوالي 27 بليون دولار، أي 100% من الناتج القومي الاجمالي في ذات العام، وقد قفزت متعاطمة كما قفز ريع البترول: من 21 بليون دولار (2001م)، إلى 23.600 بليون دولار (2002م)، 25.700 بليون دولار (2003م)، 26.000 بليون دولار (2004م)، حتى بلغت في العام 2011 حوالي 40 بليون دولار كما صرح محمد خير الزبير، محافظ البنك المركز لجريدة اخبار اليوم. إذن لا شك أن السودان قد حقق بفضل البترول زيادة في ناتجه القومي بصورة اجمالية، لكنها زيادة لم تظهر في حياة المواطن<sup>303</sup>.

## اين ذهبت هذه العائدات؟

يتسائل الاستاذ خالد التيجاني النور اذا كانت الديون قد حققت نهضة ونمواً يوازي هذه

<http://www.sudanforum.net/showthread.php?t=156754> 300

Amani Gandoul: Economist Hassan Satti: The Sudanese economy is experiencing deflation, recession 301 and 100% inflation, 07/08/2012, <http://sudanow.info/en/en-essays.php?ID=568&show=sc>

302 خالد التيجاني النور: نهاية (حالة إنكار).. السودان في قبضة (الصندوق) مجدداً ، الجمعة، 31 تموز/يوليو 2009 ، <http://www.sudanile.com/2008-05-19-17-39-36/224-2009-05-18-16-20-15/4682-2009-07-31-05-38-30.html>

303 قروش البترول من لحظة البدء وحجم ديون السودان؟، <http://alrakoba.net/news-action-show-id-64265.htm>

المبالغ الهائلة والتي قدرها ب 40 مليار دولار: "يشير المسئولون عادة إلى مشروعات التنمية العديدة التي شهدتها البلاد في الفترة الماضية، وتلك حقيقة لا مراء فيها، ولكن الثابت أيضاً أن معظم هذه المشروعات تم تمويلها بقروض خارجية، لقد أعلن بعض المسئولين في الحكومة أن الإنقاذ لم تورط البلاد في ديون خارجية ولكن ذلك ليس صحيحاً، فأكبر هذه المشروعات وهو سد مروي الذي كلف أكثر من ثلاثة مليارات دولار، جرت استدانة أكثر من خمسة وثمانين في المائة من تمويله من الصين والصناديق العربية.... أن معدل ارتفاع ديون السودان الخارجية ظل يرتفع في السنوات الماضية بمعدل كبير يبلغ نحو ثلاثة مليارات دولار سنوياً، ونحن هنا لا نوجه اتهاماً ولكن نشير فقط إلى إثبات ما أوردناه سابقاً من إدارة الاقتصاد بأولويات سياسية، فترهل الجهاز الإداري للحكومة، مركزياً وولائياً، والإنفاق الضخم على الأجهزة الأمنية والعسكرية في ظل استمرار الحرب الأهلية في دارفور، فضلاً عن الصرف الضخم أيضاً على استحقاقات اتفاقية التسوية في الجنوب، وفي دارفور جزئياً، كلها جعلت من إدارة الاقتصاد السوداني خاضع للطوارئ السياسية"<sup>304</sup>.

إذا أجملنا إنجازات الدولة الأخرى سنجد أنها قائمة أيضاً على الديون: سد مروي قرض مشترك من عدة دول، ويتبع للقرض مطار مروي، خطوط نقل الكهرباء، مشروع امري الزراعي وطريق مروي. مشروع مياه القصارف قرض من "البنك الاسلامي للتنمية وقرض صيني"، مشروع تغذية خزان الرصيرص قرض مشترك من عدة "ممولين"، مشروع سكر النيل الابيض قرض مشترك من عدة "ممولين"، مشروع مجمع سدي اعالي عطبره واستيت قرض مشترك من عدة ممولين، كوبري الصداقة "كريمة" منحة صينية، مشروع مطار الخرطوم الجديد قرض مشترك من عدة "ممولين". مشروع كهرباء الخط الدائري (الخرطوم)، خط الكهرباء الناقل سنجة القصارف، مشروع كهرباء كوستي وخط الكهرباء الناقل القصارف القلابات "قروض هنديه". مشروع سندس الزراعي ، كهرباء الجيلي، شندي عطبره محطة كهرباء قري 2، مياه نيالا، مياه الدالي والمزموم، مشروع صومعة ربك، كوبري رفاعة، كوبري الدويم، توسعة كهرباء الخرطوم بحري الحرارية، مياه الفاشر، مياه

<sup>304</sup> خالد التيجاني النور: نهاية (حالة إنكار).. السودان في قبضة (الصندوق) مجدداً، مرجع سابق

بورتسودان، مياه دنقلا، مياه المتمه، مياه مدني، مياه كوستي، كهرباء دنقلا، كهرباء وادي حلفا، مشروع كهرباء الفوله، مشروع طريق النهود ام كداده، مشروع طريق زالنحي الجنينه، طريق الدبيبات ابو زبد الفوله، مشروع كوبري سنار كلها "قروض صينية". مياه عطبره والدامر، مشروع كوبري توتي بحري، مشروع محطة مياه ابو سعد كلها "قروض ايرانية". طريق القصارف دوكة القلابات قرض، طريق طوكر قرورة، طريق سمس القصارف ام الخير، طريق كسلا كركون مامان، محطات تحليه مياه ولاية البحر الاحمر، جسر سيدون على نهر عطبره وطريق عطبره بورتسودان هيا كلها قروض من "الصندوق العربي للانماء الإقتصادي". مشروع كهرباء الشرق قرض "الصندوق الكويتي".

### القيمة المضافة والتميز المقارن للموارد الطبيعية (المعادن)

أن يمتلك السودان مخزوناً من المعادن فهذا امر معروف منذ قرون عديدة، وأثبتته الدراسات، الخرائط الجيولوجية، الجيوكيميائية والجيوفيزيائية كما سلف. وقد دخل الانتاج في مراحل متقدمة في كثير منها منذ عقود عديدة. يمكن ان يكون هذا المكون جزءاً من الثروة التي ستعين على جعل الرؤية لسودان المستقبل افضل حالاً. إننا مطالبون لاستكشاف درب وطني يجعل من البترول وسائر المعادن مصدراً لرفاه أهل السودان وليس نكبة عليهم.

ظل البترول لعنة في ظل الإنقاذ، وتعرض جوردون جونسون ومجيد الهيتي لهذه القضية فقد اصدرا كتاب "لعنة النفط.. الاقتصاد السياسي للاستبداد"، اصدار معهد الدراسات الإستراتيجية، وهو اصل بحث قدمه المؤلفان إلي مركز دراسات الاسلام والديمقراطية. استند البحث على معطيات 48 بلداً إسلامياً يؤلف المسلمون فيها 50% من السكان فأكثر حيث يبلغ إجمالي السكان فيها 4،1 مليار نسمة، ويناhez فيها المسلمون 2،1 مليار (أو 83% من السكان) "إن الثروة النفطية تدفع إلي تحرير الدوله والنظام السياسي من المجتمع وآليات الرقابة والمحاسبة، وتسمح هذه الثروة بتمويل آله قمع كبيرة على شكل جيوش جرارة وأجهزة أمنية متشعبة هدفها دعم وإدامة النظام السياسي على حساب جميع الأهداف الأخرى، مما يغذي النزعة العسكرية وتغليب الخيارات المسلحة على الخيارات السلمية في حل المشاكل



الداخلية والخارجية". ونستطيع إدراك صحة هذا الاستنتاج واقعياً بمراجعة بسيطة لتأريخ السودان في عهد الإنقاذ وكيف تم استعمال عائدات النفط في تمويل الحرب وتغيب المؤسسات الديمقراطية (حكم القانون، قضاء مستقل، صحافة حرة، الخ) التي تتيح للمواطنين الاعتيايين مراقبة ومحاسبة الدولة. ففي "البلدان التي تفتقر إلى المؤسسات الديمقراطية فإن النفط عمل فيها على تعميق الفساد والطغيان والقمع"<sup>305</sup>.

يلخص د. مجدي الجزولي مسيرة البترول في السودان "إن طاقة البترول للتفجر في وجه شعبنا لا شك فيها، والدليل الدرب الدموي الذي انتهجته الصناعة البترولية لترسيخ أقدامها محطمة مجتمعات ومناطق بأسرها، ومخلفة دماراً متعدد الأوجه، بشري، وبيئي، وديموغرافي. من جهة أخرى جلي أن البترول قد فتح فصلاً مستحدثاً في اقتصاد بلادنا السياسي، فيه من الصراع العسكري أكثر من الصراع السلمي، كما أصبح منبعاً لاثراء طبقة عليا حاكمة يصعب تمييز أقطابها السياسيين من أقطابها الإقتصاديين وتحقق الصفة الكومبرادورية بامتياز فهي لا تنتج فعلاً، ولا تضخ رؤوس أموالها في قطاعات الانتاج، وإنما تغتني عبر المضاربة بالموارد الوطنية في السوق العالمية جاذبة إلى الأرض السودانية لاعبين جدد كل حين، تشترك معهم في المصالح وفي المناهج، هم وطنها الحقيقي وليس السودان"<sup>306</sup>.

<sup>305</sup> سعد محمد رحيم: قراءة في كتاب: (لعنة النفط.. الاقتصاد السياسي للاستبداد) الحوار المتمدن-

العدد: 2547 - 4 / 2 / 2009 ، 08:24 ، <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=161713>

<sup>306</sup> د. مجدي الجزولي: البترول في السودان... مورد وطني أم "مؤتمر وطني، مرجع سابق

## الفصل السادس: الكفاءات الأساسية: القوى البشرية السودانية والتكنولوجيا

نعتبر القوى البشرية والتكنولوجيا ضمن الكفاءات الأساسية على أساس أن التطلع للمستقبل لأي دولة بدأ بتطوير القوى البشرية بشكل عام والتعليم كعملية أساسية. نعد التكنولوجيا ضمن هذه الكفاءة الأساسية، كجزء من عملية تنمية القوى البشرية السودانية، لأنها ترتبط بشكل كبير بالعملية التعليمية، التدريب ومهارات التعلم طوال العمر، وإن كان للتكنولوجيا محددات أخرى سنناقشها بشكل مفصل لاحقاً.

حسب تقرير التنمية البشرية 2013، يحتل السودان معدلات منخفضة. من وضعه في مجموعة الدول منخفضة التنمية (176/171). يقع السودان (186/171) في معدلات عدم المساواة، الفوارق بين الجنسين، التحكم على الموارد، الصحة، التعليم وغيرها. تدهور السودان من المرتبة 141 عام 2004، 146 عام 2008، 154 عام 2010 إلى 171 عام 2013. الواقع محبط ويثير كثيراً من الاسئلة حول حقيقة ان تكون القوى البشرية والتكنولوجيا ضمن الكفاءات الأساسية في السودان<sup>307</sup>.

اثبتت القوى البشرية السودانية قدراتها في التقدم بالسودان على طوال تأريخه وأمتدت هذه القدرات عند اختبارها في تنمية دول أخرى. لقد ساهمت بشكل واسع في تطوير قدرات الدول الخليجية في مجالات عديدة، من قوى عالية التاهيل في القطاع الفني او المهني. حتى عندما تمت الهجرات الاخيرة إلى الدول الاوربية، استطاعت ان تثبت قدرتها على التطور والتأقلم، مع احتياجات قطاعات حديثة وعالية التاهيل خاصة في بريطانيا حيث يعمل عدة الاف من الاطباء منذ السبعينات في النظام الصحي البريطاني، ويتواجد آلاف اخرون في مجالات عديدة في امريكا، كندا، اوربا وبعض دول اسيا. إن لدي القوى البشرية السودانية الاستعداد لاكتساب المعارف والتأقلم والابداع.

<sup>307</sup> برنامج الأمم المتحدة الإنمائي: تقرير التنمية البشرية 2013 ، 13 مارس 2013، <http://hdr.undp.org>

إن العملية التعليمية جزء حيوي وهام لتحقيق أي رؤية ستطرح لمستقبل السودان. الفارق أن مدخلات ومخرجات التعليم ستربط بشكل دقيق ومحسوب بنوعية، اعداد وتأهيل القوة البشرية المطلوبة. سوف نتعرض في هذا الفصل إلى تركيب الخدمات التعليمية، مدى ملائمتها للاحتياجات التي تغطي مناحي الرؤية، العناصر المشاركة في العملية التعليمية واحتياجاتها وغيرها.

## تأريخ تطور التعليم

بدخول العرب والإسلام إلى السودان إنتشرت المدارس القرآنية المعروفة محلياً باسم الخلاوي والتي إنحصر دورها على تحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف، إلى جانب تعليم مبادئ اللغة العربية والحساب، وذلك منذ أواسط القرن الميلادي السابع. بنيت الخلاوي كبيوت ملحقة بالمساجد كما تعرف الخلوة عادة باسم شيخها. وقد طغت أسماء بعض الخلاوي المشهورة على عموم منطقتها كخلوة ود الفادني و خلوة ود كنان في منطقة الجزيرة بوسط السودان وغيرها. من تطور حلقات المساجد التي انتظمت في عام 1901 م كرد فعل للتعليم الأجنبي، وافقت الحكومة الإستعمارية، بناءً على طلب العلماء ومن أبرزهم الشيخ قاضي الإسلام محمد البدوي، على إنشاء معهد ام درمان العلمي عام 1912 م. ويمثل المعهد بداية التعليم الديني النظامي بالسودان الذي تبني نظام الأزهر. وقد تطور المعهد العلمي في منتصف الستينيات من القرن العشرين ليصبح جامعة أم درمان الإسلامية في عام 1965م.

بدأ الاهتمام بالتعليم مبكراً حيث تم تعيين البريطاني جيمس كري مديراً لمصلحة المعارف سنة 1900 م، وكان يرى أن يرتبط التعليم بحاجة البلاد الإقتصادية ووضع أهدافاً للتعليم في السودان تتلخص في الآتي: "خلق طبقة من الصناع المهرة، نشر التعليم بين الناس بالقدر الذي يساعدهم على معرفة القواعد الأولية لجهاز الدولة كعداله القضاء وحياده وتدريب السودانيين للعمل في الجيش حتى تتمكن الإدارة من التخلص بالتدريج من الضباط والجنود المصريين الذين كانت صلتهم بالجنود السودانيين تؤدي في بعض الأحيان إلى التمرد تأثراً بحركات التحرير في مصر". وقد حكمت هذه الاهداف التعليم في السودان من بداية القرن حتى إنشاء معهد التربية بخت الرضا، لتدريب المعلمين بمنطقة ريفيه وتطوير مناهج لإعداد المعلمين. تم

إنشاء أول قسم للتفتيش الفني في تاريخ التعليم بالسودان.

افتتح اللورد كنتشنر كلية غردون التذكارية في 8 نوفمبر/ تشرين الثاني 1902م. كانت في البداية بمستوى مدرسة ابتدائية. وفي عام 1903م اكتملت مباني كلية غردون، وكانت نواتها كلية المعلمين التي انتقلت من أم درمان إلى مباني الكلية بالإضافة إلى نقل مدرسة الخرطوم الابتدائية إلى مباني الكلية. بذلك أصبحت كلية غردون متخصصة في اعداد الإداريين والفنيين والمعلمين للعمل بخدمة الحكومة. تحولت كلية غردون إلى مدرسة ثانوية حيث ألغي القسم الابتدائي وأصبحت تتكون من ستة أقسام.

في عام 1937م، تقرر ربط مناهج كلية غردون بامتحان الشهادة الثانوية بجامعة كمبردج ببريطانيا. والحصول على هذه الشهادة يؤهل الطالب للدراسة في الجامعات البريطانية. إنشاء كلية عليا للطب البيطري في 1938 ثم تبعتها كلية الهندسة في 1939 وأخرى للآداب والحقوق في 1940. وفي 1944 تم تجميع كل الكليات العليا - ما عدا كلية كنتشنر الطبية - في كلية واحدة أصبحت أول كلية جامعية في السودان. علم 1956م، تم تحويل كلية الخرطوم الجامعية إلى جامعة الخرطوم، وبذلك أصبحت أول كلية إفريقية مرتبطة بجامعة لندن تتحول إلى جامعة مستقلة تمنح شهادتها الخاصة.

في عام 1946 تم إنشاء أربع مدارس للتدريب (مدارس فنية) يلتحق بها الطلاب بعد إكمال المدرسة الابتدائية (الوسطى)، وفي نفس التاريخ تم إنشاء معهد تقني، عرف فيما بعد بالمعهد الفني، تطور فيما بعد إلى جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا. أنشئت أول مدرسة أهلية وسطى بام درمان عام 1927 م، بالجهد الشعبي. وقد شارك في تأسيسها نخبة من السودانيين على رأسهم الشيخ إسماعيل الأزهرى الكبير مفتي الديار السودانية. برز في عام 1942 م نشاط مؤتمر الخريجين في مجال التعليم حيث تم فتح ثلاث مدارس متوسطة، واحدة في القولد وأخرى في مدني، والثالثة في امدرمان. عام 1955 تأسست جامعة مصرية بالسودان كفرع لجامعة القاهرة<sup>308</sup>.

لقد اثبتت التجارب السودانية، خلال قرن، أن الدولة نمت وتطورت بفضل التعليم

<sup>308</sup> بروفييسور محمد عمر بشير : تطور التعليم في السودان ترجمة هنري رياض واخرين (دار الثقافة بيروت 1970م).

سواء في حدوده الأدنى أوائل أيام المستعمر، حيث ورث السودان نظاماً تعليمياً كان محققاً لأهدافه بشكل كفاء منذ بدء تاسيسه. مع الحكم العسكري الثاني (1969-1985) طرحت إستراتيجيات تغيير المناهج التعليمية كجزء من رؤية لاهمية التعليم في التغيير المنشود بالعمل على التنمية المستقبلية.

عام 1969م عقد اول مؤتمر قومي جامع لمناقشة قضايا التعليم، تأهيل الفاقد التربوي والاهتمام بالتعليم الفني. وطرحت وثيقة حول البرنامج، ضمن إطار رؤية يسارية شامله، احد افضل الاستراتيجيات نحو التعليم : المحو التام للامية في البلاد عن طريق الجهود الشعبية وتوسيع قاعدة التعليم النظامي، تغيير مناهج التعليم النظامي، التركيز على التعليم العام، تعليم صناعي وزراعي، الانفتاح على الثقافات العالمية والبحث العلمي.

إن التغيير المدمر الأول جاء بتبني تحويل التعليم من عملية بناء القدرات، المهارات ومن تقوية التفكير النقدي، المستقل والقائم على العقلانية والعلم إلي نظام يقوم على الحفظ والتلقين والحشو والذي اشار الية الاستاذ مصطفى عبد العزيز البطل "قام وزير التربية محي الدين صابر بالغاء النظام التعليمي ليدخل نظاماً جديداً يحتذي خطى النظام التعليمي المصري هيكلاً ومنهجاً"<sup>309</sup>.

ناقشنا التعليم في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية عند نقاش فشل رؤية تيار الدولة الدينية، كان اهمها خروج الدولة من تمويل التعليم وانحدارها في سلم الأولويات، اذ جاء التعليم في المرتبة 50 من الأسبقيات في إستراتيجية الحكومة، بينما تأتي الصحة في المرتبة 49 في الإستراتيجية ربع القرنية مابين عامي (2007-2013م)<sup>310</sup>، ادى ذلك بالضرورة إلي تدني التعليم، ضعف الاستيعاب..الخ.

ثورة التعليم العالي كانت في حقيقتها خاوية من البرامج المدروسة او المبرمجة، سوي الرغبة الكاسحة في اكتساب النجاحات السريعة، فتمخضت عن توسع عشوائي للتعليم العالي في ناحيته الكمية بدون أي اهتمام بالتنوع او متطلبات العملية نفسها من هيئة

<sup>309</sup> مصطفى عبد العزيز البطل: في مظاهر الخمول العقلي وجذب الخيال، جريدة الاحداث، نشر بتاريخ 2009\12\9

<sup>310</sup> حنان كشة: أحاطه الفقر بمخالبه: التعليم.. هل ينصلح أمره؟، جريدة المجهر، 21 يوليو، 2012، <http://almeghar.com/permalink/3815.html>

التدريس المؤهلة والمدربة على التعليم، المختبرات والمعامل، المكتبات سكن هيئة التدريس والطلاب والحرم الجامعي للنشاطات والملاعب والمسارح والقاعات... الخ، كما تم اصدار قانون تنظيم التعليم العالي لعام 1990م ليقتن سيطرة الحكومة على مؤسسات التعليم العالي، فمُنح وزير التعليم العالي والبحث العلمي صلاحيات واسعة لاختصاص مؤسسات التعليم العالي لاشرافه المباشر وله سلطة الاشراف على كل التعيينات الادارية والاكاديمية بالجامعات.

### تركيب الخدمات التعليمية والتمويل

يتكون الهيكل التعليمي السوداني من مرحله التعليم الأساسي، وتشمل: مرحله التعليم قبل المدرسي: الخلاوي ورياض الأطفال، مرحله التعليم الأساسي، المرحله الثانوية وتشمل على نوعين من التعليم: التعليم الثانوي الاكاديمي والمعاهد العليا بشقيها الأكاديمي والتقني. التعليم الثانوي الفني يشتمل على أربعة أنواع: تجاري، صناعي، زراعي ونسوي. اما معاهد تدريب المعلمين السابقة فقد تم تحويلها إلى كليات تربية تتبع للجامعات لتمنح خريجها بكالوريوس التربية الخاص بمرحلة التعليم الاساسي<sup>311</sup>.

إن تركيب الخدمات التعليمية في السودان يعاني من مشكلتين متعارضتين، الأولى ضعف الاستيعاب الكلي لمن هم في سن التعليم، إن نسبة المستوعبين في مرحله التعليم قبل المدرسي في ولاية الخرطوم لا تتعدى 36.3% ومرحلة الاساس 69% والمرحلة الثانوية 31.5%، تتراجع هذه النسبة في الولايات، ففي ولاية سنار نسبة المستوعبين في التعليم قبل المدرسي لا تتعدى 13.4%، كسلا 17.4%، غرب دارفور 25.3% والنيل الازرق 20.5%.

اما في مرحله الاساس فلا تتعدى نسبة المستوعبين في جنوب دارفور 39.5%، البحر الاحمر 36.4%، كسلا 44% وشمال دارفور 66%. كذلك تراجعت نسب المستوعبين في المرحله الثانوية في الولايات، في ولاية كسلا نسبة الاستيعاب لا تتعدى 14.6%،

---

<sup>311</sup> جمهورية السودان وزارة التعليم العام: التعليم للجميع التقرير الوطني تقييم متوسط الامد للتعليم للجميع، للفترة 2000-2006، الخرطوم يوليو 2007م

في البحر الاحمر 17%، جنوب دارفور 7.1% والنيل الازرق 20.1% . المشكله الثانية أن المخرجات لا تتناسب مع حاجيات سوق العمل.<sup>312</sup>

التعليم الفني لا يتجاوز 5% من مجمل التعليم (حوالي 35% من المجمل)، ومستوياته متدنية لضعف الامكانيات التعليمية. بلغ عدد المستوعبين في التعليم حوالي نصف مليون في عام 2009-2010، في حوالي 117 مؤسسة خمسها كليات فنية وتقنية تشمل الهندسية، المعمارية، الصحية، الزراعية، تكنولوجيا المعلومات، البرامج المصرفية، المحاسبة، الضيافة والعلوم الادارية.<sup>313</sup>

إن قضية تمويل التعليم لا ينفصل عن التوجه الإستراتيجي للدولة، سلم اولوياتها، الكفاءات الاساسية التي ستعتمد في تطوير الدولة واخيراً مفهومها للعدالة الإجتماعية. اشارت كل الدساتير الإنتقالية والدائمة الرائحة على مجانية التعليم وتم تطبيقه بدرجات متفاوتة على مر العصور. ينال تمويل التعليم اغلب النقاشات التي تدور حول التعليم وتطويره. تراجع الانفاق من 15% بعد الاستقلال، وهو الذي ينطبق مع الحد الأدنى من المعايير العالمية من تخصيص 15% من الميزانية للتعليم و6% من الناتج المحلي الاجمالي.

حسب دراسة "التمويل وأثره في فرص وجودة التعليم" اعدّها خبير اليونسكو السابق والأمين العام للمنتدي التربوي مبارك يحيي، وجد أن نسبة الإنفاق الحكومي للتعليم من الإنفاق العام منذ عام (2002-2008م) تراوحت ما بين (2.9-4.6) من الناتج المحلي. وأشار إلي دراسة أجريت في ولايتي النيل الأزرق والخرطوم عن تمويل التعليم، كشفت أن (95%) من دخل المدرسة يذهب للمعلمين، وأن للجهد الطوعي القدر الأكبر في جمع هذه الموارد.

كشفت جداول تمويل التعليم من الإنفاق الحكومي العام، أو الصرف من الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية والأفريقية، تواضع السودان الشديد في الصرف على التعليم. في قراءة لميزانية التعليم مقارنة بالميزانية العامة للأعوام من (85-92) وجد أنها

<sup>312</sup> اشرافة الحلو: خبير:الحكومة انسحبت من تمويل التعليم، الصحافة العدد:6671، <http://www.alsahafa.sd/details.php?articleid=41627>

<sup>313</sup> أ. د. عمر المقلتي: التعليم العالي وتنمية الموارد البشرية في السودان ، وزارة تنمية الموارد البشرية، المؤتمر القومي لتنمية الموارد البشرية، 2012م

بلغت من (1.7-15%) ونسبة الأجور والمرتببات من ميزانية التربية (84.3%)، أما نسبتها من إجمالي الميزانية العامة فهي (3.8%)، وفي مقارنة للإنفاق العام على التعليم من الإنفاق الحكومي للدول العربية، نجد أن السودان يأتي أيضاً في ذيل القائمة، حيث بلغ الإنفاق في 1991 حوالي 1.7 %، أما في العام 2005م فقد وصل إلى 2.8%<sup>314</sup>.

أما ميزانية العام 2012 فقد كانت 1.8% من جملة الدخل القومي واثارت كثيراً من النقاش داخل المجلس الوطني<sup>315</sup>. أدى هذا التمويل الضعيف إلى أن تكون المؤشرات التعليمية في السودان هي الأضعف بين كل دول جنوب الصحراء حسب تقرير للبنك الدولي للعام 2009-2010<sup>316</sup>.

### التعليم الفني والتقني

التدريب الفني والتقني لبنة أساسية لا غني عنها لإحداث التنمية والطفرة التقنية لأي مجتمع. فالدول الأوروبية جميعها ارتقت إلى مصاف الدول المتقدمة لاعتمادها على إستراتيجية التدريب الفني والتقني، وكذلك الدول الآسيوية كاليابان، الصين، كوريا الجنوبية وماليزيا وغيرها، وبدأت الانطلاقة والتقدم بعد اهتمامها بتلك الإستراتيجية.

يولي السودان، الثانوية العليا الأكاديمية، اهتماماً كبيراً يفوق بكثير اهتمامها بالتعليم الفني والتدريب المهني، كما توجد نظرة سلبية للتعليم الفني والتدريب المهني ومؤسساته. ويلتحق معظم من لم يستطع الاستمرار في التعليم العام بالمدارس الفنية ومراكز التدريب المهني وذلك لسد الفجوة بين متطلبات أسواق العمل ومخرجات المدارس الفنية ومراكز التدريب المهني. وتندرج كلها تحت مسميات التعليم التقني، التعليم الفني والتدريب المهني (وهذا النظام غير مرتبط بمرحلة تعليمية محددة أو بفترة محددة ويتم في مراكز التدريب المهني، مواقع العمل والإنتاج أو مشاركة بين مراكز التدريب ومواقع العمل والإنتاج).

<sup>314</sup> حنان كشة: أحاطه الفقر بمخالبه: التعليم.. هل ينصلح أمره؟، جريدة المجهر، 21 يوليو، 2012، <http://almeghar.com/permalink/3815.html>

<sup>315</sup> وزير التعليم يقر بالفضيحة : 1.8 % لتمويل التعليم، <http://www.hurriyatsudan.com/?p=7443>

<sup>316</sup> حنان كشة: أحاطه الفقر بمخالبه: التعليم.. هل ينصلح أمره؟ مرجع سابق



بالرغم من التركيز على التعليم التقني والمهني الذي اقترحتة الحكومة عام 1980م، بتشجيع من الهيئات الاستشارية الدولية والتي كانت تهدف لرفع مستوى التعليم الفني إلي نسبة 60% من إجمالي التعليم بالسودان، إلا أن عدد ما تم إنشاؤه من مدارس مهنية في السودان لم يتجاوز خمس المدارس الثانوية العليا الأكاديمية. في العام الدراسي 1976 بلغ عدد الطلاب الذين أنخرطوا في مساق المدارس الثانوية الأكاديمية 1977م، ثمانية أضعاف عدد الذين تم تسجيلهم في المدارس الفنية.

لا يتجاوز عدد طلاب التعليم الفني الـ (4%) من عدد الطلاب الجالسين لامتحانات الشهادة. حالياً يبلغ عدد المدارس الأكاديمية الثانوية بالسودان (3455) مدرسة، بينما يبلغ عدد المدارس الفنية بالتعليم الفني (صناعي، تجاري، نسوي، زراعي ومعاهد حرفيه)، (175) مدرسة ومعهد وهو ما يعادل (5%) من عدد المدارس الثانوية الأكاديمية<sup>317</sup>. أدى هذا لإنشاء مجلس التعليم التقني والتقاني عام 2005م وأكدت أن العجز الكبير ما بين التعليم الأكاديمي والفني يستدعي وضع خطط معالجة من قبل، وضرورة توجيه الاهتمام للتعليم الفني بالسودان مع وضع تجربة دول تقدمت كثيراً في هذا المجال مثل ماليزيا وأندونيسيا.

### التعليم عن بعد والتعليم المفتوح

بدأ التعليم عن بعد في السودان في عقد الستينات من القرن الماضي في جامعة الخرطوم، وعن طريق الانتساب في جامعة القاهرة فرع الخرطوم (حالياً جامعة النيلين) تلتها جامعة أدرمان الإسلامية ثم جامعة جوبا وعدد آخر قليل من الجامعات. ولتلبية الرغبة المتزايدة في التعليم الجامعي، بما يناسب الظروف الاجتماعية والإقتصادية لأفراد المجتمع، وتكاملاً مع دور مؤسسات التعليم التقليدية فقد أنشأت وحدة التعليم عن بعد بجامعة الخرطوم في شهر مايو من العام 1999م حيث ألحقت إدارة التعليم عن بعد بكلية الدراسات التقنية والتنمية، جامعة السودان المفتوحة عام 2002 لتقديم هذا النمط من التعليم.

---

<sup>317</sup> المدرسة البلجيكية السودانية الفنية: التعليم الفن، Tuesday, November 2, 2010  
<http://www.facebook.com>

تستوعب الجامعة المفتوحة حالياً 105 ألف طالب وطالبة وتقدم برامج متعددة. كما أنشأت كليات المجتمع لتعزيز دور الجامعات نحو مجتمعاتها وهي تستهدف شرائح المجتمع الريفي والفاقد التربوي، وتركز هذه الكليات حالياً على تدريب المرأة الريفيه في مجالات (الصحة، البيئة، الغذاء التغذية، الثقافة الدينية والأعمال اليدوية) ويوجد حالياً 7 جامعات لها أفرع لكليات المجتمع (جامعة الدلنج، شندي، الجزيرة، النيلين، سنار، الإمام المهدي وجامعة الفاشر)<sup>318</sup>.

### البحث العلمي في السودان

يعتبر البحث العلمي في مؤسسات التعليم العالي مطلباً أساسياً للتميز في أي حقل من حقول الدراسة المتخصصة في مجالات العلوم المختلفة ولا سيما العلوم الطبيعية والتطبيقية. ولقد أصبح تقييم الجامعات وتصنيفها علي المستوى العالمي من حيث جودة البحث العلمي، في صميم الاهتمام الأكاديمي والسياسي في البلاد المتقدمة والنامية. الجامعات تتحمل العبء في التنمية البشرية وفي توليد المعرفة ونشرها في التنمية الإقتصادية والإجتماعية والسياسية.

ويجدر بالجامعات أن تكون مكوناً رئيسياً في منظومة البحث العلمي الوطني، ويكون ذلك بتعزيز قدراتها، كفاءتها العلمية، البحثية وجودتها الأكاديمية، قابليتها للتكيف مع المعايير العالمية وبربطها المؤسسي مع المؤسسات البحثية والإنتاجية والقطاع الخاص.

يتم عادة تصنيف الجامعات من خلال المجالات المعرفية الآتية: العلوم الطبيعية والرياضية، هندسة /تكنولوجيا / حاسوب، علوم الحياة – الزراعة – المحصولية والحيوانية، الطب والصيدله، الآداب والعلوم الإنسانية / تربية. وتتألف إستراتيجية البحث العلمي في الجامعات من جميع إستراتيجيات هذه المجالات المعرفية. ويتم تقسيم البحث العلمي عموماً علي النحو التالي: البحث التقليدي بالتركيز على النظرية والمنهج، البحث التطبيقي – تطبيق البحث التقليدي لمقاصد عملية يتأسس على الحاجة

---

<sup>318</sup> د. مبارك محمد علي مجذوب: تجربة السودان في مجال التعليم العالي، 26/11/2010، [www.arabthought.org](http://www.arabthought.org)

الإقتصادية والإجتماعية، البحوث الإستراتيجية – الموجهة لحل قضايا عملية محددة، البحث التشاركي. أولويات البحث العلمي بالجامعات تشمل المساهمة في تحديث وتطوير القطاعات الإنتاجية والخدمية وتعزيز البحوث الأساسية ودعم البحوث الإنسانية والتربوية – ويكون ذلك بتعظيم الاستفادة من تقنيات المعلومات والاتصالات.

### إستراتيجية البحث العلمي في العلوم الزراعية والثروة الحيوانية والبيئة والغابات

بدأت البحوث الزراعية بشقيها النباتي والحيواني ببداية القرن الماضي بدراسة علوم النبات والكيمياء والحشرات في معامل ولكم عام 1902م وبحوث القطن بشمبات عام 1904. وأعقب ذلك قيام محطة بحوث الجزيرة عام 1918م والتي تطورت الي هيئة البحوث الزراعية عام 1967م . يشكل البحث العلمي المهمة الثانية في الجامعات بعد التدريس فهو يثري العملية التدريسية ويميز الجامعات عن غيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى ويعتبر أحد المؤشرات الهامة لتقويم الجامعات. رغم تزايد أعداد أعضاء هيئة التدريس بكليات العلوم المختلفة بالجامعات السودانية، فقد شهدت بحوث العلوم تراجعاً في الكم والنوع لعدة اسباب أهمها ضعف البنيات، قلة المعينات، التمويل والكوادر المساعدة وضعف مشاركة الباحثين في اللقاءات الإقليمية والعالمية وانشغالهم بمشاكلهم الإقتصادية والإجتماعية وعزوف القطاع الخاص عن تمويل البحوث.

يلاحظ أن الاقبال على العلوم الإنسانية في بلادنا أصبح ضعيفاً جداً مقارنة مع العلوم الأساسية، للإعتقاد بأن الأخيرة هي أساس النهضة والتقدم وأن التمكن منها يجلب للدارس لها الربح الوفير مقارنة بدارس العلوم الإنسانية<sup>319</sup>. وإن صح ذلك فيما يتعلق بالمكاسب المادية وتطوير وتيسير الحياة فإن العلوم الإنسانية ذات أهمية قصوى للبشر في ترقية النواحي السلوكية، وإن لم نقصد هنا إجراء مقارنة أو مفاصله بين أيهما أكثر أهمية، غير أننا نجزم بأن أحدهما لن يسعد البشرية دون الآخر مع ملاحظة أن الغربيين الذين بلغوا شأواً بعيداً في العلوم الأساسية فإنهم بذات الهمة يتبحرون في العلوم الإنسانية والدراسات الأدبية.

<sup>319</sup> وزارة التعليم العالي والبحث العلمي: لجنة البحث العلمي: إستراتيجية البحث العلمي في الجامعات السودانية، [minic.gov.sd/ar/mot/mot1.doc](http://minic.gov.sd/ar/mot/mot1.doc)

## محو الأمية وتعليم الكبار

بدأ العمل في محو الأمية وتعليم الكبار بحلقات توعية تطورت إلى إدارة صغيرة تابعة لوزارة المعارف في النصف الأول من أربعينات القرن الماضي. واستمر التطور الإداري حتى قام المجلس القومي لمحو الأمية وتعليم الكبار عام 1971م بإدارة تحت إشراف مجلس الوزراء وبرئاسة وزير التعليم العام صدر قانون المجلس القومي عام 1971م وعدل عام 1991م. بلغت نسبة الأمية في سنة 1950 في السودان 90% - 95%. وتدل آخر الإحصائيات إن نسبة الأمية تتراوح بين 50-60% مع تفاوت شديد بين الأقاليم المختلفة<sup>320</sup>.

## تعليم الرحل

يمثل قطاع الرحل قطاعاً كبيراً في المنظومة السكانية السودانية، وحسب إحصاء 2008م يمثل الرحل 9.1% من مجموع سكان السودان ولهم إسهامات في الإقتصاد القومي من حيث دخل الدولة. يربون 95% من قطاع الثروة الحيوانية، وهم يتجولون في مساحات واسعة تبلغ ثلث مساحة السودان. في عهد الإستعمار وما بين الأعوام 25 - 1929م، فتحت مدارس في مناطق نفوذ الإدارات الأهلية، لتقوم بتعليم أبناء زعماء العشائر ليضطلعوا بأعباء السلطات الإدارية. وفي ثلاثينات القرن الماضي قامت مدرسة الأستاذ / حسن نجيلة لتعليم أبناء ناظر الكبابيش بشمال كردفان وتبعثها عدة مدارس في دارفور. لازم هذه الفترة فتح مدارس رحل بإقليم كسلا في بوادي البني عامر والهندودة، وفي 1980م فتحت خمس مدارس ابتدائية بمواقع دمر الرحل حول مدينة كتم شمال دارفور.

هذا وكانت ولايات دارفور من أولي ولايات السودان التي بادرت بتطبيق تجربة تعليم الرحل في العام 1993م، وذلك بفتح مائة مدرسة رحل متنقلة نظام أربع سنوات وتبنت تنفيذ تلك المدارس الحكومة ومنظمة اليونيسيف والمجتمع المحلي المستفيد. في العام 1994م وفي ندوة الخبراء الوطنية التي إنعقدت ببخت الرضا، وضعت الإستراتيجية المنهجية لتعليم الرحل حول التعليم للجميع. نتيجة لهذه الدراسات

<sup>320</sup> الأمانة العامة لمحو الأمية وتعليم الكبار: <http://www.moe.gov.sd/national-center.htm>

والبحوث التي قدمت في تلك المؤتمرات إنطلقت مسيرة تعليم الرجل في أربع عشرة ولاية في شمال السودان<sup>321</sup>.

## التكنولوجيا

للسودان تأريخ متميز في التعامل مع التكنولوجيا منذ ان عرفت مملكة كرمة (بين القرن العشرين ق م ومنتصف القرن السادس عشر ق م) صناعة الفخار الذي اشتهر في العالم باسم "فخار كرمة" وكذلك طورت المباني بالطوب المحروق. تلتها مملكة مروي، ما بين منتصف القرن السادس ق م وحتى منتصف القرن الرابع الميلادي، والتي بنت قاعدة مزدهرة تأسست علي علاقات تجارية كبيرة مع الهند، الصين واروبا وصناعة الحديد التي ازدهرت مما جعل الباحثين يطلقون عليها برمنجهام أفريقيا القديمة.

اشتهر صناع الحديد المرويين في العالم القديم في صناعات الادوات الحربية من السكاكين، السيوف والسهام، الالات الزراعية، ادوات الزينة والادوات المنزلية. كما نشطت ممالك النوبة في أعمال تعدين الذهب في المنطقة الممتدة ما بين النيل إلي البحر الأحمر ومن النيل إلي شمال كردفان غرباً.

كما اشتهرت الممالك النوبية بالصناعة الخشبية على مر تأريخه لمختلف حضاراته حيث استغلت الاخشاب في صناعات متعددة كصناعة المراكب، صناعة الآلات والمعدات الزراعية، مقابض الالات المختلفة، صناعة الاسرة (العناقير) ومقاعد الجلوس (الكر والبنبر)، أواني الطعام والاكل والابواب والشبابيك<sup>322</sup>.

اشتهرت أيضاً الساقية التي ورثت من العهود النوبية القديمة وظلت معلما بارزاً والوسيلة الزراعية الوحيدة في كثير من مناطق السودان، كما بقيت معروفة في جميع البلاد التي عاش فيها النوبيون على طول حوض النيل، وظلت الساقية الآلة الرافعة للمياه في مساحة واسعة من وادي النيل، من صعيد مصر حتى المناطق الوسطى من

<sup>321</sup> واقع ومستقبل تعليم الرجل: إدارة تعليم الرجل: وزارة التربية والتعليم العام، مايو 17, 2012  
<http://ipecs.sudanforums.net/t24-topic>

<sup>322</sup> عثمان محمد وداعه: المراكب... دراسة حالة في السودان،  
<http://www.tawtheegonline.com/vb/showthread.php?t=2720>

السودان، تتناقل صناعتها الأجيال، محتفظة بهيكلها وأجزائها القديمة وبأسمائها النوبية حتى عهد قريب. تصنع الساقية من أخشاب السنط وقواديسها من الطين المحروق على هيئة "أزيار" صغيرة، وأدوات الربط تصنع من ألياف النخيل، والأجزاء الدقيقة بها يتم ربطها بشرائح من جلود البقر ولا يدخل في تصنيع الساقية بالنوبة أي أجزاء معدنية مثل المسامير والأسلاك<sup>323</sup>.

قدم النوبيون للعالم آلة "الكسر" النوبية وهي آلة موسيقية نوبية قديمة جداً، وقد ثبت أنها استخدمت في أداء التراتيل الكنسية وكانت أوتارها من عصب الغزال وتوجد منها نسخة في متحف اللوفر في فرنسا "انتقلت هذه الآلة عن طريق النوبيين المهاجرين إلى كل مناطق السودان و بمسميات مختلفة. كما وصلت هذه الآلة إلى منطقة البحيرات وشرق أفريقيا خاصة في زنجبار مع المهاجرين النوبية الذين كونوا هناك جالية نوبية باقية حتي الآن. آلة الكسر النوبية تسمى "بالطنبور" لدى مناطق الشايقية حتي مناطق الجعليين. وفي منطقة وسط السودان "بالربابة" مع الاحتفاظ بنفس طريقة الدوزنة النوبية. اتجهت آلة الكسر النوبية مع المهاجرين شمالاً إلى مصر وتسمى بـ "السسمية" عند بدو شبه جزيرة سيناء ثم اتجهت الآلة إلى العراق حيث تستخدم هناك. وانتقلت الآلة إلى بلاد الأغريق بمسمى القيثارة (kithara) متعددة الأوتار".

انتقلت هذه الآلة عن طريق النوبيين المهاجرين إلى كل مناطق السودان وبمسميات مختلفة، حيث وصلت هذه الآلة إلى منطقة البحيرات وشرق أفريقيا خاصة في زنجبار الذين كونوا هناك جالية نوبية باقية حتي الآن. آلة الكسر النوبية تسمى "بالطنبور" لدى مناطق الشايقية حتي مناطق الجعليين. وفي منطقة وسط السودان "بالربابة" مع الاحتفاظ بنفس طريقة الدوزنة النوبية. اتجهت آلة الكسر النوبية مع المهاجرين شمالاً إلى مصر و تسمى بـ "السسمية" عند بدو شبه جزيرة سيناء ثم اتجهت الآلة إلى العراق حيث تستخدم هناك. وانتقلت الآلة إلى بلاد الأغريق بمسمى القيثارة (kithara) متعددة الأوتار<sup>324</sup>.

<sup>323</sup> د . محمد إبراهيم أبو سليم : الساقية، معهد الدراسات الأفريقية- أسبوية ، جامعة الخرطوم

1980

<sup>324</sup> اسكلي .كسر .شونوق: <http://www.sudanione.com/vb/showthread.php?t=3973>

## السودانيون والتكنولوجيا

أسس برنامج التحصين الموسع في السودان منذ عام 1976، ضد أمراض الطفولة الستة وتأتي ضمن منظومة برامج إستئصال شلل الأطفال، القضاء على الحصبة وتيتانوس حديثي الولادة، والذي صمم لتحقيق شعار العالمي لتحصين 90% من أطفال السودان ببلوغ عام 2000.

اعتمد البرنامج على إقامة ما يسمى "سلسلة التبريد". تعتبر اللقاحات ضعيفة وحساسة جداً لدرجة الحرارة لذا يجب حفظها في صفر - 8 درجات مئوية وذلك في سلسلة التبريد المخصصة لهذا الغرض. سلسلة التبريد هي العمود الفقري لبرنامج التحصين الموسع وهي عبارة عن شبكة من المعدات مثل غرف التجميد، التبريد، الفريزرات، ثلاجات الأنابيب، الطاقة الشمسية، صناديق التبريد وحوامل اللقاحات ويشرف عليها كادر مدرب على التعامل مع اللقاحات، ويقوم بمراقبة درجة الحرارة من لحظة خروجها من المصنع في كل أنحاء العالم. حالياً وعبر إدخال تقنيات متقدمة لرصد درجات الحرارة والإمداد الكهربائي تحفظ اللقاحات في مستودعات التبريد الاتحادية وفق معايير منظمة الصحة العالمية. خلال السنوات استوعب الكادر المحلي كافة المعطيات التكنولوجية عبر عامله المنتشرون في كافة بقاع السودان الواسعة<sup>325</sup>

إبان عملي مديراً عاماً للخدمات الصحية لدارفور، وضمن زيارة للجنيه، مررت على قرية صغيرة في ديار المساليت، وكنا نحاول جمع الأدلة، لتقديمها لمنظمة اليونيسيف، لقرار تعميم استعمال الثلاجات التي تعمل بالطاقة الشمسية في أرجاء دارفور لحفظ اللقاحات البشرية- والبيطرية- في أماكن الاستعمال في القرى المتناثرة في أرجاء دارفور، بدلاً عن التكنولوجيات القديمة السابق ذكرها. عندما استعرض كادر التحصين في القرية طبيعة عمله، كنا نرى شخصاً قليل التعليم وبإمكانات بسيطة يستوعب ويحافظ على أفضل تكنولوجيا توفرت آنذاك.

لا يمكن النظر للتكنولوجيا بمعزل عن التحديد الرؤيوي للكفاءات الأساسية التي تستهدفها، فالحاجة إلى التكنولوجيا ليست مجردة ولكن ترتبط بأنواع الأنشطة التي تدور حولها التنمية. وقد تبنت الهند تطوير التكنولوجيا حول التوسع المستمر في البنية التحتية

<sup>325</sup> برنامج التحصين الموسع، السودان: <http://www.episudan.info/about-us.htm>

المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات، ومجالات الاتصال مما سيكون له أكبر الأثر على النمو الإقتصادي لأنها وضعت الاندماج بنجاح في الاقتصاد العالمي عاملاً مهماً في رؤيتها من أجل جعل الهند مركزاً عالمياً لهذين النشاطين.

ليس هذا جديداً على السودان فقد قامت كافة اتجاهات التطوير التكنولوجي من معارف، بحث علمي، القوى المدربة وغيرها حول منتجات السودان الرئيسية- القطن، الذرة، الصمغ..الخ. سوف تبني اطرار نقل تكنولوجيا السودان في شكل أكثر تكثيفاً في مجالات الموارد الطبيعي من زراعة، حيوان، معادن، العملية التعليمية وموارد التنوع البيئي المختلفة.

## تعريف التكنولوجيا

أصل كلمة تكنولوجيا هي كلمة يونانية في الأصل وهي تتكون من مقطعين، المقطع الأول: Techno ويعني حرفة، مهارة أو فن أما الثاني: Logy وتعني علم أو دراسة. ومن هنا فإن كلمة تكنولوجيا تعني علم الأداء أو علم التطبيق. هناك تعريفات عديدة ولكنها جميعاً تتفق حول أنه العلم الذي يعني بالتطبيق المنهجي للبحوث والنظريات. لتحقيق هذا تتم الاستعانة بتوظيف العناصر البشرية، الأدوات والموارد لحل المشكلات، توفير الاحتياجات وزيادة القدرات. وهي في المجمل نشاط بشري يشمل المعرفة العلمية والجانب التطبيقي.

التكنولوجيا أسلوب للتفكير، وسيله وليست نتيجة. كغيرها من الأنظمة فإن مكوناتها هي المدخلات (العناصر المكونة لتطوير المنتج من نظريات وبحوث، قوى بشرية، مواد خام والآت، تمويل وأنظمة إدارية..الخ)، العمليات (الطريقة المنهجية المنظمة لمعالجة المدخلات لتعطي المنتج النهائي) والمخرجات (المنتج النهائي في شكل نظام كامل وجاهز للاستخدام)<sup>326</sup>. وتنقسم التكنولوجيا إلى تقليدية (الصناعات الكيماوية، الحديد والصلب، النسيج وغيرها) وحديثة (الموصلات الفائقة، الالكترونيات الدقيقة، التصاميم المعتمدة على الحاسوب وتطبيقاتها، الروبوت، الليزر والالياف البصرية،

<sup>326</sup> عبد المحمود عثمان منصور: التعليم التكنولوجي في اطار مستحققات مسار التعليم التقني والتقاني، المجلس القومي للتعليم التقني والتقاني، وزارة تنمية الموارد البشرية، جمهورية السودان



## مجتمع المعرفة

دخل تعبير مجتمع المعرفة مع بيتر دروكر (1969) كتطوير لنظريات تطوير التعليم التي طرحت منذ السبعينات حول المجتمع المتعلم ودعوة اليونسكو لجعل التعليم مستمراً. رغم ذلك فما تزال مفاهيم المعرفة ومجتمع المعرفة، في طور التشكل. إن تنوع المرادفات يظهر وجود ثلاثة حدود كبرى متقاطعة في صلب المفهوم، وهي التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع، حيث أصبح أمام تكنولوجيا المعرفة، اقتصاد المعرفة ومجتمع المعرفة.

وهناك إجماع أيضاً في التحول الذي تمارسه تقنيات المعرفة في الإقتصادات والمجتمعات الجديدة، ومعنى هذا أن التقنية والاقتصاد والاجتماع تُعدّ في مختلف تجلياتها المعاصرة عناصر قاعدية في فهم مجتمع المعرفة. صدر تقرير لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو" في عام 2005 بعنوان "من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة"، وقد ورد فيه تحت عنوان لا يمكن اختزال مجتمعات المعرفة إلى مجتمع معلومات "انه لا ينبغي لبروز مجتمع عالمي للمعلومات، باعتباره ثمرة لثورة التكنولوجيات الجديدة، أن ينسبنا أنه لا يصلح إلا وسيلة لتحقيق مجتمع حقيقي للمعرفة، فازدهار الشبكات لا يمكن له وحده، أن يقيم قواعد المعرفة. لأنه إذا كانت المعلومات فعلاً وسيلة للمعرفة، فليست هي المعرفة"<sup>328</sup>.

رغم ذلك فإن الدعوة لقيام مجتمع المعرفة ليس بالضرورة ان تتطابق مع الواقع الاجتماعي، فالهند حصتها من الخدمات 50% بفضل سياسات التدريب وتنمية الخبرات المعلوماتية، ولكن 70% من السكان يعملون بالزراعة وحوالي 40% منهم

<sup>327</sup> المعهد العربي للتخطيط بالكويت: الامكانيات التكنولوجية والنمو الاقتصادي، سلسلة جسر التنمية، العدد 95، يوليو 2010

<sup>328</sup> جريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية: ثلاثية المجتمع والاقتصاد والتكنولوجيا.. أقطاب مجتمع المعرفة، : 06 - 11 - 2009، <http://www.maghress.com/alittihad/98735>

## تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2003: نحو بناء مجتمع المعرفة

بدأ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بنشر تقارير دورية تحت مسمى التنمية الإنسانية العربية وكان أول تقرير العام 2002 ضمن سياق عام يقول أن "التنمية الإنسانية في هذه المنطقة لا ترقى لمستوى غناها". قام برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بنشر تقرير بعنوان "تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2003: نحو بناء مجتمع المعرفة"، حظي بقراءة واسعة النطاق، وأثار الكثير من الجدل والإشكالية.

تناول التقرير بالدراسة والفحص تقدم المنطقة العربية باتجاه تطوير المعارف والمهارات والمؤسسات، التي تحظى بتقدير في الاقتصاد العالمي في الوقت الحاضر. وقدمت تلك الدراسة شرحاً شاملاً في ما يخص "الخلل المعرفي" بالإضافة إلى وصفات شاملة للإصلاح. وأكد التقرير على أن هذه الإصلاحات يجب أن تكون بدافع عربي صرف؛ ولكنه اشترط أن يقوم العرب بأنفسهم بهذه الإصلاحات، مع تأكيده على ضرورة إنفتاح العرب على العالم وزيادة مشاركتهم في الشؤون العالمية. إن عرضنا للتقرير يجيء من قبول الفكرة الأساسية في أن مجتمع المعرفة مناظراً لمجتمع التعلم الذي يتيح كل شئ فيه فرص التعلم للفرد ليعرف ويعمل ويحقق ذاته ويعيش مع الآخرين، لتتخطى عمليات التعليم والتعلم، أسوار المدرسة التي يقتصر عليها ويصبح المجتمع بكل هيئاته بيئات للتعلم.

قدمت للتقرير الدكتورة ريماء خلف هنيدي بمناسبة إشهار تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003<sup>330</sup> "إن أهمية التكنولوجيا تأتي من أنها البوابة لتأسيس مجتمع المعرفة ومفتاح النهضة والنماء. فهي التي ترسم الحدود الفاصلة بين الثراء والفقر، وبين القدرة والعجز، وبين الإنجاز الإنساني والإحباط. وتستطيع الدولة القادرة على حشد المعرفة وإنتاجها ونشرها أن ترتقي بمستوى التنمية فيها، وتأخذ

<sup>329</sup> اليونسكو: من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة،  
unesdoc.unesco.org/images/0014/001418/141843a.pdf

<sup>330</sup> الدكتورة ريماء خلف هنيدي (الأمين العام المساعد للأمم المتحدة والمدير الإقليمي لمكتب الدول العربية) بمناسبة إشهار تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003، عمان في 20 أكتوبر/تشرين ثاني 2003 ، <http://www.arab-hdr.org>

بيد مواطنيها إلى مدارج النمو والازدهار، وتتبوأ المكانة التي تستحقها على مسرح العالم المعاصر"<sup>331</sup>.

### دور المجتمع المدني

يشكل المجتمع المدني رأس المال الاجتماعي، ومكون من الأفراد والمنظمات الذين يتصفون بالجهود المبذولة بدون طلب الربح باستقلالية عن السلطات، الأحزاب السياسية، العمل التجاري والبرامج الدينية. كما انها تهئ الرأي العام والوعي الاجتماعي بقضايا التضامن، المساواة، التعددية الثقافية، البيئة والمشاركة السياسية، ووفق دراسات للأمم المتحدة (عام 2000).

إن مساهمة منظمات المجتمع المدني في الدخل القومي، في الدول الصناعية المتقدمة تتراوح بين 8 إلى 14% وهي متدنية في البلدان العربية وقد لا تصل في احسن الحالات إلى 3%. وتحقق منظمات المجتمع المدني بإيطاليا - مثلاً - 5% من فرص التشغيل و4% من اعتمادات الجهود الوطني وينتظر أن يتضاعف هذا المردود من خلال توظيف تقنيات الإتصال الحديثة، والذي يتطلب الأرضية الملائمة، القوانين الميسرة والحد الأدنى من الإستثمار.

### وضع الامكانيات التكنولوجية في السودان

عرف السودان التكنولوجيا الحديثة بدخول الاتراك ولكن الانفتاح الاكبر كان منذ دخول الانجليز للسودان، من السكك الحديدية، التلفون، التلغراف، خزان سنار، المحالج والمصانع المتنوعة، التعليم الحديث والصحة العامة وهكذا. لقد استطاع السودانيون التفاعل الحي والتجاوب مع تطور التكنولوجيا. لقد استمروا في هذا التفاعل في كافة مناحي حياتهم، وتدل الاحصائيات التي تتناول وسائل التكنولوجيا في السنوات الاخيرة على هذا، فرغم أن السودان يحتل الرقم 169 في مؤشرات التنمية البشرية 2011، الا إنه يحتل المرتبة 117 في العالم في عدد التلفونات الارضية (2009)، والمرتبة 48 في العالم في عدد مستعملي التلفون المحمول وهم قرابة 18 مليون (2009)،

---

<sup>331</sup> الدكتورة ريما خلف هنيدي ، مرجع سابق

والمرتبة 56 في العالم في عدد مستعملي الانترنت وهم قرابة 5 ملايين (2009)<sup>332</sup>.

تعرف الامكانات التكنولوجية للدولة على إنها القدرة على الاستخدام والتكامل الفعال للمعارف التكنولوجية، وهي تشمل كل المهارات التي تتوفر لدى رأس المال البشري، حجم ونوعية رأس المال المادي المتاح إقتصادياً والنظم التكنولوجية السائدة عند نقطة زمنية معينة. وبالتالي فإن الامكانات التكنولوجية للدولة لا تتساوى بالضرورة مع مجموع الامكانيات التكنولوجية الخاصة بالشركات الانتاجية كل على حدة. كما أنها تختلف بين الدول حسب المسارات التكنولوجية واساليب التحديث التكنولوجي المتراكمة خلال الفترات الزمنية السابقة. وتختلف آليات التقدم التكنولوجي بين الدول – كما اوضحت العديد من الدراسات، وخاصة بين الدول النامية كما في الجدول

جدول (1)

اختلاف آليات التقدم التكنولوجي داخل كل من الدول النامية والمتقدمة

عناصر المقارنة	الدول المتقدمة	الدول النامية
أسباب السعي إلى تحقيق التقدم التكنولوجي	تحقيق الريادة التكنولوجية وزيادة معدلات النمو الاقتصادي	تلبية الاحتياجات الأساسية لتحقيق النمو الاقتصادي داخل الدولة
سبل تحقيق التقدم التكنولوجي	القيام بالابتكارات التكنولوجية وأنشطة البحث والتطوير في المجالات العلمية والتطبيقية معاً <sup>(1)</sup>	عن طريق نقل أو تقليد التكنولوجيا الواردة من الدول المتقدمة وتوطينها داخل الدولة
مصادر التقدم التكنولوجي بالدولة	الشركات والمؤسسات الكبرى التي تقوم بأنشطة البحث والتطوير المختلفة	المؤسسات والشركات القادرة على استيراد أو تقليد التكنولوجيا الحديثة من الدول المتقدمة
توافر الموارد اللازمة لتحقيق التقدم التكنولوجي	ارتفاع حجم الموارد المادية والبشرية التي توجهها الدولة لتحقيق التقدم التكنولوجي	انخفاض حجم الموارد المادية والبشرية اللازمة لتحقيق التقدم التكنولوجي، وارتباطها بالوضع الاقتصادي والسياسات المتبعة داخل كل دولة
بيئة العمل المؤثرة على التقدم التكنولوجي	تتوافر نظم قوية لتنظيم وحماية عملية الابتكارات التكنولوجية	تفتقر معظمها إلى النظم والمؤسسات المحفزة للابتكارات

المصدر: سويراهايماننا (2004).

تعد الامكانات التكنولوجية المتاحة داخل الدولة الركيزة الاساسية التي يتم الاعتماد عليها لتحديث تطوير التكنولوجيا السائدة في الاقتصاد، وضع السياسات والاستراتيجيات التي تحتاج إليها كل دولة لتحقيق التراكم فيها. هناك إتجاهان لقياس الامكانات التكنولوجية: الأول قياسها على المستوى الكلي للدولة والثاني على مستوى الشركات

الصناعية، تحديد العوامل المؤثرة على القدرة على الامتصاص، التطويع وتوجيه الإستثمارات إلى أنشطة البحث والتطوير. على حسب التصنيف تم تقسيم الدول (2001) وفقاً لمؤشر الانجاز التكنولوجي إلى اربعة: دول قائدة، دول محتملة ان تصبح قائدة، دول متبينة للتكنولوجيا بصورة متسارعة (الصين، الهند، البرازيل ومصر) والدول المهمشة تكنولوجيا (السودان في هذه المجموعة)<sup>333</sup>.

### القيمة المضافة والتميز المقارن للموارد البشرية

لا تعتبر الموارد البشرية كفاءة اساسية في ذاتها، كما هي حال كل الموارد، الا إذا كانت جزءاً من عملية تنمية شاملة تستوعبها وتطورها. ولا يعتبر التعليم كفاءة اساسية مجرداً، اذا لم تساهم في تغيير حقيقي في حياة الافراد والمجتمعات. فقد اثبتت تجارب الآخرين أن الرؤية هي التي تحدد مجالات الإستثمار في التنمية البشرية في توجهها واطارات عملها.

لقد كان السودان رائداً في التعليم منذ قرون عديدة وتطور التعليم الحديث فيه على مدى قرن كامل، وحقق إنجازات عديدة ونجاحات. لم تؤد هذه الريادة إلى انطلاق السودان إلى التطور المنشود، لأنها ببساطة لم ترتبط برؤية واضحة. أن لدى السودان عدد مقدر من أبنائه ينالون فرص الدراسة حتى الثانوية، وعدد غير قليل من الجامعات السودانية في 117 مؤسسة وكلية. إن السودان يخرج 4 الاف طبيب سنوياً من حوالي 31 كلية طب في انحاء السودان.

كان بديهياً أن توجه مدخلات ومخرجات التعليم إلى الكفاءة الدائمة- الثروة الزراعية والحيوانية- التي كانت تمثل أكثر من 50% مدخول الدولة، وقد كان التعبير الاوفق أن تتوجه الدولة إلى التعليم الفني والتقني ولكن على طول مسار الدولة لم تخرج هذه من اطار الالتزامات العامة ولم تصل للسياسات. وقد كانت ثورة التعليم العالي التعبير الأكثر وضوحاً في هذا التناقض، فقد انتشرت الجامعات الجديدة بامكانيات ضئيلة وبدأت في تخريج الالاف من الكليات النظرية التي لا تحتاج سوي الاساتذة والكتب،

---

<sup>333</sup> المعهد العربي للتخطيط بالكويت: الامكانيات التكنولوجية والنمو الاقتصادي، سلسلة جسر التنمية، مرجع سابق

كما تم التوسع في التعليم الثانوي الأكاديمي الذي أيضاً لا يحتاج سوى لمبان صغيرة من عدة غرف (في ظل غياب البيئة المدرسية المناسبة التي تسمح بالأنشطة خارج الفصلية وغيرها). إن التفسير سهل في تعقب هذا السلوك المستمر في السودان عبر عقود طويلة.

إن الدولة رغم موافقاتها على كل الشعارات الفضفاضة في المواثيق الدولية مثل ما جاء في إطار عمل دكا، التعليم للجميع عام 2000 لا تتفق مع جوهرها في إستراتيجياتها. ولو أخذنا دولة الإنقاذ سنجد أن الانفاق واتجاه التنمية سواء في القوى البشرية، مرتبط بجوهر إستراتيجية الدولة تماماً وهي حراسة الدولة وتأمين وجودها، أن هذا يستدعي تكثيف الانفاق على الأجهزة التي تحقق لها ذلك (70% من الانفاق يذهب للأجهزة الأمنية المختلفة). جوهر إستراتيجية الدولة هو الذي يحدد توجه الدولة ومجالات اهتماماتها وليس الشعارات، الاتفاقيات الدولية أو غيرها. سوف نرى ذلك بوضوح في تجربة ماليزيا.

### ماذا فعل الآخرون: ماليزيا والتعليم

تكاد مسيرة ماليزيا تشابه مسيرة السودان في التعليم. فقد أُسْتُهْدَف الاستعمار الإنجليزي، نشر الثقافة الإنجليزية وإعداد فئة من المواطنين يدينون بالولاء لهم ومن أجل ذلك قاموا بإنشاء عدد من المدارس في مختلف الولايات وشجعوا أفراد الشعب على الالتحاق بها على اعتبار أن من سيلتحق بها سيتولى أعلى المناصب في البلاد<sup>334</sup>.

لم يكن تحقيق ماليزيا لنمو إقتصادي مطرد إلا انعكاساً واضحاً لإستثمارها للبشر، فقد نجحت في تأسيس نظام تعليمي قوي ساعدها على تلبية الحاجة من قوة العمل الماهرة. كما ساهم هذا النظام بفعالية في عملية التحول الإقتصادي من قطاع تقليدي زراعي إلي قطاع صناعي حديث، ويوظف التعليم اليوم كأداة حاسمة لبلوغ مرحلة الاقتصاد المعرفي القائم على تقنية المعلومات والاتصالات. يمكن رصد أهم السياسات التعليمية

<sup>334</sup> محمد شريف بشير: التجربة الماليزية في مجال التنمية البشرية ومقومات نجاحها، [www.kantakji.com/fiqh/Files/Manage/840.pdf](http://www.kantakji.com/fiqh/Files/Manage/840.pdf) -

التي انتهجتها الحكومة الماليزية، وتكلفتها الإقتصادية والنتائج المثمرة التي حققتها هذه السياسات على مدى العقود الماضية فيما يلي:

التزمت الحكومة بمجانية التعليم الأساسي، وبلغ دعم الحكومة الاتحادية لقطاع التعليم ما يصل في المتوسط إلى 20.4% سنوياً من الميزانية العامة للدولة، بينما زادت النفقات العامة على التعليم كنسبة من الناتج القومي الإجمالي من 2.9% عام 1960 إلى 5.3% عام 1995 م. من ثمار هذا الإستثمار السخي، أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة وصل في العام 2000 حوالي 93.8% من جملة السكان مقارنة 53% عام 1970، وأن حوالي 99% من الأطفال الذين بلغوا العاشرة من أعمارهم قد قيدت أسمائهم بالمدارس، و92% من طلاب المدارس الابتدائية انتقلوا إلى الدراسة في المراحل الثانوية. ويعاقب القانون الماليزي اليوم الآباء الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس.

كانت اتجاهات التعليم في ماليزيا موجهة للتقليل من الفقر، إيماناً منها أن التنمية البشرية تعتمد أساساً على تحسين الوضعية المعيشية للأفراد ولهذا قامت برمجة مجموعة من المخططات التنموية التي وفقت فيها إلى حد بعيد. وتقوم فلسفة تنمية الأفراد في ماليزيا على فكرة أن "التنمية البشرية تقود إلى المساواة في الدخل"، وعليه فإن مكاسب التطور الإقتصادي، يجب أن تنعكس إيجابياً على المواطنين في تحسين نوعية حياتهم بما يشمل توفير الضروريات من الغذاء، العلاج، التعليم والأمن، وأن يكون أول المستفيدين من هذا النمو الإقتصادي هم الفقراء، العاطلون عن العمل، المرضى والمجموعات العرقية الأكثر فقراً في المجتمع والأقاليم الأقل نمواً.

اهتمت الحكومة بالتعليم فيما قبل المدرسة، الذي يشمل الأطفال بين سن الخامسة والسادسة ويراعي النظام التعليمي تعدد الأعراق في البلاد. تم تطوير مفهوم المدرسة الذكية لتساعد البلاد على الدخول في عصر المعلومات وإتاحة نوعية التعليم الملائمة للبلاد في مستقبل أيامها. تنفذ عملية التدريس والتعليم وفقاً لحاجات الطلاب وقدراتهم ومستوياتهم الدراسية المختلفة. ويشارك المعلمون وأولياء أمور الطلاب مع الطلاب أنفسهم في اختيار البرامج الدراسية، ويشاركون معهم في تنفيذ بعض الأنشطة المدرسية المهمة، كالخروج في رحلات دراسية.

تم توظيف التعليم الجامعي لخدمة الاقتصاد، لذلك تضع الحكومة الأجهزة والبرامج الحديثة لتطوير التعليم العالي والجامعي، بينما تحاول كل الجامعات أن تتبع المعايير العالمية في التدريس، نظم الدراسة ، تحديد التخصصات والمناهج الدراسية، وتشجع العلاقات والروابط بين الجامعات المحلية والجامعات العالمية الشهيرة والمماثلة لاكتساب الخبرة والتجربة والتطوير. للربط بين التعليم وأنشطة البحوث، قامت الحكومة بتأسيس قاعدة ممتدة لشبكة المعلومات في المؤسسات الجامعية، وإمدادها بموارد المعرفة والبنية التحتية الأساسية في هذا الصدد. تم الانفتاح على النظم التعليمية المتطورة: من النظم الغربية البريطانية والأمريكية والتوسع في استعمال اللغة الإنجليزية كلغة للتعليم. يلعب القطاع الخاص دوراً أساسياً مع التركيز على جودة التعليم، اتباع المعايير العالمية من ناحية المناهج والتخصصات العلمية، مع وجود بعض فروع جامعات أستراليا ونيوزيلندا وبريطانيا.

القضايا المرتبطة بالتعليم، إذن، ترتبط بشكل حاسم مع الرؤية والكفاءات الأساسية التي ستركز عليها. الرؤية ليست شعارات لكن تستند إلى أرضية صلبة من الاقتصاد وتوجهة. إن اختيار الموارد الزراعية والحيوانية والتركيز على الصناعات المرتبطة بها سوف يستدعي بالضرورة تحولات هائلة في العملية التعليمية. التحول من الدراسات الأكاديمية الغير مطلوبة في سوق العمل سوف تسرع بإنشاء المعاهد الفنية والتقنية، ليس لأن الدراسات اوصت بها ولكن لأنها سوف تدعم هذا القطاع الذي توجه له الامكانيات.

إن المدخل هو النظر في التدخلات المناسبة والتي تقود إلى احياء موات البرنامج الوطني لمحو الأمية، التوسع التفضيلي في بعض المناطق المهمشة، اعادة الحياة لتوفير الداخليات بمدارس الارياف والرحل في مواقع الإستقرار عبر المسارات مع التغذية والدعم، تعليم بنات الارياف والرحل، قيام فصول تكميلية بمواقع إستقرار شبه الرحل لإستيعاب التلاميذ لما بعد الصف الرابع والنظر في كيفية إلحاق أبناء الرحل بالمرحلة الثانوية وضمان إستمراريتهم بمراحل التعليم العليا وذلك لخصوصية مجتمع الرحل... وغيرها<sup>335</sup>.

<sup>335</sup> واقع ومستقبل تعليم الرحل: إدارة تعليم الرحل: وزارة التربية والتعليم العام، مرجع سابق



إن وجود الثروة الحقيقية (ساهم القطاع الزراعي بنسبة 44 % في الناتج المحلي الاجمالي للعام 2008 م وكان نصيب قطاع الثروة الحيوانية من هذه المساهمة 17%) في وسط الزراع التقليديين الذين لازالوا يستعملون نفس تقنيات الممالك النوبية او في احسن الاحوال تقنيات القرن الثامن عشر، الرعاة الذي يهيمنون في بوادي السودان يعيشون على قليل لبن ولحم والتقاط بعض منتجات الطبيعة، سوف يدفع الدوله إلي التسريع بجلبهم إلي القرن الحادي والعشرين لاستيعاب التكنولوجيات الحديثة المطلوبة للنهوض الوطني. هذا مع التوجه الإستراتيجي الذي سيحكم الرؤية في أن "التنمية البشرية تقود إلي المساواة في الدخل".

إن الدعوة النبيلة للكاتب والباحث السوداني عبد العزيز الصاوي في ورقته المميزة التي طرحها مؤخراً "نحو إستراتيجية جديدة للمعارضة في السودان" إلي ضرورة استزراع مقومات الحداثة والاستنارة، من أجل إعادة تأسيس المشروع الديمقراطي والتي ركز فيهما على عنصرين أساسيين هما: إصلاح المنظومة التعليمية، وتفعيل دور المجتمع المدني، لينجح مشروع الديمقراطية والاستنارة في السودان، لأنه بحسب تعبيره "لا ديمقراطية بلا ديمقراطيين، ولا ديمقراطيين بلا استنارة".

إن هذه العملية رهينة بربط العملية التعليمية بما ستحققه من رفاه إقتصادي. اما العنصر الثاني الذي اشار اليه "تفعيل دور المجتمع المدني" فسوف تحققه تحول القطاع الزراعي إلي قوة منتجة، تكون منظماتها للدفاع عن حقوقها، تعاونيات لبناء مراكز للتخزين او التسمين (كما كانت جمعية السكوت والمحس زمان كانوا منتجين للبلح، القمح والفل)، روابط لتنظيم الابار والمسارات وحل النزاعات والتسويق... الخ<sup>336</sup>.

صاغ الدكتور محي الدين صابر الذي تولى إدارة الجهاز العربي لمحو الأمية نظرية لتفسير ظاهرة الأمية. ورأي أن الأمية نوعان: أمية حضارية تشمل المجتمع كله، وأمية الأبجدية وتقتصر على أفراد المجتمع، والصله بينهما وثيقة، فلا تكون الأمية الأبجدية إلا حيث تكون الأمية الحضارية التي هي التخلّف بعينه. للتغلب على ظاهرة

<sup>336</sup> فيصل محمد صالح: برنامج وطني لمحو الأمية، <http://alrakoba.net/articles-action-show-id-2000.htm>

الأمية في مجتمع ما، لا بد من مواجهة شاملة للتخلف لوصله بالتحديث والمعاصرة. وقد انتهجت كثير من الدول فكرة إقامة فصول محو الأمية على مثال المدرسة التقليدية، وتقوم أحياناً بحملات موسمية محدودة لمحو الأمية لا تسفر عن نتائج محسوسة<sup>337</sup>.

لم تقم أي دولة في العالم بالنجاح في محو الأمية تطبيقاً لمواثيق أو اقتناعاً بشعار، التي استطاعت، فعلت لأنها وجدت أن عائد الإستثمار في محو أمية سكانها سوف يكون لها عائدها الإقتصادي، الإجتماعي والسياسي. القضية الأخرى التي لم يشر إليها الدكتور محي الدين صابر أن محو الأمية ليس مرتبطاً باللغة التعليمية السائدة (العربية) ولكن يمكن ان تتم عبر اللغات المحلية.

### تقنية التعليم الإلكتروني

**التعليم عن بعد يمكن تعريفه:** على أنه تلك السياسات التربوية التي تهتم بتقديم الخبرات التربوية بطريقة أكثر مرونة مقارنة بالتعليم التقليدي، أي أن هذا التعليم يهتم بتقديم خدمة تعليمية لطلاب العلم وفق ظروفهم ولا يتطلب الأمر تفرغهم التام والكامل للدراسة. أما التعليم عن بعد Distance Education فيقصد به تلك الطريقة أو الكيفية التي يتم عن طريقها توصيل رساله المتعلم في محتويات البرامج التعليمية لطالب التعليم المفتوح. وهو الطريقة الوحيدة التي تمكن المتعلمين من الانخراط في البرامج التعليمية بمرونة وحرية.

تقنية المعلومات والاتصالات في مجال التعليم هو بوابة الدخول لحل قضايا ومشاكل التعليم المتراكمة. إن هذا سوف يغير كل عناصر العملية التعليمية من الدور التقليدي الذي يقوم به المدرس من اعطاء المعلومات إلي دور المرشد والموجه للطلاب الذين تصبح مهامهم البحث المباشر عن المعلومات، إدارة الحوار وحلقات النقاش التعليمية.. الخ. أهم أنواع التقنيات المستخدمة في التعليم الإلكتروني: شبكة الإنترنت، مؤتمرات الحاسب، مؤتمرات الفيديو، المؤتمرات الصوتية، أسطوانات الفيديو المدمجة، منتديات

---

<sup>337</sup>د. علي محافظة: العرب وتحديات القرن الحادي والعشرين «9» التحديات الاجتماعية: الأمية\*، جريدة الدستور الاردنية، مرجع سابق

الفيديو والفيديو المتفاعل، البريد الإلكتروني وشبكات القنوات الفضائية العامة والخاصة.

سوف تساهم تقنية المعلومات والاتصالات في مجال التعليم في حل البيئة المدرسية التي تعاني من مشكلات الأماكن، الاكتظاظ، البعد المكاني، سوء المعامل وفقرها. أخيراً فإن المناهج سوف تخضع لتغييرات جوهرية أساسها تشجيع البحث الأكاديمي للطلاب، اكتساب المهارات الحياتية، التفكير الإبداعي، المرونة وتربية الطالب على التعليم المستمر<sup>338</sup>.

### مكونات العملية التعليمية: المنهج

كان الهدف من العملية التعليمية أيام الاستعمار واضحاً، في استغلال السودان لتزويدهم بالمنتجات الخام أو شبه الخام. عند رحيل الاستعمار تواصلت رؤية في العهد الوطني واستمر حتى حدث ما وصفه "التقرير الوطني للإنقاذ لتطور التعليم في السودان" عن المناهج: إنها غامضة، متسمة بالشمولية، بعيدة عن المعتقدات الدينية، القيم المرتكزة على عقيدة غالبية السكان وحاجات وتطلعات المجتمع السوداني مما أنتج مناهج ضعيفة، مترهلة ومفككة، يلحظ فيها انفصال واضح بين محتوياتها والمرتكزات العقائدية، والبناء الحضاري والتراث الثقافي والإجتماعي لأهل السودان<sup>339</sup>.

فماذا كان البديل الذي قدمته الإنقاذ "عقد مؤتمر سياسات التعليم 1990 ووضعت غايات التربية السودانية: أولاً: غرس العقيدة والأخلاق الدينية في النشء، ثانياً: رياضة عقول النشء وتثقيفهم بالعلوم والخبرات، وتربية أجسامهم بالتمارين وتزكية نفوسهم بالأعراف والآداب... ثالثاً: تقوية روح الجماعة والولاء للوطن، وتنمية الاستعداد للتعاون والشعور بالواجب والبذل للصالح العام، ... رابعاً: بناء

<sup>338</sup> د/ العجب محمد العجب إسماعيل: دور تقنية التعليم الإلكتروني في تحقيق أهداف التعليم المفتوح، قسم تقنيات التعليم، كلية التربية، جامعة الخرطوم، 2003/4/23-21م، <http://www.google.com.eg>

<sup>339</sup> تطور التعليم في السودان، التقرير الوطني، تقرير مقدم إلى المركز العالمي للتعليم، جنيف، [http://www.ibe.unesco.org/National\\_Reports/ICE\\_2008/sudan\\_NR08\\_ara.pdf](http://www.ibe.unesco.org/National_Reports/ICE_2008/sudan_NR08_ara.pdf) ، 2008

العناصر الصالحة لمجتمع الاستقلال والتوكل على الله .... وإشاعة الطموح إلي مثال حضاري رسالي رائد. خامساً: تشجيع الإبداع وتنمية القدرات والمهارات... وأخيراً: تنمية الوعي البيئي لدى الناشئة"<sup>340</sup>.

لنناظر بعناية للهدف التربوي للمناهج الإنفاذي، يلاحظ فوراً التجريد الشديد في الاهداف والنفي الكامل لأي تنوع في المجتمع، باختصار كانت الاهداف التربوية لتنظيم الجبهة الإسلامية القومية في مدارس كادرها. أن التوجه الإستراتيجي في تطوير الوطن (لم يكن المشروع الحضاري قد ظهر للعيان بعد لانه لم يكن هناك مشروع اصلاً غير الاستيلاء على الوطن) التي تبني عليها الاهداف، ومن ثم التوسع في التعليم، مصممة ليست لتطور انتاجي، متنوع وتحديثي ولكن لاختطاف الوطن عبر آليات الرأسمالية الطفيلية. لقد وجه نقد من جميع الاتجاهات للمناهج التي تغيرت وتبدلت طوال الإنقاذ وفقدت أي بوصلة توصلها إلي مشروع بناء الوطن.

إن المناهج سوف تبني على تفعيل قيم التنوع الثقافي، الإجتماعي والإقتصادي وترتبط باتجاهات التنمية. هذا هو جوهر التنمية البشرية كما عرفها برنامج الأمم المتحدة للتنمية البشرية في تقريره العالمي الصادر سنة 1990 على: "الخيارات الأساسية الثلاثة، على جميع مستويات التنمية البشرية، هي أن يعيش الأفراد حياة مديدة وصحية، وأن يكتسبوا معرفة وأن يحصلوا على الموارد اللازمة لمستوى معيشة لائقة، ولكن التنمية البشرية لا تنتهي عند ذلك... فالخيارات الإضافية تتراوح من الحرية السياسية والإقتصادية والإجتماعية إلي التمتع بفرص الإبداع والإنتاج والتمتع بالاحترام الذاتي الشخصي وبحقوق الإنسان المكفولة"، وبالتالي فهدف التنمية يركز على تكوين بيئة ملائمة لحياة مديدة وصحية وقائمة على الإبداع.

### مكونات العملية التعليمية: المعلم والطالب والبيئة المدرسية

المعلم والطالب والبيئة المدرسية تعكس الحالة الإجتماعية والإقتصادية للمجتمع ولن تتطور العملية التعليمية بمجرد إصلاح التعليم. الكفاءة الاساسية للتعليم مرتبطة بعملية التنمية الشاملة، محاربة الفقر ورفع المستوى المعيشي للمعلمين. للسودانيين خبرات

340 <http://www.nccer.edu.sd/rscmarticle.html?rscmid=111>

عميقة وعظيمة في التعليم وتوفير بيئة دراسية تليق بالعملية التعليمية واهدافها. غالبية مدارسنا اصبحت مخازناً للطلاب في اجار كل هدفها حشو العقول الصغيرة في ساعات محددة. المدارس السودانية عامها وخاصها جريمة في حق مستقبل السودان وتحتاج للعودة للمدارس الراقية التي تلبي حاجات الطالب الدراسية والانشطة خارج الصفية. أي رؤية لا تعيد النظر في المناهج، كفاءة وكفاية المعلمين وشروط البيئة المدرسية حرث في البحر.

### **تنمية الموارد البشرية**

تزايد الإدراك عالمياً في السنوات الماضية لمحورية الموارد البشرية كواحدة من الأعمدة الأساسية لمجموعة النظم التي تشكل الوظيفة الكلية للدولة، ولقد أثبتت الدراسات في مجال الخدمات مثلاً، أن مؤشرات التقدم والرفاه تتناسب طردياً مع أعداد الموارد البشرية العامله في الخدمات ذات الصله، مثل الرعاية الصحية. إن تقدماً ملموساً أمكن إحداثه في محاور التنمية الوطنية عبر الاهتمام بتنمية الموارد البشرية بشكل منهجي وتجدر الإشارة هنا إلي دول مثل كوريا وماليزيا كتجارب رائدة لبلدان نامية.

### **القيمة المضافة والتميز المقارن للتكنولوجيا**

عند النظر للتميز المقارن للتكنولوجيا، ننظر له من ماهو مرتجى كمعطي تأريخي واشراقات في بعض المؤسسات التي تتبع افضل إستثمارات التكنولوجيا. ان لدينا تجربة ثرية مع مشروع الجزيرة، مشروع سكر كنانة، وكثير من الصناعات السودانية التي ابتدراها الرأسماليون السودانيون، شركات الاتصالات والبتترول..الخ. جاء في تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2003: نحو بناء مجتمع المعرفة ان رؤية هذا المجتمع يقوم على أركان خمسة:

**الركن الأول:** إطلاق حريات الرأي والتعبير والتنظيم، وضمانها بالحكم الصالح، لتطلق حريات أخرى تتضافر معها لتغذية روح البحث العلمي والتقدم التقاني.

**الركن الثاني:** التعليم الشامل راقى النوعية، الذي يولي عناية خاصة بطرفي المُتصل

التعليمي، ويُعنى بتطوير التعلّم مدى الحياة.

**الركن الثالث:** توطين العلم وتعميم البحث والتطوير التقاني في جميع النشاطات المجتمعية، واللاحق بعصر المعلومات. إن الدول الصناعية المتقدمة تنفق ما نسبته 2.5 - 3% من ناتجها القومي الإجمالي على البحث العلمي كما في اليابان، الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. بينما لا تزيد نسبة ما تخصصه البلدان العربية مجتمعة للبحث العلمي عن 1% من متوسط ناتجها القومي الإجمالي، علماً أن هذا المبلغ على ضآلته يدفع غالبية كرواتب<sup>341</sup>.

**الركن الرابع:** بناء نمط إنتاج المعرفة في البنية الاجتماعية والاقتصادية العربية. فالنمط الإنتاجي السائد ريعي، يقوم على استنزاف الموارد الطبيعية. كما يستصحب معه أنساقاً من التوزيع الدخلي، والإنفاق الاستهلاكي، والسلوك الاجتماعي، مما يوجه مسار التنمية بعيداً عن أهداف قيام الاقتصاد المبني على المعرفة.

**الركن الخامس:** تأسيس نموذج معرفي وطني أصيل، ومنفتح ومستنير. فأول ما ينبغي في تأسيس النموذج المعرفي تفعيل فقه الاجتهاد، وصون حق الاختلاف.

---

<sup>341</sup> الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني: دور منظمات المجتمع المدني في خلق مجتمع المعرفة، [http://ahmedkordy.blogspot.com/2011/07/blog-post\\_18.html](http://ahmedkordy.blogspot.com/2011/07/blog-post_18.html)

## الفصل السابع: الكفاءات الأساسية: التنوع البيئي

عندما نضع التنوع البيئي ككفاءة أساسية نعالجها من اعتبارها تحدياً كبيراً يمكن أن يكون حاسماً في تطوير الكفاءات الأساسية الأخرى خاصة الموارد الطبيعية. فإذا تعاملنا في هذا المجال بشكل إيجابي يمكن أن تعظم النواتج من الموارد الطبيعية، وتصبح هي نفسها مصدراً للتنمية والثروة. إن التحدي في هذا المجال أصبح هائلاً لدرجة أن تأثيرها أصبح واضحاً في كل مناحي حياتنا وواقعاً نراه بأم العين في كل مكان.

إن نظرة للعناوين التي نجدها يومياً في وسائل الاعلام المتنوعة ترينا حجم المشكله من هاجس زحف الصحراء في شرق السودان: "أصبح زحف الصحراء يشكل هاجساً كبيراً لبعض سكان شرق السودان. فقد التهم هذا الزحف الصحراوي ثلاثين في المئة من دلتا نهر طوكر وهي إحدى أخصب المناطق الزراعية في السودان. وبدأ هذا الزحف يأتي على الطريق القومي الرابط بين مدينة بورتسودان على البحر الأحمر وبقية أواسط البلاد.... وأصبح يقضى على حياة بكاملها في بعض اجزاء ولايات شرق السودان"<sup>342</sup>.

وتقول سعاد محمد صالح من قرية البركل على الضفة الشرقية للنيل بالولاية الشمالية، وهي تقتلع بصعوبة قدميها من الرمال الكثيفة في كل خطوة تخطوها "إن الرمال قد تجمعت خلف أسوار البيوت في طرف القرية حتى صارت في مستوى السقف تماماً، ويمكنك أن ترى من الطريق وبسهولة ما بداخل هذه المنازل...تضيف أنها تخشى أن تندثر هذه القرية عما قريب وتصير أطلالا إذا ما لم يتوفر حل لهذا الزحف الدءوب، خاصة أن أقدم مدرسة ابتدائية بالقرية قد حاصرتها الرمال من جميع الجوانب؛ مما

<sup>342</sup> هاجس زحف الصحراء في شرق السودان <http://www.aljazeera.net/reportsDP/pages/4b551c82-ad5f-46b9-a52e-689daa9db4d8>

استدعى أن تغلق أجزاء كبيرة منها، ويعاد تخطيطها من جديد"<sup>343</sup>.

أهل دنقلا وسكان الولاية الشمالية عموماً مهددون بفقدان أحد تلك المقومات بالرغم من وقوع مناطقهم على مرمى حجر من مجرى أعظم نهر يجري على البسيطة، وذلك بفعل الزحف الصحراوي الذي يهدد بالتهام الأرض<sup>344</sup>.

للسودان مناخات متباينة تبعا لتباين كميات الأمطار، توزيعها، تفاوت الغطاء النباتي وتنوع التربة، حيث تمتد من المنطقة الصحراوية، وبها غطاء نباتي شحيح وتنسم بتقلبات الأمطار مما يعرضها لموجات من الجفاف والتصحر، وتصلح لرعي القطعان المتحركة، منطقة السافانا خفيفة الأمطار بالأراضي الرملية، يتكون غطاءها النباتي من النباتات الرعوية الحولية، المعمرة وبعض أشجار الأكيشيا تسود فيها الزراعة التقليدية المطرية، منطقة السافانا متوسطة الأمطار بالأراضي الطينية تتفاوت الأمطار فيها بين 400-880 ملم تمارس فيها الزراعة المطرية الآلية، الزراعة التقليدية والانتاج الغابي (الصمغ العربي) وتوجد فيها المشاريع المروية الكبرى وتستغل مساحات كبيرة للمرعي الصيفي.

توجد أيضاً مناطق بيئية متميزة تشمل جبل مرة التي تقع على ارتفاع 1000 متر فوق سطح البحر، وتقدر مساحتها بحوالي 29 ألف كيلومتر مربع. وتتراوح كمية الأمطار فيها بين 600 - 1000 ملمتر سنوياً. ويسودها مناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يتميز بشتاء بارد ممطر مما يجعلها تصلح لزراعة محاصيل لا تصلح زراعتها في مناطق السودان الأخرى مثل الفراولة والتفاح، كما تمارس فيها الرعي والزراعة الآلية على نطاق ضيق وكذلك زراعة الغابات.

أراضي جبال النوبة وتتكون من عدة تلال متقطعة منحدرية، تتوسط أراض سهلية طينية وتقدر مساحتها بحوالي 65 ألف كيلومتر مربع وتصلح للإنتاج الزراعي الآلي والرعي. الأراضي الساحلية وتقع محاذية للشريط الساحلي على البحر الأحمر وتقدر مساحتها بحوالي 68 كيلومتر مربع. وتتكون من سهول وسلسله تلال وتسودها

<sup>343</sup> إشراقة عباس: وما زال الأصفر يتمدد على الأخضر بخريطة السودان، الاثنين، 27 ديسمبر 2010، <http://www.onislam.net/arabic/health-a-science/environment/127388-2010-12-27-13-33-58.html>

<sup>344</sup> نسرین حسین: الشمالية بين مطرقة الهدام وسندان الزحف الصحراوي، <http://www.alsahafa.sd/details.php?articleid=15402>



الأمطار الشتوية وتستغل في رعي المواشي.

### التوسع الزراعي المطري الآلي

انتشرت الزراعة المطرية الآلية في السهول الطينية الوسطى في أراضي غابات بكر، من الطلح والهشاب وغيرها تحت ظروف الأمطار التي لا تقل عن 450 ملمتراً وهو المقدار الأدنى الذي يفي لأغراض إنتاج المحاصيل. وكانت لطبيعية الأراضي المنبسطة وخصوبة التربة أن جعلتها مثالية باستخدام الآله في الحرث، تحضير الأرض في الزراعة والحصاد. بدأت الزراعة المطرية الآلية في القديلية عام 1940 لتمارس تحت نظام دورة زراعية وفترة بور ومن ثم انتشرت في السهول الطينية في منطقة القصارف، النيل الأزرق، النيل الأبيض، جنوب كردفان وأعلى النيل.

لم تلتزم الزراعة المطرية الآلية بالدورة الزراعية، بل كانت الزراعة تتواصل في نفس الأرض، حتى تجهد التربة ويتدنى الإنتاج وتبدأ الزراعة في التوسع إلى أراضي جديدة من الغابات البكر. في هذا المضمار فإن إنتاجية الفدان في القصارف تدنت من في خلال الفترة 1970-1975 تدنت إنتاجية الفدان من 476 إلى 219 كيلوجراماً في هبلا ومن 525 إلى 136 في الدمازين.

في مستهل السبعينات رفع نظام مايو شعار "السودان سله غذاء العالم" فارتفعت المساحة المزروعة إلى 3 ملايين فداناً، وظلت على ذلك المستوى حتى نهاية السبعينات، ومن ثم تضاعفت إلى 6 ملايين عام 1981 ثم إلى 10 ملايين فدان عام 1985. كان ذلك هو تطور الزراعة المطرية الآلية والتي توصف بأنها "داخل التخطيط" أي حسب تخطيط وإشراف الدولة وذلك للتفريق بينها وبين زراعة مطرية وآلية أيضاً نمت وتطورت عشوائياً بمجهود الأفراد القادرين على التمويل وسميت "الزراعة خارج التخطيط".

لم تلتزم هذه الزراعة بالموصفات التي وضعتها الدولة، من ناحية كفاية الأمطار أي 450 ملمتر وأكثر والأرض المنبسطة والتربة المعروفة الخواص الصالحة للزراعة، وأخذت في الانتشار في أراضي هامشية دون المقدار المناسب من الأمطار وغير منبسطة، مما يعرضها للتعرية مع استخدام الآله كما أنها أراضي مرعى تقليدية

لقطعان البدو.

قد يتبادر إلى الذهن بأن التوسع في الزراعة المطرية الآلية، إنما يجئ استجابة للطلب المتزايد بسبب الزيادات السكانية، حاجتها للغذاء أو سعياً لزيادة الإنتاج لمقابله متطلبات التصدير والعملات الحرة. إلا أن الزيادة في المساحات المزروعة لم تنعكس إيجاباً في زيادة في الإنتاج بل بالعكس فقد واکبها تدني في الإنتاج. ويعلل تدني الإنتاج لمشاكل التمويل وعدم الالتزام بالدورة الزراعية.

الزراعة في السودان ضعيفة الإنتاجية، مما يضعها في أدنى قائمة الدول الأقل نمواً بسبب القصور في الخدمات الزراعية مثل البحوث، الإرشاد وضعف استخدام المدخلات الزراعية من أسمدة ومبيدات وخلافة. لهذا كانت الزراعة المطرية الآلية في سعيها للمحافظة علي نفس القدر من الإنتاج، دائمة التوسع أفقياً في الغابات البكر بعد هجرة الأراضي المتدهورة وبلغت في جملتها في أواخر القرن العشرين 36 مليوناً من الأفدنة.

### الرعي الجائر

يفيد تقرير البنك الدولي (1986) بأن الرعاة البدو يملكون 85% من القطيع القومي، ينتقل معظمها مع وفرة المياه والعشب من المناطق الشمالية الصحراوية وشبه الصحراوية إلى منطقة السافانا في حركة موسمية. المرعي مورد طبيعي متجدد مثل الغابات وموارد المياه له طاقة محدودة علي العطاء تسمى "حموله المرعي" وتحسب بعدد الوحدات الحيوانية في وحدة المساحة التي توفر لها العلف المستدام دون إضرار بالمورد. الرعي بأعداد حيوانات تفوق طاقة المرعي يسمى "رعياً جائراً" وهنا مكمّن الضرر.

فاقم من ضغوط الرعي الجائر، علي الغابات في منطقة السافانا قليلة الأمطار والغابات المغروسة علي النيل وروافده، التوسع الهائل في الزراعة المطرية الآلية الذي حرم الحيوان من المراعي التقليدية، وقفل مسارات الرعاة البدو إلي موارد المياه وبهذا تضاعفت أعداد الحيوانات في الغابات. وقد ساهمت موجات الجفاف خلال السبعينيات والثمانينيات في انعدام العلف مما اضطر الرعاة إلي عقر الأشجار.

## الحرائق

الحرائق ظاهرة موسمية تنتشر من بداية فصل الجفاف بمساعدة الرياح السائدة لتعم أواسط السودان في منطقة السافانا قليلة الأمطار. في هذه المنطقة متفرقة الأشجار، القش الطويل والكثيف يصبح شديد الاشتعال عندما ينشف مع توقف هطول الأمطار. السبب المباشر لمعظم الحرائق هو الإنسان، في مناشطه اليومية والموسمية في تلبية متطلباته الحياتية، ويسبب الرعاة والمزارعين 81% من جملة الحرائق في أواسط السودان. تسبب الحرائق خسائر مادية فادحة إذ تدمر الأشجار، الشجر النامي وتحولها إلي رماد، كما تبيد بادران التجديد الطبيعي وتحرق مخزون التربة من البذور كما تفقر التربة، إذ تحرق العناصر الغذائية العضوية وتحدث تغييرات سلبية في بنيتها وتكشفها للعناصر الجوية، عوامل التعرية وتخلق ظروفاً ملائمة لانتشار الحشرات والأمراض الفطرية. الحرائق مسئولة عن تدمير 30% من المراعي الطبيعية وتساعد في انتشار الأعشاب غير المستساغة.

## الجفاف والتصحر

جاءت اول اشارة عن التصحر في السودان في تقرير للكاتب أ. ب. استبنق عام 1932 حول زحف الصحراء في السودان أثناء دراسته لتدهور الغطاء النباتي، والآخر للجنة صيانة التربة العام 1944، والتي خلصت إلي أن تدهور التربة والتصحر يعود أساساً لسوء استخدام موارد الأرض، أكثر من كونه نتيجة لتغيير المناخ، وهذا هو التعليل الرئيسي إلي الوقت الراهن. اما المناخ وتقلباته فيعد عاملاً ثانياً في حدة التصحر. عندما اصدر ا. ب استبنق العام 1952 كتاب "زحف الصحراء في السودان ومناطق أخرى في إفريقيا"، علق عليه السيد عبد الله خليل (وزير الزراعة آنذاك) مؤكداً في ذلك الحين "أن خير البلاد يعتمد علي صيانة الموارد".

بعد زهاء الستين عاما على هذا الحدث، تأثر ثلثي السودان الشمالي بالتصحر من جراء العوامل الطبيعية التي أثرت على الغطاء النباتي من تناقص معدلات الأمطار إنجراف التربة، وإزالة الغابات والحشائش إضافة إلي العوامل البشرية وعلى رأسها استخدام الأراضي. تشير بيانات الهيئة القومية للغابات تشير في تقرير لها أن عام

2015 سيشهد زوال الغابات من السودان<sup>345</sup>.

غير العوامل المحلية فقد برزت ظاهرة الإحتباس الحراري، إذ أدى ارتفاع معدل الحرارة مؤخراً إلى تسخين الغلاف الجوي وأثر بدوره على حركة الرياح وبالتالي تغيير معدل الأمطار. وتستند تقديرات واتجاهات تدهور الأراضي على التفاعل بين عوامل مثل المناخ، التربة، الغطاء النباتي والأنشطة الحالية للبشر.

يمكن جمع الولايات المعنية المتأثرة بالتصحّر في ثلاثة مجموعات: المجموعة الأولى المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من السودان وتشمل ولايات الشمالية، نهر النيل وكسلا. المجموعة الثانية تضم ولايات القضايف، سنار، الجزيرة والنيل الأبيض. ينعم هذا الإقليم بقدر من الأمطار (100-500م) لذا كان التصحر فيها وسطاً، وكان لهذه المنطقة غطاء نباتي جيد. إلا أنها في الوقت الراهن تعاني من تدهور خطير وتشهد شمال الجزيرة والمناطق الغربية من النيل الأبيض زحفاً متقدماً من الكثبان الرملية.

المجموعة الثالثة شمال وغرب كردفان، شمال وغرب دارفور والتربة فيها عموماً رملية ونظراً لنفاذيتها الجيدة وسهولة التعامل معها، فقد استخدمت بشكل واسع في الزراعة المطرية التقليدية وتمثل هذه الولايات الموطن الرئيسي للرعاة الذين يهربون من الآفات والأمراض التي تصيب الحيوان في المناطق الطينية بالرحيل جنوباً في موسم الأمطار. يمكن تلخيص التأثيرات الرئيسية للتصحّر على الموارد الطبيعية في تدني إنتاجية الأراضي، عزوف الناس عن الزراعة، القصور في إنتاج الغذاء، الصراعات حول الموارد، تدني طاقات المراعي وتهديد الزحف الصحراوي لأراضي الحزام المنتج للصمغ العربي في كردفان وما يليها من عواقب على اقتصاد البلاد. يضاف إليها الهجرة من الريف إلى المدينة، تهديد الجفاف والتصحر لقطاع الري ومشاريع الزراعة المطرية الآلية والتقليدية وكل الأراضي الخصبة في البلاد<sup>346</sup>.

يرصد الصائم (1991) مظاهر الجفاف "لقد تعرضت مواسم هطول الأمطار في

<sup>345</sup> إشراقه عباس: السودان يفقد مليوناً و 250 ألف هكتار في بضع سنوات، العدد 3085 الأربعة عشر فبراير 2011، <http://www.alwasatnews.com/data/2011/3085/pdf/brh14.pdf>

<sup>346</sup> التصحر في-السودان، <http://www.bee2ah.com>

السودان لتغيرات مذهله ومخيفة.... لقد بدأ هطول الأمطار الموسمي في التدني منذ عام 1966 بهبوط الإيرادات في عام 1984 إلى 500 مليار متراً مكعباً مقارنة مع الإيرادات السابقة التي تفوق 1000 مليار متراً مكعباً في العام. إن العلاقة بين الغطاء الغابي والعوامل المؤدية للجفاف تؤكد دون شك بأن الأفعال الراهنة من قطع الأشجار ودمار الغابات ذات ارتباط وثيق بالجفاف الراهن الذي يجتاح المناطق المدارية في أفريقي<sup>347</sup>.

إن السمة المميزة لنمط هطول الأمطار في المناطق ذات المناخ الجاف هي التذبذب وعدم الانتظام – استبنق (1953) مما يدعم حديث الصائم (1991) عن بداية تدني هطول الأمطار من عام.

### الزحف الصحراوي وأثره في الأمن الغذائي وسلامة الأراضي

كان غطاء الغابات الطبيعية حتى منتصف القرن يغطي 59% من مساحة البلاد منها 40% منطقة السافانا و19% منطقة شبه الصحراء. تعتبر كردفان ودارفور من أكثر مناطق السودان تأثراً بالتصحّر والزحف الصحراوي بسبب تربتهما الرملية الأكثر قابلية للانجراف بالرياح مقارنة مع التربة الطينية. وتكشف مصادر منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (1993) بأن مساحة الغابات في السودان تقلصت من 47ر8 مليون هكتار عام 1980 ما يعادل 20% من المساحة الكلية للبلاد إلى 43 مليون هكتار عام 1990 بما يعادل 18%. وعند اختيار أكثر اثناً عشر دولة تدميراً لمواردها الغابية من دول العالم الثالث نجد السودان قد تبوأ المرتبة الثالثة.

تمت معالجات كثيرة لدرء آثار الجفاف والتصحّر من تثبيت الكثبان الرملية، إقامة الأحزمة الشجرية الواقية، مصدات الرياح من المجهودات الكبيرة من قبل إدارة الغابات خلال الحقب الزمنية المختلفة، بالتعاون مع الدول الصديقة من خلال مشاريع التنمية. بدأت الدولة تخطط للاستيلاء علي حزام الخرطوم الأخضر وفعلاً تم تخطيطه كخطة إسكانية سميت مدينة الأزهري، اما حزام الأبيض عام 1946 فقد امتدت إليه يد

<sup>347</sup> الهيئة القومية للغابات: تأريخ الغابات في السودان، <http://ar-ar.facebook.com/sepdil/posts/290268244359618>

التخريب في السبعينات في زمن الحكم الشعبي المحلي وابتلعت مدينة الأبيض وقسمت أراضيها كمباني سكنية ولم يبق منه إلا القليل.

في تقرير التقييم العالمي لحالة الموارد الحرجية لعام 1990-2010، جاء السودان ثالثاً في البلدان العشرة صاحبة أكبر خسارة صافية في المساحة الحرجية<sup>348</sup>. كان هذا مساراً طويلاً في تأريخ الغابات في السودان والذي لخصه تقرير واف وموثق في موقع الهيئة القومية للغابات<sup>349</sup>.

### السودان: التقييم البيئي لما بعد النزاع 2007<sup>350</sup>

بينما يركز السودان على إعادة التأهيل والتنمية، يواجه عدداً من التحديات الرئيسية، من أهمها قضايا بيئية مثل تدهور الأراضي، إزالة الغابات وتأثيرات تغير المناخ، تهدد آفاق السلام الدائم والأمن الغذائي والتنمية المستدامة. وإلى ذلك، ثمة علاقات بين المشكلات البيئية والنزاع الدائر في دارفور، حيث ما زال العنف وانعدام الأمن سائدين على رغم توقيع اتفاق سلام في أيار (مايو) 2006.

بدأ التقييم في أواخر 2005، وعملت منظمة الأمم المتحدة للبيئة (يونيبي) على نحو وثيق مع حكومة الوحدة الوطنية وحكومة جنوب السودان، وبذلت جهوداً خاصة لتنسيق أنشطته مع مبادرة حكومية تعرف بالخطة الوطنية للإدارة البيئية. يواجه البلد تحديات عديدة لتلبية الالتزامات الدولية كما تنص عليها المعاهدات والاتفاقيات التي وقعها على مدى الثلاثين عاماً الماضية. ورغم توافر المهارات التقنية والمعرفة في القطاع البيئي، ووجود بعض التشريعات ذات الصلة، فإن السلطات الإدارية تواجه مشكلات هيكلية حادة ولا تتمتع بالدعم والتجهيز اللازمين. حدد التقييم البيئي لما بعد النزاع عدداً من القضايا البيئية الحاسمة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحديات الاجتماعية والسياسية التي تواجه السودان. وفي ما يأتي أهم ما توصل إليه التقييم.

<sup>348</sup> منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة: تقرير التقييم العالمي لحالة الموارد الحرجية لعام 1990-2010 ، روما: 2010 ، [http://foris.fao.org/static/data/fra2010/FRA2010\\_Report\\_ar\\_web.pdf](http://foris.fao.org/static/data/fra2010/FRA2010_Report_ar_web.pdf)

<sup>349</sup> الهيئة القومية للغابات 2012: تطور مصلحة الغابات خلال الفترة (1902-2000)، <http://www.forest.sd/index.php/main/index/19/0/list>

<http://www.unep.org/sudan> 350

## البيئة والنزاع: أزمة دارفور

كان للنزاع الممتد لفترة طويلة تأثيراته الهامة على السودان. وتمثلت أشد العواقب غير المباشرة في نزوح السكان، ضعف التنظيم الإداري، سوء استغلال الموارد وقصور الإستثمار في التنمية المستدامة. من جهة أخرى، كانت القضايا البيئية ولا تزال عوامل لاثارة النزاع وادامته، خصوصاً نتيجة التنافس على احتياطات النفط والغاز ومياه النيل والخشب وأراضي الزراعة المطرية في المناطق الأكثر جفافاً.

يشير التحليل الذي أجراه (يونيب) إلى وجود ارتباط قوي بين تدهور الأراضي والتصحر والنزاع في دارفور. بوجود أكثر من خمسة ملايين نازح داخل البلد ولاجئ في دول الجوار حدث النزوح الداخلي بمعدل غير مسبوق منذ 2003، إذ تجاوز عدد النازحين 2,4 ملايين وجاء هذا النزوح الضخم للسكان مصحوباً بمعاناة بشرية وأضرار بيئية هائلة.

## التصحر وتغير المناخ الاقليمي

انتقلت الحدود بين المنطقة شبه الصحراوية والمنطقة الصحراوية بما يقدر بين 50 و200 كيلومتر في اتجاه الجنوب، منذ بدء تسجيلات هطول الأمطار والكساء النباتي في ثلاثينات القرن العشرين. ويتوقع أن يستمر هذا التحرك بسبب استمرار تناقص معدلات الهطول. وهناك خطر كبير لحدوث مزيد من التصحر يهدد بقية المناطق شبه الصحراوية وسهول السافانا الرملية القليلة الأمطار، التي تمثل 25 في المئة من أرض السودان الزراعية. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى هبوط حاد (نحو 20%) في الانتاج الغذائي. علاوة على ذلك، ثمة أدلة متزايدة على أن هبوط معدلات سقوط الأمطار بسبب تغير المناخ الاقليمي، يمثل عامل ضغط شديد على المجتمعات الرعوية، خصوصاً في دارفور وكردفان، مما ساهم في إندلاع النزاع.

## الكوارث الطبيعية

عاني السودان من عدة موجات جفاف طويلة ومدمرة في العقود الأخيرة، أضرت بالأمن الغذائي وارتبطت ارتباطاً قوياً بالنزوح البشري والنزاعات المتصلة به. وتفاقم

التأثر بالجفاف بسبب تضخم أعداد قطعان الماشية على حساب نوعيتها، ونقص موارد المياه الثابتة مثل الآبار العميقة التي يمكن الاعتماد عليها أثناء فترات الجفاف القصيرة. ورغم النقص الشديد في المياه، تكثر الفيضانات أيضاً في السودان. وأكثرها تدميراً ما يحدث في النيل الأزرق، نتيجة اجتثاث الغابات والرعي المفرط في أعالي حوض النهر. ويتجلى أحد التأثيرات الرئيسية لتدهور بيئة حوض النهر والفيضان المرتبط به في تآكل حاد لضفاف النيل (الهدام) في شريط الأرض الخصب الضيق الذي يحف بمجراه.

### تدهور الأراضي الزراعية

تمثل الزراعة أكبر القطاعات الاقتصادية في السودان، وهي في صلب بعض أخطر مشكلات البلد البيئية المزمنة، التي تشمل تدهور الأراضي، انجراف الضفاف النهرية، اجتياح الأنواع النباتية الدخيلة، إساءة استعمال المبيدات في الزراعات المروية الكبيرة وتلوث المياه. أما الزراعة الآلية غير المنظمة والسيئة الإدارة، التي تغطي ما يقدر 5,6 ملايين هكتار، فهي مدمرة بنوع خاص، وتؤدي إلى إزالة الغابات على نطاق واسع وزوال الحياة البرية وتدهور الأراضي بشدة. أدى التزايد الصارخ والسريع في أعداد الماشية، إلى تدهور واسع الانتشار في المراعي. كما أن عدم تملك الأراضي بما يكفي هو سبب جذري للعديد من المشاكل البيئية وعائق ضخم أمام استخدام الأرض على نحو مستدام، نظراً لضعف الحافز لدى المزارعين للاستثمار في الموارد الطبيعية وحمايتها.

### إزالة الغابات في المناطق الأكثر جفافاً

تُزال الغابات في السودان بمعدل يزيد على 84% في المئة سنوياً، لأغراض الطاقة والزراعة. وبين 1990 و2005 خسر البلد 6,11% من غطاءه الغابي، أي نحو 8,8 ملايين هكتار. وقد اختفي ثلثا غابات شمال، وسط وشرق السودان بين عامي 1972 و2001. وفي دارفور، فقد ثلث الغابات بين 1973 و2006. ولا تزال ممارسة قطع الغابات مستمرة، خصوصاً في محيط المدن الكبيرة. ويشير استقراء حول معدلات إزالة الغابات، إلى أن الغطاء الغابي يمكن أن ينخفض بما يزيد على 10 في المئة كل



10 سنين. أما المناطق الواقعة تحت الضغط الأقصى، فيقدر (يونيب) أنها قد تفقد غاباتها بالكامل خلال السنين العشر المقبلة.

توضح هذه الاتجاهات السلبية أن هذا المورد القيم، الذي يعتمد عليه سكان الريف وجزء كبير من سكان الحضر كلياً للحصول على الطاقة، يواجه تهديداً خطيراً. ويمثل الاستخدام المتزايد لحطب الوقود في صناعة الطوب في جميع أجزاء السودان مصدراً إضافياً للقلق. ففي دارفور، مثلاً، توفر صناعة الطوب أسباب المعيشة لكثير من النازحين المقيمين في المخيمات، ولكنها تساهم أيضاً في إزالة الغابات المحلية. غير أن قطاع الغابات يمكنه، إذا أحسنت إدارته، أن يمثل فرصة مهمة لتحقيق تنمية اقتصادية وتبادل تجاري مستدام بين الشمال والجنوب.

### **السدود ومشاريع المياه**

اعتبر التقويم البيئي لما بعد النزاع أن ما يجري إنشاؤه أو يخطط لإنشائه من سدود كبيرة يتجاوز عددها العشرين، يمثل القضية البيئية الرئيسية والأكثر أهمية في قطاع الموارد المائية في السودان. وبينما يتوقع أن يحقق ناتج الكهرباء من سد مروي فوائد كبيرة للبلد، فإنه يجسد الشواغل البيئية والاجتماعية بشأن برنامج السودان الطموح لبناء السدود. ومع أنه أول مشروع سد تضمن تقويماً للتأثير البيئي، فإن العملية لا تستوفي المعايير الدولية، وكان يمكن أن تكون أفضل لو اتسمت بمزيد من الشفافية والتشاور العام. وتشمل المشكلات البيئية الرئيسية المرتبطة بسد مروي ترسب الطمي في بحيرة الخزان وتآكل الضفاف بسبب التدفق المكثف للمياه خلال فترات زمنية وجيزة.

### **التلوث الصناعي والقطاع النفطي الناشئ**

كانت الإدارة البيئية في الصناعة شبه معدومة في السودان حتى عام 2000، وتشاهد اليوم نتائج هذه الحالة. وبينما تحسن الوضع خلال السنوات القليلة الماضية، ووجد التقويم أن تحديات كبيرة لا تزال قائمة في مجالات تطوير المشاريع وتقويم التأثيرات، وتحسين تشغيل المرافق القديمة التي تديرها الحكومة، والتأثير في السياسات ونهج

الإدارة على المستويات الحكومية العليا. ونظراً لأن التنمية الصناعية ما زالت محدودة نسبياً، فإن ضررها البيئي لا يزال متوسطاً.

لكن الوضع يمكن أن يسوء بسرعة لأن البلد مقدم على ازدهار تنموي يموله النفط!. ومن المسائل التي تبعث على القلق تدفق مياه الصرف من المصانع وتصريف المياه المرتبطة باستخراج خام النفط، لعدم وجود مرافق لمعالجتها حتى في الخرطوم. وعادة، تصب مياه الصرف الصناعية في شبكة المجاري المحلية إذا كانت موجودة. ومن المشاكل الصناعية الأخرى الانبعاثات في الهواء وتصريف النفايات الخطرة والصلبة. وبينما لاحظ (يونيب) أداءاً بيئياً دون المستوى المناسب في معظم المواقع الصناعية، كانت هناك حالات استثنائية لإدارة بيئية مسئولة في بعض مصانع النفط والسكر والاسمنت التي شملتتها الزيارات.

### الحياة البرية والمحميات

شهدت العقود القليلة الماضية عدواناً كبيراً على الحياة البرية وموائلها. وكان الضرر الأكبر لتدمير الموائل وتجزئتها في شمال السودان ووسطه بسبب توسع الزراعة وقطع الغابات. واختفت الحيوانات البرية الكبيرة عموماً وباتت محصورة غالباً في قلب المحميات وأقاليم صحراوية نائية. أدى الصيد العشوائي إلى هلاك القسم الأعظم من تجمعات الحيوانات البرية والاستئصال المحلي لكثير من الأنواع الكبيرة، مثل الفيل، وحيد القرن، الجاموس، الزراف، الحمار الوحشي وغزال أم كاباجو. ومع ذلك، فتجمعات الحياة البرية المتبقية، بما في ذلك قطعان ضخمة من غزال الحمراية الأبيض الأذن وغزال التيتل، تنسم بأهمية دولية.

يتمتع نحو 50 موقعاً منتشرة في أنحاء السودان بشكل ما من الحماية القانونية، وهي تغطي 10% من مساحة الشمال. غير أن مستوى الحماية (المكفولة) لهذه المناطق يتراوح بين الطفيف والذي لا يستحق الذكر، وكثير منها غير موجود اليوم إلا على الورق. ويقع العديد من هذه المناطق الهامة في أقاليم تأثرت بالنزاع، وبالتالي عانت من الغياب الطويل لحكم القانون. وباستثناء ثلاث مناطق (حظائر دندر وسنقتيب وخليج دنقناط الوطنية) لا تتوافر بيانات عن الحياة البرية والمناطق المحمية تسمح

بوضع خطط مناسبة لادارتها.

### **البيئة البحرية: سليمة نسبياً لكنها مهددة**

وجد التقييم أن البيئة البحرية والساحلية للسودان هي عموماً في حالة جيدة نسبياً. والشعاب المرجانية أفضل الأنظمة الإيكولوجية المحفوظة في البلد. لكن ازدهار الاقتصاد وقطاع النقل البحري المتمركز على ميناء بورتسودان ومرافق تصدير النفط قد يؤديان إلى تغير سريع نحو الأسوأ. ويحدث تدهور مستمر في الشريط الذي شهد التطوير من بورسودان حتى سواكن. أعراض الرعي المفرط وتدهور التربة ظاهرة في كل مكان على الساحل، كما في كل الأراضي الجافة السودانية. فتجمعات أشجار المنغروف، على سبيل المثال، تقع حالياً تحت ضغط شديد على طول الخط الساحلي. ومن المسائل المقلقة الأخرى التلوث الناتج من المصادر البرية وخطر الازدحام من المواقع النفطية.

### **المساعدات الدولية: ضرورة خفض تأثيرها البيئي**

أثار التقييم البيئي لبرنامج المساعدة الدولية للسودان عدداً من القضايا التي يلزم حلها لتجنب إحداث ضرر غير مقصود من خلال تقديم العون، ولتحسين فاعلية انفاق المساعدات في قطاع البيئة. ويشير تحليل (يونيب) إلى أنه، بينما لا يترتب على معظم مشاريع المساعدة ضرر يذكر للبيئة، من الواضح أن القليل منها يحدث ضرراً، والتأثير الكلي يعتبر كبيراً للغاية. وتتمثل إحدى المسائل الرئيسية البالغة التعقيد في التأثير البيئي لتوفير الغذاء ومعونات الطوارئ لنحو 15% من السكان، والأثر المتوقع لمختلف خيارات التحول من الاعتماد على المعونة إلى العيش الاستقلالي والمستدام.

الواقع أن البلد دخل الآن في حلقة مفرغة من الاعتماد على المعونة الغذائية وتدني التنمية الزراعية والتدهور البيئي. ولو خفضت المعونة الغذائية لتشجيع العودة إلى الزراعة في الظروف الراهنة، فستكون النتيجة في بعض المناطق انعدام الأمن الغذائي وتكثيف تدهور الأراضي، مما سيؤدي إلى الفشل والنزوح الثانوي.

## الوضع العالمي

رصدت بلقيس عثمان العشا<sup>351</sup> في سلسلة أوراق بحثية رسم خارطة تهديدات تغيّر المناخ وتأثيرات التنمية الإنسانية في البلدان العربية ومن ضمنها السودان. تعود أسباب التغيّر إلى عمليّات طبيعيّة داخلية من ضمن النظام المناخي (تغيّرات داخلية)، أو إلى تغيّرات طبيعيّة أو ناتجة من قوى خارجيّة بفعل أعمال الإنسان (تغيّرات خارجيّة).

تزايد التغير، بدرجة كبيرة منذ انطلاق الثورة الصناعيّة، في تركّز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوّي، وهو من أهمّ غازات الدفيئة، وهذا ساهم في تنامي مفعول الدفيئة الذي يُعرف بالاحترار العالمي، وتبلغ نسبة تركّز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوّي في وقتنا الراهن 370 جزءاً في المليون (أي بزيادة أكثر من 30 في المئة عنها في العام 1750 تعود هذه الزيادة، في الجزء الأكبر منها، إلى انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناتجة من احتراق الوقود الأحفوريّ للاستعمال البشري، وبنسبة أقلّ إلى تغيّر سبُل استعمال الأرض وبعض العمليّات الصناعيّة واحتراق الكتلة الحيويّة. إن الدلائل على تغيّر المناخ في تزايد مستمرّ، وبحسب التقارير الصادرة في العام 2007 عن الهيئة الحكوميّة الدوليّة المعنية بتغيّر المناخ لا مجال للشكّ في الاحترار العالمي (أي أن مناخ الأرض يزداد حرارة).

سوف تكون وطأة تغيّر المناخ أكثر جدّة في المناطق الأضعف وخصوصاً على فئات فقيرة تواجه مشكلات قائمة سلفاً، كالنزاعات المسلّحة، الفقر، اللامساواة في القدرة على الحصول على الموارد، المؤسسات الهزيلة، الأمن الغذائيّ وتواتر المرض. يتوقّع أن تتسارع عمليّة التصحّر وخسارة الأرض المنتجة، فيما يؤدي تزايد حالات الطقس القسوى – كالجفاف والفيضانات – إلى نقص في الموادّ الغذائيّة ومن ثمّ إلى مجاعات. المناخ الأكثر حرارة قد يوسع المدى أمام حاملات الملاريا، الحمى

<sup>351</sup> بلقيس عثمان العشا خبيرة بالتكيف مع تغيّر. لديها خبرة واسعة في الأبحاث المتعلقة بتغيّر المناخ، مع تركيز على الأبعاد البشريّة للتغيّر البيئيّ العالميّ والتنمية المستدامة. وهي من الفائزين بجائزة أبطال الأرض من برنامج الأمم المتحدة للبيئة عام 2008، وعضو مجموعة كبار المؤلّفين في الهيئة الحكوميّة الدوليّة المعنية بتغيّر المناخ الفائزة بجائزة نوبل للسلام عام 2007. وقد أجرت وأدارت أبحاثاً وتقييمات علميّة عديدة بشأن تأثيرات تغيّر المناخ، الضعف الناتج منه، والتكيف معه، خصوصاً في ما يتعلّق بأفريقيا.

الصفراء، وحمى الضنك وسواها من الأمراض المعدية<sup>352</sup>.

## تأثير التغيرات البيئية على العالم

يشير تقرير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ إلي التزايد المتوقع في الأحداث القصوى للطقس (كالعواصف والأمطار الغزيرة والجفاف والقحط) ملاحظاً أن الأعاصير المدارية (على أنواعها) يُتوقع أن تصبح أكثر عصفاً وعنفاً مع ارتفاع ذروة الرياح وسرعتها وتزايداً في غزارة الأمطار مترافقةً مع بحار استوائية أكثر حرارة. هذه الأحداث القصوى للطقس يتوقع أن تزداد قوةً وتواتراً عبر السنين. أضف إلي ذلك ما شهدته الأرض من ازدياد عدد الموجات الحرارية، من تناقص موجات الصقيع تواتراً وأمدًا، تزايد أحداث الطقس القصوى تواتراً وشدةً في العديد من أصقاع العالم<sup>353</sup>. البلدان الواقعة في أفريقيا جنوب الصحراء معرضة بشكل خاص لمخاطر التغيرات البيئية بسبب الاحتباس الحراري. هذه المنطقة موطن لبعض من أفقر الأقوام في العالم، بلدان لن يكون بمقدورها أن تتحمل بمفردها كلفة الاستراتيجيات التي تتطلبها عملية التكيف.

إنطلقت في أنحاء العالم المبادرات بترشيد التعامل مع البيئة، وتكونت الجمعيات البيئية في البلاد الصناعية، متصدرة النضال من أجل التصدي لوقف التدهور البيئي ونشطت الأبحاث العلمية في دراسة البيئة الطبيعية. تبلور ذلك كله في مؤتمر أستكهولم عام 1975، الذي أطلق نداء أستكهولم عام 1997م، الذي نص علي أهمية التربية البيئية. وتبعته حلقة بلغراد عام 1975، ثم جاء مؤتمر قمة الأرض عام 1992، وأصدر قرارات كثيرة في "الأجندة" طارحاً ما يجب أن تلتزم به الحكومات من عمل من أجل البيئة خلال القرن الواحد والعشرين ومن ضمن ما دعا إليه المؤتمر ضرورة العمل من أجل نشر الوعي البيئي بين جميع قطاعات الشعب.

## النشاط البيئي في السودان

<sup>352</sup> بلقيس عثمان العشا: رسم خارطة تهديدات تغير المناخ وتأثيرات التنمية الإنسانية في البلدان العربية، تقرير التنمية الإنسانية العربية- سلسلة أوراق بحثية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، 2010

<sup>353</sup> بلقيس عثمان العشا: مرجع سابق 2010

بدأ الإهتمام بالبيئة بتأسيس جمعية للتأريخ الطبيعي في الستينات، تلتها جمعية صيانة الطبيعة في أوائل السبعينات ولكن القفزة الكبرى كانت مع إنشاء الجمعية السودانية لحماية البيئة في نهاية عام 1975 تنفيذاً لمؤتمر أركويت الذي أقيم في نفس العام. تطورت الجمعية من ناحية عدد العضوية وعدد الفروع بسرعة، خاصة بعد أن أدت مشكله الجفاف والمجاعة في عامي 1983-1984، ومشكله الفيضانات والسيول عام 1988، إلي أزدیاد الإحساس بالمشاكل البيئية.

صاغت الجمعية إستراتيجيتها لمدة عشر سنوات (1993-2000) وُضعت علي أساسها خطط العمل للمستقبل. ومن أهم أهداف الجمعية التي ينص عليها دستورها – العمل علي حماية البيئة والتصدي لأي عمل من شأنه أن يتسبب في تدهور البيئة، ونشر الوعي بين المواطنين بأهمية المحافظة علي التوازن البيئي. هذا وقد وصل الإهتمام بالبيئة إلي صانعي القرار في بلادنا في الإستراتيجية القومية الشاملة (1992).

يتم التعليم البيئي في السودان بوسيلتين: التعليم النظامي والتعليم غير النظامي وهناك طريق ثالث إستتبط حديثاً وهو التعليم اللا نظامي. معهد التربية ببخت الرضاء كان أول من بادر بهذا الأمر وذلك بإستباط ما كان يُسمى "بالمدونة الطبيعية". كان الهدف من هذه الوسيله تدريب تلميذ المدرسة الأولية، علي الملاحظة بتدوين بما يجري في المحيط الذي حوله من تغيرات، مثل الطقس، حركة الرحل من وإلي النهر .. وغير ذلك، لم يكن ينص علي هذا النشاط بأنه عمل بيئي – بل أن كلمة بيئة نفسها – بمعناها الحديث، لم تكن معروفة. ولكن هذا النوع من التدريب كان ذا فائدة كبيرة من حيث التدريب علي الملاحظة، وشحذ إهتمام الطالب بما يدور حوله.

اصدرت بخت الرضاء كتب من ثلاثة أجزاء تحت عنوان "الإنسان والكون" للصفوف السادس والسابع والثامن، وقد صدر الكتاب الأول في شكل منهج "متكامل" يشمل العلوم والجغرافيا والتأريخ والإجتماع، ويبدو أنها خطوة رائدة. فالمنهج يشمل رسائل بيئية كثيرة، وسرد للموارد الطبيعية والأخطار التي تهددها. ولا يمكن بالطبع تقويم هذه التجربة إلا بعد ظهور الكتب الأخرى. وهناك أيضاً كتب تتعلق بالسكن، الملبس والسلامة تركز علي صحة الإنسان.

في عام 1991 خطت وزارة التربية خطوة كبيرة بإدخالها مادة البيئة في المدارس الثانوية، ولكن هذه المادة لا زالت هامشية ، يقوم بتدريسها معلمو الجغرافيا، غير متخصصين في العلوم البيئية، كما أنها إختيارية، ولا يختارها أكثر من 50% من الطلبة.. ولا تفيد الطالب كثيراً في الدخول للجامعة .. وهذا الموضع هو الموضوع الرئيسي المطلوب التشاور حوله<sup>354</sup>.

مثل قيام معهد الدراسات البيئية، قفزة أخرى في مسيرة التعليم البيئي، فهو لم يكتف بتقديم دراسات لدبلومات فوق الجامعية فقط، بل أسهم ويسهم كثيراً في تأصيل وتأسيس التعليم البيئي في المراحل الدراسية الأخرى، وإقامة ورش عمل متعددة، منها ورشة عمل أقيمت عام 1983م عن "التخطيط للتعليم البيئي في السودان" حضرها مندوبون من وزارة التربية، وقد أوصت بأهمية تدريب المعلمين قبل البدء في تنفيذ أي برامج بيئية.

أقيمت ورشة ثانية عام 1984 للمعلمين في معاهد التربية، أوصت بضرورة قيام نظام مؤسسي للتعليم البيئي في السودان وورشة ثالثة عام 1985، أقيمت في بخت الرضا، وضُعت فيها نموذج لبرنامج بيئي تجريبي يركز علي النشاط العلمي ويدعو إلي إدماج برامج التعليم البيئي في المواد الدراسية الحالية. كما قام المعهد بتقديم دورات تدريبية قصيرة للمعلمين في الخرطوم وبخت الرضا. ولم يكتف المعهد بالتعليم العام، بل بذل مجهوداً لإدخال التعليم البيئي في الجامعات، وقدم مؤشرات وخطوط عريضة لمناهج تُدمج في التخصصات الجامعية المختلفة<sup>355</sup>.

## مصادر الطاقة المتجددة

تمثل الطاقات المتجددة مصدراً مهماً من مصادر الطاقة بالبلاد، حيث يزخر السودان بمصادر متنوعة لهذه الطاقات، والتي لم تستغل حتى الآن الاستغلال الأمثل، وتشجع الدولة الإستثمار في مجالاتها المختلفة والتي تمتاز بأنها طاقات غير ناضبة وغير ملوثة للبيئة. وفي مقدمة هذه الطاقات: الطاقة الشمسية، طاقة الرياح، الطاقة الكهربائية

<sup>354</sup> أحمد محمد سعد: معالم في طريق تطور التعليم البيئي ، <http://www.sudan-forall.org/forum/viewtopic.php?p=59945&sid=9b997b73c0ea71c629003feb0a41d67e>

<sup>355</sup> أحمد محمد سعد: معالم في طريق تطور التعليم البيئي، مرجع سابق.

المائية الصغيرة، طاقة الحرارة الجوفية، والطاقة التيارية، وغيرها والتي أثبتت التجارب انها يمكن ان تساهم بفعالية في توفير إحتياجات الطاقة للمناطق الريفية النائية.

يعتبر السودان بكل ولاياته مناسباً لإستخدامات الطاقة الشمسية لوقوعه في المنطقة المدارية، حيث تبلغ ساعات سطوع الشمس فيه حوالي 12 ساعة في اليوم خاصة في الأجزاء الشمالية بما يعادل 6 - 10 بلايين جول / المتر المربع. بالنسبة لطاقة الرياح نجد ان السودان به متوسط سرعات رياح جيدة. وتعتبر الولاية الشمالية، ولاية الخرطوم، البحر الأحمر والجزيرة من أنسب المناطق لإستخدام هذه التقنية في السودان، حيث تتجاوز متوسط سرعة الرياح على إمتداد النيل من الخرطوم وحتى حلفا 5 أمتار في الثانية وكذلك مناطق ساحل البحر الأحمر. وفي مجال الطاقة المائية الصغيرة نجد ان انسب المناطق لإنتاج هذا النوع من الطاقة، في جبل مره وولاية الجزيرة.

تقدر الطاقة المائية الصغيرة المتاحة بحوالي 125880 ميغاوات ساعة. بالنسبة لطاقة الحرارة الجوفية، اثبتت الدراسات الأولية إلي أن هناك شواهد في الولاية الشمالية وفي منطقة جبل مرة. وهناك الطاقة التيارية، وهي تقنية تستخدم لضخ المياه لري الاراضي الزراعية (3 أفدنة)، حيث تدار الماكينة بواسطة طاقة حركة إنسياب مياه نهر النيل. أثبتت الدراسات والمسوحات أن هناك مواقع لتطبيق هذه التقنية وهي المناطق الواقعة بين مدينتي الخرطوم ووادي حلفا وتتيح فرصة تركيب ستة آلاف ماكينة.

القطاع المنزلي هو اكبر قطاع مستهلك للطاقة حيث يستهلك 55% من الطاقة، يليه قطاع النقل 23%، القطاع الخدمي 12%، الصناعي 10%، والزراعي اقل من 1%. يتوقع ان ينخفض استهلاك القطاع المنزلي مستقبلا نسبة للتوسع في صناعة البترول بالاضافة إلي أن استخدام الغاز يوفر كثيراً من الطاقة التي كانت تهدر في القطاع المنزلي نسبة لتدني كفاءة الاجهزة المستخدمة من مواقد تقليدية وخلافه. وبالتالي يقل ذلك من كميات التلوث التي تنتج من حرق الحطب والمخلفات.

في خلال الخمس سنوات الماضية حدثت طفرة كبيرة في مجال نشر الطاقة الشمسية،



حيث تم تنفيذ عدد من المشاريع شملت: مشروع الخلايا الشمسية بتمويل مشترك بين حكومة السودان، مشروع الأمم المتحدة الانمائي، والمرفق العالمي للبيئة 2000-2005 م. مشروع الطاقة الشمسية المشترك مع الولايات 2000-2002. مشروع انارة الف قرية بالطاقة الشمسية 2003-2005 م. من خلال هذين المشروعين تم تركيب حوالي 0.7 ميجاوات من الطاقة الشمسية، في المناطق الريفية والبعيدة. وشمل ذلك انارة المدارس وتشغيل اجهزة الحاسوب بها، انارة المراكز الثقافية وتشغيل اجهزة التلفاز، انارة المراكز الصحية وتركيب ثلاجات الامصال بها وكذلك تركيب الطلمبات الشمسية. اما في المجالات الأخرى، نجد انه في مجال التحويل الحراري انحصرت التجربة في تصنيع المقطرات الشمسية، الفرن الشمسي، المطبخ الشمسي بأحجام مختلفة (معسكرات وأفراد) والمجففات الشمسية.

أما طاقة الرياح فبدأ إستخدامها في بداية الخمسينات في منطقة الجزيرة، حيث تم تركيب حوالي 250 مضخة هوائية لضخ المياه لأغراض الشرب آنذاك. منذ عام 1986 م وحتى الآن تم تركيب حوالي 18 مضخة هوائية، في كل من الخرطوم، طوكر، كريمة، البطانة، الولاية الشمالية والشرقية. هناك مجال واسع لتوليد كهرباء من طاقة الرياح على ساحل البحر الاحمر، الشمالية والغرب.

في مجال المضغوطات، جربت تقنية مضغوطات المخلفات الزراعية في السودان في نهاية الثمانينات، لإنتاج مضغوطات من قشر الفول تستخدم كبديل لحطب الوقود في الصناعات التقليدية، كمعاصر الزيوت، المخابز، كمائن الطوب، بجانب القطاع المنزلي. كما تم تجربة ضغط سيقان القطن والبقاس، وأثبتت الدراسات أن المضغوطات ذات جدوى إقتصادية وفنية. بالنسبة للبيوغاز، تم إنشاء أكثر من مائة وحدة بيوغاز بأحجام مختلفة موزعة على ولايات السودان المختلفة .

تركزت التجربة على المجمعات السكنية (الداخليات ، السجون، المستشفيات). في مجال الطاقة المائية الصغيرة، وبالرغم من وجود مواقع عديدة بها مصادر للطاقة المائية الصغيرة في السودان. إلا أن هذه التقنية لم تجد حظاً من التطبيق مقارنة بتقنيات الطاقات المتجددة الأخرى.

طاقة الحرارة الجوفية، لم يتم استغلالها بالرغم من نجاح التجربة عالمياً، وهي مجدية

اقتصاديا حيث تعتبر من أرخص أنواع التقنيات المولدة للطاقة الكهربائية مقارنة بالتقنيات الأخرى، وهي تقنية منافسة حتي للطاقة المائية والتي تعتبر من أرخص الطاقات. تمت مسوحات أولية في منطقة جبل مره وتم تحليل عينات المياه بالمنطقة<sup>356</sup>

### القيمة المضافة والتميز المقارن: التنوع البيئي في السودان

مؤثرات التنوع البيئي في السودان عديدة، نتيجة لظروف داخلية تناولناها سابقا وظروف خارجية من التغير المناخي العالمي، وإذا تركنا هذه العوامل تتصاعد بدون تدخلات حاسمة وقوية ومحسوبة وبرؤية متوازنة فقد ينتهي الامر بنا إلي ان نصبح هبة الانهار مثل مصر هبة النيل. تصاعد الاهتمام العالمي بقضايا البيئة، التغير البيئي وارتفاع الحرارة العالمي، في نفس الوقت فالسودان يمتلك تجارب غنية واهتمام كبير باهمية هذه القضايا.

لا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا أن الرؤية السودانية برمتها مرتبطة بشكل حاسم مع قضايا التنوع البيئي لأنها تؤثر على كافة الكفاءات الأساسية. إن قضايا التنوع البيئي ليست بالبساطة التي تبدو عليها. سوف نتناول في هذا الجزء القضايا التي سوف يتعين التصدي لها منذ اول لحظات التغيير السياسي في السودان، تحت اربعة عناوين رئيسية أولاً: مرتبطة بشكل كبير بالسياسات العامة للدولة في مجال الاقتصاد الكلي، التصرف في الاراضي والمياه؛ ثانياً: سلوكيات المجموعات السكانية المتنوعة بالعلاقة مع سبل كسب عيشها؛ ثالثاً: الوعي الفردي والمجتمعي واخيراً: دور المجتمع الدولي.

### أولاً: السياسات الكلية والسياسات البيئية

رصد تقرير منظمة الامم المتحدة للبيئة المعنون السودان: التقييم البيئي لما بعد النزاع

<sup>356</sup> الورقة القطرية لجمهورية السودان مقدمة إلى مؤتمر الطاقة العربي الثامن ،  
[http://www.google.com/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&frm=1&source=web&cd=1&cad=rja&ved=0CEEQFjAA&url=http%3A%2F%2Fwww.oapecorg.org%2Faeconf\\_papers%2Feightconf%2FSudan.doc&ei=JynYUKmULtGT0QWWt4CYAQ&usg=AFQjCNFuBvdIaisMzxpBzpKxWBLX-zp4-Q&sig2=qkSWQoLP-bF-hycQ04Fphg&bvm=bv.1355534169,d.d2k](http://www.google.com/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&frm=1&source=web&cd=1&cad=rja&ved=0CEEQFjAA&url=http%3A%2F%2Fwww.oapecorg.org%2Faeconf_papers%2Feightconf%2FSudan.doc&ei=JynYUKmULtGT0QWWt4CYAQ&usg=AFQjCNFuBvdIaisMzxpBzpKxWBLX-zp4-Q&sig2=qkSWQoLP-bF-hycQ04Fphg&bvm=bv.1355534169,d.d2k)

2007، وارجع تأثير التغيرات البيئية إلى عدة اسباب. عند تفرسنا في التأثيرات سوف نلاحظ انها كلها نواتج جانبية لتوجهات السياسة الكلية وتوصف بشكل دقيق التطور الإقتصادي والإجتماعي للدولة السودانية منذ بداية القرن.

اوضحنا في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية خطل رؤية تيار الدولة الدينية بشكل كامل، فان ادائها في مجال البيئة جزء من هذا الخطل، فرغم إنشاء المجلس الأعلى للبيئة، قانون حماية البيئة للعام 2001 وإنشاء وزارة البيئة، الا أن الاثر الحاسم في التدهور المريع الذي اصاب جسد البيئة السودانية نتج من السياسات الكلية لنظام الإنقاذ.

في منتدي نظمته جريدة الأيام بقاعة مركز الألق للخدمات الصحفية ضم مجموعة خبراء في مجال البيئة بقصد التشاور حول قضايا البيئة الملحة وكيفية إثارتها بغرض نشر الوعي حول تلك القضايا، لخص هاشم محمد الحسن زراعي بالمعاش هذا التداخل "يمكن تناول مشاكل البيئة وفقاً لثلاث مستويات: الحكومة والدولة، والمواطنين، فالبيئة قضية سياسية من الدرجة الأولى ولعل ذلك يفسر عدم اهتمام الحكومة بأمر البيئة فالذين يتضررون من التصحر – مثلاً – هم فقراء الريف الذين يعتبرون غير مؤثرين سياسياً من وجهة النظر الحكومية. تعطي الأولوية للاستثمارات سريعة العائد وإهمال قضايا من لا صوت لهم في الريف فهم لا يملكون القدرة على تغيير الحكومات، أما على صعيد الدولة فهناك خلل في المفاهيم الخاصة بالبيئة وخلل في ترتيب الأولويات".

وفي نفس المنتدي خلص الأستاذ محجوب محمد صالح –رئيس تحرير الايام- بفكره الثاقب إلى جذر المشكله "هناك ضرورة ملحة لأن نعمل جميعاً للتصدي لقضايا البيئة، إلا أننا نحتاج في البداية لوضع إطار مفاهيمي لذلك العمل، لأن قضايا البيئة متشابكة" و اضاف د. معتصم نمر في نفس الاطار "إنني أقول بكل صراحة أن الوعي بالمشاكل البيئية ضعيف مع عدم وضوح الرؤية والإستراتيجية للتصدي لتلك المشاكل ، فالجهات الرسمية تكثر الكلام حول قضايا البيئة دون جدية في التنفيذ للمشاريع والقرارات الخاصة بمعالجة المشاكل ....إننا نحتاج لإستراتيجية قومية علمية للتصدي لمشكلات البيئة علي أن تعمل الجهات الحكومية المختصة والأحزاب السياسية والمنظمات المدنية ووسائل الإعلام لإنفاذها بجدية تامة".

إن القضايا التي نطن أنها بعيدة من تأثيرات البيئة، مثل قضية الصراع في دارفور، جبال النوبة، اببي هي جزء من التجليات السياسية لبواطن سياسات إقتصادية إجتماعية تمادت فيها السلطات السودانية المتعاقبة وأوصلها نظام الإنقاذ لحدة الأقصى، وفي هذا الاطار واصل د. معتصم نمر "ساتحدث عن مشكله التصحر من خلال بعدين ، البعد الأول: اننا ما زلنا نرفض التعامل مع التصحر باعتباره مشكله السودان الأولى، البعد الثاني: عدم ربط مشكله التصحر بحركة السكان ولناخذ دارفور نموذجاً ، فدارفور تعتبر معبراً لحركة السكان من غرب ووسط إفريقيا إلى شرقها . لم تخل في فترة من النازحين من الدول المجاورة،.... حركة السكان مع ظاهرة الجفاف تطرح التحدي الخاص بالأمن الغذائي. وما يرتبط بذلك من نقص الغذاء وفشلنا في إطعام أنفسنا والحاجة للدعم الأجنبي لتوفير الغذاء وما يصاحب ذلك من نفوذ خارجي ومن تأثيرات داخلية ولا تتوفر معلومات دقيقة عن مدى الضرر الذي يلحق بالسودان جراء ذلك الانكشاف الغذائي والعون الأجنبي".

وتحدث الباحث في مجال الطاقة المتجددة حسن وردي "أن السودان بدأ في إعداد المشاريع الخاصة للاستفادة من الطاقة الشمسية منذ بداية التسعينات، إلا أن البرامج التي بدأ العمل لإنفاذها لم تجد الاهتمام المطلوب من ناحية تكنولوجية وسياسية ، كما لم يتوفر الاهتمام الكافي لرفع وعي المجموعات المستهدف، ولم يتم تنفيذ القرار الخاص بإعفاء التكنولوجية الخاصة بالطاقة الشمسية من الرسوم والجمارك.... فألمانيا تنتج الآن 7 آلاف ميغاواط، أما مؤسساتنا ذات الصلة بالمجال فتعاني التخبط وتداخل الاختصاصات بين ما يقوم به معهد أبحاث الطاقة والجهات المنفذة للخطة القومية للطاقة. ويتركز السعي الآن لجلب الدعم الأجنبي أكثر من التركيز على تنفيذ الخطة بشكل علمي. أننا ما زلنا نعمل على أساس المشروعات التجريبية الصغيرة ولا بد من أن ينتقل لمستوى الإنتاج التجاري الكبير وأن تدخل في الإنتاج هيئة الكهرباء ولا بد من أن تدعم لدولة هذه الأنشطة"<sup>357</sup>.

واضاف إسماعيل الجزولي "إن الأزمة لا تقتصر فقط على قضايا البيئة وحدها، فنحن لا نعمل وفق إستراتيجية واضحة طويلة المدى لمعالجة كل أزماتنا. فنحن

<sup>357</sup> محمود وليد ناصر: مشكلات البيئة في السودان، منتدى بينتكم، أبريل 14، 2010

نعمل لمعالجة المشاكل بعد حدوثها وقد تقود تلك المعالجات لمشاكل أخرى . فالبيئة مرتبطة بالتنمية المستدامة وبالاستقرار السياسي، وهنا لا بد من الإشارة لقضايا البيئة وتطبيق الحكم الفيدرالي ومعالجة تلك القضايا على ضوء الصلة بين الولايات والمركز حتى لا يؤثر سلباً على العمل البيئي. وأرى أهمية خاصة لأن نبدأ بوضع خطة لمعالجة أي إشكالات قد تنشأ ما بين الولايات والمركز حول الاختصاصات المشتركة تفادياً لأي نتائج سلبية على العمل البيئي".

في جانب السياسات والقوانين البيئية اشار د. سليمان الوكيل وربط بين قضايا البيئة والديموقراطية "إننا لا يمكن أن نصل لمعالجات جذرية لمشاكل البيئة في السودان إلا بتوفر بيئة سياسية ديموقراطية...يوجد لدينا الآن حكومة ولا توجد دولة، فالدولة تقوم على أساس ومواصفات مثل الاستقرار، الديموقراطية، الجدية وعدم الفساد. وتلك المواصفات لا تتوفر لدينا الآن. لذلك اقترح أن نركز الآن على العمل لبناء المؤسسات، ونشر الوعي بمخاطر تغير المناخ".

وركزت بلقيس العشا في حديثها على ضرورة تفعيل القوانين والتشريعات الخاصة بحماية البيئة "السودان لا تنقصه القوانين، إنما نحتاج لتفعيل وتنفيذ تلك القوانين، ووضع إستراتيجية واضحة للعمل ، والوقوف على الأسباب التي تحول دون متابعة تنفيذ البرامج السابقة" وقدم د. جعفر كرار اقتراحاً بأن يتم التركيز على مخاطر تغير المناخ وتأثير ذلك على المزارعين والرعاة ، وتأسيس كيان يكون همه الأساسي متابعة العمل في مجال نشر الوعي البيئي والتدريب والتنسيق بين مختلف الجهات

358

## ثانياً: سلوكيات المجموعات السكانية المتنوعة

أبرز الأسباب التي يساهم فيها السكان والتي أدت إلي الكارثة البيئية في السودان لخصتها الدراسات المفصلة لاقليم دارفور من جهات متعددة. وحصرها تقرير للأمم المتحدة صدر عام 2009 وعنوانه "الفقر والتشويه وتعرية الغابات" في الانفجار الديموغرافي، ويضاف إلي العنصر السكاني الاستغلال الرعوي الكثيف بسبب عدد

358 محمود وليد ناصر: مرجع سابق

الماشية ما يُشكّل ضغطاً كبيراً على الموارد الطبيعية المحدودة، خصوصاً بالنسبة إلى العشب والأشجار والمياه. ويضاف إلى ذلك، الاحتطاب الجائر الذي يأتي من احتياج السكان لخشب الأشجار في التدفئة. وأدت عوامل الضغط هذه إلى تآكل في الموارد الطبيعية، فبرزت ظاهرة تعرية الغابات، إذ فقدت منطقة دارفور ثلث غطائها الأخضر بين 1973 و2006.

ويشير التقرير إلى أن الحطب يشكل أحد الوجوه الحادة للمشاكل السياسية بين شمال السودان وجنوبه، خصوصاً في دارفور. إذ تحتاج الأعداد المتزايدة من السكان إلى حطب أكثر، ما يؤدي إلى نقص الغابات المترافق مع ضرب الحياة اليومية للسكان الذين يعيشون في الغابات ويقتاتون من مواردها. ويتصل ذلك مع عيش مُزِرٍ للسكان يدفعهم للهجرة التي تُنقص من الأيدي العاملة، فتتخفف القدرة على تجديد الموارد الطبيعية ويزداد النقص بصورة مطردة.

وهكذا يرتسم تدهور البيئة في هيئة حلقة مفرغة تتسم بانحدار مستمر للحياة اليومية في مناحيها كافة. وصدر التقرير المشار إليه بالعبارات الآتية "يقدم التقرير صورة عن أهمية العوامل المتعددة في مأساة السودان... هذه المأساة التي تجري منذ عقود وتؤثر في مصير ملايين الأشخاص... إن الطريقة التي سيعود بها الاعتبار للبيئة الطبيعية في السودان سيكون له الأثر الحاسم في الحفاظ على أمن المنطقة"<sup>359</sup>.

### ثالثاً: دور المجتمع الدولي

ذكر جون شلنهوربر مدير معهد بوتسدام الألماني لأبحاث آثار المناخ الذي أعد بالاشتراك مع مجموعة (كلايميت اناليتكس)، تقرير البنك الدولي عن تغير المناخ الذي نشرت نتائجه بمناسبة انعقاد اجتماع نحو 200 دولة في الدوحة بقطر في ديسمبر 2012، في مسعى لتمديد اتفاقية كيوتو الحالية والتي تستمر حتى نهاية العام. ويربط التقرير بين فقر الدول وهذه التغيرات المناخية، لكنه يضيف بأن جميع الدول ستعاني نتيجة لارتفاع درجة حرارة الأرض، أما أفقر دول العالم فهي التي ستتضرر بشدة من نقص الطعام، ارتفاع منسوب البحر، الأعاصير والجفاف. ويسلط التقرير الذي يحمل

<sup>359</sup> تدهور البيئة الطبيعية من أسباب الصراعات في دارفور: 25 - 07 - 2008، <http://www.masress.com/egynews/45739>

عنوان "التصدي لارتفاع حرارة الأرض" الضوء على الأثر المدمر لظاهرة الاحتباس الحراري بمقدار أربع درجات مئوية بحلول نهاية القرن وهو السيناريو المرجح وفقاً للسياسات الحالية حسبما أشار التقرير<sup>360</sup>.

### بعض الافكار حول معالجة قضايا البيئة

لدي السودانيون تأريخ طويل ومشرف في مجال البيئة ويمتلك الوطن كفاءات متميزة في كافة مجالاتها، والسودان جزء فاعل في العمل البيئي الإقليمي والعالمي، كما يتميز سكانه – على كافة مستوياته العلمية والفنية- بحساسية تجاه المؤثرات على البيئة، وحافظ الرعاة والمزارعون الصغار على توازن دقيق بين سبل كسب عيشهم وبيئتهم. وقد احسن د. عبد الله علي ابراهيم عرض قدرة الرعاة في ذلك "وأراد طلال (الدكتور طلال اسد في مقال كان نشره في مجله السودان في رسائل ومدونات عام 1964) من مقالته وصف مراحل الكباش وبيان العقلانية التي تتسم بها في الاستخدام الأمثل لموارد بنيتهم الشحيحة. وهي محاوله منه لرد الاعتبار للمعاش البدوي ... وعليه فهي بيئة محدودة. ولما كان على الكباشي أن يحافظ على مراح متنام وسط هذه الشحاحة لزم عليه ان يستخدم هذه الموارد المحدودة التي تليه بكفاءة"<sup>361</sup>.

عدم التوازن والخلل الجسيم احدثته السياسات البيئية والكلية، خاصة نحو الاراضي من نزع الارض من السكان المحليين باسباب عديدة واستعمال سلطة الدولة والقانون، وانحيازها للطبقات العليا واعطائها الاراضي باسعار رمزية وبدون ضوابط، لتقوم باستغلالها على نظام "البارتايم" لسنوات ومن ثم هجرها بعد فقدان الارض لقدرتها وتحويلها إلى صحراء جرداء. ادت نفس السياسات إلى الاستغلال الرعوي الكثيف بسبب عدد الماشية ما يُشكّل ضغطاً كبيراً على الموارد الطبيعية المحدودة والاحتطاب الجائر. تعمل كثير من مراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني على قضايا البيئة وهم مؤهلون لصياغة مكون البيئة في الرؤية السودانية. خلصت د. بلقيس العشا إلى

<sup>360</sup> جريدة الشرق الاوسط: تقرير البنك الدولي: لا توجد دولة محصنة ضد آثار التغيرات المناخية، الثلاثاء 06 محرم 1434 هـ 20 نوفمبر 2012 العدد 12411، <http://www.aawsat.com>

<sup>361</sup> د. عبد الله علي ابراهيم: العقل الرعوي: أو أنت ساكت مالك آ (يا) طاها بقلم: د. عبد الله علي ابراهيم، 27 نوفمبر 2008 ، سودانيزاون لاينز

بعض التوصيات العامة في التعامل مع قضايا التغيرات البيئية في السودان:

1. تعزيز المرونة حيال تزايد تغيُّرات تساقط الأمطار في المروج والمراعي؛
2. إعادة تأهيل الموارد المائية وتجميع المياه في منطقة البطانة وولاية القضارف؛
3. الحدّ من ضعف المجتمعات في المناطق المعرضة للجفاف والقحط في جنوب دارفور وذلك من خلال تحسين تجميع المياه؛
4. تحسين الممارسات الزراعية المستدامة وسط تزايد ضغط الحرارة في ولاية نهر النيل؛
5. الحفاظ على البيئة وإعادة تكوين التنوع الحيوي في شمال ولاية كردفان وذلك كآلية مواجهة في حماية المروج والمراعي وسط ظروفٍ تتزايد فيها تغيّرية المناخ.

كما طرح موقع [sudanvision](http://sudanvision.info/) بعض الافكار في قضايا البيئة: يهتم العالم والمواطن السوداني اليوم اهتماما كبيرا بقضايا البيئة، وينظر بعين القلق البالغ للإنهيار البيئي الخطير في السودان، والإهدار البالغ للموارد الطبيعية، ويعمل على التعامل الايجابي مع هذه القضية عبر حزمة الإجراءات التالية: إنشاء وزارة خاصة لحماية البيئة والموارد الطبيعية، الاهتمام بقضايا الطاقة البديلة ومشاريع الطاقة الخضراء، صياغة مشروع قومي لمواجهة التدهور البيئي في السودان، وإنشاء مركز قومي لدراسات البيئة يكون مقره دارفور، وإعادة تأهيل المؤسسات المشرفة علي هذه المواجهة وإنشاء مؤسسات اخري جديدة، وتوفير كل الموارد لها ونشر الوعي البيئي من خلال وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية ومنظمات المجتمع المدني المختلفة، ودعم ذلك الجهد من قبل الدولة<sup>362</sup>.

مازالت تكنولوجيا الطاقة البديله في مراحلها الأولى، عالميا وفي السودان. لا بد أن يضع السودان الطاقة البديله في اولوياته لانها تساهم في دعم كافة الكفاءات الاساسية الأخرى. إننا مدعوون لتخصيص المزيد من الاعتمادات لتطوير جهود البحث والبدء في إنتاج الأجهزة نفسها<sup>363</sup>.

<sup>362</sup> [http://sudanvision.info/?page\\_id=22](http://sudanvision.info/?page_id=22)

<sup>363</sup> د. سعود يوسف عياش: تكنولوجيا الطاقة البديلة، عالم المعرفة، فبراير 1981



## اتجاهات المستقبل في التعامل مع الكفاءات الأساسية

ناقشنا في هذا الجزء أهم الكفاءات الأساسية التي تتوفر في الوطن ، والتي يمكنها أن تؤسس لرؤية بناء الوطن مبنية على الدولة المدنية الديمقراطية ودوله العدالة الاجتماعية. تشير كافة التجارب الناجحة السابقة للدول التي انتقلت من مثل وضع بلادنا إلى طرق المستقبل، أن الرؤية تبدأ من حزمة كاملة من الإصلاحات السياسية/الاقتصادية والاجتماعية. إن هذه الإصلاحات، التي يجب أن نصل لها باتفاق وطني كامل، ستهيئ البلاد وبيئتها الاقتصادية بصورة ملائمة لازدهار الأعمال.

لقد بحث د. أحمد السيد النجار في الأعمال المطلوبة<sup>364</sup>، وحددها في نمو الأعمال الصغيرة والمتوسطة والتعاونية في قطاع الصناعة التحويلية وبالذات التصنيع الزراعي، الحيواني وصناعات النسيج وغيرها مما تمدنا به الكفاءات الأساسية. ولا بد أن تخاطب الرؤية الصناعات عالية التقنية، كل ذلك من خلال سياسات مصرفية ومالية ونقدية تصمم لتؤدي إلى تحقيق هذا الهدف.

## الجزء الثالث

<sup>364</sup> أحمد السيد النجار: رجل الأقدار.. مهمة إنقاذ الأمة وبناء نظام يرتقى لقامتها، الثلاثاء 9 مارس 2010 ، <http://www.shorouknews.com/columns>



## رؤي الآخرين



الفصل الأول: تجارب صناعة الرؤية

الفصل الثاني: كيف صنع الآخرون رؤيتهم



## الفصل الأول: تجارب صناعة الرؤية

إن تناولنا لتجارب الدول ليس من أجل ان نتحسر على ماضينا، ولكن لأن المسارات التي اتبعتها هذه الدول لازالت صالحة لحل قضايانا المعلقة عبر السنوات، إذا اتبعنا المناهج التي اتبعوها واستفدنا من تجربتهم الغنية. لقد اثرت التجربة الهندية في الاستقلال على أجيال من السودانيين لدرجة أنهم اسموا تنظيمهم الأول مؤتمر الخريجين على هدي المؤتمر الهندي، وتمت صياغة دستورنا الإنتقالي الأول (1956) من تجارب الهند، المؤسف أننا لم نتعلم من تجاربهم بعد ذلك. اما ماليزيا فقد دخلت باب السودان من بابين: احدهما ترينا بوضوح تطور الصناعة والتكنولوجيا وامكانيات شركة بتروناس الماليزية التي تعمل في شؤون النفط في أكثر من 30 بلدا في العالم، الباب الآخر هو ظهور ماليزيا كفردوس آمن سواء للفوائض عند سوداني الإنقاذ، ملجأ للإستثمار لكوادر النظام والذي شاع في الصحف والوسائل الالكترونية (عندما زارت زوجتي ماليزيا لحضور مؤتمر قالت لها موظفة الجوازات، عندما عرفت انها من السودان، انها قادمة من دوله غنية).

لذلك سنبدأ من الغوص في التجارب العالمية المميزة لدول كانت اقرب إلينا واستطاعت الانطلاق للمستقبل وندرس مسيرتهم. وقد استعنا بملخصات لاستعراض الدكتور عبد الكلام - ابو الرؤية الهندية 2020 - لتجارب رآها مفيدة وتشمل ماليزيا وكوريا الجنوبيه<sup>365</sup>. سوف اضيف من المنطقة رؤية دبي وسلطنة عمان باعتبارها

---

<sup>365</sup> أصبح أبو بكر زين العابدين عبد الكلام مشهور باسم عبد الكلام هو رئيس سابق للهند ترتيبه الحادي عشر في تولي هذا المنصب من بين رؤساء الهند حيث ترأس بلاده من 2002 وحتى 2007. قبل توليه الرئاسة كان أحد أبرز علماء ومهندسي الهند، تولى عبد الكلام مناصب عديدة من أهمها الإشراف المباشر على مؤسسات تطوير الأبحاث العسكرية في إطار مؤسسة "منظمة الأبحاث والتطوير الدفاعية"، وعمل جاهدا على بناء الصناعات الصاروخية العسكرية حتى بات يعرف بـ"الأب الروحي" للصواريخ الهندية. وهو الرئيس المسلم الثالث في التاريخ الهندي

تجارب ناجحة في منطقتنا وقريبة لفهمنا وتتشابه ظروفنا لحد معقول. التركيز الاساسي في دراسة التجارب والاستفادة من عملية صناعة الرؤية ستكون تجربة الهند نفسها باعتبارها أكثر التجارب توثيقاً وللتشابه الكبير في الظروف الاقتصادية والإجتماعية مع السودان<sup>366</sup>. سوف نتعرض أيضاً في تناولنا لتجارب الهند، ماليزيا، جنوب افريقيا لدراسة جيدة وشاملة اعدّها مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، التابع لمجلس الوزراء المصري. سوف نتعرض للهند وماليزيا في فصلين لاهمية الاحاطة بتطور تجربتهما الكامله<sup>367</sup>.

## كوريا الجنوبية

كوريا الجنوبية بلد فقير من ناحية مواردها الطبيعية، فحوالي 80% من اراضيها جبلية، بها كثافة سكانية كبيرة وتخلو من المواد الخام بشكل شبه كامل. منذ نحو اربعة عقود مضت، لم تكن كوريا الجنوبية في مصاف الدول التي يعتد بها ولقيت كوريا بعض الاهتمام خلال الحرب الكورية في الخمسينات، واستفادت من مشروع مارشال في سنواتها الأولى ثم ذهبت إلي غياهب النسيان.

عانت كوريا أضراراً واسعة النطاق ابان الاحتلال الياباني خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت تعتبر من قبل العديد من الدول بلداً فقيراً حتى انها اعتبرت بلا أمل او مستقبل كما أنها عانت من التقسيم. على الرغم من هذا، فقد تطورت كوريا الجنوبية واصبحت لاعباً عالمياً رئيسياً في غضون سنوات قليلة في بعض القطاعات الاقتصادية الرئيسية التي تستخدم التقنيات الحديثة، من إنتاج الصلب، بناء السفن والسيارات والالكترونيات. لقد ظن كثيرون من إقتصادي الغرب أن هذه إستراتيجية خاطئة، لأن البلد لم يكن لديه الكفاءات الأساسية الطبيعية في أي من هذه المجالات.

---

الحديث بعد الدكتور ذاكر حسين الذي كان أول رئيس مسلم للبلاد في الفترة من 1967 إلى 1969 ، والدكتور فخر الدين علي أحمد الذي تولى الرئاسة ما بين عامي 1974 و 1977

366 A.P.J. Abdul Kalam With Y.S. Rajan: India 2020: A vision for the New Millennium, Penguin Books

India Pvt Ltd, 11 Community Centre, Panchsheel Park, New Delhi, 110 017, India, 1998

<sup>367</sup> مركز الدراسات المستقبلية بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء: المستقبل في عيون العالم، نشرة ربع سنوية السنة الثانية - العدد 5 - مارس 2012، WWW.future.idsc.gov.eg

ولكن كوريا الجنوبية دولة ذات إرادة استطاعت تحقيق النجاح في جميع هذه المجالات. لقد تحولت كوريا الجنوبية، لتصبح مقراً لشركات متعددة الجنسيات هائلة في هذه المجالات وكذلك في بلدان أخرى عديدة. وقد تحسنت نوعية حياتهم بشكل كبير خلال عقدين من الزمن وارتفع دخل الفرد إلي حوالي 10,000 دولار أمريكي.

جاء احد الطلاب الكوريين الجنوبيين إلي مصر لتحضير رساله دكتوراه (دراسة مقارنة عن التنمية الصناعية في كوريا الجنوبية ومصر بين عامي 1952-1975). وقد خلص في الدراسة إلي أن الاقتصاد المصري في تلك الفترة كان يساوي عشرين مرة الاقتصاد الكوري الجنوبي. مرت السياسة الاقتصادية لكوريا الجنوبية بأربع مراحل: ففي خمسينات القرن السابق كانت مرحلة تشجيع الإنتاج الوطني وحمايته من المنافسة الأجنبية، وفرض قيود جمركية على الواردات، ثم انتقلت في خلال الستينات إلي مرحلة تقوية الصادرات وفي خلال السبعينات لبناء الصناعات الثقيلة. منذ الثمانينات دخلت كوريا إلي مرحلة تطوير الصناعات العالية التكنولوجيا. تصنف كوريا الجنوبية حالياً في المرتبة العاشرة بين أغني دول العالم، بعد أن صنفت كواحدة من أفقر ثلاث دول في آسيا في منتصف القرن الماضي<sup>368</sup>.

اتفق كل الدارسين للتجربة الكورية انهم قد نظروا لحاله بلادهم وركزوا على ما يمتلكونه بكثافة، القوى البشرية. لقد قامت الرؤية الكورية بشكل اساسي على الاهتمام بالتعليم، ويعتبر البحث العلمي أهم مرتكزات تطور الصناعة الكورية، لذلك تنفق عليه الدولة حوالي 7.1% من الناتج الاجمالي المحلي، محتله المرتبة الأولى عالمياً، وتساهم الشركات بحوالي 53% من هذا الانفاق متفوقة على الشركات العالمية. بفضل هذا الدعم المالي للبحث العلمي، تقدمت كوريا الجنوبية بحوالي 5935 طلباً لبراءات الاختراع للمنظمة العالمية للملكية الفكرية، محتله المرتبة الرابعة عالمياً (الولايات المتحدة في المرتبة الأولى تليها اليابان ثم بعدها ألمانيا).<sup>369</sup>

عندما صممت كوريا على أن التعليم هو المفتاح الوحيد للنجاح في الحاضر والمستقبل، كان ما جاء بعد ذلك هو الذي يدعو للفخر والاعتزاز من الكوريين. لقد

<sup>368</sup> عصام رفعت: لماذا تفوقت كوريا الجنوبية، صحيفة الأهرام المصرية بتاريخ 22 نوفمبر 2010  
<sup>369</sup> [http://webcours.blogspot.com/2008/07/blog-post\\_1237.html](http://webcours.blogspot.com/2008/07/blog-post_1237.html)

ظهر ذلك في تصميمهم الشديد والالتزام الصارم بما قطعوه على انفسهم. المشهور في الإجراءات التي قامت بها كوريا الجنوبية للنهضة بتعليمها انها كرسست سنواتها الأولى في الإستثمار على التعليم ووقوفت الصرف على كافة القطاعات – الا في حدودها الأدنى- لمدة خمس سنوات.

وضعت كوريا الجنوبية كل ثقلها لبناء نظام تعليم متطور بدأ من تعليم الأطفال في الروضة والتمهيدي حتى المرحلة الثانوية. ركزت كوريا الجنوبية على تعليم الرياضيات والعلوم، هذا بالإضافة إلي تعليم اللغة الانجليزية إيماناً منها بأن اللغة الانجليزية هي لغة العلم والتقدم والرفي دون نسيان للغتها القومية. تبنت الوزارة رؤية تتمحور في "بناء وطن متقدم من الدرجة الأولى". ومن اجل تحقيق ذلك قامت كوريا بعمل عدد من الإجراءات، منها: توسيع الإستثمارات في قطاع التعليم، إصلاح نظام التعليم وخاصة النظام الجامعي، تحسين البيئة المدرسية وخاصة المرافق المدرسية، تأهيل المدرسين بكفاءات عالية الجودة، التركيز على العلوم والرياضيات، إعادة بناء المناهج الدراسية وتطويرها والتركيز على التعليم الجامعي الفني<sup>370</sup>.

### سيناريوهات جنوب أفريقيا 2025 : المستقبل الذي نختاره؟

اتخذت جنوب افريقيا مساراً مختلفاً لظروفها الخاصة كبلد خارج من نظام عنصري. تضمنت ثلاثة سيناريوهات مختلفة قد تسلكها جنوب أفريقيا خلال الأعوام القادمة وحتى عام 2025 . وتكمن قوة هذه السيناريوهات في قدرتها على استثارة الأذهان للتفكير فيما يمكن أن يحدث في المستقبل، وفي مساهمتها بجميع الاحتمالات المختلفة بشكل من الصعب الوصول إليه دون تكامل جميع جوانب الرؤية المستقبلية. تسمح هذه السيناريوهات أيضاً بالتعرف على الإشارات الضعيفة التي يمكن أن تعرقل أفضل عمليات التخطيط وأكثرها شمولاً. وقد تم تصميم هذه السيناريوهات، بحيث تساعد في التعرف على العوائق، الخيارات والمتغيرات التي يمكن أن يتم تبنيها أو تجنبها. استخدمت هذه الرؤية منهجية السيناريوهات كجزء من عملية التفكير، بشأن ما يمكن وما يجب فعله في الحاضر وفي المستقبل بهدف تجنب العقبات، المخاطر

<sup>370</sup> سعيد بن عيد العنزي: سياسة كوريا الجنوبية التعليمية و الخطاب السياسي، <http://www.dr-saud-a.com>

والاختناقات، وتحقيق أفضل النتائج التي من الممكن أن تكون أبعد مما يمكن تخيله في الحاضر.

### دبي: رؤيتي.. التحديات في سباق التميز

عرض سمو الشيخ محمد بن راشد، نائب رئيس الدولة و حاكم دبي رؤيته، التي تقوم على تحقيق الامتياز والانتقال بالإمارات ودبي من دورهما كمركز إقتصادي إقليمي، إلي القيام بدور حيوي كمركز إقتصادي عالمي، مع التركيز على قطاعات الخدمات المتميزة، السياحة، اقتصاد الفكر والمعرفة والطاقة البشرية المبدعة. تم الاعتماد في صياغة مادته على المعايضة اليومية للتنمية ذات المواصفات الدولية العالمية، التجربة الذاتية، والعمل الدؤوب لرفعة الشعب والوطن.<sup>371</sup>

### تجارب الدول المماثلة للسودان

سوف اتعرض بنوع من التفصيل، في هذا الفصل، إلي بلدين من الدول التي شابهت السودان كثيرا في اقدارها ومشاكلها. فكل هذه البلاد كانت مستعمرة بريطانية، نالت استقلالها في وقت مقارب وتبنت ديمقراطية وستمنستر والنظام العلماني. جميعها ورثت اقتصاداً لانتاج المواد الخام وقليلاً من الصناعة، نظام تعليم معاصر وقادر على سد احتياجات الدولة من الكفاءات المطلوبة وبجودة عالية وان بكميات قليلة عددياً، خدمة مدنية عالية الكفاءة والانتظام والقدرة، قوات امنية (جيش، شرطة وامن) محترفة وخارج الفعل السياسي المباشر ومنضبطة.

كما واجهت نفس التحديات من قضايا الهوية من تعدد الاعراق، الاديان والثقافة، دور الدين في السياسة والمجتمع وقضايا التنمية بشكل عام. استطاعت الهند وماليزيا، وبصعوبات كبيرة من مواجهات وحروب أن تضع نفسها على طريق المستقبل، وتنتقل إلي أن تصبح في عداد الدول المتقدمة بنهاية هذا العقد. من نفس القضايا - وكما اطلنا الشرح في الجزء الأول من كتاب الرؤية السودانية - انطلق السودان، لكن

---

<sup>371</sup> الشيخ محمد بن راشد: رؤيتي.. التحديات في سباق التميز المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006

أوصلتنا السياسات الخاطئة وفقدان الرؤية الصائبة، إلي تقهقرنا في سلم الدول من دولة نامية إلي دولة فاشلة.

هذه بعض الملامح العابرة عن النموذج النهضوي الماليزي ولكن لماذا المقارنة بينه وبين السودان؟ حين يقارن أي شخص منصف ملامح التشابه بين السودان وماليزيا يجد الكثير منها من جهة استناد الوجود البشري في الدولتين على التعدد العرقي، الديني والثقافي، وهو واقع أكثر تعقيداً في حاله ماليزيا، وفي الواقع السياسي وخضوع البلدين للاستعمار البريطاني ونيلهما الاستقلال في وقت متقارب في النصف الثاني من خمسينات القرن الماضي.

تناول خالد التيجاني في مقال بعنوان لماذا نهضت ماليزيا وتعثر السودان<sup>372</sup> وأشار إن ثمة فارق كبير بين غنى السودان بموارده الطبيعية، وفقر أو لنقل محدودية مصادر ماليزيا في الموارد الطبيعية، قد أفلحت ماليزيا التي تأتي متأخرة الترتيب في قائمة الدول من ناحية الموارد الطبيعية في أن تحتل مركزاً متقدماً كسابع عشر أكبر اقتصاد عالمي، ثم تجد السودان الذي يعد من بين أغنى عشر دول في العالم من حيث حجم مساحته ووفرة موارده يتدحرج ليكون من ضمن قائمة الدول الفقيرة.

عند الاستقلال عام 1957 كانت ماليزيا تتكون من شعب متعدد الاعراق والثقافات والاديان، الملاويون (وهم السكان الاصليون في البلاد) يمثلون حوالي 55% وكلهم تقريباً مسلمون. الصينيون الذين استوطنوا البلاد منذ حوالي 600 عام كانوا سكان المدن والمسيطرون على الاقتصاد والتجارة، وكان عددهم حوالي 37% من السكان عند الاستقلال ومعظمهم بوذيون. الهنود الذين استوردتهم البريطانليون لزراعة المطاط شكلوا حوالي 10% ومعظمهم هندوس<sup>373</sup>.

واجهت ماليزيا كافة القضايا التي طرحت على الدول المستقلة، واستطاعت عبر ازِمات، توترات، حنكة ودراسة ان تضع قدمها على الطريق الذي جعل منها ماليزيا اليوم. خلال خمسة وخمسين عام (1957-2012) قاد ماليزيا ستة رؤساء وزارة فقط

<sup>372</sup> الشيخ محمد بن راشد: رؤيتي.. التحديات في سباق التميز المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006

<sup>373</sup> عمر الرفاعي (ترجمة): خطابات مهاتير محمد، مكتبة الشروق الدولية، روكسي، القاهرة، 2007



وهو ما يشير إلى حالة الاستقرار النسبي الذي عاشته ماليزيا.

القضية الاخطر التي واجهها الماليزيون هو وضع الاعراق الثلاث وقانونيتها في الدولة. عند الاستقلال كان الملاي يعيشون في القرى والأرياف ولم يكن نصيبهم في الاقتصاد يزيد عن 2% وكانوا يعانون من الجهل والفقر، يشعرون بقلق بالغ على مصيرهم وبحاله من عدم الثقة بالصينيين. وكان الصينيون هم سكان المدن، المسيطرون على الاقتصاد والتجارة وكان عددهم كبيراً (37 % من السكان عند الاستقلال). في الوقت نفسه، كان الصينيون يشعرون بقلق بالغ على مستقبلهم، إذا لم يُعترف بهم كمواطنين ماليزيين، وكانوا يخشون أن تؤدي سيطرة الملاي إلى الانتقاص من حقوقهم، أو مصادرة أملاكهم وثرواتهم.

كان العقد الإجتماعي الذي استطاع الماليزيون تطويره، هو أحد عناصر نجاح التجربة، وأحد ضمانات استمرارها. الاعتراف بالتنوع العرقي والديني، الاعتراف بوجود اختلافات حقيقية في مستويات الدخل والتعليم بين فئات المجتمع، التوافق على ضرورة نزع فتائل التفجير وعلاج الاختلالات بشكل هادئ وواقعي وتدرجي. كان جوهر فكرة علاج الاختلالات مبنياً على تحقيق التعايش السلمي وحفظ حقوق الجميع. والفكرة مبنية على أساس زيادة أنصبة جميع الفئات، وإن بدرجات متفاوتة، حل مشكله المحرومين من خلال عملية الزيادة والتوسع وليس من خلال مصادرة حقوق الآخرين أو التضييق عليهم. أي أن الفكرة مبنية على أساس "تكبير الكعكة"، وليس على أساس التنازع عليها.

كان تنكو عبد الرحمن أول رئيس للوزراء وبطل الاستقلال. وهو الذي استطاع ان يحقق هذا التوافق بين جميع فئات المجتمع في ماليزيا. ونجح في بناء علاقات وثيقة وتفاهات مع قيادات الصينيين والهنود اعترف فيها هؤلاء بعدد من المزايا للملاي، في مقابل اعتراف الملاي بحقوق المواطنة الكامله للصينيين والهنود. ونجح تنكو عبد الرحمن في بناء التحالف من الأحزاب الكبرى الممثل للاعراق الثلاث.

كان أساس التوافق أنه للوصول إلى حالة من الاستقرار السياسي والإجتماعي، فلا بد أن تُتاح الفرصة للملاي للحصول على حصة عادله من ثروة بلادهم، وأن تعطي لهم ضمانات بأن قيادة النظام السياسي ستكون بأيديهم. ولأن الملاي لم يكونوا يملكون

إمكانات مادية ذاتية، فقد جعل نظام الحكم من مسؤوليته إعطاء مزايا وحوافز للملاي في الاقتصاد والتعليم والعمل الحكومي؛ تتيح لهم مع الزمن السيطرة على جزء معقول من الاقتصاد. في الوقت نفسه، اعطي النظام ضمانات المواطنة الكاملة للصينيين والهنود، وأكد أن تحسين أوضاع الملاي لن يكون بتعويق أو إضعاف أوضاع غيرهم، وأن غير الملاي يستطيعون المحافظة على ثقافتهم وعاداتهم، وأن تكون لهم مدارسهم، التي يستخدمون فيها لغتهم المحلية إلى جانب اللغة الماليزية.

لم يكن لدى قيادات الصينيين والهنود مانع من إعطاء بعض المزايا والحوافز للملاي، لأنهم يعلمون أن انفجار الملاي، نتيجة الشعور بالظلم والاستغلال، سيدمر كل ما بنوه، ولأن النصيب الذي سيأخذه الملاي سيكون ناتجاً عن عملية التوسع والنمو الإقتصادي، وهو ما يعني أنه ستتاح الفرصة للصينيين والهنود أيضاً لزيادة ثرواتهم.

ونواصل مع خالد التيجاني الذي يرى أنه مع ذلك لم تمض الأمور على نحو مثالي وبدون تحديات. فالنظام السياسي الماليزي على شموله في استيعاب الواقع التعددي العرقي للبلاد، لم يلغ الحساسيات والتوترات العرقية ولكن نجح في تهديب مطامحها المشروعة وطرق التعبير عنها. عندما انفجرت الاضطرابات العرقية عام 1969م بعد أن أحس أهل البلاد الأصليين من الملاي أن الاستقلال السياسي لم يغير واقع الفوارق الإقتصادية المائل لصالح الماليزيين من أصل صيني. وهكذا تم استنباط إطلاق السياسة الإقتصادية الجديدة "NEP" التي قدمت رؤية إقتصادية يستهدف من خلالها تحقيق تقدم إقتصادي للجميع، مع تحسين وضع الملاي الذين كانوا يعانون من الفقر مقارنة بالصينيين والهنود، وتوفير صمام أمان للجميع يمنع تكرار الاضطرابات.

## الدين والدولة

موضوع علاقة الدين بالدولة، في بلد متعدد الأديان، الأعراف والثقافات، أمر يتسم بالحساسية والدقة. تم الاتفاق على علمانية الدولة، وعلى ضمان الحريات والحقوق الدينية والثقافية لمختلف الطوائف. وأصبح ذلك نوعاً من "العقد الإجتماعي" الذي ارتضته مكونات المجتمع الماليزي، كما أن العديد من النصوص القانونية اتخذت شكلاً رمزياً، لا يمس جوهر النظام العلماني، وظلت التطبيقات القانونية الإسلامية

محصورة، مثل معظم بلدان العالم الإسلامي، بقانون الأحوال الشخصية الذي لا يُطبق على غير المسلمين.

من نجاحات الدكتور مهاتير الملهمة، تلك المتعلقة بالبعد الإسلامي في النموذج الماليزي، فهو لم يخرج من عباءة أيٍّ من تلك الجماعات التي ترفع شعارات النماذج الإسلامية المعروفة في المنطقة العربية، أو تلك التي تحتكر الحديث باسم المشروع الإسلامي، ومع ذلك نجح باجتهادات تجديدية خلاقة أكثر فهماً لمقاصد الإسلام في إقامة دوله متقدمة ومجتمع إسلامي متحضر، وبرز النموذج الماليزي أكثر تمثلاً لقيم الإسلام وأكثر نجاحاً في رفع رايته.

لقد نجح النموذج الماليزي، في إثبات أن الحضور المؤثر والفاعل للهوية والسلوك الإسلامي في الحياة، لا تستند بالضرورة على حتمية وجود قاعدة قانونية أو دستورية، نحو ما تتعسف الحركات الإسلامية في المنطقة العربية في اختزال تصور لها لسيادة الدين، فالذي يحض على ذلك ليس سيف القوانين المسلط على الرقاب بل القدرة على تمثّل قيم الإسلام الرفيعة في النفوس وفي الممارسة.

### **النظام السياسي الماليزي**

شهدت السنوات الأولى من الاستقلال نزاعاً مع اندونيسيا حول تشكيل ماليزيا، وخروج سنغافورة في نهاية المطاف في عام 1965، حافظت ماليزيا منذ ذلك الحين على توازن عرقي وسياسي دقيق، مع نظام حكم يحاول الجمع بين التنمية الاقتصادية الشاملة، السياسات الاقتصادية والسياسية التي تعزز المشاركة العادلة لجميع الأعراق المشكّلة للبلاد،

تهيأ لماليزيا عدد من القيادات السياسية المتميزة منذ الاستقلال وحتى الآن. تميزت هذه القيادات بأنها مثقفة ومتعلمة، وقادرة على العمل لتحقيق المصالح الكلية للدولة، في ضوء استيعاب عميق لتعقيدات الوضع الداخلي وحساسياته، ولمجموعة الحسابات الإقليمية والدولية. كان من أهم مزايا القيادة الماليزية أنها تعرف ماذا تريد، وأنها لا تبالغ في تقدير الإمكانيات المتاحة، وهي مستعدة للعمل الحثيث التدريجي الهادئ، ولو اتسم أحياناً بالبطء، فإنه كان يسير في الاتجاه الصحيح.

ورثت ماليزيا نظام وستمنستر البرلماني (يوصف انه نظام ديموقراطي تحت السيطرة). أن التكوين الطائفي والعنقي شديد التعقيد والحساسية، جعل القيادة السياسية ترى أنها بحاجة إلى استقرار سياسي، أممي، إجتماعي وإلى توفير البيئة المناسبة للتمكن من تحقيق نمو إقتصادي تستفيد منه كافة شرائح المجتمع.

نجح تنكو عبد الرحمن في بناء التحالف من الأحزاب الكبرى وهو ما شكّل أساس فكرة التوافق و"اقتسام الكعكة" بين مختلف الأعراق. تشكلت من هذه الأحزاب، وأخرى انضمت فيما بعد، تحالف متعدد الأحزاب المعروفة باسم باريسان ناسيونال (عرف سابقاً باسم التحالف) وعلى أساس هذه الفكرة ما زال حكم ماليزيا قائماً.

كما فعلت الهند فقد نجحت ماليزيا في تجنب استخدام القوات المسلحة لحسم الخلافات، باحتكار القوة لفئة للسيطرة على الحكم في البلاد وفرض سياسات بعينها، ولم يقفز قادتها ولا قواها السياسية على المراحل ولم يستخدموا الجيش في صراعاتهم السياسية أو حل المشكله العرقية.

ويلاحظ محبوب عروة<sup>374</sup> في عموده قولوا حسناً: ماليزيا.. معجزة الازدهار والانسجام العنقي إن قادة القوات المسلحة، كما اشار مهاتير، لعبوا دوراً أساسياً ومحورياً في مجلس العمليات القومي الذي شكل للتعامل مع اضطرابات عام 1969م العرقية ولكنهم ترفعوا عن المطالبة برئاسته وأوكلوا ذلك لشخصية مدنية، ويقول مهاتير إن الجيش والشرطة حافظا على رباطة جأشهما ومهنتهما ولم ينساقا إلى المغامرة بتسلّم السلطة من المدنيين أو أنتزاعها منهم على الرغم من أن الطريق كان ممهداً أمامهما لذلك، واستمرا في تلقّي الأوامر من السياسيين في الحكم.

اعطت الحكومة الماليزية اهتماماً كبيراً للتعليم والتدريب، وعادة ما يغطي هذا البند نحو 29 - 23% من الميزانية السنوية العامة للدولة أو من نفقاتها الكلية. تُعدّ هذه الميزانية من أعلى معدلات الميزانيات التي تُمنح للتعليم في العالم، وهي تتقدم في هذا المجال على الولايات المتحدة ومعظم دول أوروبا الغربية وغيرها. وتظهر قراءة مقارنة أن ما تنفقه ماليزيا على التعليم يبلغ عادة نحو ثلاثة أضعاف ما يُنفق على

---

<sup>374</sup> محبوب عروة: قولوا حسناً: ماليزيا.. معجزة الازدهار والانسجام العنقي، السوداني، الخميس، 03 مايو 2012

## الجيش والدفاع.

أحد القضايا التي واجهتها الدولة الوليدة هي التعامل مع الإدارة الإستعمارية. لم يدرّب البريطانيون الموظفين الوطنيين تدريباً كافياً، لذلك فقد سمح للموظفين البريطان بالبقاء في مناصبهم وتدريب الماليزيين واكتساب المعارف الضرورية. لقد سمح هذا بأن تصبح الخدمة المدنية ذات مهنية واحتراف عالي. وقد رافق هذا تشجيع الإستثمار الأجنبي منذ البداية على أسس الاستفادة العلمية من المعارف المتوفرة. لقد نظرت ماليزيا حولها شرقاً، إلى اليابان وغرباً إلى الدول المتقدمة واستحضرت منذ البداية أن طريق التقدم هو التصنيع. يرى الفريق المتقاعد عبد الغني عزيز (القائد السابق لسلاح الطيران الماليزي) أن أبرز أسباب نجاح التجربة الماليزية كان في وجود نظام خدمة مدنية حكومية ذي كفاءة عالية. ويُنْبَه إلى أن رؤساء الوزراء الثلاثة الذين سبقوا مهاتير كانوا من موظفي الخدمة المدنية.

عندما سأل الباحث مهاتير عن ذلك قال: "نعم، إنهم متدربون، ولدينا مؤسسات تدريبية جيدة جداً تهتم بالارتقاء بمستواهم..... أنك عندما تصدر أمراً تتأكد وتطمئن أنه يجري تنفيذه.... إنه يجب أن تكون لديك إدارة جيدة وأن تواجه الفساد. وحتى تمنع الفساد يمكن أن تضع بعض القوانين الصارمة...، ولكن الأهم من ذلك هو "تطوير نظام إداري يكون واضحاً جداً... أنهم في ماليزيا حددوا بدقة مجموعة الإجراءات التي يجب اتخاذها لتنفيذ أي عمل، والزمّن الذي يستغرقه ذلك، وصلاحيات الموظفين، فإذا لم يَقم الموظف بما حُدّد له بدقة وضمن الزمن المحدد... سيحاسب ويُتخذ الإجراء اللازم بحق"<sup>375</sup>.

وأوضح أنه يوجد في ماليزيا مؤسسة رسمية تكافح الفساد، لكنه نبه إلى أن أهم شيء هو الإجراءات، ولذلك يوجد في الحكومة دليل الإجراءات، يُحدّد بدقة الإجراءات اللازمة لكل عمل. كما كان هناك اهتمام بالإنضباط الوظيفي، بما في ذلك التزام الموظفين بتوقيع دخولهم وخروجهم من العمل، وبوضع إشارة على صدورهم تعرف بأسمائهم، وعدم استثناء أي شخص، بما في ذلك القضاة والوزراء وحتى رئيس الوزراء نفسه.

<sup>375</sup> د. خالد التيجاتي: لماذا نهضت ماليزيا وتعثر السودان، مرجع سابق

## التجربة الهندية

حين تتقدم أية أمة في التاريخ لتنازع على احتلال مرتبة الدولة العظمي، فإن هذا يعني أنها قد حسمت بالفعل أمرها حيال مجموعتين من العوامل. الأولى تجسدها عوامل القوة الخارجية من اقتصاد معافي، وقوة عسكرية قاهرة ورساله أيديولوجية قادرة على غسل القلوب والأدمغة وشحنها بحزمة من الآمال والتطلعات. لا تصبح لهذه العوامل فاعلية إلا بعد أن تكون الدولة قد أمسكت بزمام المجموعة الثانية من العوامل والتي تمثلها مصادر القوة الداخلية، وفي مقدمتها رقعة جغرافية واسعة تضم تنوعاً من الثروات والمواد الخام، وقوة ديموغرافية متجددة تتألف من جماعات بشرية طموحة ومتجانسة. فهل استطاعت الهند أن تحسم عوامل القوة الداخلية والخارجية<sup>376</sup>.

## الهند الجيوسياسية

تنتم الهند بئراء طبوغرافي وموارد بشرية معتبرة، وموقع جيواستراتيجي مثالي، كما تطل الهند على طرق بحرية تربط أوربا والشرق الأوسط الغني بالنفط من ناحية بدول الازدهار الإقتصادي كالصين واليابان وبقية دول آسيا الشرقية من ناحية أخرى. إلي جانب تنوعها اللغوي، الديني والثقافي، تنتم الهند بتنوع كبير في مظاهر سطح الأرض.

تتكون الهند من ولاية وسبعة أقاليم إتحادية مع وجود نظام برلماني ديموقراطي. وتمتلك ثاني عشر أكبر اقتصاد في العالم في سوق صرف العملات، ورابع أكبر قوة شرائية في العالم. وقد حولتها الإصلاحات الإقتصادية منذ عام 1991 الي واحدة من أكبر الاقتصادات نمواً، ومع هذا لا تزال تعاني من مستويات عالية من الفقر، الأمية وسوء التغذية نظراً للكثافة السكانية الهائلة. الهند مجتمع متعدد الديانات، كما أنه متعدد اللغات ومتعدد الأعراق والهند أيضاً هي موطن التنوعات في الحياه البرية بأنواع عديدة من المحميات.

---

<sup>376</sup> عاطف معتمد عبد الحميد: المسلمون في الهند .. عقبة مانعة أم قوة دافعة، الهند عوامل النهوض وتحديات الصعود، مركز الجزيرة للدراسات - الملفات البحثية - سلسلة دراسات القوى الصاعدة

إن دستور الهند، هو من أطول وأكثر الدساتير في العالم شمولاً، والذي دخل حيز التنفيذ في 26 يناير 1950. مقدمة الدستور تعرف الهند باعتبارها دولة ذات سيادة. تمتلك الهند مجلسين تشريعيين برلمانيين يعملان بنظام وستمنستر البرلماني. لدى الهند ثلاث مستويات قضائية متكاملة، المحكمة الدستورية، محاكم عليا وعدد كبير من المحاكم الابتدائية. أن الدور المطلق كمفسر للدستور هو أهم مهام المحكمة العليا.

أخذت الهند، التي تتكون من أعراق، طوائف، أديان متعددة وتسوده لغات ولهجات متعددة، بالنظام العلماني الديمقراطي منذ قيام الدولة الهندية عام 1947. ومن ثم رأت مؤسسة الدولة الهندية أن النظام الديمقراطي العلماني بقيمه، آلياته ووسائله المعروفة هو النظام الملائم للحفاظ على كيان الدولة. احترمت القوى السياسية الهندية هذا النظام والتزمت بقواعده التي تتيح أمكانية تداول السلطة، وتعلي من قيمة المواطنة إذ تتيح الفرصة للمشاركة السياسية للمواطنين بغض النظر عن الدين، الطائفة، العرق أو الجنس. تتسم الانتخابات الهندية بحسن التنظيم وعدم التدخل أو التلاعب من جانب أي طرف من الأطراف السياسية للبناء المؤسسي الرسمي<sup>377</sup>.

### الهند من التاريخ إلى الجغرافيا

عندما واجه الهنود الاستعمار البريطاني بعد عديد من المواجهات الدامية، ملأ المشهد السياسي دعوة المهاتما غاندي "اللاعنف" كوسيلة حارب بها غاندي، هذا الرجل النحيل صاحب الروح العظيمة، الذي انتصر على "الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس" ودحر الاحتلال البريطاني عن شبه القارة الهندية. اللاعننف يقوم على أن سلطة الحاكم تعتمد على موافقة الرعية (عقد إجتماعي بينه وبين الرعية)، وإذا فقدت هذه الموافقة بأي شكل من الأشكال السلمية يصبح النظام الإداري للدولة بما يشتمله من مؤسسات كالجيش أو الشرطة عاجزاً عن أداء دوره بسبب عدم الانصياع.

معادله اللاعننف تقول أن السلطة تعتمد على تعاون الآخرين واللاعنف يسعى إلى التقليل من سلطة الحاكم من خلال الانسحاب المتعمد من هذا التعاون والخضوع. على

<sup>377</sup> محمد سعد أبو عامود: الهند: من أكبر مستعمرة إلى أكبر ديمقراطية، الديمقراطية في الهند: الواقع والمستقبل <http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=220274&eid=2>

هذا المنوال سار تلميذه، مارتن لوثر كينغ الذي حرر السود في أمريكا من العبودية والتمييز العنصري بسبب اللون، وهو من الشموع التي أنارت الطريق ليكون أوباما الأسود رئيساً لأمريكا اليوم، وتبعه نيلسون مانديلا المعاصر الذي استطاع أن يتغلب وقابع في سجنه 27 سنة على حكومة جنوب أفريقيا التي أذلت أهله وناسه لأكثر من قرن كامل عبر سياسة الفصل العنصري ضد السود.

تملك الهند ثاني أكبر قوة بشرية بعدد 516.3 مليون فرد. من حيث الإنتاج، يمثل القطاع الزراعي 28٪ من الناتج المحلي الإجمالي، والقطاع الخدمي والصناعي يشكل 54٪ و 18٪ على التوالي. بالرغم من النمو الإقتصادي المهم للهند على مدى العقود الأخيرة، إلا أنها لا تزال تحتوي على أكبر كثافة للفقراء في العالم، وارتفاع معدل سوء التغذية بين الأطفال دون سن الثالثة (46% في عام 2007) أكثر من أي بلد آخر في العالم. توقع تقرير جولدمان ساكس ان "في الفترة بين 2007 حتي 2020، سيتضاعف نصيب الفرد من أجمالي الناتج القومي اربع مرات"، وان اقتصاد الهند سيفوق اقتصاد الولايات المتحدة بحلول عام 2034، ولكن ستظل الهند دولة منخفضة الدخل لعدة عقود، حيث أن نصيب الفرد اقل بكثير من غيره من أقرانه في الدول النامية السريعة النمو الإقتصادي"<sup>378</sup>.

---

<sup>378</sup> أحمد سرور: الهند..المارد النائم: قراءة في المقومات الجيو-سياسية والجيو-إستراتيجية، مركز الجزيرة للدراسات - الملفات البحثية - سلسلة دراسات القوى الصاعدة



## الفصل الثاني: كيف صنع الآخرون رؤيتهم

إنني من الذين يؤمنون أننا يجب إن لانعيد انتاج العجلة، اغلب دول العالم الكبيرة والصغيرة، الغنية والفقيرة وحتى الشركات استطاعت أن تتوصل لرؤية، نحن الذين تاخرنا في الوصول لمحطة البداية. هذه ميزة نسبية ممتازة إذ تتاح لنا تجارب ثرية جدا من دول تفوقنا ودول كانت مثلنا لكنها انطلقت، وتصبح تجاربها دروسا مستفادة نتخطى عوامل فشلها ونعزز عوامل نجاحها. لكن لكي نبدأ من المكان الصحيح لابد من دراسة هذه التجارب بعناية وتركيز. الاختلاف الاساسي الذي نبدأ منه أن الرؤى التي سوف اقوم باستعراضها ارتبطت بقيادة عظام هم الذين طرحوها، روجوا لها، دفعوا اطراف الامة لتبنيها وغالبا كانوا من بدأوا بتطبيقها او الاشراف عليها. ورغم اختلاف الدول فقد تشابهت آليات صناعة الرؤية، لانهم استفادوا من تجارب الغير والسبب الآخر ان هذه الآليات هي قياسية في علم الرؤية.

لن ترتبط الرؤية السودانية بقائد فذ لان المناخ الاجتماعي اختلف تماماً في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فقد فرض تطور وسائل التواصل الاجتماعي (الاتصالات، التويتر، الفيسبوك، المدونات..الخ)، وسائل المعرفة (الانترنت، القنوات الفضائية..الخ) بشكل كبير وشملت اغلب قطاعات الشعب وان بدرجة نسبية، جعلت من الشأن العام، عاما بشكل واضح من ناحية وتشارك فيه مئات الالاف بارائها، ومن الناحية الأخرى فاننا لا نرى حتى هذه اللحظة (مارس 2013) قائدا ذو كاريزما عالية على الساحة استطاع تقديم رؤيا مبدعة لفت الجماهير حولها. إن هذا لايعني عدم امكانية بروز قائد مؤثر عبر تيار فاعل في المجتمع، يستطيع في ظروف خاصة، أن يبلور رؤية مؤثرة في مستقبل السودان. السبب الاخير ان رؤية القائد الفذ د. جون قرنق، مع عدم تبلورها بشكل عملي بعد وفاته، كانت من القوة والتاثير بحيث أن رد الفعل من الجانب الآخر- دعاة العنصرية والمركز- لازالت تشوش على كثير من

القوى السياسية الشمالية، بحيث تجعلها تقلل من اهمية بعض القضايا التي طرحها الراحل.

من ماليزيا، الهند وسلطنة عمان انتجت الرؤية الخاصة بكل بلد من موروث مترام من التخطيط المستمر، وفي الغالب خطط خمسية كانت مكرسة في البداية لحل القضايا العاجله والمتوسطة الاجل التي وجدتھا الدول في مواجهتها عند الاستقلال. التخطيط الإستراتيجي والخطط الخمسية كانت ممارسة شائعة في ذلك الزمان تائراً بالتجربة السوفيتية وبقية بلدان الكتله الاشتراكية ونجاحاتها في البناء المتواصل. في تطورها وانتقال اغلب هذه الدول إلى تلمس القضايا البعيدة الاجل والمستقبلية، وبدء ظهور نظريات الرؤية في مجال الشركات والدول من بعدها تبنت اغلب الدول تطوير رؤاھا. وقد حدث تطوران مهمان في هذه المسيرة لكافة الدول:

أولاً: كانت عملية وضع الخطط خاصة بالقطاعات المختلفة في الحكومات المختلفة، لذلك كانت تقوم بها الاجهزة البرقراطية عن طريق خبراء في المجال المعين (غالباً بمساعدة من منظمات الامم المتحدة او البنك الدولي..الخ)، وتتم مناقشتها في الغالب الاعم بواسطة لجان عليا تنشأ لهذا الغرض وتعرض على الاجهزة السياسية لاجازتها. مع دخول المجتمع المدني كقوى مؤثرة في العمل الوطني وبدء تجذر شعارات المشاركة الجماهيرية وتمكين المجتمعات، بدأت هذه القوى تشارك شيئاً فشيئاً في عملية تطوير هذه الخطط.

اغلب الدول طورت عملية تطوير الرؤية، من مجرد عملية فنية تقوم بها لجان فنية وخبراء والقطاع الحكومي بمفرده، لنقل مركز ثقل تطوير الرؤى الوطنية إلى مؤسسات مستقلة وبمشاركة واسعة ومتنوعة من القطاع الخاص، قوى المجتمع المدني، المنظمات السياسية وحتى الافراد العاديين. نرى هذا كأمثله في الهند، ماليزيا وجنوب افريقيا. إن هذا اصبح ممكن التطبيق لان هناك استقلال حقيقي للمؤسسات المملوكة للشعب ولاتخضع للسلطة التنفيذية وفي نفس الوقت فأن الرؤية عابرة للحكومات والتي يؤدي تداول السلطة إلى تغييرها كل عدد من السنوات.

ثانياً: عالجت الخطط قضايا بعينها خاصة بالقطاعات المختلفة ولتنفيذ مشروعات بعينها. لم تعن الخطط كثيراً برسم صورة المستقبل قدر عنايتها بتحقيق الاهداف

المرسومة بدقة وضمن ميزانيات محددة. الرؤية تمرين مختلف يحتاج لخيال وابداع مجتمعي لتصور حال الوطن في خلال مدة اطول وتحتاج بالضرورة إلي تغييرات محسوسة في المسار العام. ان الخطط تراكم كمي يمكن حسابها بدقة وإحصائيات ومخرجات محددة. الرؤية حشد لكل الطاقات المجتمعية، الرضا الشعبي واقتناع الناس بها لتحقيق تغييرات نوعية شاملة في حاله الوطن. الخطط – رغم أنها تحتاج لقيادة ملهمة- الا إن طبيعتها فنية أكثر من أنها سياسية وتحتاج للكفاءة الادارية من القادة السياسيين.

الرؤية تحتاج إلي قادة من نوع مختلف، عبر عنها نابليون "لا يستطيع أحد أن يقود أفراداً دون أن يقوم بتوضيح المستقبل الخاص بهم، فالقائد هو بائع الأمل". القادة لابد ان يمتلكوا الرؤية، أنهم يشتركون جميعهم في اتجاه الحلم وأن تكون قادرة على دفع الآخرين في المشاركة والمتابعة، أنها تتخلل مكان العمل وتتجلى في الأعمال والمعتقدات والقيم والأهداف.

### كوريا الجنوبية

كتب الدكتور يوسف عبد الفتاح، الاستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة الذي قضى بضع سنوات في كوريا الجنوبية للتدريس في جامعة هانكوك، بحثاً متميزاً حول موضوع المعجزة الكورية التي نظرت الي التعليم علي أنه المفتاح الوحيد للنجاح في الحاضر والمستقبل، واستثمرت في الموارد البشرية باعتبارها أهم عنصر من عناصر الإستثمار. وقد لاحظ أن التعليم مسئولية الجميع لا تنفرد به المدرسة، الكلية أو الجامعة وحدها وإنما، الكل مشارك فيه باعتباره واجباً وطنياً وتشارك المؤسسات العامة، الشركات الخاصة والقطاعات الاعلامية في تحمل هذه المسئولية.

هناك وزارة واحدة للتعليم العام والجامعي تسمى وزارة التربية وتنمية الموارد البشرية، التي تربط التعليم بالإستثمار في الانسان وسوق العمل وفق جودة البيئة التعليمية والبنى التحتية. وأمام كل هذه الانجازات تخطيط دقيق مبني علي رؤية واضحة تنفذ بكل إصرار وتحذ بعقول كورية مبتكرة. تقوم هذه العملية على مبادئ محددة بالاتي:

**الأول:** النظرة الشاملة للإستثمار في الانسان باعتباره الإستثمار الحقيقي الذي يحقق التطوير والتركيز عليه من بداية تعليمه وإعداده الاعداد الجيد للحياة العملية، وتوفير فرص العمل له ليكون مواطناً صالحاً يستفاد منه في بناء التنمية وتحقيق التطوير المنشود.

**الثاني:** التخطيط والتركيز علي هدف معين يعمل الجميع بجد لتحقيقه، وفق خطط مدروسة ومحددة زمنياً.

**الثالث:** القيم التربوية التي تحملها المؤسسات التعليمية والمدارس، فالصدق، الاخلاص والابداع قواسم مشتركة لكل مؤسسة مسئولة عن التعليم بشكل مباشر أو غير مباشر.

**الرابع:** بناء هذه المفاهيم، فمفهوم الهدف، الشعار والقيم يتعامل معها الطالب من المرحلة الابتدائية فتتأصل في نفسه.

**الخامس:** العناية بالطلاب الموهوبين قبل المرحلة الثانوية، وتخصيص ثانويات متخصصة في العلوم والرياضيات والفنون يتجه اليها هؤلاء الطلاب.

**اخيراً:** التكامل بين المؤسسات التعليمية والمؤسسات الخاصة الداعمة التي تقوم بتوفير منح تعليمية وتقوم بتدريب الطلاب وتوفير فرص العمل اللازمة لهم بعد ذلك.

### **سيناريوهات جنوب أفريقيا 2025 : المستقبل الذي نختاره؟**

قامت وحدة تنسيق السياسات والخدمات والاستشارات Policy Co-ordination and Advisory Services التابعة لرئاسة جنوب أفريقيا، بإصدار وثيقة في سبتمبر 2008، تضمنت ثلاثة سيناريوهات مختلفة قد تسلكها جنوب أفريقيا خلال الأعوام القادمة وحتى عام 2025. وتعد هذه الرؤية استطرادا للعمل البحثي الذي قامت به نفس الوحدة في وثيقة "ذكريات المستقبل: سيناريوهات لجنوب أفريقيا 2014". السيناريوهات التي صاغتها هذه الوثيقة ليست تنبؤات دقيقة عن المستقبل كما أنها ليست خرائط طريق لتحقيق أهداف مستقبلية، ولكنها بمثابة تصورات أو صياغات قصصية بشأن الأوضاع المستقبلية، أو تخمينات لعدد من المسارات التي يمكن أن تصل بجنوب أفريقيا إلي المستقبل مبنية

على معلومات عن الحاضر .

وقد اتبعت الدراسة رصد القوى المحركة في العالم وفي جنوب إفريقيا في عام 2008 من خلال إجراء عدد كبير من اللقاءات وصلت إلي 65 لقاء مع شخصيات مهمة في جنوب أفريقيا، بالإضافة إلي سلسلة من ورش العمل. أوضحت هذه اللقاءات وورش العمل أن هناك 24 متغيراً هاماً تعتبر عوامل مهمة في تشكيل الحاضر وتساعد في فهم وصياغة التصورات المستقبلية. كما تم تحديد الاتجاهات الرئيسية لكل من هذه المتغيرات،

تم اختيار سبع قوى محركة رئيسية من بين هذه المتغيرات الأربع والعشرين. هذه القوى المحركة هي: التغير في ميزان القوى الإقتصادية وانحيازها إلي الاقتصادات الصاعدة الرئيسية (BRICS وهي البرازيل، وروسيا، والهند، والصين وجنوب أفريقيا)، التغير في ميزان القوى السياسية، القيود على الموارد، النمو الإقتصادي لجنوب أفريقيا، الحوكمة، النسيج الإجتماعي، كما تم تحديد التكنولوجيا كقوة محركة متقاطعة وذات أهمية خاصة. وكان الهدف الأساسي من هذه السيناريوهات يتمثل في إستثارة الأفكار بشأن التخطيط طويل الأجل، كيفية ترجمة السياسات إلي أفعال من أجل تجنب الأحداث غير المرغوبة والاستفادة من الفرص التي قد تظهر على أكمل وجه.

### الطريق إلي المستقبل - ماليزيا 2020

بدأت ماليزيا مشوار الرؤية منذ نهاية 1985م حيث وضعت رؤية لمدة عشر سنين من 1985 إلي 1995م وكان هدفها آنذاك أن تصبح إحدى الدول الصناعية، واستطاعت أن تحقق هذا الهدف فارتفع معدل النمو من 1,2% ليصل إلي 8% واستمر هذا المعدل حتى 1995م، وهو يعتبر أكبر معدل نمو في العالم في ذلك الحين.

تحت عنوان الطريق إلي المستقبل - دوله صناعية متقدمة بحلول عام 2020، قام رئيس الوزراء الماليزي الأسبق والأكثر شهرة مهاتير محمد بطرح رؤية لماليزيا لعام 2020 - والتي تشتهر أيضاً باسم Wawasan 2020 - وذلك خلال إعداد الخطة الخمسية السادسة لماليزيا عام 1991، والتي كانت بمثابة المرحلة الأولى من تحقيق الرؤية المنشودة. حددت تسع تحديات الأساس الذي كان على ماليزيا تخطيها لكي

تستطيع تحقيق هدفها بأن تصبح دولة متقدمة بحلول عام 2020. تحقيق الوحدة الوطنية والسلام داخل الدولة، القضاء على الإرهاب الداخلي، خلق مجتمع ماليزي حر الفكر، أمن ومتطور على علم جيد بإمكانياته ولديه القدرة على مواجهة الصعوبات ويحظى باحترام وثقة العالم، بناء مجتمع ديمقراطي وأخلاقي متسامح يكون نموذجاً لكافة الدول النامية الأخرى، ويتمتع مواطنوه بمستوى راقٍ من الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، ويستطيع فيه كافة المواطنين على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم ممارسة عاداتهم وثقافتهم ومعتقداتهم الدينية بحرية مع الشعور بانتمائهم لأمة واحدة، بناء مجتمع علمي متقدم مساهم في خلق الحضارة التكنولوجية والعلمية للمستقبل وليس مستخدماً فقط للتكنولوجيا المستوردة، إنشاء نظام إجتماعي قائم على تفضيل الجماعة على الفرد، بناء نظام إقتصادي تسوده العدالة في توزيع الثروة والدخل وقائم على مشاركة الجميع في التقدم الإقتصادي وأخيراً بناء مجتمع مزدهر إقتصادياً يتمتع بالفاعلية والتنافسية والمرونة.

خلال عقد التسعينات كانت ماليزيا قد اصبحت أفضل حالاً من الناحية الإقتصادية، وقد بنت بنجاح على موروث من اقتصاد زراعي ورثته من الاستعمار. لقد تم تحقيق ذلك بسبب رؤية مشتركة لشعبها. صاغت ماليزيا الخطة الإستراتيجية لتصبح دولة متقدمة بالكامل بحلول عام 2020، وذلك بتضافر جميع المجالات الإقتصادية، الإجتماعية، السياسية، الروحية، النفسية والثقافية. مع الهدف الاساسي أن يبنيتها الطبيعية تتطلب قدرة عالية في مجال العلم والتكنولوجيا. إن تركيز ماليزيا ليس فقط على القطاعات الصناعية الكبرى من الصناعات الثقيلة، مثل صناعة الصلب والبتروكيمياويات، لكنها تركز أيضاً على الالكترونيات الدقيقة المتقدمة، السلع الاستهلاكية، أجهزة الكمبيوتر والاتصالات السلكية واللاسلكية.

الرؤية الماليةزية توخت دوراً للإستثمار الأجنبي المباشر. كما تريد تحقيق كامل القدرة على تصميم وتصنيع المنتجات التي تستخدم الخبرات المحلية. هذا التركيز هو المهم: القدرة على التصميم بنفسك وتصنيع المنتجات للتصميم الخاص بك هو مؤشر حاسم لقدرة "متقدمة". في قطاعي السلع والخدمات، والهدف من ذلك هو تعزيز القيمة المضافة في إنتاج وتسليم السلع. وقد استهدفت ماليزيا :

أولاً: المواد المتقدمة، تقنيات التصنيع المتقدمة، الالكترونيات الدقيقة وتكنولوجيا

المعلومات وتكنولوجيات الطاقة. لذلك فانها لتحقيق خططها للعلوم والتكنولوجيا، ضاعفت نسبة الناتج المحلي الإجمالي المخصصة للبحث العلمي.

**ثانياً:** تطمح ماليزيا بتبني هذه الرؤية أن تكون في طليعة مناطق معينة من التكنولوجيا، وليس مجرد مصدر رئيسي لمنتجات التكنولوجيا المكثفة، ولكن أيضاً مولد تكنولوجيات رئيسية في مجال الالكترونيات الدقيقة والعديد من المجالات الأخرى وأن تصبح أكبر ممر للوسائط المتعددة فائقة السرعة.

**ثالثاً:** ركزت الرؤية أيضاً على الجوانب البيئية ذات الصلة ويشير التقرير إلى أنه على الرغم من التقدم السريع، فإن موارد الغابات في ماليزيا لم يتم التضحية بها ولا زالت 60% من الأراضي لا تزال غابات. رؤية تتوخى التزام قوي للسياسات الخضراء وتنص على أن يتم التعامل مع المشاكل البيئية بشكل كلي ومتعدد الأطراف. ركزت الرؤية في جانب التنمية الاقتصادية تحقيق العدالة الاجتماعية على قضية الفقر، ولتستطيع معالجة هذا التحدي بدأت بتحديد مفهوم العدالة الاقتصادية بكل أبعادها لتأسيس مجتمع عادل، ضمن عدد من الاهداف الواضحة:

**الهدف الأول:** إن تقوم الخطة الاقتصادية الجديدة على اقتلاع جذور الفقر بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الموقع الجغرافي، ولتشمل كل الماليزيين، وأن تكون الدولة قادرة على توفير الغذاء والرعاية الصحية عن طريق طبقة متوسطة تتميز بالحيوية وأن توفر كافة الفرص والدعم للذين ينبعون من القاع والذين يحاولون الخروج من براثن الفقر.

**الهدف الثاني:** إزاله ارتباط الهوية العرقية بالاقتصاد لبناء مجتمع يقوم على المساواة بما يعني أن كافة الإدارات والقطاعات الهامة سوف تشهد مزيجاً من الجماعات العرقية التي تتكون منها ماليزيا، ويجب أن يكون هناك توازن عادل في كافة الشرائح الأساسية للعمل، والعمل على تطوير تنمية المجتمع التجاري والصناعي. هذا يتم بتضييق الفجوة بين دخل الطوائف العرقية من خلال توفير الفرص والخدمات الاجتماعية والبنية الأساسية وتنمية المفاهيم الثقافية الاقتصادية .

**الهدف الثالث:** تضاعف إجمالي الناتج المحلي كل عشر سنوات من عام 1990 إلى عام 2020، مع متوسط معدل نمو سنوياً 7% على مدار 30 عاماً، مع خفض معدل

التضخم وضمن الفعالية ودعم مستوى المعيشة وتحقيق الأهداف الإجتماعية الأخرى.<sup>379</sup>

## التجربة الهندية

سوف نتابع صناعة الرؤية الهندية لعدة اعتبارات تتعلق بموضوعنا عن السودان. أولاً: باعتبار الهند اقرب الدول شبيهاً بحالها السودانية وقضاياها وازماتها.

ثانياً: إن الهند بنت تجربة ديمقراطية ثابتة ومستدامة بعد أن تحررت في ظروف شبيهة بالسودان وعانت من استعمار اطول من الاستعمار البريطاني، الذي ترك البلاد في ظروف مشابهة من خدمات جيدة قليلة، تركيز على منتجات زراعية وصناعية محدودة ونظام اداري فعال.

ثالثاً: بنت الهند تجربتها الديمقراطية على نمط وستمنستر ولكن طورته بشكل مستمر وفعال.

رابعاً: إن توثيق كيفيه صناعة الرؤية هي الافضل والأكثر تفصيلاً. لن يعني هذا أننا سنقصر تناولنا على التجربة الهندية ولكن سوف نعرض لافضل الدروس المستفادة من تجارب الشعوب المختلفة في انجاز الرؤية.

ما ميز التجربة الهندية، ورؤى اخرى، انها بنيت على تطور متراكم من الخطط الخمسية التي تم تطبيقها ومتابعتها وتقييمها (للاسف فقد تخطت الخطط السودانية من الخطة العشرية التي انتهت ثورة اكتوبر، النظم الديمقراطية المهتزة لم تواصل هذا التقليد، الذي واصلها نظام مايو ولكن بطريقة استعراضية أكثر منها خطط حقيقية.

واصلت سلطة الإنقاذ هذا التقليد ولكن كانت مجلدات ينفق عليها الكثير من الجهد والمال ولكنها لا تنفذ وتنقل اهدافها من خطة لاخرى. كان هذا حال وزارة التخطيط التي تعرضت للالغاء، الدمج والإنشاء ولم تصبح قط مركزاً لتراكم الخبرة والمعرفة. إن التخطيط الإستراتيجي اصبح اساسياً في تطور الدول والشركات وليس رفاهية

<sup>379</sup> مركز الدراسات المستقبلية بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء: المستقبل في عيون العالم، نشرة ربع سنوية السنة الثانية - العدد 5 - مارس 2012



وهي التي اشرفت على كافة الرؤى في اغلب الدول.

إنشاء ابحاث الصواريخ والفضاء الهندي، سمح بتوفر بيئة علمية رصينة وتكنولوجية مناسبة ادت إلي إنشاء مجلس تكنولوجيا المعلومات، التنبؤ والتقييم (TIFAC) وهي منظمة مستقلة أنشئت في عام 1988 تحت إشراف وزارة العلوم والتكنولوجيا. في عام 1993، وتحت رئاسة د. ابو الكلام شرعت TIFAC على مهمة رئيسية لصياغة الرؤية للتكنولوجيا في مختلف المجالات التكنولوجية الناشئة والتي قادت من تطورها إلي صياغة رؤية الهند 2020.

بعد احد محاضراته التي ألقاها الدكتور عبد الكلام، جاءتته فتاة في العاشرة من عمرها للحصول على توقيع، سألها "ماهو طموحك؟. أجابت دون تردد "أريد أن أعيش في هند متطورة". وقد كرس لها وللملايين من الهنود الذين يشتركون في تطلعها كتاباً لعرض رؤيته. ويرى عبد الكلام أنه امر جيد قراءة وسماع ورؤية ما فعله اخرون. ومع ذلك، فإن الاستنتاجات حول ماهو جيد لبلدة يجب ان تكون من الشعب الهندي ولكن ينبغي لهم أن ينظروا في كيفية ولدت دول أخرى وثائق الرؤية الخاصة بها. وقد قدم الدكتور ابو الكلام رؤيته "جعل الهند من القوى الإقتصادية الأربعة الكبرى بحلول عام 2010". إن الطابع الشعبي الذي طورت به الرؤية التي قادها الدكتور عبد الكلام جعلت رؤيته هي الأكثر قبولاً في الهند.

### دروس التجربتين

سواء في ماليزيا او الهند فقد توصلت شعوبها أن حل المشكلات والتحديات التي تواجه المجتمع هي حزمة من السياسات المتنوعة (سياسية، قانونية، إقتصادية وثقافية)، لكنها كلها ترتبط بتحقيق التنمية الإقتصادية الإجتماعية باعتماد العدالة الإجتماعية كمدخل في معالجة الفوارق الكبيرة بين مختلف فئات الدخل، وبين المجتمعات الريفية والحضرية وحتى المناطق داخل الدولة. في الهند كان العنصر الاساسي في التنمية الإقتصادية هي أنها إستراتيجية شاملة لتحقيق الأمن الغذائي الوطني وهو شرط ضروري لرفع انتاجية القوى العاملة مستويات دولية.

الهدف الأول تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وبعد ذلك، من خلال تزايد المخزون

الفائض من الحبوب الغذائية يوجه للتصدير وخلق فرص عمل جديدة والنمو الإقتصادي. هذا التوجه في جوهره يقوم على المعرفة والابحاث. لا يمكن حل مشكلة النقص المزمن في الغذاء ببساطة عن طريق الزيادة في انتاج الغذاء أو تراكم أكبر مخزون احتياطي الغذاء، اصلاح نظام التوزيع او برامج العمل المستهدفة للتغذية كلها تخفف من المشكله مؤقتا. ولكن في المدى الطويل، فان الحل هو ضمان فرص العمل لجميع المواطنين بحيث يكتسبون القوة الشرائية لتلبية احتياجاتهم الغذائية<sup>380</sup>.

في ماليزيا فالعدالة الاجتماعية مبنية على أساس زيادة أنصبة جميع الفئات، وإن بدرجات متفاوتة، وحل مشكله المحرومين من خلال عملية الزيادة والتوسع واحياناً التمييز الإيجابي عن طريق تدخلات الدولة، وليس من خلال مصادرة حقوق الآخرين أو التضيق عليهم.

لقد تبنت الدولتان، ماليزيا ذات الاغلبية المسلمة والهند ذات الاقلية المسلمة الكبيرة، النظام العلماني الديمقراطي الذي يشجع كل طائفة على ممارسة طقوسها الدينية، غناء حياتها الروحية واثبات هويتها العقائدية، ليس من خلال الفرض والقانون ولكن بالقدرة على تمثّل قيم الإسلام، والبوذية والهندوسية الرفيعة في النفوس وفي الممارسة.

إن الماليزيين المسلمين ليسوا باقل تمسكاً بدينهم من دول التدين الشكلي ولا الهندوس هجروا تعاليمهم. لقد ادى هذا إلي الاستقرار السياسي، برغم القضايا المعقدة والحساسية. لعب التعليم أيضاً دوراً هاماً ومفصلياً في تطور البلدين. التعليم جزء اساسي من النظرة المستقبلية لكل هذه الدول واعتبرت القوى البشرية الثروة الحقيقية في تطويرها ووضع القدم على طريق المستقبل.

ارتبط هذا بتشجيع التنوع واعتبار الثقافات المختلفة مصدر قوة وثراء. لكل طائفة، عرق ومجموعة سكانية مدارسها الخاصة بها التي تستعمل لغتها وتشرف الدولة على جودة التعليم بها وتدعمها من الخزانة العامة. لقد اتاحت لكل ثقافة أن تنمو بشكل فعال ومبدع مما جعل التداخل بينها طبيعياً ومنساباً. شجعت الدولة اللغات المختلفة في كل دولة ووفرت لها الحماية وامكانية التطور، وبرغم أن الهندية هي اللغة الأولى والملاوية في ماليزيا، فهي لغة العمل ولكن لكل منطقة لغتها الخاصة. أيضاً احتفظ

<sup>380</sup> Planning Commission, Government of India: India Vision 2020, New Delhi, DECEMBER, 2002

البلدان باللغة الانجليزية كلغة ثانية في الدوله باعتبارها لغة العلم الحديث ووسيط نقل المعرفة على الاقل حالياً.

☐☐☐☐☐☐



## الجزء الرابع

### نحو رؤية

الفصل الأول: اين نحن الان؟ دراسة الحالة السودانية

الفصل الأخير: نحو رؤية: الآليات المقترحة والوسائل؟

## الفصل الأول: اين نحن الان؟ دراسة الحالة السودانية

نبدأ معالجة قضية الرؤية المستقبلية بالنظر في الوضع الراهن للسودان على كافة قطاعاته، والتعرف على كافة السياسات الخاطئة والمضرة التي استقرت في النظرية والممارسة السياسية طوال العقود الست الماضية، خاصة في العقود الاخيرة التي سيطرت فيها تيارات الدولة الدينية تحت شعارها الفارغ من أي محتوى – المشروع الحضاري- وتم فيها الاستيلاء بالكامل على كافة مفاصل ومقدرات الشعب والذي انتهي بنا إلي التيقن أنها لاتمتلك سوي مشروعاً للفساد والاستبداد.

تحليل ودراسة الوضع الراهن آلية يتم استعمالها عند التوجة لوضع الخطط المرحلية، الإستراتيجية او حتى مقترحات المشروعات. من خلالها يتم إلقاء نظرة بانورامية عامة على البيئات الداخلية والخارجية التي تؤثر على موضوع التحليل. جزء من دراسة الحالة هو التحليل الرباعي (SWOT ANALYSIS). وهو أسلوب يستخدم لتقييم مواطن القوة (الخصائص التي تعطي ميزة على الآخرين)، الضعف (الخصائص التي تحرم من التميز على الآخرين)، المهددات (عناصر خارجية في البيئة التي يمكن أن تسبب الفشل) والفرص (امكانيات لتحسين الأداء). أنها تنطوي على تحديد الهدف، تحديد العوامل الداخلية، والخارجية المواتية وغير المواتية لتحقيق هذا الهدف. (انظر الشكل)

تقلل فرص تحقيق الاهداف	يساعد على تحقيق الاهداف	
الضعف	مواطن القوة	البيئة الداخلية
المهددات	الفرص المتاحة	البيئة الخارجية

سوف تعيننا هذه التحليلات لنستطيع أن نحدد الاطار العام لما نتصور إنها الصورة التي نعلم أن نحققها في نهاية المآل، كيفيه الوصول إلي هناك وبأي الوسائل والآليات المتاحة والممكنة. كل هذه سوف تكون تصورات مجردة ترسم الطريق لكيفيه صناعة

الرؤية.

### دراسة الحالة السودانية: تطبيق تحليل SWOT بسيطة للسودان

طرح امير أحمد ناصر (دريمة) ، تحليل SWOT بسيط للسودان، في موقعه المفكر السوداني (<http://www.sudanese thinker.com>) ، تعطي فكرة اولية عن طريقة عملها. وأوضح الكاتب أن التحليل لم يراع السياقات الداخلية او خارجية. نلاحظ إنه برغم أنه تحليل بسيط للسودان في عام 2007، إلا أن نظره للتهديدات ترينا بوضوح أن كثير منها قد تحققت، اذا لم تكن جميعها، من اندلاع الحرب في جنوب كردفان، النيل الازرق، الحرب مع الجنوب وتعثر المفاوضات وغيرها<sup>381</sup>.

**نقاط القوة:** كمية كبيرة وفيرة من الموارد الطبيعية، مساحات هائلة من الأراضي الخصبة، حياة برية متنوعة، ذوي المهارات العالية والمتعلمين في الشتات، المواقع الأثرية وأطلال تعود إلي آلاف السنين في الحضارة النوبية، الموقع الجغرافي المتميز والهوية العربية الأفريقية.

**نقاط الضعف:** البنية التحتية المتخلفة، ارتفاع نسبة الأمية ورأس المال البشري المتخلفة، سوء الإدارة والقيادة، تفشي الفساد، عدم احترام حقوق الإنسان، عدم وجود سيادة القانون، التفاوت المتطرف في توزيع الثروة، استمرار أزمة الهوية، القبلية على نطاق واسع وعقلية الضحية إلي آخر مخلفات الاستعمار.

**الفرص المتاحة:** جذب الإستثمار الأجنبي، تطوير احتياطات النفط الهائلة، التكنولوجيا الحيوية الكبيرة والمبادرات الزراعية، السياحة (البحر الأحمر والمنتجعات، أنقاض النوبية القديمة، والحياة البرية الخ)، بورتسودان كموقع لتوقف السفن المارة من وإلى قناة السويس، النمو الإقتصادي لا يعتمد فقط على النفط وإنما جسر بين أفريقيا والعالم العربي.

**المهددات:** الثورات المحتملة في اماكن اخرى غير دارفور، إمكانية اندلاع الحرب مرة أخرى إذا تقرر فصل الجنوب، الصين تعرقل التقدم الديمقراطي، المزيد من

---

<sup>381</sup> تطبيق تحليل SWOT بسيطة للسودان: من Drima على 31 يوليو 2007  
<http://www.sudanese thinker.com/2007/07/31/applying-a-simple-swot-analysis-to-sudan>

العقوبات الامريكية، التدخل في دارفور، زيادة الطائفية والقبلية، استمرار تفشي فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز، تنظيم القاعدة ومشاركة حدودنا التي لا نهاية لها مع 9 دول.

## **دراسة الحالة السودانية: البعثة المشتركة لتحديد احتياجات السودان 2006**

اعدت الامم المتحدة والبنك الدولي ثلاث وثائق ضافيه معنونة باسم "البعثة المشتركة لتحديد احتياجات السودان" تحت اشراف الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان ونشرتها في 18 مارس 2005 (شاركت فيها 17 منظمة من الامم المتحدة، 10 مانحين، وعديد من السودانيين في الداخل والخارج). إن الجهد المبذول في هذه الوثائق كان ضخماً، متوازناً، وواقعياً ومستجيباً في غالبية لطموحات الشعب. استطاعت هذه الوثائق أن تقدم لنا خلاصة تجارب العديد من المع العقول الدولية، الاقليمية والوطنية البارزة وتصيغ لنا برامجاً للخروج من المازق التاريخية في تنظيم الدولة ومجمل السياسات الاقتصادية والاجتماعية. تنقسم الوثائق لجزئين:

### **أولاً: دراسة الحالة السودانية**

وهي نظرة دقيقة وعميقة على كافة التحديات التي تراكمت على الدولة السودانية منذ الاستقلال، والتي واصلت تدهورها الكامل بعد دولة الإنقاذ. لقد اتاحت لهذه الوثائق كافة التحضيرات من علماء لامعين، ميزانيات ومنظمات لها خبرة واسعة في كافة المجالات. لقد شاركت في هذا العمل، عندما تم تكليفي بتولي ملف الصحة كمنسق عام بين كافة الإدارات المختلفة في داخل المنظمة، بين الهيئات والشركاء الآخرين. بدأ العمل بتكوين لجان عليا في الشمال والجنوب ودعمت بخبراء في المجال من المنظمة لتجميع كافة المعلومات عن الوضع الصحي في البلاد، والتحديات والنواقص ومن ثم وضع مسودة عن الوضع الصحي وخيارات السياسة الصحية، تم النقاش في ورشة عمل ايام 8-9 مارس 2004 وتمت اجازة وثيقة الوضع الصحي وخيارات السياسة الصحية في شمال السودان.

هذه الوثائق هي التي شكلت الاساس للجزء الخاص بالصحة في الوثيقة المذكورة.

تناولت دراسة الحالة السودانية عام 2006 وشملت: الخدمة المدنية، الحكومة المحلية، النظام المالي، المراجع العام، المشتريات، الفساد، الحوكمة وسيادة القانون، حقوق الإنسان، القضاء، المجتمع المدني، وسائل الإعلام، الاقتصاد، التعليم الصحة والمياه والصرف الصحي والبنية التحتية.

## ثانياً: وثائق الاستراتيجيات

جاهدت الوثائق لتقديم اتجاهات عمل وخطط لتصحيح الاوضاع في إطار الدولة الاستبدادية الفاسدة (تمت الاشارة اليها بوضوح) والإدارة المتخلفة. يمكن النظر إلي الاستراتيجيات وفق منظورين، اولهما القضايا التقنية والتي تمتلك فيها الامم المتحدة والبنك الدولي خبرات واسعة حول قضايا: الخدمة المدنية، الحكومة المحلية وتحديث اجراءاتها الإدارية، النظام المالي، المشتريات والمراجع العام والممارسات المحاسبية، مكافحة الفساد، الحكم الرشيد، الشفافية وسيادة القانون، حقوق الإنسان والمجتمع المدني. المنظور الثاني يتعلق بالرؤية الاقتصادية الإجتماعية والتي تدرج حول سياسات الحد من الفقر والتي عالجناها سابقاً.

بعد تجربة أكثر من ثلاثين عاماً في العمل الصحي والعالمي -وتجارب الشعوب التي طرقت المستقبل- اجد نفسي مقتنعاً أن طريق الدول المانحة، الممولين وشركاء التنمية العالميين لا يوصل إلي تنمية حقيقية ويورث الدول الاعتماد على خبرات لم تبين من خلال عملية تطوير موضوعية، مستجيبة للتحديات وحلول من خلال التجربة وتبادل الخبرات. ويفرض احياناً تبني مشروعات مصممة لمصالح التمويل أكثر من الاحتياج الحقيقي.

عندما نقرب من الاعتماد على الذات في تطوير السودان، نتفق مع لناكل مما نزرع ونلبس مما نصنع، ونبعدها عن المفهوم الشعاري العشوائي التي طرحت به. أول اعتراضاتي أن هذا شعار لم يكن مبنياً على رؤية واضحة مركزها البشر، تقوية قدراته المجتمعية ولكن مقدمة لتجميع الاموال العامة لصالح الحزب الحاكم. عملية الاعتماد على الذات كانت ممكنة قبلاً بواسطة العنف السلطوي والحكم الفردي الشمولي وقد انجزت كثير من الدول هذه العملية (الاتحاد السوفيتي، الصين، اغلب



دول اسيا..الخ) تحت شروط توفرت في هذه الدول منها توفر قيادة كارزمية قادرة على التأثير على اغلب قطاعات الشعب واقناعه بالمقايسة التاريخية بين توفير العيش الكريم ثمنا للتخلي عن الحرية السياسية.

هذه القيادة لها ميزات محددة اهمها القدرة على التواصل مع الجماهير، نمط حياة بسيطة وعادية ومعدلات فساد متدنية، ملائمة الظروف الدولية آنذاك – منذ الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الكتلة السوفياتية. هذا لم يعد مجدياً ولكن الاعتماد على الذات في تطوير السودان يحتاج لوافق مجتمعي كامل، وضوح في الرؤية، توفر التوعية بكل تفاصيل هذه العملية ودور كل فئة من الشعب فيها.

هذه عملية اشبه بإعادة هندسة المجتمع السوداني والتغيير السلوكي الكامل على قواعد الشفافيه، الحكم الراشد واوسع الحوارات حولها. من حظ السودان أن هناك تقييماً كاملاً لكل القطاعات الاساسية في السودان عن طريق البعثة المشتركة لتقييم احتياجات السودان عام 2005، وإذا ازلنا منها السياسات الإقتصادية الإجتماعية المضرة للبنك الدولي خاصة حول الخدمات والحياة المعيشيه، حدثنا من الإحصائيات وحسبنا مقدار الضرر الذي سببته الإنقاذ منذ أنزلنا سوف نجد اماننا برنامجاً مفصلاً لم ينفذ منها الا القليل. استعنا بهذه الوثائق عند دراسة وتحليل الوضع في السودان كجزء من استعراض الكفاءات الاساسية المتوفرة في السودان للتعرف على الموجهات الاساسية لكيفيه بناء رؤية سودان المستقبل<sup>382</sup>.

---

<sup>382</sup> هنالك العديد من اساليب تحليل الوضع المختلفه، بما في ذلك SWOT ANALYSIS وهو اختصار للكلمات (نقاط القوة والضعف والفرص والتهديدات) بالإنجليزية، وتحليل بيست PEST، وهو اختصار الكلمات (السياسية، الاقتصاد، الاجتماعية والتكنولوجية) بالإنجليزية، وتحليل ستير STEER وهو اختصار للكلمات (الثقافة الاجتماعية، التكنولوجية، الاقتصادية، البيئية والعوامل التنظيمية) بالإنجليزية، وتحليل ابيستل EPISTEL وهو اختصار (البيئة والسياسية والمعلومات والمجتمع والتكنولوجيا والاقتصاد والقانون) بالإنجليزية.

## الفصل الاخير: نحو رؤية: الاليات والوسائل؟

يتم بناء رؤية الأمة عبر الاجيال من توقد خيالاتها وجهودها وقد تابعنا في الرؤية السودانية: الجزء الأول، انتاج الفشل كيف تمكن السودانيون عبر اجيالهم الممتدة عبر التاريخ ان يصلوا لرؤى متعددة لتطور الوطن. لقد ناقشت في كتاب الرؤية مكامن فشل الرؤى السودانية التي حكمت السودان، وكيف أنها قادتنا إلي هذا الوضع الراهن. لكن هذا لا يعني أن كل منها صاغت رؤيتها من نظرتها إلي التاريخ، الجغرافيا والظروف المحيطة. الاجيال تصنع رؤيتها وتزرعها بعوامل الفشل والنجاح ليأتي جيل اخر ليقطف ثمار هذه الرؤية ونتائجها ليضيف ويسعي الجيل القادم جاهداً لتحقيقها. هذه عملية طويلة ومتشعبة ولذلك تختلط الرؤية المستقبلية بكافة اطروحات الرؤى السابقة.

رغم أن رؤى مختلفة قادت السودان عبر المائة والخمسين سنة الفائتة، فإننا نجد انفسنا الآن في وضع اسوأ مما بدأنا به في الخمسينات. لقد تراكمت الرؤى فوق بعضها ولم تستثمر فيما قبلها ولكن تلغي ما قبلها وتبدأ من جديد. إن اخطر ما يواجهنا الآن هو فقدان المؤسسة التي ورثناها من الاستعمار، التي تكسرت عبر السنوات وعبر الأنظمة المختلفة ولكنها بلغت اوجها مع نظام الإنقاذ والذي حاول بناء هياكل مؤسسية منقطعة كلياً عن سابقها.

إن الوضع الراهن بائس، فقد كتبت الإنقاذ رؤية تعبر عن رأي فصيل واحد، تمت صياغته ونقاشه عبر اجهزتها والموالين لها ففقدت البعد الشعبي الذي يجعل الرؤية ملك الامة، وعندما نفذت رؤيتها لم يتطابق مكتوبها مع فعلها. الامة تفتقد الآن إلي دستور ينظم حركتها ويقتن علاقات اطرافها المختلفة. نظام الحكم إنتقائي، غير واضح ومتغير حسب الحاجة. التعليم متدهور وبلا إتجاه ولا نعلم احتياجات البلد الحقيقية وكيف توظف مخرجاته والصحة أكثر تدهوراً. السياسات الإقتصادية، الزراعية،

الصناعية، المياه، البيئة.. الخ لا ترتبط ببعضها ولا تترينا إلي أين نحن سائرون أو الوضع حتى بعد عام واحد. باختصار تفتقد الامة إلي أي رؤية حقيقية تنتقل بها إلي مستقبل نعرف على الاقل سيناريوهات او حتى الشكل العام لما سنكون عليه.

الرؤية ليست عملاً تقوم به مؤتمرات قومية متخصصة، قد يفلح هذا في توصيات وبرامج مفصلة للفترة الإنتقالية، لكن المطلوب الرؤية العامة. والرؤية ليست وثيقة من الخبراء او برامج الاحزاب وأن كانت تشملها، لكنها عملية تراكمية وشعبية تتاح لها كافة وسائل النقاش العام عن طريق الاعلام، الصحف، المواقع الالكترونية، الندوات الجماهيرية العامة والقطاعية، جلسات الاستماع، المخاطبات الجماهيرية، الملصقات، المسرح والسينما وغيرها. وسوف نرى عند تعرضنا لعدد من التجارب العالمية الناجحة كيف تم بناء رؤاها.

### من التخطيط إلي تأسيس الرؤية

يعتبر التخطيط العلمي أحد السمات الرئيسية للعصر الحديث، وأساس أي عمل ناجح لتحقيق الأهداف الوطنية المنشودة، لذلك فإنه يتطلب قدرات خاصة على التوقع والتنبؤ فيما يتعلق بالمستقبل. تعرف دائرة المعارف البريطانية التخطيط بأنه "التحديد للأهداف المرجوة في ضوء الإمكانيات المتيسرة الحالية والمستقبلية، وأساليب وخيارات تحقيق هذه الأهداف. لذلك يعتبر التخطيط الوطني الشامل من المهام الرئيسية للقيادة السياسية وعنصراً هاماً للتخطيط للأمن الوطني ويرتبط بالمستقبل واستخدام علم المستقبل والنظريات والأساليب العلمية الحديثة التي تساعد على ذلك"<sup>383</sup>.

ساد مفهوم التخطيط الوطني الشامل في كافة الدول منذ منتصف الستينات سواء كانت دول سوق حر او اشتراكي، ودخل مفهوم الخطة الخمسية في اغلب الدول النامية. من ماليزيا، الهند، مصر الناصرية، الصين وسلطنة عمان وغيرها بدأت بناء خططها الخمسية المختلفة منذ منتصف الستينات والسبعينات. هذه الخطط المتواصلة كانت

---

<sup>383</sup> إبراهيم إسماعيل كاخيا، التخطيط الاستراتيجي القومي (السياسي) الشامل، <http://www.hrdiscussion.com/hr31628.html>

بناء متواصل في درب واحد تنتقل بالدولة من مرحلة إلى أخرى تستفيد من تجاربها وتتلافى الأخطاء. من تراكم هذه الخطط بدأ مفهوم بناء الرؤية الإستراتيجية الشاملة (صورة ذهنية لما ينبغي أن يكون عليه عالم المستقبل. وبلورة الرؤية الإستراتيجية ينبغي أن يسبقها التنبؤ بتطورات الواقع الحالي لتقدير الصورة التي سيتشكل عليها المستقبل.

ومن المهم التركيز على أن الرؤية الإستراتيجية تساعد في توجيه صياغة الإستراتيجية المقترحة لتحقيق التنمية المستدامة وفي تنفيذها على السواء، في الانتشار وأصبح يستخدم في الأدبيات السياسية الحديثة، بديلاً عن مفهوم "المشروع القومي" ويُعنى بها مجموع السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يتبناها نظام سياسي ما في فترة ربع القرن القادمة، انتقلت أغلب الدول التي اعتمدت التخطيط الخمسي إلى بناء الرؤية<sup>384</sup>.

قدم مبارك عثمان علي قراءة واضحة وفي وقت باكر (1992) عن سمات نمط التنمية السودانية منذ الاستعمار واتجاهاتها في اوائل عهد الإنقاذ، إن ما طرحه مبارك كان قراءة صائبة لانملك الا أن نعجب بقدرتها بعد أكثر من عقدين. يوضح مبارك عثمان أن اول محاوله للتخطيط القومي في السودان كانت بوضع الخطة العشرية (1960-1970)، وكما يحلل مبارك فقد اتبعت النهج الكينزي بإيلاء الدولة دوراً كبيراً في الإستثمار مع فتح المجال للقطاع الخاص بلا قيود تذكر<sup>385</sup>.

شهدت هذه الفترة إنشاء البنك الصناعي (1962)، مع السيطرة شبه الكامله للبنوك الأجنبية. مع سقوط دوله العسكر الأولى (1958-1964). ظهرت المبادرة الثانية في بداية مايو 1969 بوضع الخطة الخمسية الأولى (1975-1979) كجزء من تطبيق التراث الجيد في الدول الاشتراكية والناهضة آنذاك. قامت الخطة آنذاك على اعطاء الدور الاكبر للدولة للإستثمار والتنمية مع هامش ضئيل للقطاع الخاص.

عند تغير اتجاهات النظام بعد 19 يوليو 1971 تم تعديل الخطة من فتح الباب

<sup>384</sup> السيد يسين: رؤية استراتيجية لمستقبل مصر، الخميس 03 مايو 2012 ، <http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=65588>

<sup>385</sup> مبارك عثمان على: السودان وعقد التنمية الضائع، مركز الدراسات السودانية، القاهرة،

للمراسمال الخاص المحلي والاجنبي للاستثمار، تقليص دور الدولة إلي ما عرف بالانفتاح (كان هذا جزءاً من التوجه العام من انحطاط الناصرية في عهدها الساداتي). تقليص دور الدولة شمل دورها الرقابي والتنظيمي والتراجع عن الاتفاقيات الثنائية الهامة في استقرار السوق المحلي للدول النامية.

ادى هذا بالدولة إلي الانخراط في إستراتيجية "السودان سله غذاء العالم" والتي الحقّت اضراراً جسيمة كما اوردنا في باب التنوع البيئي. النتيجة النهائية للسير في هذا الطريق الشائنة للتنمية كان التدهور الشامل في القطاعات الانتاجية الاساسية، ارتفاع الديون من 396 مليون دولار عام 1972 إلي 565 مليون دولار عام 1976 حتى بلغت 8 مليارات عند سقوط النظام عام 1985، قاد هذا أيضاً إلي بدء انزلاق السودان في تبني برامج الصندوق الدولي للتكيف الهيكلي عام 1978 واخيراً إلي نشوء الرأسمالية "الطفيلية".

بعد الانتفاضة 1985 وضعت خطة رباعية ومحاولة جادة للانفكاك من برامج صندوق النقد الدولي، وادى رفض السودان لوصفة الصندوق إلي تعليق عضوية السودان في الصندوق. بعد الإنقاذ اتخذت اجراءات التضيق الإقتصادي وكان غرضها التخلص من المعارضين في الميدان الإقتصادي وصلت حد الاعدامات. لكن تم تغير سريع بعد ثلاثة اشهر باطلاق حرية التعامل في النقد الاجنبي والاستيراد.

عام 1990 اطلقت الإنقاذ البرنامج الثلاثي والذي ادى إلي التدهور المتلاحق لعجله الاقتصاد مما تم تناوله سابقاً. وضعت خطة عشرية 1992-2002 بنيت على سياسة التحرير الإقتصادي وآلية السوق الحر وواصل السودان التدهور في كافة مناحي الحياة. لكن حدث اختراق إقتصادي ببدا استخراج النفط عام 1999 ولكن سرعان ما دخل السودان مرحله شبيهة بالمرض الهولندي<sup>386</sup>، حيث بلغت صادرات النفط من

<sup>386</sup> المرض الهولندي (Dutch Disease)، اسم له حالة من الكسل والتراخي الوظيفي أصابت الشعب الهولندي في النصف الأول من القرن الماضي 1900 - 1950، بعد اكتشاف النفط في بحر الشمال، حيث هجع للترف والراحة واستلطف الانفاق الاستهلاكي البذخي، فكان ان دفع ضريبة هذه الحالة ولكن بعد أن أفاق على حقيقة نضوب الآبار التي استنزفها باستهلاكه غير المنتج فذهبت تسميتها في التاريخ الاقتصادي بالمرض الهولندي. «المرض الهولندي» تعبير دخل قاموس المصطلحات على الصعيد العالمي منذ 30 عاماً بالضبط. أول من نشر المصطلح كان مجلة «الإيكونومست» البريطانية التي طالعت به القراء في أحد أعدادها الصادرة عام 1977.

العام 2008 (91%) من إجمالي صادرات البلاد حسب تقرير الأداء الذي تصدره هيئة الجمارك، فيما بلغت مساهمة القطاع الزراعي في الصادرات نسبة (5%) ومساهمة بقية القطاعات الأخرى 4%<sup>387</sup>. صاغت الإنقاذ الإستراتيجية القومية ربع القرنية (2004 - 2028م) وتقول أنها اتبعت النهج العلمي، وإشراك كل فعاليات المجتمع، ترجمت الرؤية الإستراتيجية إلى خطط مرحلية خمسية وذلك لبلوغ النتائج المرجوة كماً ونوعاً وفق برنامج وطني للتطوير والامتياز<sup>388</sup>،

لقد قمت بنقد الإستراتيجية ربع القرنية في كتابي الأول. في التخطيط القومي في السودان، سمة لاحقتنا على مر العصور حتى الآن، أننا لا نبني على الارث وعلى تطوير الجيد من السياسات. فمع سقوط الدولة العسكرية، تم التخلي بالكامل عن الخطة العشرية ولم تهتم الحكومات الديمقراطية المتعددة بأي منهج تخطيطي، وعند تغير اتجاهات النظام بعد 19 يوليو 1971 تم تعديل الخطة ليس لموازنة دوري القطاع العام والخاص كما هو المنطقي، لكن إلى العكس تماماً.

### ما سبق انتاج الرؤية ؟

من استعراض رؤى الدول التي تناولناها سابقاً سوف نحاول أن نركز على اهم مميزات الدول، توجهاتها وآليات صناعتها. سوف نلاحظ من اول وهله أن اغلب الدول التي تم عرضها هي دول عانت من الاستعمار من دول مستعمرة مختلفة وبدأت مشوارها بعد التحرير. فالهند مزيج من اعراق مختلفة، اديان مختلفة من البوذية واقلية كبرى اسلامية ومسيحية وذات نظام ديمقراطي موروثة عن الاستعمار البريطاني ولكن تميز بالاستقرار والاصالة. ماليزيا وهي أيضاً مزيج من اعراق مختلفة واديان مختلفة من اسلامية واقلية كبرى بوذية ومسيحية وذات نظام شبه ديمقراطي موروثة عن الاستعمار البريطاني.

كوريا الجنوبيه التي عانت من استعمار ياباني طويل وتقسيم للدولة وحرب شبه عالمية والتي تبنت الحكم الديكتاتوري ابتداءً، تحولت بمقتضى دستور 1987 إلى نظام

<sup>387</sup> اصابة الاقتصاد السوداني بالمرض الهولندي، 2008/07/24  
<http://www.startimes.com/f.aspx?t=11054144>

<sup>388</sup> الإستراتيجية ربع القرنية: <http://tree-sudan.7olm.org/t11-topic>

ديمقراطي اعتمد على الحريات العامة، فصل السلطات، استقلال القضاء وأتاح الاستقرار السياسي الشروط الضرورية لكل نهضة إقتصادية. اما جنوب افريقيا فمشوارها كان احتلالاً طويلاً الامد من قله بيضاء، على مقاليد ومفاصل الحياة باكملها بنظام الفصل العنصري ومثالها ديمقراطية اثينا.

كل هذه الدول نجحت، بعكس دول مستعمرة اخرى، في أن تحافظ على منجزات وتقاليد موروثه من زمن الاستعمار واستطاعت أن تبلور رؤيتها من خلال عملية طويلة، متدرجة ومنفتحة على العالم. لم تحاول أي من هذه الدول أن تتراجع عن مكتسبات الدول التي استعمرتها، لكنها حافظت على تقاليدھا المؤسسية الإدارية، إستراتيجياتھا الإقتصادية والإجتماعية، الجو العلمي الذي يميز مجتمعات الدول المستعمرة وتقاليد الخدمات وبعضھا تبني تقاليدھا الديمقراطية.

كل هذه الدول تنقلت من الانفتاح إلى الانغلاق، من الصراعات البينية، الصراعات العنصرية من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، إلا أن التيار الرئيسي فيها حافظ على علاقاته بالدول المتقدمة والاستفادة منها. لقد استطاعت هذه الإستراتيجية في المحافظة على الموروث الاستعماري أن تهيء الدول - عندما صفت قضايا الاستعمار، حروبها الداخلية، الخارجية والعرقية ورادت الانطلاق إلى المستقبل - إن تعتمد على قاعدة من البني التحتية الفعاله، التقاليد الحميدة والايجابية نحو العمل والانتاج واخيراً أن تسمح بالبناء التدريجي من خلال المؤسسات الفعاله.

### **إلى اين نريد الذهاب؟**

عندما نبدأ في التفكير في رؤية سوف يكون أول سؤال سيتبادر إلى الذهن: اين نريد الذهاب؟. هذا السؤال مفصلي وهو ذو طبيعة فلسفيه، سياسية وإجتماعية. بعكس الخطط التي يمكن لمجموعات الخبراء أن تضع بها افضل الطرق، الاليات والوسائل ضمن اطار سياسي محدد وميزانيات معروفة سلفاً، فإن الرؤية هي إبحار في المستقبل، طرق لم نسر فيها سابقاً وتفكير خارج المؤلف. الرؤية مشروع كلي يستهدف كافة فئات المجتمع، يلبي احتياجات كافة فصائل الشعب ويؤدي لتنمية شاملة لكافة القطاعات مع استهداف كفاءات اساسية تمثل ركائز هذه التنمية. إن وجود

مشروع يمكن ان يحول ما عرف بالخطط الخمسية إلى رؤية مثلما حدث في كثير من الدول.

ليس من السهل الوصول إلى الاجابات في سؤال الرؤية، لكنها تحتاج لتحليل عميق وشفاف من دراسة الحاله الراهنة. حتى دراسة الحالة الممتازة التي يتوفر لها الخبراء، الميزانيات، الامكانيات وعمق التحليل قد لاتساعد في الوصول إلى الاجابات، لأن الرؤية في حقيقتها انحيازات سياسية، إقتصادية وإجتماعية. هذا هو السر أن الإستراتيجية الربع قرنية لم تتخط عتبة باب المؤتمر الوطني، لانها منحازة لإستراتيجيات مالوفة فشلت في السودان قبل غيرة من قبل، تكرر وضعاً مازوماً من التمكين، الاقصاء والتشدد في كلمات وشعارات ولاتحل أي من ازمات التنمية السياسي الست.

إن فقدان الرؤية هي السر في خذلان وفشل الثورات السودانية 1964 و 1985. بعد الحكم الديكتاتوري الثاني، وفي ظل استمرار الصراع الأهلي بين الشمال والجنوب، كانت البلاد في حاجة ماسة إلى وجود رؤية حول قضيتين هامتين شكلتا مصدر وأصل الصراع منذ الاستقلال، معالجة ازمة الهوية وتوزيع الثروة. اثناء الفترة الإنتقالية وبعد تكوين الحكومة المنتخبة في 1986، عقدت عدة مؤتمرات قطاعية اهمهما مؤتمري السلام والاقتصاد، لكنهما لم يستطيعا تقديم الحلول. رغم الحريات والحقوق السياسية الواسعة، لم تستطع النخبة الحاكمة أن تتقبل السودانية كهوية، والتنمية المتوازنة، وفي خلال خمس سنوات لم تترجم العدالة والمساواة إلى سياسات وبقيت أسيرة انحيازاتها الطبقية.

أكثر من ذلك عاد الإمام الصادق المهدي لدفع الدستور الإسلامي بالتحالف مع الجبهة الإسلامية القومية وداهمت انحيازات تيار الدولة الدينية الطفيلية جماهير السودان. وكان من المؤسف والمأساوي أن فصيل اطباء السودان الذين قادوا الانتفاضة اضطر للاضراب من اجل تحسين الخدمات وسبل عيشهم.

عندما تحاكم الفترات الديمقراطية نفسها في السودان، تطرح قصر الفترات سبباً اساسياً ولاتجيب على السؤال البديهي ولماذا هي قصيرة. في رأي أن غياب الرؤية هو العامل الحاسم. فاربعة سنوات كانت أكثر من كافيه لتطرح الاحزاب الحاكمة رؤيتها



وتبدأ في طرحها للنقاش المجتمعي، لكنها بدلاً عن ذلك عندما ارادت رفع بعض الاسعار وبدات بسعر السكر، والذي كنت أراة عادياً وضرورياً في تلك الظروف، لكن كانت خاطئة في تلك السياقات. فالدولة لم تطرح للشعب السوداني المسألة، لم تناقشها وتحاول اقناع شعبها بالتحديات ولم تنوره عن أين ستنفق هذه الاموال.

المصارحة، المشاركة، التوافق، الشفافيه والعننية هي مقدسات الرؤية الصائبة وجواز المرور لكسب الشعب لتحمل ظروف اضطرارية صعبة. بدلاً من ذلك تصرفت الحكومة بكل استهتار بالمزاج الشعبي واهملت رؤية، فطفت الشوارع بالمحتجين وكادت البلاد تنزلق إلي الفوضى. هذه هي نفس الاسباب التي ادت بالشباب للخروج إلي الشارع وهمت باسقاط النظام في يونيو- يوليو 2012 بعد الزيادات في سعر البترول مما اضطر النظام لسحب زيادة سعر الكهرباء.

الانحيازات السياسية، الإقتصادية والإجتماعية هي المدخل الاساسي للرؤية الفعالة. عندما تسلم رئيس البرازيل السابق "لولا دا سيلفا" مقاليد الحكم بني رؤيته على تعديل معادله الفقر، وفي نفس الوقت أن لا تكون على حساب رجال الاعمال، فتنبي تحقيق العدالة الإجتماعية لحل معضله الفقر البرازيلي ومن جهة أخرى انتهج سياسات ليبرالية لحماية شريحة الرأسماليين وصناعتهم وإستثماراتهم. دعم الرئيس السابق سياسة الإعانة البرازيلية المعروفة ويقوم البرنامج على أساس إعطاء معونات مالية للأسر الفقيرة بقصد رفع مستواها وتحسين معيشتها. هذه البرامج لم تقض على الفقر تماماً ولكنها حركت ملايين الأسر من منطقة الفقر إلي منطقة "الطبقة الوسطي الجديدة". هذه الأسر دخلت ليست فقط المجال السياسي ولكنها ساهمت في النهضة الصناعية.

كيف سنصل للصورة الذهنية لسودان ما بعد عشرين عاماً، لنجد جواباً على أين نريد الذهاب؟. ليس هناك كاتلوج جاهز نتبعه ونجد الاجابة. إن الاتفاق الجيد بمد الفترة الإنتقالية إلي 4 سنوات، سيتيح ضمن الآليات أن تستطيع الدولة أن تحل قضايا الوضع الإنتقالي التي عالجناها سابقاً (أولاً: قضايا نظام الحكم والمسائل المتصلة بها: الدستور، العدالة الإنتقالية، العدالة الإجتماعية، العلاقات الخارجية، المجتمع المدني؛ ثانياً: القضايا المتصلة بالتغيير الإقتصادي والإجتماعي: تمكين المرأة، اجتثاث العنف من الحياة السياسية، محو الامية، الفقر، العطالة والديون والثقافة الديمقراطية).

إن الانحيازات السياسية، الإقتصادية والإجتماعية لحكومة الفترة الإنتقالية، والتي هناك اتفاق واسع عليها، سوف تلعب دوراً أساسياً للوصول إلي بعض الاجابات. وسوف يتاح الزمن، الامكانيات والدعم المادي لاجراء والوصول لدراسة الحالة الراهنة في السودان من كل جوانبها. بعدها نتجه لتحليل SWOT معمق للسودان.

يتوفر مئات السودانيين المؤهلين في كل مجال، في داخل السودان وخارجه، لديهم الكفاءات المطلوبة والضرورية. نحتاج إلي عون من الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة، البنك الدولي فهي بيوت خبرة كفوة، ربما نحتاج أيضاً لشركات متخصصة في بعض الدراسات. هذه النتائج لابد أن تتاح ان يشارك فيه كافة السودانيين، وبكل الوسائل الاعلامية المتاحة، لتكون لدينا صورة واضحة عن حاضرننا الذي سيفتح لنا طريق المستقبل. إن الرؤية حلم لابد ان يتاح لاغلب السودانيين، خاصة الشباب أن يحلموا بغد افضل.

### عندي حلم

"عندي حلم" هو الاسم الذي سميت به خطبة مارتن لوثر كنج التي ألقاها عند نصب لنكولن التذكاري في 28 أغسطس 1963 أثناء مسيرة واشنطن للحرية عندما عبر عن رغبته في رؤية مستقبل يتعايش فيه السود والبيض بحرية ومساواة وتجانس<sup>389</sup>. ويُعتبر اليوم الذي أُلقيت فيه هذه الخطبة من اللحظات الفاصلة في تاريخ حركة الحريات المدنية، كما تُعتبر هذه الخطبة واحدة من أكثر الخطب بلاغة في تاريخ العالم الغربي وتم اختيارها كأهم خطبة أمريكية في القرن العشرين طبقاً لتصويت كتاب الخطب الأمريكيين<sup>390</sup>. "عندي حلم بأنه في يوم ما سيعيش أطفالنا الأربعة بين أمة لا يُحكم فيها على الفرد من لون بشرته، إنما من ما تحويه شخصيته. دعوا الحرية تدق. وعندما يحدث ذلك، عندما ندع الحرية تدق، عندما ندعها تدق من كل قرية ومن كل ولاية ومن كل مدينة، سيكون قد أقترب هذا اليوم عندما يكون كل الأطفال

<sup>389</sup> مارتن لوثر كنج جونيور ولد في 15 يناير عام 1929 - وتوفي في 4 أبريل 1968. زعيم أمريكي من أصول إفريقية، قس وناشط سياسي إنساني، من المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد بني جلدته، في عام 1964 م حصل على جائزة نوبل للسلام، وكان أصغر من يحوز عليها. اغتيل في الرابع من أبريل عام 1968، اعتبر مارتن لوثر كنج من أهم الشخصيات التي دعت إلى الحرية وحقوق الإنسان <sup>390</sup> عندي حلم: من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، <http://ar.wikipedia.org/wiki>

الذين خلقهم الله: السود والبيض، اليهود وغير اليهود، الكاثوليك والبروتستانت قد أصبحوا قادرين على أن تتشابك أيديهم وينشدون كلمات أغنية الزنجي الروحية القديمة : "أحرار في النهاية! أحرار في النهاية! شكراً يا رب العالمين، نحن أحرار في النهاية!"... عندي حلم أنه في يوم ما بأن كل وطاء يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً، والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل البشر جميعاً.. أنا عندي حلم اليوم! أنا أقول اليوم لكم يا أصدقائي أنه حتى على الرغم من الصعوبات التي نواجهها اليوم والتي سنواجهها في الأيام المقبلة، لا يزال عندي حلم، وهو حلم ضارب بجذوره العميقة في الحلم الأمريكي<sup>391</sup>.

الحلم ترف لايعرفة الا من آمن شر الجوع ومهانة باكر، ترف لايتوفر لفقراء المدن الذين يعيشون في المجاري القديمة، قطاطي الصفيح ويلتحفون الارض واباطهم والنجم، ملايين ليس لديها امل سوي تدبير الوجبة القادمة، إن كانت قادمة، الذين يمرضون فيحصلون على حبة دواء واحدة او يموتون سنبله، ناكشي الكوش ومقابل القمامة. هؤلاء احلامهم بسيطة وينتظرون أن يشاركوا في تغيير الانحيازات السياسية، الإقتصادية والإجتماعية وانتشالهم من هذه الوهدة.

### كيف نذهب إلي هناك؟

يرتبط بسؤال أين نريد الذهاب، السؤال المنطقي الآخر، كيف نذهب إلي هناك؟. وهما مرتبطان لأن الاليات والوسائل تتدخل في امكانية أن نصل للمكان المرغوب. إذا كان السؤال الأول يرتبط بالاحلام، الاماني والقدرة على فتح المجال للخيال، فالسؤال الثاني فيه جوانب من القدرة على الابداع ولكن يعتمد بشكل أكثر على تحليل نتائج دراسة الحالة الراهنة في السودان وتحليل SWOT المعمق للسودان.

لانعيد إنتاج العجلة فقد سبقتنا دول عديدة، اتبعت طرق مختلفة وهي متاحة لنا لنستفيد من تجاربها، اخفاقاتها ودروسها المستفادة. لم تصل هذه الدول إلي التطور الذي شهدته عن طريق سهل، مختصر او عن طريقة "حرق المراحل"، لكنها تميزت باصرار، رغبة، تخطيط، المحافظة على الموروث والتطوير المستمر. كافة الرؤى سارت طرقاً

<sup>391</sup> لدي حلم (الخطبة) - مارتن لوثر كنج: [http://www.al-maseera.com/2010/07/blog-post\\_03.html](http://www.al-maseera.com/2010/07/blog-post_03.html)

متشابهة.

### أولاً: الدراسة الجادة لنقاط الضعف والقوة

العامل الرئيسي الذي جعل هذا ممكناً هو الدراسة الجادة التي قامت بها كل الدول لنقاط ضعفها، بدون أي شوفينية ادعاء، وكذلك نقاط قوتها بدون أي ادعاء وكيفية تعزيزها. لم تكن هذه دراسة خبراء أو منظمات دولية، لكنها كانت جزءاً من الدروس التي تعلمتها من واقع التجربة العملية والممارسة أثناء النضال ضد الاستعمار.

لقد قيضت ظروف كل دولة ببروز قادة كان لديهم من وضوح الرؤية، الحصافة وروح التضحية بوضع دولها في الطريق الذي يقود إلى المستقبل. أنه من المحزن فعلاً أن مؤتمر الخريجين الذي اسمى على غرار المؤتمر الهندي لم يستطع سبر غور التجربة الهندية، والتي كان ابرز ما فيها توحيد قوى التيار الاساسي في النضال ضد الاستعمار ومن ثم التوحيد في حزب واحد برؤية مشتركة مثلت في المخيال السياسي الهندي بمختلف اطيافه واحزابه المشترك الوطني الذي يجعلها تعمل في نفس الاتجاه من التطور.

الهند التي نالت استقلالها عن طريق الكفاح المدني السلمي، عانت اول نكساتها بانقسام الباكستان عنها، تاركة خلفها اكبر مجموعة اسلامية داخل دوله في العالم، الارث الآخر للهند المستقلة هو الكثافة السكانية والتفاوت الواسع في مستويات السكان الإقتصادية، الإجتماعية، الحروب المتكررة مع الباكستان والمناوشات مع الصين. افضل نقاط قوة الهند هو الزخم الشعبي الذي اكتسبه الهنود من مسيرة الاستقلال الطويلة والتي رسخ فيها قاداتها اهمية العمل والانتاج، الديمقراطية، المساواة العرقية وضرورة العدالة الإجتماعية. لقد نظرت لنقاط ضعفها كتحديات وتجاوبت معها بايجابية. ادى الشعور المتعظم بالخطر من جيرانها الذين بدأوا في تطوير القنابل النووية (الصين والباكستان) إلى بدء برنامجها النووي، الذي وأن بدأ كجزيرة معزولة وسط التخلف العام، الفقر، النزاعات الداخلية العرقية والسياسية، الا أن مردودها على التطور اللاحق كان حاسماً للهند في رفع قدراتها العلمية والتكنولوجية.

لذا لم يكن مستغرباً أن يكون ملهم رؤية الهند هو نفسه د. عبد الكلام، ابو الصواريخ

الهندي. مثلت الكثافة السكانية، لا قبله موقوتة، ولكن جوهرة الهند التي بدأت في بنائها على افضل التجارب العالمية الموروثة من الاستعمار البريطاني وتطويرها. ادى هذا، في ظل ظروف عالمية مواتية، أن تشكل جزءاً مهماً وفعالاً في القوى البشرية العالمية من الخليج، الدول الغربية وامريكا.

عندما نالت ماليزيا استقلالها كانت تعتمد على زراعة المطاط، زيت النخيل، معدن القصدير، مع كميات ضخمة من اخشاب الغابات الاستوائية، زيت جوز الهند وتصدير البترول والغاز الطبيعي. كانت هناك أيضاً مشكلة عرقية خطيرة هي أن السكان الاصليين والذين يمثلون اغلبيية السكان تعيش في ظروف سيئة ومهمشة تماماً والسلطة والثروة في ايدي الماليزيين من اصول هندية وصينية (اقلية كبرى حوالي 40%)، الذين استجلبهم الاستعمار كعماله ماهرة واستطاعت أن ترتقي بواسطة التعليم والعمل الشاق. بعد عقود من الصراعات العرقية والذهبية، استطاعت ماليزيا أن تبدأ في التطور نحو المستقبل عندما وجدت أن التنوع العرقي ميزة اذا احسن استعمالها، الغابات والبيئة مكون اساسي في تكوين الدولة وثروة يجب تنميتها.

## ثانياً: القيادة

توفرت لكل هذه الدول القيادة ذات الارادة والخيال، وكافتها توصلت فيها القوى المختلفة، بعد صراعات عديدة، ودماء كثيرة وتوترات إلى التوافق السياسي حول قيادة التيار الرئيسي فيها لمقاليد الحكم. لم يتم هذا بالاجبار او الفرض، الانقلابات او القوة، لكنها فرضت شرعيتها عن طريق طرحها للهموم الوطنية وخلق توافق وطني عام حول هذه الهموم. ليس بالضرورة ان تكون القيادة كاريزمية، وأن اتيحت لاجلها هذا النوع من القيادة (غاندي ونهرو في الهند، مهاتير في ماليزيا، مانديلا في جنوب افريقيا، السلطان قابوس في عمان، الشيخ محمد بن راشد في الامارات) لكن افضل تجارب الشعوب جاءت من الهند والصين وكوريا والتي وأن ظهر في وقت ما قائد دفع بالرؤية قدماً (مثل د. عبد الكلام في الهند)، لكن هذا لما كان متاحاً لو لم يتوفر نظام سياسي يسمح بتشجيع عمليات إدارة التغيير.

ليس من الضرورة أن ترتبط الرؤية بنظام سياسي معين، كالديمقراطية مثلاً (الصين

ذات النظام الشمولي، وكوريا الجنوبية الديكتاتورية حتى 1987 والديمقراطية المحكومة في ماليزيا). لقد تميزت كل هذه الدول بإيمان قادتها بإمكانية تطور بلادهم والعمل الدؤوب على تطبيق ما آمنوا به. بجانب الرؤية هناك مهارات قيادية مشتركة بين القادة؟ وهي التحدي، الرؤية المشتركة، تمكين الآخرين من العمل معهم، تشكيل طريق نحو التطلعات وتشجيع الآخرين. إن هذه المهارات السابقة ضمن مفهومها البسيط مهارات عادية وبسيطة يستطيع كل القادة امتلاكها، ولكن هناك قلة فقط من يمتلكون القدرة على تنفيذها بشكل تفصيلي ودقيق.

### ثالثاً: الاستقرار السياسي

عانت كل هذه الدول للوصول للاستقرار السياسي، سواء بدخول حروب مكلفة (كوريا والهند) أو تعديل معادله العسكر والمدنيين (كوريا الجنوبية). سارت جنوب افريقيا طريق الآلام الطويل، عانى شعبها ويلات كثيرة ورهبة في سبيل التحرر من نظام الفصل العنصري والدخول في مرحلة دوله المواطنة. ماليزيا عانت من حروب أهلية وتوترات عرقية قاسية.

دفع أبناء الصين ثمناً غالياً في فرض سياسات القهر الثقافي، العرقي والسياسي فيما اطلق عليه الثورة الثقافية وقد جاء قائد نهضتها الجديدة من ضحايا هذه السياسة البائسة. لكن كل هذه الدول لم تستطع ان تنطلق إلي المستقبل الا بعد أن حلت ازماتها المعلقة ومشكلاتها المزمنة عبر سياسات طويلة الامد، مدروسة بعناية وبدعم شعبي.

### رابعاً: الإستثمار في الميزة النسبية

كما أبنا سابقا فقد قامت كل هذه الدول بدراسة نقاط ضعفها وقوتها بعناية شديدة وعرفت التحديات التي عليها ان تجابهها. حددت من هذه الدراسات الميزة النسبية التي تتميز بها الدولة وهذا هو الذي حدد اتجاه رؤيتها المستقبلية، أين تضع إستثماراتها وتطور مجالاتها. كوريا الجنوبية الفقيرة في الامكانيات المادية والخالية من المواد الخام، مضت في طريق اليابان وركزت على تطوير قوتها البشرية. بنت كوريا الجنوبية نهضتها من هذا الإستثمار الذي سمح لها بعد ذلك باختراق الصناعات

المتنوعة. انطلقت الهند من كثافة سكانها والصناعات القائمة فاستثمرت في التعليم والتدريب لتصبح المورد الاساسي للقوى العاملة العالمية، وموطناً لايدي عامله رخيصة قادرة على المنافسة في سوق عالمية. سمح تطور برنامجها الفضائي باكتساب وخلق بيئة علمية وتكنولوجية اصبحت اساساً في بناء القاعدة التكنولوجية التي تتميز بها.

موقع دبي في صرة العالم والتراجع المتوقع في مكانة هونغ كونغ، بداية نضوب الثروة النفطية، جوارها الثري من دول الخليج ووجود كثافة سكانية محيطة، كانت نقاط قوة اماره دبي ولكن التحدي كان في قله عدد السكان المحليين وضعف تأهيلهم. قامت رؤية دبي على توفير بيئة عمل وخدمات عالمية بدلا من هونغ كونغ، الاعتماد على قوة عمل عالمية مؤهله والإستثمار في تأهيل السكان المحليين، دفعت دبي للصدارة في العالم (زرت دبي لأول مرة عام 1996، وكان فى أستقبالي صديقي د. قسم الباري مصطفى والذي كان قد سبقنا إلي الإمارات في عام 1994، وكان بها كوبريين ونفقين وافضل مول فيها، سيتي سنتر، محدود المساحة، وصلت لمطارها المتواضع وكانت طرقاتها جيدة ولكن محدودة. لم تكن من منطقة مميزة سوي منطقة المركز التجاري العالمي وشارع الشيخ زايد الذي تنتاثر فيه عمارات قليلة ويمكن للقاريء ان يتخيل دبي الآن)

### **الرؤية: دروس من تجارب اخرى**

يحكى أن بائعاً جوالاً كان يبيع في شوارع أحياء نابولي الإيطالية الفقيرة نوعاً خاصاً من الخبز المفروود والمزخرف بصورة جميلة. وكان الفقراء يتهافتون على شراء هذا الخبز، ومع الأيام وإقبال الناس على هذا البائع أخذ يتفنن في إعداد هذا الخبز وأضاف إليه شيئاً من الزخرفة الأخرى وهكذا. يقال أن الملكة مارجريتا وزوجها كانا في جولة لتفقد أحوال رعيتهما، عندما شاهدت أولئك الفقراء يزدهمون على ذلك البائع ويأكلون من ذلك الخبز الذي كانوا يسمونه بيتزا، فأعجبها طعمه وشكله وداومت على أكله، وأصبحت تخرج لذلك البائع خصيصةً لأكل البيتزا، ولكن رئيس الطهاة لم يرق له خروج الملكة الدائم لأكل ذلك الخبز فأخذ يصنعه لها، وما لبث أن أضاف إليه شيئاً من صلصة الطماطم فأعجبها أكثر وأكثر ثم توالى الأيام. وكان أن أضاف إليه شيئاً

من جبنة المازريلا والريحان الأخضر، ممثلاً بذلك ألوان العلم الإيطالي الأحمر من صلصة الطماطم والأبيض من الجبن والأخضر من الريحان. وسمي ذلك الخبز باسم الملكة (بيتزا مارجرىتا) وهكذا اشتهر هذا النوع من البيتزا بهذا الاسم إلي يومنا هذا تمييزاً لها عن بقية الأنواع الأخرى.

تتكون البيتزا أساساً من الدقيق والماء والزيت وتضاف إليها بعد ذلك ( السكر، الملح، لبن، بيكنج باودر، ثوم، البصل، الخميرة، الخضروات، انواع اللحوم، الاجبان.....الخ). يحدد الماء والزيت كمياً وكيفاً طبيعة المنتج النهائي من البيتزا. عندما نتحدث عن عناصر الرؤية نمثلها أساساً بالدقيق والمكونات الأخرى الثانوية. لكي تصبح العجينة طرية، ولينة ومرنة يتم خلطها بالماء والزيت والمنتج النهائي تمثل الرؤية. اذن الرؤية هي النسيج الضام الذي يجعل عناصر البرامج المختلفة لتعمل بهارمونية وتناسق لكي تعزز من نتائج كل قطاع.

## رؤية الهند 2020

سوف نتناول رؤية الهند 2020 باعتبارها تخاطب كافة القضايا التي تواجهنا ولانها اخذت مسارات متعددة، فقد اطلق الدكتور عبد الكلام إبان رئاسة لمجلس تكنولوجيا المعلومات، والتنبؤ والتقييم عام 1996 مبادرة تطوير وثيقة الهند 2020: رؤية للألفية الثالثة. (اتصور أن تطوير رؤية السودان سوف تصل للملايين عبرالتثقيف عبر الشاشات الفضائية، الرسائل الالكترونية، صفحات التواصل الإجتماعي، الرسائل النصية والمصورة وغيرها من الوسائط). إننا نقتررب من ديمقراطية اثينا حيث السادة كلهم يشاركون في بلورة القرارات اومسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة حيث يشارك كافة أهلها في صياغة مصيرهم.

بدات المسألة اثناء احد اجتماعات (TIFAC) في نوفمبر 1993 عندما بدأ نقاش حول كيفية مساهمة المجلس (مكون من صناعيين، باحثين، اكاديميين، موظفين حكوميين وممثلي المؤسسات المالية) وطرح احد الاعضاء أن الهند منذ استقلالها في 1947 وهي تصنف كدولة نامية فكم عاماً ستأخذ لتتحول إلي دولة متقدمة. عقد إجتماعين خصصا لنقاش هذه القضية والوصول لكيفية الوصول لهذه النهاية. واتفق الجميع أن



التكنولوجيا هي طريق الهند إلى التقدم في اسرع وقت، وأنها اذا طبقت بشكل صحيح فسوف تقوى من التكوين السياسي، الإقتصادي والامني للدولة. أيضاً سوف تسمح التكنولوجيا بتطوير مجالات التعليم، التدريب، الصناعات الغذائية، الصناعات الإستراتيجية والبنية التحتية. على هذه الارضية تم البدء في إنشاء فرق العمل والمجموعات لتطوير رؤية التكنولوجيا لعام 2020 . ضمت فرق العمل ومجموعات النقاش حوالي 500 شخص. وشارك 5000 من خلال الردود على الاستبيانات، أو مع مداخلات مكتوبة أو شفوية.

### خطوات العمل

بدأت الرؤية بعرض لأهمية وجود رؤية للهند والمفهوم النظري لرؤى الدول، ثم تطرقت إلى تحديد أهم التحديات التي من المتوقع أن تواجهها خلال فترة الرؤية من خلال رصد لأهم المؤشرات التنموية في الهند، بناءً على مؤشرات التنمية الدولية لعام 2001، والتي مثلت مؤشرات الوضع الراهن آنذاك، تمت مقارنتها بما يجب أن تكون عليه أو تتعداه بحلول عام 2020، والتي تم تحديدها من خلال استخدام متوسط هذه المؤشرات لمجموعة الدول التي تنتمي إلى الشريحة العليا من الدخل المتوسط - مثل الأرجنتين، ماليزيا، جنوب أفريقيا وتشيلي- كمؤشرات مرجعية تساعد الهند على قياس مدى تقدمها خلال الأعوام القادمة.

تم تحديد الاتجاهات التنموية التي ستجعل من الهند دولة متقدمة تكنولوجيا عام 2020. وحصرت هذه الاهداف في إزالة الفقر من الملايين بأسرع وقت ممكن، توفير الصحة للجميع، توفير التعليم الجيد والمهارات للجميع، توفير فرص العمل للجميع؛ أن تكون الهند مصدراً للسلع والخدمات، تحقيق الاكتفاء الذاتي وبناء القدرات للحفاظ عليها وتحسين كل هذه في المستقبل.

لتحديد كيف يمكن تلبية هذه الاحتياجات تم تقييم الكفاءات الأساسية (core competencies) المتوفرة في الهند كشرط مسبق. حصرت المناقشات الكفاءات الأساسية المطلوبة للهند في أن الهنود الأقل حظاً جداً، أظهروا القدرة على استيعاب الجديد من التقنيات، المهارات وأساليب الأداء أيضاً. ساعد تحسين القاعدة التعليمية

لهم استيعاب أفضل النهج والمعارف الجديدة. الكفاءة الأخرى هي الموارد البشرية في الهند وقاعدة الموارد الطبيعية الغنية والمتنوعة.

مع الأخذ في الاعتبار احتياجات الهند، نقاط القوة الأساسية والكفاءات التي تم تحديدها سابقا قادت إلى التركيز على القطاعات الحيوية. الصناعات الغذائية والتجهيز، النقل البري، الطيران المدني، المجاري المائية، الطاقة الكهربائية، الاتصالات، أجهزة الاستشعار المتطورة، الصناعات الهندسية والإلكترونية، المواد المعالجة، المعالجة الكيميائية، الصناعات والأغذية والزراعة، علوم الحياة، التكنولوجيا الحيوية، الرعاية الصحية، الصناعات الإستراتيجية والخدمات.

ناقشت فرق العمل ومجموعات النقاش القوى الدافعة والعوامل المحبطة كل في مجالها. ثم تم نقاش الاقتراحات في نقاش موسع عن القوى الدافعة والعوائق. بنت اللجان الأهداف والمنهجية لتشمل:

1. تقديم توجيهات لمبادرات وطنية في مجال العلم والتكنولوجيا لتحقيق رؤية الهند عام 2020؛
2. توفير أساس قوي لإطار السياسات والاستثمار في البحوث والتنمية في الحكومة والقطاع الخاص
3. المساهمة في وضع سياسة متكاملة للعلوم والتكنولوجيا على الصعيدين الوطني والمحلي

ساهم ذلك التقييم الرئيسي والاستشراف في تكوين 17 فريق عمل. من هذه، ترأس منها 10 خبراء من المجال الصناعي، خمسة من البحوث والتنمية واثنين من المؤسسات الحكومية، وعين لكل فريق عمل رئيس، ومنسق. استعمل في الدراسة تقنيات مختلفة من الاستشراف، مثل جلسات العصف الذهني "استراتيجية العصف الذهني واحدة من أساليب تحفيز التفكير والإبداع الكثيرة. يستخدم العصف الذهني كأسلوب للتفكير الجماعي أو الفردي في حل كثير من المشكلات العلمية والحياتية المختلفة، بقصد زيادة القدرات والعمليات الذهنية. القواعد الأساسية للعصف الذهني: ضرورة تجنب النقد للأفكار المتولدة، حرية التفكير والترحيب بكل الأفكار مهما يكن نوعها، التأكيد على زيادة كمية الأفكار المطروحة وتعميق أفكار

الآخرين).

إعداد التقارير والسيناريوهات "رسم السيناريوهات هو أحد أهم الأساليب المستخدمة في الدراسات المستقبلية. والسيناريو هو وسيلة للتخطيط الاستراتيجي الذي تستخدمه بعض المنظمات لإعطاء مرونة لخطط طويلة الأمد. انه تكيف وتعميم للأساليب التقليدية التي تستخدم عادة في الاستخبارات العسكرية. وهو أيضاً موجز للعمل في حالة أحداث متوقعة. السيناريوهات تستخدم في تخطيط السياسات، والتطوير التنظيمي، وبوجه عام، عندما ترغب المنظمات اختبار الاستراتيجيات لمكافحة التطورات المستقبلية الغامضة. السيناريوهات عادة ما تكون بدائل، حيث يتم بناء أكثر من سيناريو، ونقطة البداية هي وصف للوضع الحالي انطلاقاً من بيانات كمية وكيفية. السيناريوهات تعتمد على تصوراتنا للمستقبل وتعمل على توجيهه المسار التنموي للهدف المرغوب فيه".

طريقة دلفي "طريقة دلفي القياسية، يقوم الخبراء بالإجابة على الاستبيانات المتعلقة بالموضوع المطلوب استشرافه في جولتين أو أكثر. بعد كل جولة، يقوم وسيط بإرسال موجز مغفل يحتوى على خلاصة توقعات الخبراء من الجولة السابقة والأسباب التي بنيت على أساسها أحكامهم. وبالتالي، يتم تشجيع الخبراء على مراجعة إجاباتهم السابق على ضوء الردود من الأعضاء الآخرين من لجنة الخبراء. ويعتقد أنه خلال هذه العملية أن نطاق الإجابات سيقصص وسوف تتقارب آراء مجموعة الخبراء نحو الإجابة "الصحيحة". أخيراً، يتم إيقاف عملية عند "معيار توقف" محدد مسبقاً (على سبيل المثال عدد الجولات، تحقيق التوافق واستقرار النتائج) ومتوسطي درجات الجولات النهائية يحدد النتائج"

أسلوب المجموعة الاسمية "أسلوب المجموعة الاسمية ( Nominal Group Technique): وهي عملية التوليد الأفكار، بحيث يقوم كل عضو في المجموعة بالمشاركة دون السماح لبعض الأفراد بالسيطرة على العملية. وهي من الطرق التي تسمى أيضاً الكتابة الذهنية".

بعض دراسة الحالات وورش العمل اللاحقة، وما إلى ذلك، طرحت فرق العمل الأسئلة التالية:

1. هل هناك مناطق معينة في الهند لديها قاعدة تكنولوجية قوية؟
2. ما هي التقنيات التي يمكن أن تغير بشكل كبير الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو التي لديها مزايا محددة؟
3. ما هي الفوائد العرضية من التكنولوجيات المتقدمة؟
4. ما هي مناطق التركيز على التنمية التكنولوجية ؟
5. ما هي الإجراءات والاستراتيجيات والسياسات التي سيتم تنفيذها في المستقبل لتأمين ميزة تنافسية في السوق العالمية.
6. ما هي التقنيات التي من شأنها أن تظهر في المستقبل بشكل كبير في 2015، 2010، 2020، و 2025 على التوالي؟
7. ما هي التكنولوجيات 2005 التي من شأنها أن تظهر في 2010، 2000 و 2015 تحديداً؟

للحفاظ على الروابط وضمان تدفق المدخلات بين مختلف فرق العمل، تم من خلال التنسيق بين رؤساء اللجان، المنسقين والموظفين. في اجتماعات لاحقة لمجلس TIFAC، قدمت عدة فرق عمل النتائج التي توصلوا إليها. من ثم قد تقرر نشر النتائج على نطاق واسع بمساعدة الاتحادات الصناعية، الدوائر الحكومية، الوكالات والمنظمات والجماعات المهتمة الأخرى في هذه المجالات وذلك لصياغة بعض الإجراءات لتحقيق هذه الرؤية التكنولوجية للهند. شكلت التقارير، السيناريوهات، الاستجابات المختلفة وأسلوب المجموعة الاسمية الأساس الذي بنيت عليه الرؤية والقرارات العملية، وأيضاً وضعت اقتراحات لمبادئ توجيهية للسياسات والاستراتيجيات وخطط العمل للصناعة، الحكومة، مراكز البحوث، المعاهد والمؤسسات الأكاديمية لتحقيق رؤية للهند حتى عام 2020.

كل تقرير كان يحتوي على معلومات قيمة عن الوضع الحالي، التنبؤات وتقييم القطاع. يمكن للمرء أن يرى من خلال هذه التقارير نتائج واقتراحات مختلفة للعمل بدءاً من تعديل بسيط للسياسات أو تدابير إدارية لإدخال ممارسات تكنولوجية بسيطة نسبياً من جهة، وكذلك تلك التي تنطوي على إتقان التكنولوجيات المعقدة الجديدة والناشئة للاختيار منها.

أسفرت هذه العملية الضخمة عن إنتاج خمسة وعشرين وثيقة. قال عنها ديف جودا،

رئيس مجلس الوزراء "أنا سعيد لمعرفة أن التقارير تقدم ليس فقط رؤية في عام 2020 ولكن أيضاً أن تبين الخطوات الوسيطة المطلوبة التي يجب اتخاذها من قبل الحكومة والمعاهد والصناعة وغيرها. السنوات القادمة تتطلب مزيداً من التركيز والإستثمار، وخاصة من قبل بيوت الصناعة والأعمال، لخلق قوة التكنولوجية المحلية. وفي حين أنه ليس من الضروري أن نطور كل شيء داخل البلد، علينا أن نتذكر أن العالم يحترم القوة التنافسية التكنولوجية. لدي ثقة أن لدينا مدراء والخبراء والقوى العاملة قادرة على تلبية أي تحد حتى المهام المعقدة التكنولوجية والتنظيمية إذا ما بذلت جهود مخلصه وداعمة. أود أن أقترح أن نلزم أنفسنا جميعاً لاتخاذ ما يلزم من خطوات متابعة".

تطرقت الرؤية إلى الفرص المتوقعة في المستقبل، والتي تتضمن أهمية المعرفة وتكنولوجيا المعلومات، أهمية الموارد ورأس المال المعرفي. وقد تطرقت الرؤية إلى عدد من القطاعات المهمة في إطار تحقيق رؤية الهند 2020، كان على رأسها الموارد البشرية، والتي تم تناولها من خلال أهم المؤشرات الحالية والمستقبلية والتحديات والفرص المتاحة والاتجاهات المستقبلية في هذا القطاع.

لم تتجاهل رؤية الهند أهمية التغيرات الإقليمية والعالمية التي يمكن أن تؤثر على مسار الرؤي، حيث تناولت أهمية العولمة وأهم التوجهات العالمية التي من شأنها أن تؤثر على مستقبل الهند، وكان من أهمها النمو السكاني، العولمة الاقتصادية، نمو التجارة العالمية وقطاع الخدمات، نقص العمالة في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، تدفقات رأس المال، البني التحتية والتكنولوجيا، وتم على إثر ذلك تحديد أهم الفرص المتاحة للهند في ظل هذه التوجهات العالمية.

تناول الجزء الأخير من الرؤية الجوانب الأمنية والسياسية، حيث تم استعراض أهمية الأمن والسلام لتحقيق الرؤية، والتي تم منها استخلاص أهم العناصر التي ستؤثر على البيئة الأمنية للهند عام 2020، وأهم التداعيات المتوقعة على شكل الحوكمة في الهند نتيجة التحولات التكنولوجية والاقتصادية التي قد تشهدها الهند خلال الأعوام القادمة.

بعد نشر الوثائق والكتاب سافرت الفرق في انحاء الهند وقدمت نتائجها على نطاق واسع، وذلك جزئياً بهدف نشر الاستنتاجات، ولكن أكثر لتعريف الناس بها وفهم

حولها. وكانت النتائج إيجابية على كافة المستويات المحلية، المؤسسات والافراد. لقد أشعلت الرؤية العقول في أجزاء مختلفة من الهند، في مختلف الفئات العمرية وجعلت أجواء الأمة تعيش حاله تحقيق رؤية الهند دوله متقدمة.

لاحقاً وفي مسار مختلف، وبلاستفادة من عمل الدكتور عبد الكلام، شكلت هيئة التخطيط التابعة للحكومة الهندية لجنة لمناقشة الرؤية المستقبلية للهند حتى عام 2020 وقد ضمت هذه اللجنة 30 خبيراً من مختلف المجالات، واستمر البحث والدراسة لفترة أكثر من عامين توصلت خلالهما اللجنة إلي سيناريو شامل يعكس رؤية مستقبلية للهند عام 2020.

بالإضافة إلي طرح بعض السياسات الواجب اتباعها، سواء على مستوى أجهزة الحكومة أو وحدات القطاع الخاص لتحقيق هذه الرؤية، جاءت منهجية الدراسة التي قامت بها اللجنة في شكل سيناريو يمكن إدراكه فيما لو حققت الدولة الاستخدام الأمثل لمواردها المتاحة: البشرية، المؤسسية، التكنولوجية والتمويلية، مع ضرورة الاستناد إلي ما حققته الهند في الماضي القريب حتى تستطيع استشراف المستقبل وبلورة الرؤية المطروحة. انتهت الرؤية بعرض السيناريو الأفضل للهند، والصورة التي يرغب الشعب الهندي أن تكون عليها الهند عام 2020. وتمثلت أهم السياسات الواجب اتباعها و التي أوصت بها اللجنة من أجل تحقيق هذه الرؤية فيما يلي:<sup>392</sup>

السلام والأمن والوحدة الوطنية، تحقيق الأمن الغذائي من خلال توفير مزارع عالية المستوى لضمان الغذاء، توفير فرص عمل في قطاع الزراعة والصناعات القائمة على المواد الزراعية، توفير فرص عمل للجميع بما ينعكس على القوة الشرائية للمواطنين، الإرتقاء بالصحة من خلال التوسع في البنية التحتية الخاصة بالخدمات الصحية والتأمين الصحي وكذلك الإرتقاء بالتعليم لوضع الحكومة السياسات اللازمة لمحو الأمية بنسبة 100% بحلول عام 2020، الإرتقاء بمستوى التعليم كعامل أساسي للتنمية، تطوير التكنولوجيا والبنية التحتية من خلال التوسع المستمر في البنية التحتية المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات، ومجالات الاتصال مما سيكون له أكبر الأثر على النمو

---

<sup>392</sup> Report of the Committee on India Vision Dec 2020 Government of India: Planning Commission,

[http://planningcommission.nic.in/reports/genrep/pl\\_vsn2020.pdf](http://planningcommission.nic.in/reports/genrep/pl_vsn2020.pdf)

الإقتصادي والاندماج بنجاح في الاقتصاد العالمي وخلق حكومة جيدة من أجل تعظيم الرفاهية واحترام الحرية الفردية والعدالة الإجتماعية.

تبلورت رؤية اللجنة "أن يكون شعب الهند بحلول عام 2020 أكثر عدداً وأفضل تعليماً وأكثر صحة وغنى عن أي وقت مضى في تاريخ الهند الطويل".

### من يقوم باعداد الرؤية؟

اختلفت مداخل الدول في الجهات المكلفة باعداد الرؤية، ولكنها اتفقت على أن تقوم بها جهة محددة لها خبرة في مجالات التخطيط الإستراتيجي، والتي تتراكم فيها الخبرات والمعارف على مدى سنوات طويلة. عمان بدأت مرحلة الخطط الخمسية منذ السبعينات عبر وزارة التخطيط، والتي اكتسبت الخبرة والتجارب عبر السنوات وطورت قاعدة من الاجراءات القياسية ومجموعات واسعة من الخبراء المتنوعين في كافة المجالات والتدخلات التفاعلية مع المجتمعات المحلية، من ثم طورت رؤية عمان عبر هذه الآلية المجربة.

كان هذا نفس مدخل ماليزيا والامارات العربية المتحدة. دول اخرى تمت فيها عملية تطوير الرؤية بتمازج مجالس علمية مستقلة ذات اساس علمي ومعرفي صلب، بادرت بتبني تطوير رؤية للدوله مثل مجلس تكنولوجيا المعلومات، التنبؤ والتقييم (TIFAC) في الهند، وفي جنوب أفريقيا قامت وحدة تنسيق السياسات، الخدمات والاستشارات التابعة للرئاسة بإصدار وثيقة في سبتمبر 2008 وضعت فيها سيناريوهات جنوب أفريقيا 2025 المستقبل الذي نختاره؟ ومن ثم تبنتها الدولة عبر وزاراتها المختصة.

المشكلة الكبرى التي تواجهنا في السودان تجريف الخبرات الهائل الذي مارسة نظام الإنقاذ من تفريغ المؤسسات من القوى البشرية الهائلة، التي اكتسبت الخبرة التراكمية على مر الازمان. هذه الخبرات اغلبها موجود اما مبعداً عن مجال عمله في السودان، ويعمل في مجال اخر، في الدياسبورا من مختلف الدول والبيئات وبعضهم يعمل في المجال، اخرون اكتسبوا مهارات افضل. لدينا في السودان مراكز حكومية عديدة، اغلب قادتها او كلهم من تيار الدولة الدينية ويعبرون عن وجهة نظر واحدة. انحيازات هذا التيار فشلت بجدارة في رؤيتها للنهوض بالوطن. يوجد في السودان وفي المهاجر

مجتمع مدني نشط ومؤهل. ورغم القمع، الحرب الشرسة، الانتهاكات والتدخلات الامنية تستمر هذه القوى وتستعر من اتحادات طلاب، حركات شبابية، منتديات ثقافية وإجتماعية، اندية رياضة واستماع، روابط مناطقية وعرقية ومدن وغيرها. يتميز السودانيون عبر تاريخهم بملامح اصبحت مشهورة عنهم.

### العلاقات الإجتماعية الكثيفة

اصبح من مظاهر الاعياد في دول الخليج أنه بعد صلاة العيد، بينما تخلوا الشوارع من المارة، يتواجد مجموعات متعددة من السودانيين، غالبا في الجاليلب والعمم، يطوفون على المنازل للتهنئة. هذا جزء أصيل من التقاليد السودانية والتي يرجعها كثير من علماء الاجتماع إلي تجذر السلوك القبلي والصوفي فيهم. كنت دائماً من المؤيدين لإستمرار هذه الظاهرة واراها ايجابية في غالبيتها ولها سلبيات عديدة. تنبعت المنظمات العالمية لهذه الظاهرة وطرحتها كجزء من استراتيجيات مكافحة اثر القرارات الإقتصادية، ماسمى بشبكة الامان الإجتماعي<sup>393</sup> ويقصد بها "أبرزت الأزمات الغذائية والمالية وأزمات الوقود التي شهدتها العالم في السنوات الأخيرة تزايد الحاجة إلي برامج شبكات الأمان الإجتماعي لمساعدة الناس كي يصبحوا أكثر قدرة على التحمل والتكيف، وتوفير فرص إقتصادية أفضل".

لقد حفظت شبكة العلاقات الإجتماعية المجتمعات السودانية من التمزق والمعاناة، خاصة في عهد الإنقاذ، الذي اوصل الشعب السوداني لحد الكفاف والمسغبة. أيضاً امتدتهم بمقاومة فعالة لكل السلوكيات الضارة التي ارادت السلطات فرضها اثناء ديكتاتورية نميري ونظام الإنقاذ واشهرها محاوله فرض الحجاب الايراني على النساء السودانيات.

رصد كثير من الكتابات الإجتماعية السودانية الدور السلبي لهذه الممارسات واهمها: تضييع الوقت وعدم تنظيمه، الشفاهية، الاعتماد على الغير واقساها الكسل والخماله. هذا يجيء في اغلبه في سياق من النقد الذاتي والمراجعات الفكرية التي داومت عليها

<sup>393</sup> شبكات الأمان الاجتماعي ودورها في سد الفجوات ومواجهة الأزمات،  
<http://live.albankaldawli.org/close-gap-safety-nets-work-liveblog-webcast>



النخبة السودانية في العقدين الاخيرين، للنظر في اخطائها التي ادت لتسديد فصيل اقلية على كل مفاصل الحياة في السودان.

إن للعلاقات الإجتماعية الكثيفة طاقات ايجابية ضخمة علينا فرزها، تحليلها وتعزيزها لتلعب دوراً. من ناحية الرؤية اعتبر هذه ميزة نسبية لو احسن استثمارها. إن الناظر إلي العرس والمآتم السوداني يكتشف بجلاء أن السودانيين ناجحون في العمل الجماعي بشكل يثير الاعجاب.

### اهتمام السودانيين الفائق بالسياسة

يدخل السودانيون السياسة من ابواب واسعة في كل منعطف من حياتهم، من انتخابات اتحادات الطلاب التي فرضوها على كافة السلطات من المستعمر انتهاءً بالإنقاذ، اتحادات العمل، النقابات المتنوعة، روابط الاحياء والقبلية والرياضية والموسيقية وغيرها، التعاونيات، الاحزاب السياسية، اختيار زعماء القبائل.. الخ. هذا الغنى والتنوع جعل السودانيين، بكافة قطاعاتهم، مهتمين بالسياسة ومتابعين لها، ليس على النطاق المحلي ولكن على نطاق العالم. اندهش السودانيون الذين يتابعون ثورة 25 يناير من دخول المصريين الكثيف للسياسة وهم الذين تندر عليهم السودانيون بالضحالة وقله الاهتمام بالسياسة، وكان هذا طبيعياً فقد جذبت ايام الثورة الملايين إلي مدارس السياسة في الميادين، المظاهرات والتجمعات.

يظهر الاهتمام الفائق بالسياسة، وحسهم الذكي عند السودانيين من نمط نسب مشاركتهم في الانتخابات. بلغت نسبة مشاركة الناخبين في انتخابات 1953 حوالي 50%، 43% عام 1958، 60% عام 1965 في الدوائر العامة و68-95% في الخريجين، 59% عام 1968 وحوالي 66% عام 1986. الانتخابات التي جرت في العهود الديكتاتورية تميزت بمشاركات ضعيفة في مجملها وقاطعها السودانيون منذ انتخابات المجلس المركزي في سنوات الحكم العسكري الأول.

الانتخابات التي جرت بعد المصالحة عام 1977 والتي شارك فيها الاتجاه الإسلامي كانت نتيجتها حوالي 25%. وعند اجراء الاستفتاء على الدستور 1998م "ذكر محمد أحمد سالم أنه كان جالسا مع الدكتور حسن الترابي وقد كان حينها متنفذا في النظام،

حين زاره حكام الولايات جميعهم بعد الاستفتاء وكان غاضباً من تدني نسبة التصويت فقال لهم: "يجب أن تخلوا من أنفسكم فقله عدد المشاركين في الاستفتاء على الدستور هم رعاياكم! أنتم من قصرتم". جاءت انتخابات 2010 بعد توقف الحرب وفي ظل دستور إنتقالي وجو نسبي من الحريات، تفاعل به السودانيون، رغم ذلك فلم يهرعوا للانتخابات "وصفها الإمام الصادق المهدي بأنها هجين بين انتخابات الديمقراطية التي وصفها بسباق الخيل، وانتخابات الشمولية التي وصفها بسباق الحمير".

وكانت الدلالة أن السيد البشير نال حوالي 33% من المستحقين للتصويت، ولو وضعنا المهجر في الاعتبار لصارت نسبته تساوي 28% من أصوات المستحقين المشاركة في الانتخابات! دللت النتائج على حسن حدس الشعب لان المؤتمر الوطني فاز من جملة الولايات الشمالية، والتي تبلغ 354 مقعدا بالمجلس الوطني للدوائر والقوائم، بحوالي 95% من جملة المقاعد. ونال أيضاً 92% من جملة مقاعد المجالس التشريعية الولائية في ولايات شمال السودان<sup>394</sup>.

### مناهج اعداد الرؤية (المشاركة المجتمعية)

في كافة التجارب التي قمنا بدراستها والتي تنوعت في المنهجيات التي اعتمدت عليها، كمنهجية السيناريوهات ودلفي والعصف الذهني، وغيرها من منهجيات التنبؤ، واختلفت أيضاً بكونها رؤى استهدافيه رسمت الصورة المرغوبة للمستقبل، أو استطلاعية تعرفت على الصور المحتملة للمستقبل بكافة جوانبه، والتي تباينت أيضاً في الجهة القائمة على إعدادها سواء كانت حكومية تتبع مؤسسات الدولة، أو مؤسسة بحثية تتبع القطاع الخاص وترتبط بشبكة علاقات مع عدد من الخبراء من مختلف المجالات والقطاعات.

كلها اعتمدت على تطوير الرؤية كعملية مجتمعية شامل عن طريق تفعيل آليات التنسيق، التشبيك والتعاون بين مختلف مكونات المجتمع المدني، وبينها وبين الجهات

<sup>394</sup> اللجنة العليا للانتخابات حزب الأمة القومي: انتخابات أبريل 2010م في الميزان ، يوليو 2010م، موقع حزب الأمة القومي

الرسمية والقطاع الخاص، لأن من غير هذا التعاون لا تكون العملية التنموية مكتملة وبالتالي يصعب أن يكتب لها النجاح. إن الرؤية هي جماع حلم الشعوب وتطلعاتها ولاستطيع التحقق إلا اذا تحقق لها القبول الشعبي والمجتمعي. استعملت آليات متنوعة لتحقيق هذا الهدف من اسلوب المؤتمرات العامة، الاستبيانات، ورش العمل القطاعية وغيرها كما راينا في عرض التجربة الهندية.

التجربة الأكثر تميزاً في هذا المجال هي تجربة كوريا الجنوبية. فبعد تحديد التعليم علي أنه المفتاح الوحيد للنجاح في الحاضر والمستقبل استثمرت في الموارد البشرية باعتباره أهم عنصر من عناصر الإستثمار. شارك في العملية التعليمية ثلث السكان، التعليم مسؤولية الجميع لا تنفرد به المدرسة، الكلية أو الجامعة وحدها وإنما الكل مشارك فيه باعتباره واجبا وطنيا وتشارك المؤسسات العامة، الشركات الخاصة والقطاعات الاعلامية في تحمل هذه المسؤولية.

انزلت الدولة الرؤية إلي المجتمع، فهناك برنامج تدريبي خاص للمعلمين أثناء الاجازات واختبار للمعلم قبل التدريس. وفي العطلات تفتح المدارس للأنشطة الاضافية مثل الرياضة والموسيقى، لكل مؤسسة تعليمية شعار، ولكل مدرسة شعار، ولكل فصل شعار وتعمل جاهدة علي تحقيقه ولكل طالب ابتداء من الصف الثاني الابتدائي حصة رسمية للنقاش والحوار. ويتولي الطلاب مسؤولية نظافة المدرسة عدا الحمامات التي تتولاها شركات متخصصة، وفي الثانوي هناك مدارس ثانوية متخصصة للطلاب الموهوبين حيث توجد ثانويات اللغات الأجنبية، ثانويات الفنون وثانويات العلوم<sup>395</sup>.

**تجربة سلطنة عمان:** إن تجربة اللجان الصحية في عمان تعتبر تجربة رائدة ومتميزة ويمكن أن تكون مثالا يمكن تطبيقه في كثير من البلدان. هناك زيادة في معدلات الأمراض التي ترجع أسبابها إلي عوامل بيئية، إجتماعية وإقتصادية مثل السكري وارتفاع ضغط الدم... الخ وكلها تعود إلي السلوكيات الخاطئة للإنسان واتباعه أساليب حياة غير صحية، وهذه الامراض يمكن أن تخفض بنسبة كبيرة عن طريق الوقاية وتقلل من مضاعفاتها.

---

<sup>395</sup> عصام رفعت: لماذا تفوقت كوريا الجنوبية ، مرجع سابق

وجد أن وزارة الصحة لا يمكن أن تقوم بهذا الدور الوقائي وحدها... فكان لابد من التفكير في إشراك القطاعات الأخرى الحكومية منها والغير حكومية كذلك مشاركة المجتمع للمساهمة في تنمية المجتمع من خلال التنمية الصحية للمواطن. من هنا جاء التفكير في تكوين اللجان الصحية. وقد صدر قرار وزاري في إبريل 1999 بتشكيل اللجان الصحية في جميع ولايات السلطنة (59 ولاية)، ودورها تركيز الجهود وأنشطة القطاعات المختلفة المشاركة في اللجنة نحو حل مشاكل المجتمع المحلي في ضوء أهداف الخطط الخمسية الصحية، ترسيخ العمل بروح الفريق، الاتفاق على أسلوب عمل واحد، تنسيق الجهود وتوزيع الأدوار لكل قطاع من القطاعات المشاركة والمشاركة في اعداد الخطط الصحية على مستوى المناطق والولايات حتى تأتي في إطار احتياجات المجتمع.

### الترويج للرؤية (البعد المجتمعي)

عندما تفرغ اللجان المتخصصة التي تناط بها كتابة الصيغة النهائية للرؤية وتجاز من البرلمان او مجلس الوزراء تبدأ اهم عملية في الترويج للرؤية لكي تصبح حلما عاما لكافة الشعب. المرحلة بين أن تجد القبول المجتمعي ويتشربها الافراد والجماعات وتنزيلها إلي مواقع التنفيذ هي المرحلة الحاسمة في نجاح الرؤية.

رسم د. منصور القطري اهمية هذه المرحلة "أن حضور الرؤية الواضحة في إطار المشروع الوطني يمثل في تقديرنا البوصلة الهادية للجميع ويحدد للمواطنين طبيعة الأرض التي يقفون عليها والانتماء الذي يعبرون عنه والأهداف التي يسعون إليها فإنه من أخطر إفرازات الحال في واقعنا العربي هو مرحلة اللامشروع حيث تختلط المقدمات بالنتائج ومن ثم يستسلم المواطن والمؤسسات الوطنية والمدنية وقطاعات عريضة للحيرة والضياغ"<sup>396</sup>. لقد اتبعت كافة الدول وسائل متعددة في الترويج للرؤية.

سيناريوهات جنوب أفريقيا 2025 : المستقبل الذي نختاره: تم إطلاق أسماء مشتقة من التراث الثقافي لجنوب أفريقيا على هذه السيناريوهات ومن اللغة المحلية – أسماء

<sup>396</sup> د. منصور القطري: لماذا تقدم المسلمون في ماليزيا؟ <http://www.qatarim.com/news.aspx?ID=41>

لأغان ومسلسل تليفزيوني- حيث حمل السيناريو الأول اسم (ليس بعد) ويشير هذا السيناريو إلى التزام الحكومة القوى بزيادة النمو الإقتصادي في بيئة عالمية غير مواتية وفي ظل تحديات إيكولوجية.

وحمل السيناريو الثاني اسما مشتقا من أغنية بمعنى (الطاقة البناء والثقة بالنفس) ويعني هذا السيناريو أن تقوم الحكومة بلعب دور مركزي في الاقتصاد، حيث تضع في مقدمة أولوياته الحد من الفقر وتحسين المهارات من خلال رؤية وطنية تقوم على المشاركة.

أما السيناريو الثالث فهو سيناريو (صراع بني ثقافتين) حيث يعبر عن معركة على (القيم) بين التقاليد التي تدعو إلى احترام الآخرين، والتضحية بالمصالح الشخصية، والإنسانية في التعامل مع الآخرين من جانب، وبين ثقافة حديثة قائمة على المادية، الطموح الشرس، وإثراء الذات حتى ولو على حساب المقربين. وهو سيناريو يفترض أنه على الرغم من عودة القوة للاقتصاد، والظروف العالمية المواتية إلا أن الحكومة سوف تصارع لتحكم بشكل جيد ورشيد.<sup>397</sup>

**ماليزيا 2020: الطريق إلى المستقبل:** دولة صناعية متقدمة بحلول عام 2020: عندما يذهب الإنسان في ماليزيا إلى أي موقع إعلامي أو محفل علمي في المدارس والجامعات ومراكز التدريب أو عند الجلوس مع المثقفين الماليزيين يلاحظ أن الجميع يتحدث وبشكل تلقائي عن (vision 2020) التي تشتهر أيضاً باسم Wawasan ، تمت عدة أنشطة ترويجية من ضمنها اغنية تحمل اسم الرؤية.

**دبي: رؤيتي.. التحديات في سباق التميز** وهو اسم كتاب للشيخ محمد بن راشد، يستعرض فيه جوانب التجربة التنموية التي تقوم على تحقيق الامتياز، الانتقال بالإمارات ودبي من دورهما كمركز إقتصادي إقليمي، إلى دورها الإضافي كمركز إقتصادي عالمي، زيادة الاعتماد على الخدمات المتميزة، السياحة، اقتصاد الفكر والمعرفة، الطاقة البشرية المبدعة وتحقيق معدلات التنمية التي تطمح إليها الدولة. لقد تحقق للكتاب انتشار واسع ونقاش مستفيض وقامت على اساسه عدد من الانشطة

<sup>397</sup> مركز الدراسات المستقبلية بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء: المستقبل في عيون العالم، نشرة ربع سنوية السنة الثانية - العدد 5 - مارس 2012

المرتبطة بها<sup>398</sup>.

يملك السودان نسيجاً ثرياً ومتنوعاً من وسائل الترويج المجتمعي. الوسائل الحديثة من القنوات التلفزيونية، الاذاعات، وسائل الاتصالات والرسائل النصية والصورية، مواقع التواصل الاجتماعي على الانترنت، الصحف المتنوعة، الفنون التشكيلية والمسرح. لكنه يمتلك أكثر وسائل الاتصال الجماهيري الشعبية من الفنانين الحداثيين والشعبي، الشعراء والشعراء الشعبيين، الحكامات، مغنيات اغاني البنات والافراح، تجمعات الشباب الفنية والفكرية، المنتديات الثقافية، مباريات كرة القدم، وسائل الاعلانات المضيئة وغيرها. المناهج الدراسية في الخلاوي، المدارس والجامعات وفصول محو الامية. إن هذا جهد يحتاج لخطوة واضحة ومستمرة تبتدع الكثير من الابداع والاعمال الفنية وتفجير الطاقات لتصبح الرؤية هي الرافع الوطني والحلم الشعبي نحو تحقيق النمو والتقدم.

**بدأت كتابته في سبتمبر 2012 في القاهرة وانتهى العمل فيه في حي  
الهشام، المودة بمدينة أمدردان في يوليو 2013**

---

<sup>398</sup> الشيخ محمد بن راشد: رؤيتي.. التحديات في سباق التميز، مرجع سابق